التغطية الإخبارية الدولية

بين الخطوط الأمامية والمواعيد النهائية



تحرير: جون أوين وهيذر بيردي

التغطية الإخبارية الدولية

بين الخطوط الأمامية والمواعيد النهائية

تحرير

جون أوين وهيذر بيردي

ترجمة

نيرة محمد صبري

مراجعة

مصطفى محمد فؤاد



التغطية الإخبارية الدولية

International News Reporting

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

الترقيم الدولي: ٩ ١٥١٢ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

المحتويات

صندوق كورت شورك التذكاري

إن جميع عائدات الملكية الفكرية الناتجة عن بيع هذا الكتاب سيُتبرَّع بها لصالح صندوق كورت شورك التذكاري (http://www.ksmfund.org)، الذي أُنشئَ تكريمًا للصحفي الدولي الشهير والمحترم، كورت شورك، الذي قُتل أثناء أدائه لمهمَّةٍ صحفيةٍ في سيراليون في مايو عام ٢٠٠٠. الصورة أدناه تُظهِر شورك في سراييفو وهو يبادر لإنقاذ مدَنيَّةٍ صارت من بين الضحايا. الصورة منشورة بإذنٍ من وكالة أسوشيتد برس، بعدسة المصور خافيير بولوس.

يُقدِّم الصندوق جوائز سنوية للصحفيين المستقلِّين والمحليِّين المتميزين. ويمكن التقدم بالطلبات لنَيل هذه الجوائز من خلال الموقع الإلكتروني لمعهد صحافة الحرب والسلام: http://www.iwpr.net/index.php?apc_state=henh&s=o&o=top_ksa.html.



شكل ١

تعريف بالمساهمين في الكتاب

بيتر آبس: التحق بوكالة رويترز عام ٢٠٠٣ وعمِلَ في مختلف المناطق الجنوبية من أفريقيا وفي سريلانكا. وتعرَّض أثناء مهمَّةٍ صحفية في سريلانكا عام ٢٠٠٦ لحادثِ تحطُّم حافلة صغيرة أدَّى إلى كسرٍ في عنقه، عاد بعده بتسعة أشهر للعمل وكُلِّف بالعمل في الموقع الإلكتروني الخاص بمؤسسة رويترز، المعروف باسم أليرتنت. يعمل بيتر حاليًّا في مكتب أخبار رويترز الرئيسي في لندن، حيث يتولَّى التغطية الإخبارية للأسواق والاقتصادات الناشئة.

نايجل بيكر: هو المدير التنفيذي لوكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية. وقد تولَّى، قبل مساهمته في تدشين الجناح المرئي للوكالة في ١٩٩٤، مناصب تحريرية رفيعة في شبكتَي البث البريطانيتين؛ آي تي إن وسكاي نيوز، وكذلك في رويترز. أنجز نايجل عدة مهام ميدانية، من بينها حرب الخليج الأولى في العراق، وانهيار الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، وتفكُّك يوغوسلافيا. أجرى وهو في منصبه الحالي مفاوضات مع حكومة كوريا الشمالية بشأن افتتاح أول مكتب لمنظمة إخبارية غربية في تلك الدولة الشيوعية المنعزلة، وهو ما تم في عام ٢٠٠٦.

أنتوني بوردن: يشغل منصب المدير التنفيذي لمعهد صحافة الحرب والسلام، الذي يرعى برامج تدريبية وبرامج للتغطية الإخبارية وبناء المؤسسات يستفيد منها الصحفيون المحليون في مناطق الأزمات والصراعات حول العالم. أنشأ المعهد صندوق سَحَر لمساعدة الصحفيين لمنح الدعم لحالات النفي أو الإعاقة أو الوفاة، التي يتعرض لها الصحفيون

المحليون العاملون مع المعهد في مناطق الأزمات. للحصول على مزيد من المعلومات حول كيفية المساهمة، زُر www.iwpr.net.

مارك براين: معالج نفسي ومدرِّب متخصص في الصدمات النفسية والصحافة. عمل طوال ٣٠ عامًا مراسلًا أجنبيًّا وكبير محررين لوكالة رويترز والخدمة العالمية التابعة لبي بي سي. تولَّى براين وضع وتنفيذ برنامج تدريبي خاص بالوعي بحالات الصدمات النفسية ودعمها لشبكة بي بي سي، أسهم خلاله في تدريب صحفيين، ومحررين، ومديرين من منظمات إخبارية أخرى حول العالم. وشَغَل خلال الفترة من ٢٠٠٢ إلى ٢٠٠٧ منصب مدير الفرع الأوروبي لمركز دارت للصحافة والصدمات النفسية، الذي يقع مقره الرئيسي في الولايات المتحدة الأمريكية. وعمل خلال هذه الفترة مع صحفيين، وخبراء في الصحة النفسية وتربويين، في سبيل تحسين التغطية الإعلامية للعنف والأحداث المسببة للصدمات النفسية، والتخفيف من التبعات النفسية المترتبة على مثل هذه التغطية لدى الأشخاص الذين ينقلون الأخبار.

توني بورمان: عمل مديرًا إداريًّا لقناة الجزيرة باللغة الإنجليزية منذ مايو ٢٠٠٨. وأثناء تأليف الفصل الذي أسهم به في هذا الكتاب، كان يشغل منصب رئيس تحرير القسم الإخباري بشبكة سي بي سي ومديرها التنفيذي. وقد نجح خلال رئاسته لعمليات نقل الأخبار والأحداث الجارية في شبكة سي بي سي في الدمج بين عمليات البث الإذاعي والتليفزيوني والبث عبر الإنترنت. وهو منتِج أخبار ووثائقيات حائز على العديد من الجوائز، ويتمتع بخبرة ميدانية في أكثر من ٣٠ دولة وعدة قارات.

كريس كرامر: هو الرئيس والمدير العام السابق لقناة سي إن إنترناشونال ويعمل حاليًّا استشاريًّا إعلاميًّا عالميًّا. وقد اختير رئيسًا فخريًّا للمعهد الدولي لسلامة الإعلاميين، كما شارك جون أوين في تأليف كتاب «الموت في سبيل إيصال الخبر».

بين هامرزلي: صحفي يعمل في مجال الصحافة المطبوعة والمسموعة والمرئية والإلكترونية وهو واحد من أهم مناصري صحافة الإعلام الجديد. ويعمل محررًا مشاركًا للنسخة البريطانية لمجلة وايرد، كما أن له نشاطًا مستقلًّا يتمثل في إسهاماته المنتظمة في شبكتي بي بي سي، والقسم البريطاني من بوابة إم إس إن.

جانين دي جيوفاني: مراسِلة حربية حائزة على عدة جوائز، اضطلعت بتغطية صراعات عالمية منذ ثمانينيات القرن العشرين. تعمل دي جيوفاني محررة مساهمة في مجلة فانيتي فير وكاتبة صحفية وصاحبة عمود في عدة مطبوعات، من بينها صحف ذا جارديان، وإيفينينج ستاندرد، وذا نيويورك تايمز. كما أنها صاحبة أربعة كتب، آخرها يحمل اسم «في آخر العالم»، وهو عبارة عن مقالات مجمَّعة، كما جرت الموافقة على تحويل كتابها «الجنون مجسدًا» حول حرب البلقان إلى فيلم روائي طويل بطولة الممثلة جوليا روبرتس.

بريدجت كيندال: عملت مراسِلة دبلوماسية لبي بي سي منذ عام ١٩٩٨، وحازت على جائزة جيمس كاميرون للتميز الصحفي. عاشت في موسكو لعدة سنوات وتجيد اللغة الروسية.

جاري نايت: مصور صحفي نال عدة جوائز، وله اهتمام خاص بحقوق الإنسان وقضايا الجريمة والعدالة، وله كتابات كثيرة عن التصوير والصحافة. يُعتبر نايت عضوًا مؤسِّسًا لوكالة السبعة للصحافة المصوَّرة، وهو يشارك في تحرير مجلة جديدة ربع سنوية تحمِل اسم ديسباتشز.

نيك بولارد: عمل صحفيًّا في مجال الأخبار المطبوعة والمسموعة والمرئية لفترة تُناهز ٤٠ عامًا. وترأَّس على مدى عشر سنوات وحتى عام ٢٠٠٦ شبكة سكاي نيوز التابعة لمجموعة بي سكاي بي، وأصبحت سكاي نيوز، تحت قيادته، القناة الأعلى مشاهدة بين القنوات الإخبارية التي تبثُّ برامجها على مدار الساعة في بريطانيا، وقد نالت عدة جوائز لتغطيتها أهم الأخبار. بولارد حاصل على زمالة جمعية التليفزيون الملكية، وحائز على جائزة الإنجاز مدى الحياة التي قدمتها له الجمعية عام ٢٠٠٧.

ريتشارد سامبروك: هو مدير قسم الأخبار العالمية في شبكة بي بي سي، والمسئول عن خدماتها الإخبارية الدولية عبر الإذاعة، والتليفزيون، ووسائل الإعلام الجديدة.

ديفيد شليزنجر: تولَّى رئاسة تحرير وكالة رويترز منذ يناير ٢٠٠٧، وشغل قبلها منصب مدير التحرير العالمي للوكالة. وقبل ذلك، عمل مراسلًا للوكالة في كلٍّ من الصين، وهونج كونج، وتايوان، وأجرى عدة عمليات تحريرية هناك.

فون سميث: مصور فيديو مستقل وصحفي عامل في مجال الأخبار التليفزيونية، نال عدة جوائز وشارك في تغطية الصراعات الدائرة في العراق، وأفغانستان، والبوسنة،

والشيشان، وكوسوفو. ساهم سميث في تأسيس وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية وقادها لعدة سنوات، كما أنه مالك ومؤسس نادي ومطعم فرونتلاين الواقعَين في لندن. وتقاسَم جائزة ميديا جاريان للابتكار عام ٢٠٠٨ عن مدونته المستقلة خلال مهمته الصحفية في أفغانستان. وشارك في إنتاج فيلم جديد بعنوان «خط الدم»، والذي من المقرر عرضه في مهرجان تورونتو السينمائي.

شكر وتقدير

يود محرِّرا الكتاب أن يتقدما بالشكر إلى التالية أسماؤهم لما قدموه من عون في إعداد هذا الكتاب: جميع المساهمين (حسب ترتيب الفصول): جانين دي جيوفاني، وديفيد شليزنجر، ونايجل بيكر، وفون سميث، وجاري نايت، وبريدجت كيندال، ونيك بولارد، وتوني بورمان، وأنتوني بوردن، وكريس كرامر، ومارك براين، وريتشارد سامبروك، وبين هامرزلي، وبيتر آبس، وسوزان مولر؛ الذين كانت أفكارهم وأعمالهم مفيدة كثيرًا للمحررَين؛ ومركز بيو للأبحاث، وأسوشيتد برس، وشركة بي كيو ميديا للسماح باستخدام أشكالها البيانية؛ وشركة بايوود للنشر لسماحها بإعادة نشر جزء من الفصل الخاص بالمخاطرة والسلامة؛ ومحررة الصور كافيتا شارما لإسهامها في متابعة تصاريح نشر الصور والحصول عليها؛ وجامعة سيتي، وخاصة أدريان مونك، رئيس قسم الصحافة والنشر، وأعضاء هيئة التدريس في برنامج الصحافة الدولية، وجميع طلاب مقرر الصحافة الدولية الذين كانوا مصدر إلهام لهذا الكتاب.

يُهدي المحرران هذا الكتاب إلى ديفيد بيردي، الذي كان مصدر دعم لا غناء عنه، وإلى ذكرى ريتشارد دي يوكام، أستاذ الصحافة بجامعة إنديانا.

يرغب المؤلفون والناشر في التقدم بالشكر إلى الجهات التالية لسماحها باستخدام الصور الفوتوغرافية واللقطات الثابتة من مقاطع الفيديو:

شكل ١: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور خافيير بولوس.
شكل ١-١: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور جيميونو أماراسينج.
شكل ١-٢: نُشرت الصورة بإذن من وكالة ماجنم فوتوز، بعدسة المصور أليكس ماجولي.
شكل ٢-١: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور سانتياجو ليون.

شكل ٢-٢، شكل ٢-٣، شكل ٢-٤: نُشرت الصور بإذن من تومسون رويترز.

شكل ٣-١: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور لورين ريبور.

شكل ٣-٢: نُشرت الصور بإذن من أسوشيتد برس.

شكل ٤-١، شكل ٤-٢: نُشرت الصور ولقطة الفيديو الثابتة بإذن من فون سميث.

شكل ٥-١: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور نيك أوت.

شكل ٥-٢: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور ريتشارد درو.

شكل ٥-٣: نُشرت الصورة بإذن من شون سميث.

شكل ٥-٤، شكل ٥-٥: نُشرت الصور بإذن من جاري نايت.

شكل ٦-١: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس.

شكل ٧-١: نُشرت الصورة بإذن من سكاي نيوز.

شكل ٨-١: نُشرت الصورة بإذن من القسم الإخباري بشبكة سي بي سي.

شكل ٩-١، شكل ٩-٢، شكل ٩-٣: نُشرت الصور بإذن من معهد صحافة الحرب والسلام.

شكل ١٠-١: نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور خالد محمد.

شكل ١٠-٢: نُشرت الصورة بإذن من تومسون رويترز، بعدسة المصور سيرجي كارباكين.

شكل ١٠-٣: نُشرت الصورة بإذن من القسم الإخباري بشبكة سي بي سي.

شكل ١١-١: نُشرت لقطات الفيديو الثابتة بإذن من القسم الإخباري ببي بي سي.

شكل ١٢-١: نُشرت الصورة بإذن من مايكل هيوز.

شكل ١٣-١: نُشرت الصورة بإذن من بين هامرزلي.

شكل ١٤-١، شكل ١٤-٢: نُشرت الصورتان بإذن من تومسون رويترز.

يعتذر الناشر عن أي خطأ أو سهو في القائمة السابقة، ويرحب بأيٍّ تعديلات ليجري إدخالها في الطبعات أو إعادات الطبع القادمة من الكتاب.

مقدمة

جون أوين

شرفتُ على مدى السنوات الست السابقة بتدريس مقرر مادة الصحافة الدولية للطلاب الجامعيين وطلاب الدراسات العليا بجامعة سيتي في لندن. وضع هذا المقرر مراسل رويترز السابق، كولين بيكلر، الذي تكرَّم وعرض عليَّ أن أتولَّى تدريس المقرر؛ إذ قرر تقليص أعبائه المتعلقة بالتدريس. وقد قبلت دون فهم أو تقدير كامل للتحدي الذي أجابهه.

كان التحدي يتمثل في محاولة وضع مقرر دراسي يمكن أن يكون مفيدًا ومثيرًا للاهتمام لما يزيد عن ٧٠ طالبًا من أكثر من ٣٠ دولة من جميع القارات. لقد حققت جامعة سيتي، بفضل كولين وهيذر بيردي وغيرهما من الأساتذة المتفانين، سمعة دولية ممتازة ككيان جاذب لشباب الصحفيين الناشئين والمتميزين الذين يعملون بالفعل في صحف وشبكات بث رائدة في بلدانهم. اختار الكثير منهم جامعة سيتي ومدينة لندن باعتبارهما مركزًا للإعلام العالمي، وكان يراودهم حلم العمل ذات يوم في الخدمة العالمية التابعة لبي بي سي أو في إحدى أهم الصحف البريطانية. وأدركوا أن جامعة سيتي ومدينة لندن ستساعدانهم في إجادة اللغة الإنجليزية، وهي مفتاح الفوز بوظيفة في المستقبل. بينما كان يأمل البعض الآخر في مجرد الحصول على المؤهلات الأكاديمية التي يحتاجونها للعودة إلى مؤسساتهم الإخبارية في بلدانهم والتطلع إلى الترقي في المناصب فيها.

طالما أحسست بضآلة ذاتي، على مدار سنوات تدريسي في جامعة سيتي، وأنا في صحبة العديد من الصحفيين الشبان الرائعين، الذين أبدى كثير منهم بالفعل شجاعة

ومهارة بالعمل في بلدان لا تتمتع بصحافة حرة ومستقلة بالمعنى الحقيقي أو ثقافة تضْمن حرية التعبير. عملتْ مثلًا إحدى طالباتي، وهي ساندرا نيايرا، محررة سياسية لصحيفة زيمبابوي ديلي نيوز وحازت على جائزة الشجاعة الصحفية لعام ٢٠٠٤، التي تقدمها المؤسسة الدولية لإعلام المرأة. وقد تعرَّض مقرُّ صحيفة نيايرا لإلقاء القنابل الحارقة عليه ونجت هي وزملاؤها الصحفيون من القتل بأعجوبة. ومن بين طلابي أيضًا العراقية شذى محيسن، التي كانت مراسِلة البي بي سي في بغداد، وقد تلقت هذا العام جائزة نايت الدولية للصحافة لما أدته من خدمات للصحافة الدولية.

كما ضمت فرقة العام الدراسي ٢٠٠٧–٢٠٠٨ سلام عبد المنعم، طالب الهندسة المعمارية السابق في بغداد الذي عُرِف على مستوى العالم باسم سلام باكس، مدوِّن بغداد، وذلك خلال حرب العراق. (يكتب ريتشارد سامبروك عنه في فصله حول صحافة المواطن.)

استقر بي الرأي على أن مقرر الصحافة الدولية سيُحقق الإفادة القصوى لهذه المجموعة المتنوعة والطموحة للغاية إذا نجحتُ في تحقيق الآتي:

- جعْل المقرر ذا أهمية كبيرة لفهم عالم الصحافة والإعلام العالمي وخوض غماره في ظل التغيرات الجذرية التي كان يشهدها.
- تعريف الطلاب بأفضل الصحفيين المحترفين وأكثرهم تمتعًا بالاحترام، والذين يتميزون بنقد الذات والتواضع حيال أعمالهم، والذين يمكن أن يكونوا نماذج يُحتذى بها بالنسبة إليهم.
- تحفيز التفكير في القضايا الصحفية ذات الطابع الأخلاقي التي سيواجهها هؤلاء الطلاب في حياتهم الصحفية. طالما أخبرت طلابي أنهم إذا تذكروا، في خضم أزماتهم الصحفية، محادثةً أو رؤيةً وردت في سياق هذا المقرر وترتبط بالتصرف الصحيح الواجب اتخاذه، فإنني أعتبر المقرر حينئذٍ قد حقق لهم الفائدة المرجوة.
- استخلاص رؤًى من تحليل التغطية التي تمت لأبرز الأخبار الدولية التي جرت خلال دراسة الطلاب في جامعة سيتي، والاستماع إلى تجارب المحررين المقيمين في بريطانيا الذين أشرفوا عليها والمراسلين الذين تولوها، إلى جانب مقارنتها بالتغطيات الإخبارية المناظرة في مؤسساتهم الإعلامية.
- التحقق من فهمهم الكامل لما يواجهونه من تحديات تكنولوجية وتحديات خاصة بالإعلام الجديد، بدءًا من أداء مهام متعددة، مرورًا بالتدوين الإلكتروني، وانتهاءً بالمحتوى الذي ينتجه المستخدم.

- التحقق من فهم هؤلاء الصحفيين اليافعين للسلامة الصحفية من جميع جوانبها، ولما يلزمهم معرفته في سبيل خوض المجازفات المناسبة أثناء تتبُّعهم للقصص الإخبارية، التي يمكن أن تُمثِّل خطورة عليهم، سواءٌ أكانت تغطية لصراعات أو كوارث طبيعية، أم تتبُّعًا لأخبار محلية استقصائية تُعرِّض حياتهم لخطر بالغ.
- توعيتهم بشأن المجموعة الجديدة من الأدبيات الصحفية المرتبطة بالصدمات النفسية والصحافة، وكيفية تأثُّر حياديتهم وتجرُّدهم بفعل تعرُّضهم لقصص إخبارية مزعجة ومكدِّرة، وإمكانية اكتساب مهارات جديدة في كيفية الحصول على المعلومات من مصادرهم ونَيل ثقتهم؛ وذلك من خلال فهم أولئك الذين تشملهم التغطية الصحفية على نحو أفضل.

حين حددنا الموضوعات الواجب تضمينها في فصول هذا الكتاب ثم اتصلنا بصحفيين متميزين للكتابة عنها، كان علينا أن نحاول تحديد القضايا والمسائل ذات الأهمية الجوهرية للصحافة حول العالم، والتي يتوجب فهمها من أجل ممارسة المهنة على نحو أفضل، سواءٌ أكان ذلك في الصحافة اليومية أم أي مسيرة مهنية أخرى مرتبطة بالإعلام.

كان من العسير علينا تقليص دائرة اختيارنا لتشمل الـ ١٤ موضوعًا فقط المعروضة في الكتاب؛ نظرًا لوجود الكثير من القضايا الأخرى التي تستحق مزيدًا من التناول. اضطُررنا إلى أن نستبعد من هذه الطبعة الأولى قصصَ وخواطرَ الصحفيين الذين ساهموا في محاضراتنا بسرد تجاربهم وتكبُّد مشقة الإجابة على أسئلة صعبة تتعلق بكيفية تعاملهم مع مهام صحفية معينة.

إننا حقًّا سعداء الحظ بموافقة الكثير من الصحفيين المرموقين، ممن يترأَّسون حاليًّا أو ترأَّسوا سابقًا المؤسسات الإخبارية الأكثر تأثيرًا في العالم، على المشاركة في هذا الكتاب. لقد قبلوا هذه المهمة وهم يعلمون أنهم لن يتلقوا مقابلًا ماديًّا لجهودهم، وأنهم سيُجبَرون على التخلي عن وقت فراغهم الضئيل في سبيل ترتيب أفكارهم وكتابة ٦ آلاف كلمة. إن كثيرًا من هؤلاء الصحفيين أصدقاء وزملاء قدامى لنا، وما كان لهم أن يجدوا حرجًا في الاعتذار عن تحمُّل أي التزامات إضافية، لكنهم تحمَّلوها وأثبتوا مرةً أخرى أن أصحاب المهام الكبرى والأكثر جهدًا هم من يجدون لديهم، بطريقة ما، الطاقة اللازمة لخوض مشروعات كهذا المشروع. إنني أشعر بامتنان عميق لكلٍّ من: كريس كرامر (سي إن إن سابقًا)، وريتشارد سامبروك (قسم الأخبار العالمية في بي بي سي)، ونيك بولارد (سكاي نيوز سابقًا) وديفيد شليزنجر (رويترز) وأنتوني بوردن (معهد صحافة الحرب والسلام).

علاوةً على ما سبق، تجدر الإشارة إلى أن تركيز هذا الكتاب تغيَّر على مدار رحلة تأليفه، وقررنا لاحقًا ضم فصول إضافية. انبهرنا مجددًا بشدة بقبول مسئولين تنفيذيين إخباريين منشغلين إلى حد غير معتاد مثل نايجل بيكر (وكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية)، وتوني بورمان (سي بي سي سابقًا) وبيتر آبس (رويترز) لهذا التحدي الذي عُرِضَ عليهم في آخر لحظة ونجاحهم في تأليف فصول ممتازة (جدير بالذكر أن بيتر آبس شرع في كتابة فصله قُبيل الموعد النهائي لتسليم الكتاب بفترة وجيزة جدًّا).

نحن مدينانِ بالفضل أيضًا لـ «صحفيينا الميدانيين» وغيرهم من الخبراء لدعمهم السخي لهذا الكتاب. إن جانين دي جيوفاني (فانيتي فير)، وجاري نايت (وكالة السبعة للصحافة المصوَّرة)، وفون سميث (مستقلًّا وتابعًا لوكالة فرونتلاين)، وبريدجت كيندال (بي بي سي)، وبين هامرزلي (بي بي سي)، ومارك براين (رويترز سابقًا ومركز دارت للصحافة والصدمات النفسية)؛ لم يكتفوا بالتنازل عن أيِّ أتعاب مقابل إسهاماتهم، بل ووجدوا وقتًا لمناقشة عملهم ومشاطرة خبراتهم مع الآخرين، هذا إلى جانب الوفاء بمواعيدهم النهائية وأداء مهامهم. إنهم يقدمون، في الواقع، للطلاب الذين يقرءون هذا الكتاب درسًا عمليًّا في الصحافة.

كلنا أمل في أن يجد الصحفيون المستقبليون، سواءٌ أكانوا يعملون داخل غرف الأخبار أم ميدانيًّا أم يطمحون إلى العمل كمسئولين تنفيذيين إخباريين، في هذا الكتاب مصدرًا للرؤى والتحفيز وأن يطبقوا ما استخلصوه من هؤلاء الصحفيين المرموقين.

مع اقتراب الموعد النهائي لتسليم هذا الكتاب، صادفتُ كتابًا عميقًا صغير الحجم يحمل عنوان «الحرية والأخبار» لمؤلفه والتر ليبمان، الصحفي والأديب الأمريكي العظيم. كتب ليبمان هذا الكتاب عام ١٩٢٠ وهو لم يتجاوز الحادية والثلاثين من عمره ليُعبِّر عن إحباطه حيال ضعف جودة الصحافة الأمريكية، داعيًا إلى تأسيس كليات للصحافة بحيث تتحول الصحافة من «حرفة عشوائية إلى مهنة منضبطة».

قال ليبمان إن المطلوب هو:

> أن نُخرج جيلًا من الصحفيين القادرين على إقصاء غير الأكْفاء عن المجال بفضل تفوُّقهم المطلق. وهو ما يعني أمرين؛ يعني إقرارًا عامًّا بمكانة هذه المهنة بحيث لا تظل ملجأً لغير المتميزين. ينبغي أن يرافق هذا الإعلاء من شأن المهنة تدريب مهني للصحفيين يتخذ التناول الموضوعي كقيمة عليا ذات أهمية جوهرية. وينبغي التخلي عن النزعة السلبية المسيطرة على المهنة؛ ذلك لأن

> النماذج الحقيقية للمتدرب الصحفي لا تتمثل في أولئك الأفراد البارعين في السبق الصحفي، وإنما في المتخصصين المتحلين بالصبر والشجاعة الذين يناضلون في سبيل رؤية حقيقة العالم. (ليبمان ٢٠٠٨: ٤٨)

انطلاقًا من هذه الروح، نأمل أن يساعد هذا الكتاب في إلهام جيل جديد من شباب الصحفيين ليقدموا شهادتهم عن العالم في صورته الحقيقية. وبقيامهم بهذا، سيكونون في نفس الخندق مع غيرهم من الصحفيين الشجعان في كل مكان، ممن يؤمنون بأهمية ما يقدمونه في بناء مجتمع حر وديمقراطي.

ماجستير الصحافة الدولية بجامعة سيتي

هيذر بيردي

إن مقرر درجة الماجستير في الصحافة الدولية الذي تقدمه جامعة سيتي ظل أداة تعليمية وتدريبية للصحفيين من جميع أنحاء العالم على مدى ما يزيد عن ٢٥ عامًا.

يحضر في كلِّ عام ما يصل إلى ٨٠ طالبًا من ثلاثين دولة مختلفة لتلقِّي مقرر دراسي عملي لا يعلِّمهم فقط المهارات المطلوبة للعمل مراسلين لوسائل الإعلام المطبوعة والمسموعة والمرئية والإلكترونية، بل ويمنحهم فرصة التفكير المتعمق في بعضٍ من القضايا المؤثرة في ممارسة الصحافة الدولية في وقتنا الراهن. إن المزيج الطلابي الذي تضمه جامعة سيتي، بما يتسم به من تعددية قومية وثقافية ودينية وعرقية، يعكس مجتمع العولمة المعقد الذي نشهده جميعًا الآن، ويشجع على تبادل الآراء ووجهات النظر الذي من شأنه أن يوسع من مداركهم ومداركنا وأن يفتح أمامنا جميعًا آفاقًا أرحب.

نحن نسعى إلى تخريج صحفيين لا يتمتعون فحسب بدرجة عالية من المهارة، بل ويتحلَّون أيضًا بالقدرة على تأمُّل القضايا الكبرى التي تواجه التغطية الإخبارية الدولية اليوم والوعي الناقد بأبعادها.

يُعتبر هذا الكتاب مكملًا لجهودنا في التدريس. في كل فصل من فصول هذا الكتاب، التي كتبتْها أقلام صحفيين بارزين ومحنكين، ستجد تناولًا لجانب محدد من جوانب الصحافة، ابتداءً من «الشهادة على الأحداث» وانتهاءً بتغطية الأخبار الدبلوماسية؛ وابتداءً من تقديم القصص الإخبارية العاجلة وانتهاءً بعرض تأثير التكنولوجيا الحديثة على عمل الوكالات الإخبارية الدولية. في بداية كل فصل، يحدد التمهيد السياق الذي يدور فيه

الفصل، وفي نهايته توجد أسئلة مقترحة للطلاب ليعملوا على الإجابة عنها، إما بالاعتماد على أنفسهم أو تحت توجيه أساتذتهم. إن الموضوعات التي يتناولها المساهمون، والأسئلة التي يثيرونها، والإشكاليات العملية التي يطرحونها؛ تؤثر جميعًا في الصحفيين القائمين على تغطية الأخبار الدولية، ويتوجب على جميع العاملين في مجال الصحافة أن يضعوها في اعتبارهم إذا كانوا يسعون إلى النجاح والصمود.

نرجو أن يجد المحاضرون والطلاب على السواء في هذا الكتاب أداة مفيدة. إننا نُهدي هذا الكتاب لأولئك الصحفيين المستقلين الشجعان؛ الذي يخاطرون بحياتهم في سبيل نقل ما يجري في العالم لعلنا نفهمه على نحوٍ أفضل.

الفصل الأول

الشهادة على الأحداث

جانين دي جيوفاني

تمهيد

جون أوين

إن محور هذا الكتاب هو الإيمان بأن التغطية المباشرة للأحداث تُمثِّل دعامة أساسية من دعائم الصحافة الدولية.

كتب الراحل ديفيد هالبرستام — الذي اكتسب شهرته الصحفية في فيتنام أوائل ستينيات القرن الماضي عندما كان مراسلًا عنيدًا لصحيفة ذا نيويورك تايمز — مقدِّمًا للكتاب الذي أصدرته وكالة أسوشيتد برس للإشادة بصحفييها، والذي يحمل عنوان «خبر عاجل: كيف غطت أسوشيتد برس الحرب، والسلام، وأشياء أخرى؟» (٢٠٠٧: ١٦):

أرى أن تلك هي الصحافة؛ أن تبعث بمراسلين أكْفاء إلى المناطق الصعبة والخطرة التي توشك أن تصير ذات أهمية لكن قبل أن يعرفها الجميع، وأن تغطي الأخبار حين تكون التغطية مُجدية، وليس، كما هو الحال غالبًا تلك الأيام، أن تنقل الخبر بعد فوات الأوان بعد أن يفقد أهميته الحقيقية ... إن الصحفيين يصلون إلى الخبر متأخرين قليلًا ثم يغادرون قبل الأوان بقليل.

إننا نحيا وسط إعلام عالمي قادر، حين يشاء، على ربطنا جميعًا من خلال التكنولوجيا المبهرة — يتبادر إلى الذهن هنا الحفل العالمي لموسيقى الروك في يوليو ٢٠٠٧ ضمن فعاليات لايف إيرث التي شارك في إقامتها آل جور — كما أن بإمكانه حملنا على الاهتمام بالمستجدات الجارية في أي مكان على ظهر كوكبنا.

غير أنه نادرًا ما تُستَخدم كل هذه التكنولوجيا في سبيل إطلاعنا على ما يجري حول العالم، لا سيما في أفريقيا (دارفور أحدث نماذجنا المُخزية). إن الشبكات التي يفوق عددها المائة والتي تمتلك وتدير القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة لا تعطي للأخبار الدولية أولوية كبيرة، باستثناء الأخبار العاجلة الكبرى كأحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتفجيرات لندن، ووفاة الأميرة ديانا، وغزو العراق، والتسونامي.

لا شك أن ثمة استثناءات جديرة بالذكر، فالشبكات ذات الفكر العالمي من أمثال بي بي سي، وسي إن إن (أشير إلى القنوات الناطقة باللغة الإنجليزية التي يتسنَّى لي مشاهدتها واستيعابها)، وسكاي نيوز، وقناة الجزيرة الجديدة الناطقة بالإنجليزية؛ غالبًا ما ترصد موارد ضخمة لدعم طواقم إخبارية مخصصة لخوض مخاطرات جسيمة في سبيل الوصول إلى بؤَر الصراع والمناطق التي تشهد كوارث طبيعية.

لكن من بين الجهات العاملة في وسائل الإعلام الإخبارية الرئيسية، قليلة هي التي تفخر بنتاج الجهود الإخبارية الدولية لصحفها أو شبكاتها. وغالبًا ما يقع على عاتق المنظمات غير الحكومية (مثل هيومان رايتس ووتش، ومجموعة الأزمات الدولية، وبرنامج الأغذية العالمي) عبء تسجيل الوقائع والقضايا التي لا ترصدها وسائل الإعلام الإخبارية الرئيسية.

إلا أنه ما من موقع إلكتروني، مهما بلغت قيمته وغناه بالمعلومات، ولا تقرير إخباري مُجمَّع، أُنتج ببراعة في لندن أو نيويورك، سينجح أبدًا في التفوق على ما للصحافة الأصلية من تأثير، ولا على ما ينجزه أحد المراسلين أو صُنَّاع الوثائقيات أو المصوِّرين الصحفيين في مهمة بإحدى بقاع العالم.

بالنسبة إلى من عمل منا إلى جوار مراسلين نابغين وطواقم تصوير بارعة وشهد بنفسه حقيقة الأخبار المثيرة والوقائع الإخبارية الكبرى، لا تزال ثمة نظرة إجلالٍ إلى كلِّ مَن خاطر في سبيل تغطية الأخبار حول العالم. إن ما يقدمونه من إسهامات وما سجلوه من «روايات أوَّلِيَّة لأحداث التاريخ» إنما هو محطُّ تقدير من كبار المؤرخين، ومحل استيعاب من صانعي سياساتنا الحاذقين، ومصدر تذكير بحقيقة الأمور موجَّه للسياسيين والمسئولين المتفهمين لدور أولئك الرجال والنساء حاملي الكاميرات ودفاتر الملاحظات، باعتبارهم عنصرًا لا غناء عنه من عناصر المجتمعات الديمقراطية؛ ولا يمكن تجاهل ما يكتبون، ويسجلون، وينشرون حتى لو كان متعارضًا مع السياسة الرسمية.

إن استضافة القنوات الإخبارية المتاحة على مدار الساعة للخبراء المزعومين المتعالين لا يمكن ولا يجب أن تُغني أبدًا عن التغطية الصحفية التي لا تتحقق إلا إذا استمر تكليف هؤلاء الرجال والنساء أو اضطلاعهم المستقل — كما هو الحال لدى الصحفيين المستقلين — بملاحقة الأخبار التي تمنحنا «أفضل صيغة ممكنة للحقيقة»، وذلك حسب تعريف بوب وودورد، المراسل الاستقصائي المرموق.

لا شك أن ثمة ثمنًا باهظًا يؤديه أولئك الأفراد المستعدون لـ «حمل مشاعل النور إلى نهاية النفق والكشف عما يجري في الظلام» (تلك العبارة الجزلة والمؤثرة مقتبسة من الكتاب الصغير الحافل بالحكمة «الأخبار فعل» (١٩٩٨) الذي ألَّفه الكاتب والصحفي الأمريكي بيت هامل).



شكل ١-١: مراسِلة صحيفة ذا صَنداي تايمز، ماري كولفن، بعد أن فقدت إحدى عينيها وأصيبت بإصابات بالغة أثناء تغطيتها للحرب الأهلية في سريلانكا في أبريل ٢٠٠١ (نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور جيميونو أماراسينج).

وفق دراسة للمعهد الدولي لسلامة الإعلاميين بعنوان «قتل الرسل» عام ٢٠٠٧، لقي ألف صحفيٍّ حتفهم خلال تغطيتهم للأخبار وذلك بين عامي ١٩٩٦ و٢٠٠٦. يمثل الصحفيون المحليون الأغلبية الساحقة من هؤلاء الصحفيين؛ إذ يتعرضون للقتل لمحاولتهم متابعة أخبار لا ترغب الحكومات والسلطات في نشرها أو إذاعتها، ونادرًا ما يُلقى القبض على القتلة لتقديمهم للمساءلة القانونية، بل لا يكاد يحدث ذلك مطلقًا.

يستهلُّ هذا الكتاب أول فصوله بعرض قصة مراسِلة بارزة مستقاة من واقع تغطياتها الإخبارية و«شهادتها على الأحداث». وقبل أن نشرع في تناول أهم الاتجاهات والقضايا التي تواجه الصحافة والإعلام حاليًّا ومستقبلًا، نرغب أولًا في دراسة دور المراسل ومسئوليته.

جانين دي جيوفاني مراسِلة أجنبية أمريكية صاحبة رسائل إخبارية من الخطوط الأمامية للحروب والصراعات التي نشبت عقب انهيار حائط برلين في ١٩٨٩. أسهمت هي وغيرها الكثير من المراسلين المتميزين من جيلها في التأريخ للحروب التي دارت في البلقان، في البوسنة أولًا ثم في كوسوفو؛ والانتفاضة الفلسطينية؛ ومعركة روسيا ضد انفصال الشيشان؛ والحروب الأهلية في أفريقيا. كما نقلت، إلى جانب كل ما سبق، الأحداث في أفغانستان، وتيمور الشرقية، والعراق.

أثمرت المهام الشديدة الخطورة العديدة التي أنجزتها جانين دي جيوفاني — إذ كانت واحدة من المراسلين القلائل الذين شاهدوا الروس وهم يَدُكون العاصمة الشيشانية جروزني — عدة تقارير إخبارية نُشِرَت في جريدة ذا تايمز اللندنية ومجلة فانيتي فير وحصدت عدة جوائز.

مراجع

Associated Press (2007) *Breaking News: How the Associated Press has Covered War, Peace, and Everything Else.* Princeton Architectural Press.

Hamill, P. (1998) *News is a Verb: Journalism at the End of the Twentieth Century.* Ballantine.

International News Safety Institute (2007) *Killing the Messenger: Report of the Global Inquiry by the International News Safety Institute into the Protection of Journalists.* INSI.

في صباح يوم التاسع عشر من سبتمبر عام ٢٠٠٢، في سوق مهجورة للماشية في عاصمة ساحل العاج، أبيدجان، حين كان من المفترض أن أحتسي فنجانًا من الشاي، إذا بي أجد جنديًّا حكوميًّا ماثلًا أمامي على بُعد خطوة مني مُصوبًا سلاحًا آليًّا نحو قلبي.

لقد وقع انقلاب عسكري، لكن لم يكن الأمر قد نما إلى علمي ولا إلى علم الجندي بعدُ. كل ما أعرفه أنني أويت إلى النوم في الليلة السابقة في مدينة هادئة — تُعرف كمنارة للاستقرار وسط منطقة غرب أفريقيا الغارقة في العنف — ثم استيقظت على صوت إطلاق النار؛ بعبارة أخرى، ما فررت إلى أبيدجان هربًا منه: الحرب.

جاءت هذه المواجهة في سوق الماشية في أعقاب معركة قصيرة متقطعة بين القوات الحكومية وبعض المتمردين المجهولين الذين لم يرَهم أحدٌ بعدُ. كان الجندي مرتبكًا، مثلي تمامًا؛ فهو لا يدري من الذي كان يقوم بالانقلاب ولا لماذا، وغالبًا قد جرَّه قائده من فراشه فجرًا وهو ربما مذعور وثمل قليلًا من الخمر الرديئة التي احتساها البارحة. وقف الجندي



شكل ١-٢: شاهدة على الأحداث: جانين دي جيوفاني مع أحد جنود جيش تحرير كوسوفو أثناء تغطيتها لحرب كوسوفو عام ١٩٩٩ (نُشرت الصورة بإذن من وكالة ماجنم فوتوز، بعدسة المصور أليكس ماجولي).

مرتديًا بيادته الخانقة، غارقًا في عرقه، ومُصوبًا بندقيته الكلاشينكوف نحوي ونظراته تشي أنه قد عقد العزم على استعمالها.

لم أكن وحدي. كان ثمة رجل قُرب قدمي يئنُّ متألمًا. كانت ثيابه ملطخة بالدم وفي رجليه جروح صغيرة منتظمة أحدثتها طلقات الرصاص. كنت قبلها بلحظات قد انحنيت وحاولت سحب الرجل داخل سيارتي الأجرة لكي أنقله إلى أي مستشفًى.

عندها، بدأ الجندي يهددني بإطلاق النار عليَّ.

قال الجندي بلكنة فرنسية إيفورية تبيَّنتها بالكاد: «إنه متمرد حقير.»

رددت قائلة: «إنه مصاب وأريد أن أنقله إلى المستشفى.»

فرفع الجندي بندقيته وقد أزال صمام الأمان.

قال: «اتركيه. إنه في قبضتنا.»

حين وقعت هذه الحادثة، كنت قد أمضيت ما يقرب من ١٥ عامًا في تغطية الأخبار في بؤر الحروب، وكان حريًّا بي أن أعرف أنه لا ينبغي مجادلة رجل مسلح ببندقية، لا سيما

لو كان قد أطلق النار لتوِّه على شخصٍ ما، وكان من الحكمة أن أدرك أن خُطاي ساقتني إلى المكان الخطأ في الوقت الخطأ — قُبيل قتل شخص — وأن عليَّ التراجع، والاعتذار، والفرار. ولكن تلك الخمسة عشر عامًا ذاتها أيضًا هي التي منحتني ثقة الناجين المفرطة. كنت على دراية بما سيحدث لو غادرت: هذا الرجل المصاب، المتشبث بكاحلي متوسلًا: «أختي، ساعديني!» سيُقتَل ويُرمى به في قبر أو يُترك مع البقر النافق حتى تتعفن جثته، وهو ما يمكن أن يحدث سريعًا في دول أفريقيا الاستوائية. لم يسبق لي رؤية هذا الرجل من قبلُ، لكنني كنت أعرف كيف ستبدو جثته بحلول الظهيرة.

لذلك ألححت في الجدال، مخبرة الجندي، الذي ربما لا يجيد القراءة والكتابة، باتفاقية جنيف، وحقوق الإنسان، والرحمة المسيحية. بدأ تضجره يتحول إلى غضب شديد وحينها جذبني صحفي آخر إلى سيارة الأجرة قائلًا: «هذه أفريقيا، فيمَ تفكرين بحق السماء؟» ثم انطلقنا مغادرين. لا أدري كم مر من الوقت قبل أن يُجهِزوا على هذا الرجل، لكنني على يقين أن حظي، أو ما يسميه العرب «المكتوب»، هو ما أنهضني من فراشي في الرابعة فجرًا وساقني إلى سوق الماشية. كان من قبيل الحظ أيضًا أن وُجد شخص هناك — وهو من سيصير زوجي لاحقًا — لينقذني من عطفي الذي كان سيُورِدني المهالك. حظ تعس يليه حظ سعيد. من حسن حظي أنني لم يُطلق عليَّ الرصاص؛ فعديد من زملائي وأصدقائي قضوا نحبهم وهم يخوضون مخاطرات أقل بكثير.

قبل هذه الحادثة بعامين، في جزء آخر من غرب أفريقيا، تناولتُ عشائي مع أحد هؤلاء الراحلين، وهو كورت شورك. ذهبنا إلى أفضل مطعم في فريتاون عاصمة سيراليون وتناولنا الجمبري المشوي. كان شورك آنذاك في الثانية والخمسين من عمره ويعمل مراسلًا لوكالة رويترز، وكان ممن حصلوا على منحة رودس للدراسة في جامعة أكسفورد حيث كان زميلًا لبيل كلينتون. كان شورك معروفًا ببسالته وروح دعابته اللاذعة. خلال فترة أعياد الميلاد التي مرت علينا في سراييفو الواقعة تحت الحصار الصربي آنذاك، حضرنا قداس منتصف الليل ثم احتسينا زجاجة شامبانيا اشتريناها من السوق السوداء، ونحن نستمع إلى قذائف الهاون المتساقطة على المدينة المكسوة بالثلوج.

عودة إلى لقائنا في مطعم فريتاون، أخبرته ونحن نحتسي الجعة بأمر مجموعة من الجنود المراهقين الواقعين تحت تأثير المخدرات المعروفين بفتية الجانب الغربي الذين لقيتهم صباح ذلك اليوم. لقد أحاطوا بسيارتي وراحوا يضربون غطاءها الأمامي بأيديهم، مُصوِّبين أسلحتهم الآر بي جي نحو وجهي، ومطالبين بالمال، والسجائر، والمخدرات،

والجنس. ما كان من سائقي إلا أن صرخ مذعورًا، فصاح به زميل كان معي في السيارة وأمَره أن يقتحم الحشد قائلًا: «اصدمهم بالسيارة!»

علَّق شورك على قصة هؤلاء الفتية قائلًا: «مجرد هواة. يبدون لي كفريق كرة سلة ارتجالي.»

في صباح اليوم التالي، جلست عند حمام السباحة ذي الماء الآسن الموجود في فندقنا المتهالك لتناول الإفطار مع صحفي آخر عرفته في البوسنة اسمه ميجل جيل مورينو. كان غرب أفريقيا يشهد نهاية موسم الأمطار، وكان بوسعنا رؤية عشرات الضفادع وهي تتكاثر عند حافة الماء.

كان لميجل نصيبه من الشهرة، تمامًا كشورك، وكان مخلصًا في تديُّنه وشجاعته. جمعني به المعسكر الرئيسي عند الخطوط الأمامية مع جنود متمردين في كوسوفو عام ١٩٩٩، حين كان تحت القصف الجوي واضطُررنا إلى الاحتماء في الخنادق لأيام. كان ميجل أول شخص اتصلت به طلبًا لنصيحته قبل السفر إلى الشيشان، وأذكر نصيحته لي: «تذكَّري أن تغادري قبل أن يدفعك القصف إلى الجنون بأسبوع على الأقل.»

سألني ميجل أثناء تناوُلنا الإفطار عن مقطع فيديو محلي كنتُ قد حصلت عليه، يُظهِر رجالًا يُعتَقد أنهم جنود تابعون للأمم المتحدة وهم يتعرضون للتعذيب على يد المتمردين في سيراليون. كان يُفتَرض أن يكون هذا المقطع تحذيرًا لكلينا وكأنه يخاطبنا قائلًا: احترسا! هذا هو الجنون الذي يجري هنا. لكن بدلًا من أن نرتدع، ودَّع كلٌّ منا الآخر ولحق ميجل بكورت وطاقمه سالكًا الطريق المتجه إلى تقاطع روجبري للتحقق من صحة مقطع الفيديو. قُتل الرجلان بحلول الظهيرة في كمين نصبه المتمردون المراهقون. صدق ثيوسيديديز حين وصف الحرب بأنها مُعلِّم قاسٍ، وذلك في مَعرض تعليقه على الحروب البيلوبونيسية في القرن الخامس قبل الميلاد. فبإمكانك بوصفك مراسلًا حربيًّا أن تتعلم بضعة دروس في كيفية البقاء على قيد الحياة من أخطاء الآخرين، لكن مهما بلغ حسن تقديرك واحتياطك، فلن ينقذاك من سوء الحظ.

ماذا تصنع بك الحرب؟ في عصر يوم من أيام لندن الممطرة، جلست على الأريكة أمام طبيب نفسي معروف كان بصدد تقييم تأثير اضطراب ما بعد الصدمة على الصحفيين. كان من المزمع أن تستمر هذه الدراسة ثلاث سنوات، وكنت من أوائل الأفراد الذين خضعوا للبحث. سألني عن عادات نومي، وما إذا كنت مدمنة للخمر أو المخدرات أو أمارس الجنس مع أكثر من شريك. ثم سألني:

«كم جثة رأيتِ؟»

اجتهدت في التفكير، محاولة أن أتذكر الوقائع والأماكن؛ ساحات المعارك المكتظة بالجثث، المقابر الجماعية، الآبار المكدسة بالجثث الزرقاء، الرجل الذي وُجِد ملقًى في إحدى بالوعات الصرف الصحي في تيمور الشرقية، الأشلاء الآدمية خلال رحلاتي اليومية إلى المشرحة في سراييفو، الجندي المدفون في الثلوج في الشيشان، أميالًا وأميالًا من جثث الرونديين التي تغطي طريقًا قرب مدينة جوما.

فكرت مجددًا وأجبت: «لا أدري؛ ربما المئات. ليس لديَّ أدنى فكرة.»

التزم الطبيب الصمت وهو يخط كلمات في دفتر ملاحظاته. ثم رفع نظره بعد برهة.

قال بلهجةٍ لا تخلو من عطف: «ألا تجدين ذلك غريبًا؟ أغلب الناس لا يرون سوى جثث أجدادهم، أو آبائهم، في جنازاتهم.»

أول جثة رأيتها، بعد جثة جدتي، كانت في البوسنة. وصلت إلى هناك بداية خريف ١٩٩٢، وكان الطقس لا يزال دافئًا بما يكفي للتعرُّض للدغات الدبابير، فهي آخر الأيام المعتدلة قبل هجوم الشتاء الضاري. كانت الحرب التي ستفتك بالبلاد لا تزال في مهدها وأوج حماسها، مثلي إلى حد ما. لم تكن تُعوزني تمامًا الخبرة بالصراعات — فقد تعرَّضت للغاز المسيل للدموع وسط الحشود أثناء الاشتباكات بين الإسرائيليين والفلسطينيين — غير أن البوسنة كانت أولى مناطق الحروب التي أزورها.

أما قبلها، فكنت فتاة أكاديمية مُقصِّرة بعض الشيء، تحاول التحقق مما إذا كانت كاثرين مانسفيلد انتحلت أفكار تشيكوف في باكورة إنتاجها من القصص القصيرة أم لا. بدأت أشعر بالملل داخل جدران المكتبات والضجر من الطابع النسوي الخامل في أعمال مانسفيلد، ولم يكن لديَّ الدافع الحقيقي لمواصلة هذا الطريق إلى نهايته. تخليت عن أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه أواخر الثمانينيات بعد مقابلتي لمحامية حقوقية إسرائيلية مدافعة عن الفلسطينيين. قادتني المحامية إلى جميع أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة، وعرَّفتني بسياسيين وناشطين ونصحتني بأن أكرس حياتي لأكون صوتًا لمن لا صوت لهم.

كنت أعمل حينها في صحيفة ذا صَنداي تايمز، وناضلت في سبيل إرسالي إلى البوسنة — دأَب من عملت معهم من المحررين على محاولة إقناعي بالكتابة عن الموضة وصيحاتها — لكنني انتصرت في النهاية، وما إن وطئتْ قدماي البوسنة حتى رفضت مغادرتها، فمكثت بها فترات متقطعة تقرب من ثلاث سنوات في مجملها.

سافرت إلى البوسنة أول مرة بصحبة مصور أسترالي عصبي ومترجمة كرواتية شابة، وسرنا معًا في طرق صغيرة خاضعة لسيطرة عدة ميليشيات من الغوغاء. سردت لي فيسنا، المترجمة الكرواتية، باختصارٍ تاريخ يوغوسلافيا السابقة وأتت على ما في حوزتي من

سجائر. مررنا بقرًى خاوية ذات منازل مغلقة وحقول مترعة بالحيوانات النافقة، وكان الطريق خاويًا من المارة تمامًا. تسربت إلينا عبر نافذة السيارة رائحة المتفجرات والبنزين والحرائق المنبعثة من بعيد، ومررنا قرب بلدة فيتس بمصانع خاوية للذخيرة أخبرتني فيسنا بأنها كانت جزءًا من صناعة كبرى أثناء حكم تيتو.

لاح في الأفق طيف لحافلة محملة بالجنود الشبان المحدقين عبر النوافذ، وعلى جانبها لافتة تقول: متطوعون في سبيل يايتسا. كانت يايتسا عاصمة البوسنة القديمة، أما الآن فهي مسرح لمعركة دموية مستعرة في الشمال سرعان ما ستحمل الهزيمة للقوات البوسنية وتكلفهم كثيرًا من الضحايا. لوحت فيسنا إلى أحد الجنود، فلوح إليها، ثم قالت: «لن يعود من يايتسا أبدًا.»

كانت السيارة التي تتبعنا تُقل مصورًا آخر. كان رجلًا فرنسيًّا قليل الكلام، وكنت أركب معه أحيانًا. عُرِف عنه الجرأة وبعض الغرابة، أو ما يشبه الغموض. سرنا ذات مرة في طريق مخيف للغاية حتى وصلنا إلى نقطة تفتيش بوسنية، فأنزلت زجاج نافذتي لأسلِّم الجندي جوازات سفرنا. مد الجندي يده، لكن بدلًا من التقاط الجوازات، حدَّق بتمعن في وجه المصور الشاحب.

قال الجندي بلهجة قاطعة: «ما أغرب عينيك يا صديقي!»

عبس المصور وأجابه متسائلًا: «أغرب؟ ماذا تعني بأغرب؟»

ضحك الجندي مستمتعًا بما أبداه المصور من انزعاج، وقال وكأنه يُقر حقيقة واقعة: «ألمح الموت في عينيك.» رد إلينا جوازات السفر وأشعل سيجارة ورفع الحبل البالي الذي كان يُمثِّل نقطة التفتيش وأشار إلينا بالمرور، دون كلام، أو سلام، أو ابتسام.

بقي المصور صامتًا بقية الطريق إلى أن وصلنا إلى حطام سيارة، وعندها شاهدنا الموت الحقيقي. كان الضحايا زوجين يحاولان الهروب من شيء ما: قتال أو قرية تتعرض للحرق. لم يعلم أيٌّ منا سبب هروبهما. أخبرتنا فيسنا، التي درست بعضًا من الطب، أنهما لم يلفظا أنفاسهما الأخيرة سوى منذ بضع ساعات. ما زلت أذكر الخاطرة التي بدرت إلى ذهني، وهي أن بضع ساعات وقت كافٍ لتُحلق روحاهما بعيدًا.

اصطدمت سيارتهما بشجرة وهي تسير بسرعة، قصوى بلا شك، مما أدى إلى ارتطامهما بزجاج السيارة الأمامي واختراقهما له، فتدلى نصف جسديهما خارج السيارة وبقي النصف الآخر داخلها. انكسر عنقاهما وصارا متدليَين كحواصل الدجاج. كانت أعينهما لم تزل مفتوحة. انجذبتُ إلى الجسدين كالمسحورة، فدنوت وحدقت فيهما، محاولةً أن أحفظ تعبير وجهيهما المذهولين في اللحظة التي باغتَهما فيها الموت.

ربما يسأل البعض: لماذا تضعين نفسك في مثل هذه المواقف، وما مدى جدوى هذا بالنسبة إلى الناس وبالنسبة إليكِ؟ لا أدري، لكنني أمضيت أكثر من عشر سنوات — وعَقْد التسعينيات كان عقد الحروب — في تتبُّع الصراعات المسلحة تمامًا كالحمام الزاجل: يوغوسلافيا السابقة، ثم الشيشان، والصومال، وليبيريا، وسيراليون، والجزائر، وفلسطين، وتيمور الشرقية، وكوسوفو، وساحل العاج، والعراق وأفغانستان لاحقًا. أتقنت تغطية الحروب تمامًا كما تُتقن ضربات الإرسال في التنس بعد طول تدريب واجتهاد. حين أشاهد التليفزيون وأرى صراعًا دائرًا في أحد أجزاء العالم النائية، لا أتحمَّل البقاء ساكنة دون أن ألتقط هاتفي وأطلب إرسالي إلى هناك؛ الأمر الذي أسهم في صقل مهارات عظيمة داخلي، وهي: الحدْس، والشجاعة، كما أظن، أو لعلها الرعونة، والقدرة على الحديث أو التصرف في أيِّ موقف، وأخيرًا، لكنها الأهم، القدرة على التعامل مع الضغوط الهائلة دون أن أدعها تكسرني.

ثم تأتي القصص. صحيح أنه من الشائع دائمًا الكتابة عن النساء والأطفال خلال الحروب، لكن الحقيقة أن تلك الصور هي التي تَعْلَق أكثر في ذاكرتك، وأشعر بطريقة ما أنني حين أكتب عنها فإن معاناة هؤلاء النساء والأطفال لن تضيع سدًى. لعل ذلك من قبيل الإسراف في المبالغة. وكثيرًا ما أثار ذلك ألمي؛ ففي المرة الأولى التي شاهدت فيها احتضار طفل في مستشفًى ميداني، وكان يتلوَّى في مهده القذر، وقد خرجت أحشاؤه خارج بطنه وما من مسكنات للألم، خرجتُ من المكان واستندت إلى جدار وأخذت أبكي وأتقيأ. لكنني لم أفعل ذلك سوى مرة واحدة، أما بعدها فكنت أشاهد وأكتب ثم أعود إلى السيارة وأغادر.

كنت أحاول أن أتصرَّف بما يكفل سلامتي، لكنك لا تفكر أبدًا في الموت حين تكون في الواقع على بعد خطوة منه؛ لقناعتك أنَّ أجَلَك لم يحِن بعدُ. قالت لي ذات مرة مصوِّرةٌ حربية شهيرة اضطُرَّت في إحدى المرات للاختباء خلف أحد الأحراش في أفريقيا لتصوير عملية إعدام: «لم أفكر قَطُّ أنني سأتعرض للقتل؛ لأن والدتي كانت تحبني حبًّا جمًّا.» كان لديَّ افتراض غير منطقي يُشبه افتراضها، وهو أنه نظرًا لأني امرأة في أوائل الثلاثينيات من عمرها فلن أموت الآن؛ لأنني لم أعش بعدُ ما يكفي. جميع الإحصائيات المناقضة لهذا الافتراض لم تؤثِّر على قناعاتي.

تبرز من الإحصائيات الصادمة جدًّا التي نُشرت مؤخرًا عن العراق[١] نظرية تنُص على أن الصحفيين مستهدَفون من طرفَي الصراع كليهما. لقد استقال إيسون جوردان، الرئيس التنفيذي السابق للأخبار في سي إن إن، عام ٢٠٠٤ من منصبه إثر تلميحه بأن

القوات الأمريكية كانت تستهدف الصحفيين (كورتس ٢٠٠٥). لكن إذا صح استهداف الصحفيين خصوصًا في العراق، فلن يُعد ذلك أمرًا جديدًا؛ فخلال حرب جزر الفوكلاند عام ١٩٨٢، ورغم أنه لم يُقتل فيها أيٌّ صحفي بريطاني، فَثمة قصة متداولة تسربت من الأسطول الذي أقلَّ القوات البريطانية إلى جنوب المحيط الأطلسي. تتحدث القصة عن ضابط بحري دار بينه وبين جنوده الحوار التالي؛ سؤال: «ماذا نفعل لو قبضنا على بعض القوات الأرجنتينية؟» جواب: «أطلِقوا النار عليهم.» سؤال: «ماذا نفعل لو قبضنا على بعض القوات الأرجنتينية ومعنا طاقم تليفزيون؟» جواب: «أطلِقوا النار على طاقم التليفزيون.» أشيع خلال معركة موستار التي جرت في ربيع ١٩٩٣ أن الميليشيات من كروات البوسنة رصدت مقابلًا لرأس كل صحفي يُقتل، وكان المقابل ٥٠ ماركًا ألمانيًّا. لم يكن هذا المبلغ، حتى ذلك الوقت، كافيًا لشراء وجبة غداء جيدة مكوَّنة من سرطان البحر وخمر في مدينة سبليت. إنْ دلت هذه القصة على شيء، فإنما تدل على أن ويليام هاورد راسل، الذي غطَّى حرب القرم لجريدة ذا تايمز، كان محقًّا حين وصف زملاءه من العاملين في هذه المهنة الجديدة، الصحافة الحربية، بأنهم «فئة منحوسة».

شهدت الصحافة الحربية تغيرات واسعة منذ تسعينيات القرن الماضي، التي كان من الممكن فيها أن تُمارَس على نحوٍ فردي أو عبر مجموعات من الصحفيين ذوي الأفكار المتقاربة الذين يسافرون معًا لأجل الصحبة وتقليل التكاليف (بحيث يشترك ثلاثة في سيارة أجرة واثنان في غرفة فندق)، والتصور بأنَّ تجمُّعهم يكفل لهم مزيدًا من السلامة. أما الآن، فالمراسلون يذهبون إلى الحروب ومعهم ميليشياتهم الخاصة. لا شك أن ثمة استثناءات دائمًا، لكن أغلب المراسلين الذين ينقلون الحرب في العراق وأفغانستان — خاصةً العاملين في الشبكات التليفزيونية — يستعينون بجيوش صغيرة من حراس الأمن المزودين بمعدَّات تعقُّب ذات تقنية عالية، وأسلحة، وسيارات مطاردة للاستخدام في حال تعرُّض الصحفيين للاختطاف.

عادةً ما يكون هؤلاء الحراس جنودًا سابقين في القوات الخاصة، ثم تُعيِّنهم شركات خاصة بريطانية أو أمريكية تَعِد بتقديم «الأمن المادي والحماية». توجهتُ في يناير ٢٠٠٣ إلى إحدى هذه الشركات، وتسمى سنتوريان، والتي توجد قرب مقر قوات الخدمات الجوية الخاصة في هيرفورد لتلقِّي بعض التدريب على كيفية التعامل مع «البيئات العدائية». بحسب ما أورده الموقع الإلكتروني للشركة، فإن «المعرفة تُبدِّد الخوف. وفي عالم أكثر تقلبًا وخطورةً من أي وقتٍ مضى، يُكافَأ من يجيدون التقييمَ الدقيقَ للمخاطر بثقةٍ مصدرُها

تأهُّبُهم لأيِّ أخطار محتملة ومعرفتهم بكيفية التعامل معها. وهذا هو الفارق بين إدارة المخاطر للوصول إلى السلامة والأمن وبين مجرد النجاة منها» (سنتوريان ٢٠٠٧).

صحيح أن المرء يشعر بمزيد من الأمان بصحبتهم؛ ففي ديسمبر ٢٠٠١، خلال قصف في منطقة تورا بورا بأفغانستان، انكمشت رعبًا فوق قمة جبلية بينما أخذ حارس أمنٍ تابعٍ لسي إن إن يصيح ملقيًا علينا التعليمات، بشأن اتجاه قدوم الصاروخ والمكان الذي يجب أن أنطرح فيه أرضًا. وجدتُ في قيادته باعثًا على الراحة، لكنني تساءلت أيضًا عمَّا إذا كانت هذه القيادة سببًا في قتل غريزة استشعار الخطر داخلي، وعما إذا كانت عادةُ السفر في صحبة رجال مسلحين ليست سوى عامل جذبٍ للمتاعب التي عُيِّنوا في سبيل دفعها؛ ففي بداية حرب العراق، بادرت الميليشيا المصاحبة لطاقم تليفزيوني أمريكي في تكريت بإطلاق النار على مجموعة من المتمردين، وما لبثوا أن تورطوا في معركة بالأسلحة النارية.

علمتني الدورة التدريبية التي تلقَّيتها في هيرفورد كيف أتعامل مع جروح الأعيرة النارية، وإلى أين أركض خلال أيِّ تبادل لإطلاق النار. وتعلمت كيف أتصرف كرهينة جيدة حين يُغطي المختطفون رأسي، ويركلون أضلاعي، ويجبرونني على الاستلقاء فوق أرض جليدية لمدة ٤٥ دقيقة بينما تأتي أصوات الطلقات من إحدى الغابات المجاورة. وقد تلقيت نصائح أخرى هناك، لكنها لم تكن عظيمة النفع، مثل كيفية الخروج من حقل ألغام باستعمال أداة فولاذية طويلة، «فهل ستكون هذه ضمن أمتعتي؟»

توجَّه مدربنا إلينا متسائلًا: «ماذا تفعلون عند الاقتراب من نقطة تفتيش؟» واختار مراسِلة أمريكية جادة إلى حد ما ليسمع إجابتها.

أجابت المراسِلة بنبرة رتيبة ممطوطة: «أنظر في عيون القائمين عليها. وأحافظ دائمًا على التواصل البصري معهم.» لم أنبس ببنت شفة، لكنني كنت مدركة أنها إجابة غير حكيمة؛ فلو أنني تواصلت بصريًّا مع من أسروني حين أُسِرت لفترة وجيزة على يد مجموعة شبه مسلحة من الصرب في منطقة جبلية نائية على الحدود بين كوسوفو ومونتينيجرو عام ١٩٩٩، لربما انتهى بي الحال إلى القتل أو الاغتصاب الجماعي. لقد كنت بصحبة صحفيَّين فرنسيَّين وكنا فوق قمة جبلية نُجري مقابلة مع اللاجئين الفارِّين من القتال. تجلَّى سوء حظي في أمرين: أن وقعت في الأَسْر وأن كنت بصحبة فرنسيين. كانت طائرات الميراج الفرنسية قد قصفت لتوِّها بلجراد؛ مما تسبب في إصابة أقارب وأصدقاء الجنود الذين أوقعونا في الأسر.

كان من أسرونا ثملين وقد أفقدهم العنف عقولهم. بدا لي أن النظر في أعينهم ربما يُفهم خطأً أنه وقاحة — امرأة أجنبية وقحة في قبضة رجال أقوياء ثملين. لم تفارق عيناي الأرض وظللت أردد الصلاة المريمية مرارًا وتكرارًا أثناء إطلاقهم النيران فوق رءوسنا واقتيادنا عبر الغابة وضرب مرافقيَّ بكعوب بنادقهم. راحوا يتمازحون حول كيفية ومكان قتلنا ومن سيُقتَل أولًا.

الذي أنقذنا في النهاية هو الحظ؛ إذ تلقَّى الجنود عبر أجهزتهم اللاسلكية مكالمة تخبرهم أن قائدهم أَسَر شيئًا أهم منا بكثير: طيارًا أمريكيًّا. تلاشى فجأة اهتمامهم بأمرنا وتركونا على قارعة طريق ضيق مغطًّى بالثلوج مخصص لنقل الأخشاب. أثناء هبوطنا من الجبل بخطًى متعثرة للوصول إلى أقرب بلدة، قطع أحد الرجلين الفرنسيين الصمت قائلًا: «كنت على يقين أنهم سيغتصبونك.» صمتَ للحظات ثم أضاف: «وأشكُّ أنه كان بوسعنا منعهم.»

الحق أنني لم أحظَ بحياة حقيقية لسنوات كثيرة. كنت أشعر بأنني أحيا في عالم موازٍ مترع بالصراع العنيف، ولا شيء سواه تقريبًا. كان الناس يتساءلون بالطبع عن سبب اختياري لهذا الطريق. حين كان والدي على فراش الموت يُصارع مرض السرطان، جلست بجواره وتحدثنا عن أمور كثيرة، كالإيمان والموت والحرب. أتي والدي إلى الولايات المتحدة الأمريكية قادمًا من نابولي. وحين كان طالبًا جامعيًّا وقت الهجوم على ميناء بيرل هاربر، التحق بالخدمة العسكرية في السلاح الجوي الأمريكي. توجَّه والدي إليَّ بالقول: «كان التصرف الصحيح، لكنني كنت خائفًا. كنت جبانًا. لم أكن أحب الحرب ولا البُعد عن عائلتي. كل ذلك كان طبيعيًّا. أما ما تفعلينه أنتِ، فليس طبيعيًّا. ليس طبيعيًّا حقًّا.»

تجذب الحرب أنماطًا معينة من الشخصيات. هناك من يرغب في أن يشهد الوقائع الهامة، والمأساوية غالبًا، ليصفها وينقلها للآخرين؛ هذا دافع نبيل، لأن العالم ينبغي أن يعرف هذه الوقائع، وينظر أغلبنا إلى هذا باعتباره توجهًا نبيلًا (فنحن «نُقدم شهادتنا على الأحداث»). وهناك من يدفعهم مجرد حب الأمر، والانجذاب العنيد للمعاناة والخطر وتلك النشوة التي تعقُب التعرض لهما؛ الحرب كشكل أكثر مخاطرة من أشكال القفز بالحبال من مناطق شاهقة الارتفاع. أميل إلى الاعتقاد بأنني أنتمي إلى المعسكر الأول، لكنني أعلم أن جزءًا مني ينتمي لا محالة إلى المعسكر الثاني. فلماذا إذًا جعلت أحدق في وجهَي الزوجَين المتوفَّيَين داخل السيارة المنكوبة في البوسنة منذ سنوات بعيدة؟ أو، في كوسوفو، لماذا شعرت بالانتشاء، وارتجفت يدي وأنا ماسكة بسيجارة، وأنا أتذكَّر نجاحي

في الزحف خارجةً من ساحة قتال دون أن يمسَّني سوء بعد إطلاق قنَّاصٍ النار عليَّ مرة بعد مرة؟

سافرتُ إلى العراق خلال غزوها عام ٢٠٠٣ ومكثت بها ما يقرب من خمسة أشهر، لكنني كنت أعتقد وأنا أحزم أمتعتي للسفر إليها أنها ستكون واحدة من آخر الحروب التي أشهدها. لقد تزوجت وكنت أرغب في الإنجاب، وعلمت أنني لن أقوى على تحمُّل وتيرة هذه الحياة ولا وحدتها. وُلِد طفلي بعد عودتي من العراق بتسعة أشهر. حين رأيته لأول مرة، مبتسرًا (إذ ولد قبل ميعاده بسبعة أسابيع) وضعيفًا، بدا لي من المستحيل أن أرغب في العودة إلى تغطية الحروب مرة أخرى، لكن بعد ستة أشهر من ولادته رجعت إلى بغداد وتركته مع والده في باريس. كنت مدفوعة جزئيًّا بالفضول — هل سأكون شخصًا آخر بعد إنجابي؟ — وجزئيًّا بالخوف من أن أفقد مركزي المهني، وشهرتي، والأهم رباطة جأشي لو لم أذهب. بالإضافة إلى ذلك، كان سفري اختبارًا من ناحية ما. هل سأتمكن من مواصلة الحياة التي كنت أعيشها قبل أن أصير أمًّا؟ كنت أعيش أثناء حملي حالةً من الإنكار، حتى إنني ذهبت إلى غزة قبل ميلاد ابني بثمانية أسابيع. أما بعد أن وُلِدَ، فكنت أشكُّ في قدرتي على تحمُّل فراقه.

في عصر أحد الأيام، تعطَّل بي المصعد في فندق الحمراء مع جمعٍ من المراسلين الشباب الذين لم أرَهم من قبلُ. كانوا ذكورًا، كان هذا اختلافهم الأول عني، وكانوا يتصرفون كجماعة من الحمقى المتباهين برجولتهم. حلق بعضهم شعره ليشبهوا الممثل بروس ويليس. كنت على قناعة دامت سنواتٍ أن الصحافة الحربية نشاط لا علاقة له بالنوع، وأنه ليس ثمة اختلاف في الإدراك بين المراسلين الحربيين سواءٌ أكانوا ذكورًا أم إناثًا، أو إن وُجِد هذا الاختلاف فعلى الأقل لن يكون النوع سببًا فيه. بدا هذا التصور خاطئًا في المصعد. لديَّ طفل الآن، وقد فتح ميلاده مستقبِلات الخوف في دماغي، تلك المستقبِلات التي ظلت مُحْكَمة الغلق لسنوات، ربما منذ رحلتي الأولى إلى البوسنة.

أكذب لو قلت إنني لم أفتقد الإثارة المصاحبة لتغطية الحروب؛ فحين اندلع الصراع في لبنان، كنت في أمريكا أُعلِّم ابني السباحة. أيهما أهم؟ كنت أعرف الإجابة المنطقية، لكن الاشتياق لا يعرف المنطق. شكَّلت تغطية الحروب الجزء الأكبر من حياتي لسنوات طويلة، والانسحاب منها فجأة كان أشبه ما يكون بتعرُّض مدمن لسرقة وَكْره الذي يخبئ به المخدرات التي يتعاطاها.

اتَّسَم ما قمت به من تغطية حربية بعد ولادة لوكا بمزيد من الانضباط؛ فكبيرة هي المسئولية التي أشعر بها تجاهه، وتجاه بقائي على قيد الحياة قدر الإمكان لأراه يكبر أمام عيني. صحيح أنني أذهب إلى غزة وإلى أفريقيا، وقريبًا سأذهب إلى أفغانستان، لكنني حين أسمع إطلاق نار الآن، أفرُّ هاربةً وأنكمش رعبًا داخل أي مبنًى كأيِّ إنسان طبيعي. أشكُّ أنني سأسلك ثانيةً ذلك الطريق القذر المؤدي إلى تقاطع روجبري حيث قُتِل أصدقائي. وإذا وجدت نفسي في إحدى ضواحي مدينة جروزني أثناء سقوطها، كما حدث لي في فبراير ٢٠٠٠، فسوف أغادرها بأسرع ما يمكن. ورغم مرارة هذا الاعتراف، فإنني سأصرِّح به: إذا وجدت نفسي في سوق الماشية بأبيدجان مرة أخرى مع رجل ينزف ويتشبث بقدمي راجيًا مني المساعدة، وثمة مسلح على وشك قتلي لإظهاري تعاطفًا في غير محله، فسوف أتملَّص منه وأغادر في هدوء.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) قد يدفع الصحفيون ثمنًا شخصيًّا ونفسيًّا باهظًا لمحاولتهم تقديم شهادتهم على الصراعات وحالات المعاناة الإنسانية التي تحدُث حول العالم؛ فما الحجج المؤيِّدة لهذه التضحيات والمعارِضة لها؟

(٢) ذكرت جانين دي جيوفاني أن تغطية الحروب شهدت تغيرات جذرية منذ أن بدأت ممارستها أوائل التسعينيات؛ فما هي تلك التغيرات؟ وكيف تؤثر على نوعية التغطية الإخبارية؟

(٣) هل يتسم العالم الآن بدرجة من انعدام الأمن يتعذر معها إرسال مراسلين غربيين إلى مناطق الصراع كالعراق، والصومال، وأفغانستان؟ وما الحجج المؤيِّدة والمعارِضة للاستعانة بالمراسلين الأجانب في مقابل نظرائهم المحليين؟

هوامش

(١) ملحوظة المحرر: قُتِل ٢٣٥ صحفيًّا وإعلاميًّا في العراق منذ بداية الصراع في ٢٠٠٣ وحتى نوفمبر ٢٠٠٧. الأرقام مأخوذة من المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين، بتاريخ ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٧، http://www.newssafety.com/stories/insi/insideaths281107.htm.

الفصل الثاني

مستقبل الخدمات الإخبارية والتغطية الصحفية الدولية

ديفيد شليزنجر

تمهيد

جون أوين

المرة القادمة التي تفتح فيها صحيفتك المحلية (على فرض أنها ليست ذا نيويورك تايمز ولا ذا تايمز اللندنية) وتطالع الأخبار الدولية المنشورة فيها — على فرض أيضًا أن ثمة أخبارًا دولية فيها — حاول أن تدقق النظر في السطر الذي يلي العناوين الرئيسية للأخبار. من شِبه المؤكَّد أنك ستجد رسالة إخبارية من مراسل لرويترز أو أسوشيتد برس في كابول أو بغداد، محددًا بها تاريخ النشر. ابحث بعدها عن أيِّ صور فوتوغرافية دولية ومرة أخرى لاحظ مصدر الصورة. غالبًا ما ستجد أن الصورة التقطتْها عدسة مصورٍ صحفي تابع لرويترز أو أسوشيتد برس في بقعة ما من العالم.

أما إذا لم تعتدْ قراءة الصحف أو هَجرتَها لعدة أسباب واتجهت لتلقِّي أخبارك من المواقع الإلكترونية، فحاول أن تركِّز على المصادر التي تستقي منها هذه المواقع الأخبارَ الدولية. ستجد مجددًا أن الأخبار أو الصور مأخوذة من رويترز، أو أسوشيتد برس، أو فرانس برس (وكالة الأنباء الفرنسية)؛ هذا إذا كانت هذه المواقع تقتبس الأخبار كما ينبغي.

إن الصحفيين العاملين في وكالات الأنباء بمنزلة الجنود المجهولين في عالم الصحافة؛ فمن النادر أن نعرف أسماءهم أو نلاحظها في المقالات الصحفية، غير أن تغطيتهم الصحفية هي التي تغذي

صحفنا، وبرامجنا الإخبارية الإذاعية والتليفزيونية، ومواقعنا الإلكترونية الإخبارية، ودون هذه التغطية ستُحرم هذه المصادر من المعلومات التي جرى جمعها مباشرةً من حول العالم. أطلق مورت روزنبلوم، مراسل أسوشيتد برس المخضرم، على مراسلي وكالات الأنباء اسم «رجال المهام الصعبة» الذين يُتَوقع منهم أن يعملوا ليلًا ونهارًا ويتغلَّبوا على المنافسين:

عند ورود أنباء كبرى، تُهرَع الوكالات الإخبارية إلى نشر رسالة إخبارية أولى، ثم تتابع كل تطورٍ يجري في الأحداث، وتُصدِر بيانات إخبارية جديدة مع كل تطور في مسار الأحداث. إن الصحف تواجه موعدًا نهائيًّا بصفة شبه دائمة (روزنبلوم ١٩٩٣: ٥٧).

إن الصحفيين اليوم الذي يقرءون كل المواد الإخبارية التي تقدمها وكالات الأنباء على أجهزة الكمبيوتر خاصتهم؛ لن يعيشوا أبدًا الإثارة التي تصاحب من يوجد في غرفة الأخبار حين تطلق وكالات الأنباء، من خلال مُبرِقة كاتبة منفصلة، إشارات الإنذار لتنبيهك إلى وصول خبر هام. عمد روزنبلوم إلى وصف هذه الإثارة بالطريقة التالية:

سابقًا، كانت الطابعات من طراز ١٥ ذات الشكل المحدَّب تضخ طابورًا من الأوراق أمام كلِّ محرر. كان الصوت المنتظم الذي تُطلِقه تلك الآلات وهي تطبع ستين كلمة في الدقيقة هو الموسيقى التصويرية السائدة في كل غرف الأخبار. وكانت أجراس الإنذار الدورية تقطع المحادثات القصيرة، وسط انتظار المحررين لما يعقب العنوان المقتضب: «نشرة». ثم كانوا يسرعون بكتابة البرقيات إلى مراسليهم، والتي تبدأ كلٌّ منها بعبارة: «أوردت وكالة أسوشيتد برس …» وتنتهي بعبارة: «يُتبع في أسرع وقت». (المصدر السابق)

وبمجرد استقبال المراسلين الإخباريين لهذه البرقيات، يعمدون إلى ترجمة ما عاينوه من مشاهد وعاشوه من أحداث وجمعوه من معلومات استقَوها عن طريق التحدث إلى مصادر موثوق فيها؛ إلى خبر مترابط بعد أن كانت خليطًا مشوشًا من المعلومات. يرى الكاتب وصاحب العمود الراحل لارس إريك نيلسون أنه عادةً ما كان المراسل الإخباري الخبير هو من يستطيع الإجابة قبل غيره عن ذلك التساؤل الذي جعل، ولا يزال يجعل، كبار الصحفيين يتصببون عرقًا ويحولهم إلى فئران قلَقًا من موعد التسليم النهائي للتقارير الإخبارية: «ما الفقرة الافتتاحية؟» (مويسي ١٩٩٦: ٢).

كانت وكالات الأنباء على مدار تاريخها هي التي تتولَّى تقدير المواعيد النهائية للفقرات الافتتاحية للتقارير الإخبارية وتحديد الأخبار الجديرة بالنشر في أيِّ حدث أو واقعة تغطيها لصالح عملائها، من صحف ومحطات إذاعية وشبكات تليفزيونية حول العالم.

واليوم، حتى لو اعتاد عموم الناس على وجود الوكالات الإخبارية، ولم يستوعبوا أو يقدِّروا نشاطها الصحفي كما ينبغي، فيجب أن نعيَ جميعًا أن لكلٍّ منها تاريخًا ثريًّا ومثيرًا؛ فقد نشأت وكالة أسوشيتد برس من إصرار صاحب إحدى صحف نيويورك على أن يصبح أول من يُغطي الحرب

المكسيكية التي اندلعت في ١٨٤٦، مستخدمًا خطوط بريد بوني إكسبرس، وعربات الخيول، ثم التلغراف لاحقًا في سبيل التفوق على منافسيه. لكن موزيز ييل بيتش، مالك جريدة ذا نيويورك صَن، وصاحب هذا التوجه، قرر بعد ذلك أن يتقاسم أنباءه الحصرية مع الصحف الأخرى مقابل استرداد تكاليف مهمة نقل هذه الأخبار الجريئة والمكلفة في نفس الوقت. قال والتر ميرز، أحد المراسلين السياسيين البارزين لدى أسوشيتد برس، حين كتب متحدثًا عن تاريخ الوكالة إن مثل هذا التقاسم الأول للتغطية والتكاليف أدَّى إلى قيام وكالة أسوشيتد برس في الولايات المتحدة الأمريكية (أسوشيتد برس ٢٠٠٧ب).

لو نظرنا إلى كيفية نجاح اللاجئ الألماني في بريطانيا، بول جوليوس رويتر، عام ١٨٥١ في استغلال كابل تلغراف دوفر-كاليه الممدود حديثًا تحت بحر المانش، فسنجد أنها قصة ريادة ومخاطرة صحفية.

استطاع رويتر، حسبما روى الصحفي والمؤرخ جون هوينبرج، أن يتفوق على جميع من كانوا يحاولون تزويد الدوائر المالية في لندن بآخر المعلومات المتاحة حول الأسواق الأوروبية. وبدلًا من استخدام البواخر العابرة لبحر المانش والمحفوفة بالمخاطر، لجأ رويتر إلى التلغراف لنقل نتائج أسواق الأوراق المالية. ووفقًا لما قاله هوينبرج، سرعان ما بادرت كُبريات الصحف، وفي مقدمتها ذا تايمز، بالتعاقد مع وكالة رويترز لإمدادها بأسرع وأدق المعلومات حول الأسواق (هوينبرج ١٩٩٥: ٨-١١).

لكن رويتر لم يكتفِ بذلك، بل انتقل إلى تغطية الأحداث العالمية التي تؤثر بطبيعة الحال على أداء الأسواق، مستفيدًا مرة أخرى من هذه المنظومة الأسرع لنقل الأخبار، والتي مكنته من التقدم على جميع منافسيه.

ما استوعبه كلٌّ من بيتش (أسوشيتد برس) ورويترز (إذ أضيف حرف إس إلى اسمه) هو أن السبق الصحفي مهم وأنه ينبغي إتقان الجانب اللوجستي لجمع المعلومات علاوة على معرفة الخبر.

إن هذه الحقيقة الصحفية في واقع الأمر لم تتغير قَطُّ. لقد صنعت سي إن إن سُمعتها الدولية خلال حرب الخليج الأولى باتخاذها قرارًا شديد الخطورة؛ ألا وهو الإبقاء على فريقها الإخباري في بغداد، في حين قرَّر أغلب الشبكات والمؤسسات الإخبارية الانسحاب من المدينة؛ خشية وقوع هجوم جوي أمريكي مدمر على بغداد وعلى جميع الأهداف التي بدت مستخدمة لأغراض عسكرية في عهد صدام حسين. وفي الوقت الذي عجزتْ فيه وكالات الأنباء أو الشبكات المرموقة عن نقل صور حية من بغداد، كان لدى سي إن إن سلاحها السري: وصلة صوتية مباشرة «رباعية الأسلاك» من الطراز القديم تمتد بين بغداد وعمَّان عاصمة الأردن ووصلة قمر صناعي متصلة بالعالم. كان مراسلو سي إن إن، برنارد شو وجون هوليمان وبيتر آرنت، هم الوحيدون الذين نقلوا للعالم شهادة حية وفورية وحصرية للقصف الجوي الأمريكي من جناحهم في الدور التاسع بفندق الرشيد الذي كانوا نزلاء فيه في بغداد.

رغم أن الصحفيين والمصورين الصحفيين الذين عملوا لصالح وكالات إخبارية لم يصبحوا شخصيات عامة ونجومًا إعلاميين لامعين، فقد حظُوا بتبجيل زملائهم الصحفيين؛ فاثنان من أكثر الصحفيين استحواذًا على الإعجاب خلال حرب فيتنام كانا يعملان لصالح وكالة أسوشيتد برس: المراسل بيتر آرنت والمصور الصحفي هورست فاس. وقد فاز كلاهما بجائزة بوليتزر.

وقد نال صحفيان عاملان بوكالتين إخباريتين شهرةً دولية بفضل إسهاماتهما الصحفية خلال حروب البلقان؛ الأول كان مصور فيديو لدى وكالة الأخبار التليفزيونية والآخر مراسلًا لدى رويترز. جاء دخول كليهما إلى ميدان الصحافة متأخرًا بعد أن عملا في مجالات أخرى. كما أن كليهما لقي حتفه خلال تغطية نفس الحدث، الحرب الأهلية في سيراليون، وفي نفس اليوم، الرابع والعشرين من شهر مايو عام ٢٠٠٠.



شكل ٢-١: ميجل جيل مورينو (على اليمين) في سيراليون، ٢٠٠٠ (نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور سانتياجو ليون).

كان ميجل جيل مورينو دي مورا محاميًا شابًّا متخصصًا في قوانين الشركات ببرشلونة، وقد أزعجه ما رأى على شاشات التليفزيون من صور المعاناة في البوسنة؛ فانطلق ميجل إلى عالم الصحافة على ظهر دراجته البخارية متجهًا إلى موستار، إحدى جبهات القتال، وشرع ينقل الأخبار إلى صحيفة في برشلونة. غير أن ذكاءه واستيعابه السريع لأصول العمل في بؤر الحروب استرعى

انتباه الوكالات الإخبارية، فعمل أولًا لحساب وكالة وورلد وايد للأخبار التليفزيونية، ومن بعدها لحساب خدمة الأخبار التليفزيونية الجديدة التابعة لوكالة أسوشيتد برس. وخلال خمس سنوات، تلقَّى من التليفزيون البريطاني أعلى جائزة تصوير فيديو يمكن أن يطمح المصور إلى الحصول عليها، وذلك تقديرًا لعمله الجسور في كوسوفو، حيث كان مصور الفيديو الغربي الوحيد الذي بقي في عاصمة كوسوفو، بريشتينا، حين شن حلف الناتو هجومه الجوي عليها.

كان كورت شورك مصرفيًّا في بنك استثماري وتقلَّد منصبًا رفيعًا في منظومة النقل بمدينة نيويورك قبل أن يتخلى عن ذلك كله ليصير صحفيًّا. بدأ شورك مسيرته المهنية صحفيًّا مستقلًّا وهو في الأربعينيات من عمره، واتخذ من سنغافورة مقرًّا له. وبعد تغطيته للحروب في سريلانكا وأفغانستان، وأخبار الأكراد في شمال العراق، بدأ تغطية حروب البلقان لحساب وكالة رويترز.

أنجز شورك بعضًا من أبرز تغطياته الصحفية في سراييفو، حيث نقل حصار المجتمع البوسني المسلم تحت نيران القناصة الصرب. كتب أنتوني لويد، الصحفي البريطاني الذي صار واحدًا من أصدقاء شورك المقربين، قائلًا: «كان عمله مُحكمًا ومُخلصًا، ويتسم بمصداقية عالية، وقوته هي العامل الأوحد الذي أدى إلى رفع مستوى التغطية الصحفية للصراعات في البوسنة وكوسوفو. يمكن لعدد لا يُحصى من الصحفيين أن يُنتجوا تقارير احترافية بطريقة روتينية، ويراقبوا الأحداث، وينتقدوا الأوضاع، أما كورت فكان مختلفًا بفضل رؤيته ونظرته العميقة والمطلقة للعدالة» (لويد ٢٠٠٧: ٢٧).[١]

لقد دفع الصحفيون العاملون في الوكالات الإخبارية ثمنًا باهظًا مقابل عملهم حول العالم. غير أن حرب العراق صارت الأخطر بين جميع الصراعات في التاريخ الحديث، وأضحى من شبه المستحيل للصحفيين الغربيين العمل بمفردهم فيها خارج المنطقة الخضراء. لم يحظَ أحد بفرصة حقيقية لمعرفة ما إذا كانت «قوات التحالف» تُحقِّق انتصارًا على المناهضين لغزو العراق سوى أولئك الصحفيين المرافقين للوحدات العسكرية والمتمتعين بالحماية العسكرية الكاملة، لكن كانت تحركاتهم تحت قيودٍ مشددة. وكان ذلك يعني أن المواطنين العراقيين ووسائل الإعلام الناطقة بالعربية هما فقط القادران على التحرك بحُرية، إلا أنهما كانا يواجهان مخاطر جمة كذلك؛ إذ استُهدِف كثير من الصحفيين العرب وكذلك العراقيين العاملين لصالح وكالات إخبارية.

ماذا ينتظر الوكالاتِ الإخباريةَ — أيًّا كان اسمها — في المستقبل؟

في الخامس عشر من مايو ٢٠٠٧، وبعد مرور ١٥٦ عامًا من العمل تحت اسم رويترز، صارت الوكالة التي أسسها بول جوليوس رويتر تحمِل اسم تومسون رويترز. تُعتبر شركة تومسون (التي أُسِّست في كندا) أكبر شركة أخبار وبيانات مالية على مستوى العالم، ويضمن لها هذا الاندماج مع رويترز حصة سوقية من مبيعات المعلومات المالية أكبر من أقرب منافسيها، وهي شركة بلومبرج. لكن نجحت بلومبرج أيضًا في توسيع نطاق عملياتها الإخبارية.

ولكن رويترز يبقى الاسم الذي تتم تحته عمليات تجميع الأخبار والمعلومات المالية في شركة تومسون رويترز الجديدة.

ستجد في هذا الفصل مخططًا للطريق التحريري الذي تنتهجه رويترز، يقدمه رئيس تحريرها ديفيد شليزنجر. استطاع شليزنجر، الذي وُلد ونشأ في الولايات المتحدة الأمريكية، أن يصعد السلم المؤسسي لوكالة رويترز بخطًى ثابتة، غير أن طريقه نحو مجال الصحافة لم يكن مباشرًا. بدأ شليزنجر حياته المهنية كأكاديمي وخبير في الدراسات الآسيوية الناطقة باللغة الصينية، وفي ١٩٨٧ انطلق إلى مجال الصحافة مراسلًا لرويترز في هونج كونج، وعمل في مختلف أنحاء آسيا قبل أن ينتقل إلى نيويورك كمحرر مالي للأمريكتين، ثم ترقَّى إلى منصب مدير التحرير العالمي لرويترز، وذلك قبل أن يعتلي منصب رئيس تحريرها.

في الفصل الثالث، وهو ثاني الفصول التي تتناول دور وكالات الأنباء في التغطية الإخبارية الدولية، يشرح لنا نايجل بيكر، المدير التنفيذي لوكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية، دور الجيل الثاني للويب في إنعاش أسواق الصور الإخبارية الملتقطة بكاميرات الفيديو والكاميرات الفوتوغرافية. ورغم أن الوكالات الإخبارية لم تَعُد تحتكر المواد الإخبارية نتيجة لبروز صحافة المواطن ووفرة المحتوى الذي يُنتجه المستخدمون، فإن تلك الوكالات نفسها تستخدم آخر التطورات في التكنولوجيا الرقمية الحديثة لتسجيل الأخبار ونشرها من جميع أنحاء العالم.

لعب بيكر دورًا رائدًا في تدشين وكالة أسوشيتد برس التليفزيونية في ١٩٩٤، والتي أذهلت صناعة الأخبار بسرعة ترسيخها لأقدامها في المجال بحيث أصبحت منافسةً لرويترز ووكالة الأنباء التليفزيونية الكبرى الأخرى، وورلد وايد. وبعد أربع سنوات، نجحت في شراء وكالة وورلد وايد؛ ومِن ثَمَّ تكونت وكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية.

إن تأسيس وكالة أسوشيتد برس التليفزيونية وصعودها الخاطف إلى قمة الواجهات الإخبارية إنما هو قصة مذهلة بذاتها تروي الكثير عن صناعة الأخبار. لا شك أن قدرًا كبيرًا من الفضل ينبغي أن يُعزى إلى المدير الإداري الأول لها، ستيفن كلايبول، الذي أدرك أنها لن تنجح إلا إذا تمكَّنت من إنتاج تغطيتها للأحداث العالمية بأسلوب يفوق أساليب الوكالات المنافسة. وفي سبيل بلوغ هذا الهدف، التفت إلى شبكات البث الرائدة، وفي مقدمتها شبكة آي تي إن، واستقطب العديد من كبار منتجيها، ومن بينهم نايجل بيكر، لتحسين عملية كتابة الأخبار وصياغتها لتصير جزءًا من الخدمة التي تقدمها الوكالة.

والآن، تسعى وكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية تحت قيادة نايجل بيكر لترك بصمتها في عالم وكالات الأنباء، الذي يشهد منافسة حامية؛ وذلك من خلال التفوق في مجال البراعة الفنية المتطورة.

مراجع

AP (2007) *Breaking News: How the Associated Press has Covered War, Peace, and Everything Else*. Princeton Architectural Press.

Hohenberg, J. (1995) *Foreign Correspondence: The Great Reporters and their Times*. Syracuse University Press.

Loyd, A. (2007) *Another Bloody Love Letter*. Headline Review.

Moisy, C. (1996) *The Foreign News Flow in the Information Age*. Joan Shorenstein Center, Harvard University, http://www.hks.harvard.edu/presspol/research_publications/papers/discussion_papers/D23.pdf.

Rosenblum, M. (1993) *Who Stole the News?* John Wiley.

بدأتْ بالحمام الزاجل والتلغراف، واليوم تستخدم الإنترنت وتتعامل مع المدونين من منطلق تنافسي وتعاوني معًا.

كانت الخدمات الإخبارية — كما تُطلِق عليها وكالات الأنباء أو الوكالات الإخبارية — جزءًا من التاريخ على مدار أكثر من قرن ونصف القرن،[٢] وهي الآن تتنافس مع عملائها وقرائها أنفسهم في سبيل جذب الانتباه وتحقيق الأرباح.

كانت الاعتبارات الاقتصادية هي القوة الدافعة وراء تأسيس الخدمات الإخبارية؛ فما من صحيفة كانت ترغب في تحمُّل تكاليف ابتعاث مراسليها حول العالم، وكذلك لم تكن تتحمل إضاعة فرصة تغطية أهم الأخبار الواردة من خارج نطاقها المحلي.

نشأت الوكالات الإخبارية لتقدم إلى عملائها الصورة الأوَّلِيَّة من الأخبار، والتي تُمثِّل اللبِنات الرئيسية للأخبار الواقعية الأساسية التي يمكن أن تفيد في ذاتها، أو تصير الأساس لعمليات التنقيح وإعادة الصياغة، أو تكون بمنزلة الدليل والمفتاح لتوجيه المزيد من التغطية الإخبارية.

كانت وكالات الأنباء في صناعة المعلومات أشبه «بجزَّاري البيع بالجملة»؛ فكما يورِّد هؤلاء الجزارون كتلًا ضخمة من اللحوم إلى المطاعم، ثم تتولَّى هذه المطاعم تجهيز أصناف مختلفة من اللحوم وتقديمها إلى زبائنها تحت اسمها التجاري الخاص، كانت تنقل تلك الوكالات كميات كبيرة من الأخبار القائمة على الوقائع إلى الصحف حول العالم، والتي

بدورها تعيد صياغتها ثم تقدمها مقابل سعر التجزئة الذي يدفعه قراؤها والمعلنون الراغبون في جذب انتباه هؤلاء القراء.

السؤال المطروح الآن هو: إلى أيِّ مدًى ينبغي على الوكالات الإخبارية فتح «مطاعم» معلوماتها، وتقديم أخبارها إلى جمهور التجزئة وتلقِّي الثمن مباشرة من المعلن أو القارئ بدلًا من تَلقِّيه من عميل وسيط؟

بدا التفكير الاقتصادي الأصلي بسيطًا؛ فمثل تجار البيع بالجملة في أي مجال، اعتمدت الوكالات على الحجم. فإذا استطاعت أن تُقدم الأخبار الخام إلى المئات بل الآلاف من الصحف، فسوف تتمكن من تحمُّل تكاليف زيادة عدد مكاتبها الإخبارية، وإنشاء بنية تحتية تكنولوجية تمكِّنها من سرعة نقل الأخبار.

لكن عالم الإنترنت يُحدِث تغييرات في طبيعة المنافسة واقتصاديات التوزيع، ويضع الوكالات الإخبارية وعملاءها التقليديين أمام أسئلة مهمة تصل إلى حد الاستمرارية في المجال من عدمها.

رغم أن أكبر ثلاث وكالات إخبارية دولية على مستوى العالم أُنشئت لأسباب مشابهة واعتمادًا على قيم وهياكل تحريرية مشابهة في الأساس، فإنها تختلف اختلافًا كليًّا من الناحية التجارية.

أولى هذه الوكالات، وهي وكالة أسوشيتد برس، مملوكة لعملائها من الصحف البالغ عددها ١٥٠٠ صحيفة (ويُشار إلى هؤلاء العملاء باسم «أعضاء» الجمعية التعاونية الإخبارية) في الولايات المتحدة الأمريكية (أسوشيتد برس ٢٠٠٧).

ثاني الوكالات هي فرانس برس ٢٠٠٨، ورغم تسجيلها كمؤسسة تجارية، فإنها تضم ممثلين من الحكومة الفرنسية في مجلس إدارتها، وتُعَد الحكومة الفرنسية أكبر عملائها.

أما الوكالة الثالثة، فهي رويترز (تومسون رويترز حاليًّا)، وهي مؤسسة تجارية محضة، ومُدرَجة في بورصتَي لندن وناسداك، وتستمد حوالي ٩٤ بالمائة من إيراداتها من بيع الأخبار والمعلومات إلى البنوك، وشركات السمسرة، وغيرها من شركات الخدمات المالية، أما الـ ٦ بالمائة الباقية، فتحصل عليها من بيع الأخبار لوسائل الإعلام (تومسون رويترز ٢٠٠٨أ).

دائمًا ما شهدت الوكالات الثلاث منافسة شرسة فيما بينها في سبيل الفوز بالعملاء، والأخبار، وهي الأهم.

إن التفوق على منافس ما ربما يكون مهمًّا من الناحية التجارية، ولكن مما لا شك فيه أن الأمر بالنسبة إلى هؤلاء العاملين في مكاتب الأخبار يتخذ شكلًا حادًّا من أشكال المنافسة الشخصية؛ فمنذ البدايات الأولى للوكالات الإخبارية، كان الفوز بتغطية خبر قبل الآخرين أو على نحو أفضل من الآخرين — أو أن تكون الأول والأفضل، وهو الوضع المثالي! — كفيلًا بأن يجلب للمراسلين برقية، قديمًا، ورسالة إلكترونية، حديثًا، من المحررين للثناء على مجهوداتهم؛ أما الإخفاق فعادةً ما يُسفر عن رسالة نقد لاذعة وغاضبة يطلب فيها المحرر معرفة أسباب الإخفاق.

تُعَد السرعة أحد العوامل التفضيلية الرئيسية لوكالات الأنباء؛ إذ تتباهى كلٌّ منها بسبقها الصحفي حين تنجح في التغلب على منافسيها وتسبقها بأيام (وذلك عندما كانت الأخبار تُنقل بالمراكب، أو الحمام الزاجل، أو التلغراف)، أو بساعات، أو دقائق، أو ثوانٍ (وهو الهامش الشائع في عصرنا الحالي).

من بين أهم العوامل التفضيلية الأخرى نطاق انتشار هذه الوكالات دوليًّا؛ إذ دائمًا ما تتفاخر كل وكالة بشبكة مكاتبها الإخبارية:

- تقول أسوشيتد برس عن نفسها: «وكالة أسوشيتد برس في كل مكان. إن الأخبار العاجلة تتجاوز الحدود الجغرافية، وكذلك تغطية أسوشيتد برس. تمتلك الوكالة مكاتب إخبارية في أكثر من ١٢٠ دولة» (أسوشيتد برس ٢٠٠٧ب).
- تقول وكالة فرانس برس عن نفسها: «تنتشر شبكة فرانس برس الدولية في ١٦٥ دولة، ١١٠ دول منها تتضمن مكاتب إخبارية للوكالة، والبقية يجري تغطيتها عن طريق المراسلين المحليين» (فرانس برس ٢٠٠٧).
- تصف وكالة رويترز نفسها بأنها: «أكبر وكالة أنباء دولية متعددة الوسائط على مستوى العالم؛ إذ تضم ٢٤٠٠ موظف، ما بين أعضاء هيئة التحرير، والصحفيين، والمصورين، في ١٩٦ مكتبًا تخدم ما يقرب من ١٣١ دولة» (تومسون رويترز ٢٠٠٨أ).

بدأت الوكالات الثلاث جميعها كخدمات نصية فقط؛ وجميعها الآن لديها خدمات تصوير فوتوغرافي أيضًا. تدير كلٌّ من أسوشيتد برس ورويترز أكبر وكالتين لبيع المقاطع

التليفزيونية بالجملة على مستوى العالم؛ إذ تُزوِّدان المحطات والشبكات في كل مكان باللقطات التليفزيونية الإخبارية من جميع أنحاء العالم.

لم تكتفِ هذه الوكالات بإمداد عملائها بالمواد الإعلامية، بل صار لثلاثتها الآن وجود مكثف على الويب، وأصبحت تقدِّم لعملائها أحيانًا الأخبار من خلال هذه الشبكة، وتتنافس أحيانًا مواقعها مع مواقعهم على نفس الجمهور ونفس الإعلانات التي تُدِرُّ إيرادات.

ونظرًا لأن وكالات الأنباء بدأت بخدمة مئات من الصحف المختلفة، لهيئة تحرير كلٍّ منها مواقفها الخاصة أو لمالكيها آراء سياسية مختلفة، فإن المراعاة الصارمة للحقائق وتجنُّب أي إشارة إلى آراء شخصية صارا من السمات المميزة للتغطية الصحفية التي تقدمها الوكالات الإخبارية إلى يومنا هذا.

كان شعار سيتي برس، وهي إحدى الوكالات المحلية السابقة في شيكاجو، هو «إذا أخبرتْكَ والدتك أنها تحبك، فتحقق من ذلك»، لكن ذلك لا يمنع أن يكون شعارًا لأيٍّ من الوكالات الإخبارية الدولية، حيث تسود قاعدة «المصادر» والتي تتطلب تأكيدات وإثباتات مستقلة للوقائع.

صرَّحت وكالة رويترز أن سياستها التحريرية نموذجية:

> تستند العمليات الإخبارية لوكالة رويترز على مبادئ الثقة التي تتبناها، والتي تنص على أن نزاهة المؤسسة واستقلاليتها وتجرُّدها من التحيز إنما هي قيم يجب صونها في جميع الأوقات.
>
> تُطبِّق رويترز سياسات صارمة لضمان احترام هذه المبادئ. فنحن نلتزم في تغطيتنا الإخبارية بالدقة والتوازن، ودائمًا ما نُسارع بتصحيح أيِّ أخطاء في الوقائع ونشرها بوضوح.
>
> تُعَد رويترز أكبر وكالة إخبارية دولية متعددة الوسائط؛ إذ تنقل الأخبار على نطاق واسع من جميع أنحاء العالم، وتشمل تغطيتها الإخبارية موضوعات تتراوح بين الأسواق المالية والأخبار السياسية والعامة.
>
> تشمل بعض التغطيات الإخبارية لرويترز، بما فيها من صور ومقاطع فيديو، حروبًا أو صراعات تجتهد خلالها جميع الأطراف في الترويج لمواقفها وحُججها.

> نحن ملتزمون بنقل الوقائع وتجنُّب استخدام لغة انفعالية في جميع المواقف. الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة هو في حالة نقلنا لحديث شخص على لسانه أو بطريقة غير مباشرة. فنحن نسعى إلى التغطية الموضوعية للأحداث والهويات والمُلابسات، ونولي اهتمامًا خاصًّا بكل ما ننقله في المناطق بالغة الحساسية.
>
> تقف رويترز على الحياد من جميع الأطراف وتحاول أن تعكس في أخبارها وصورها ومقاطع الفيديو التي تعرِضها آراء جميع الأطراف. ولا تهدف الوكالة إلى تمجيد طرف ما أو الدعاية له. ولا يبدي صحفيو الوكالة آراءهم أو وجهات نظرهم.
>
> إن العالم يعتمد على صحفيي رويترز في تقديم روايات دقيقة وموثقة للأحداث كما وقعت، وأينما وقعت، بحيث يتسنَّى للأفراد، والمؤسسات، والحكومات اتخاذ قراراتهم استنادًا إلى الحقائق. (تومسون رويترز ٢٠٠٨ب)

لكن السؤال الأهم هنا هو: هل لهذا التاريخ أو تلك المعايير أي قيمة؟ إن الجواب على ما يبدو هو أن الوكالات الإخبارية، كبقية العالم الصحفي، يقع على عاتقها جهد مُضنٍ لتُثبت أن المُثُل التي تتبناها حقيقية وذات أهمية بالنسبة إلى قراء اليوم.

أظهرت دراسة استقصائية أجراها مؤخرًا مركز بيو لأبحاث الشعب والصحافة (٢٠٠٦: ٤٨) أن هناك اتجاهًا بين الرأي العام الأمريكي يرى أن ثمة تراجعًا في مصداقية الإعلام المطبوع.

جاءت أسوشيتد برس المعروف عنها سعيها الحثيث لتقديم الحقائق في مرتبة متراجعة للغاية فيما يخص المصداقية، بحيث جاءت متأخرة عن بعض عملائها من الصحف. ورغم أن تقييم جميع المنافذ الإخبارية لم يكن بالجيد، فإن الأسماء الكبيرة الأكثر شهرة كانت أفضل حالًا من الوكالة، التي تهدف رسالتها إلى خدمة تلك الأسماء ذاتها.

لعل من أسباب هذا الاتجاه أن أغلب تقارير الوكالات الإخبارية مجهولة المصدر؛ إذ عادةً ما يُعاد نشرها في الصحف أو المواقع الإلكترونية دون الإشارة إلى هوية المراسلين. بل إن الوكالات نفسها، رغم ما تقدمه من خدمات لكثير من الدوائر والأوساط، ينتهي بها المطاف دون تكوين هوية مستقلة قوية لها في أيٍّ منها.

جدول ٢-١: اتجاه مصداقية الإعلام المطبوع.*

تُصدِّق كلَّ ما يصدر أو أكثره عن هذه المؤسسة	١٩٩٨	٢٠٠٠	٢٠٠٢	٢٠٠٤	٢٠٠٦
ذا وول ستريت جورنال	٤١	٤١	٣٣	٢٤	٢٦
يو إس نيوز	—	—	٢٦	٢٤	٢١
ذا تايم	٢٧	٢٩	٢٣	٢٢	٢١
ذا نيويورك تايمز	—	—	—	٢١	٢٠
صحيفتك اليومية	٢٩	٢٥	٢١	١٩	١٩
نيوزويك	٢٤	٢٤	٢٠	١٩	١٨
يو إس إيه توداي	٢٣	٢٣	١٩	١٩	١٨
أسوشيتد برس	١٨	٢١	١٧	١٨	١٧
بيبول	١٠	١٠	٩	٧	٨
ناشونال إنكوايرر	٣	٤	٣	٥	٦

* ملحوظة: جميع الأرقام المذكورة في الجدول نسب مئوية، اعتمادًا على أولئك الذين استطاعوا تقييم كل مؤسسة. وتشير العلامة (—) إلى عدم توافر أرقام (المصدر: نُشِر الجدول بإذن من مركز بيو للأبحاث).

وهناك سبب آخر أهم لذلك، ألا وهو تقلص اهتمام الرأي العام الأمريكي، على الأقل، بالأمور الأساسية التي تغطيها وكالات الأنباء: السياسة والأخبار الدولية.

فقد كشفت الدراسة الاستقصائية السابقة التي أجراها مركز بيو أن أخبار الطقس والجريمة تتفوق دائمًا على أخبار الشئون السياسية والانقلابات العسكرية والحروب والزلازل (المصدر السابق: ٤١).

يبدو أن الأخبار الدولية لا تهم المواطن الأمريكي إلا إذا كان ثمة حدث جلل في نظرهم؛ لكن بالنسبة إلى الوكالات الإخبارية، ثمة حدث جلل يجري في مكان ما كل يوم وفي كل دقيقة، بينما تضخ مئات الآلاف من الكلمات والصور لعملائها.

إن طول أعمدة الصحف محدود، والصحف نفسها تفقد قُرَّاءً يومًا بعد يوم؛ مما يدفع بالمحررين المحليين إلى بذل جهد مضنٍ لتحديد المساحة التي ستُخصص للمواد التي تقدمها الوكالات الإخبارية، والتي تتحدث عن قضايا ومناطق بعيدة عن اهتمام القارئ.

كما أن البرامج الإخبارية التليفزيونية ليس لديها سوى وقت محدود لتناول الأخبار الدولية، وهذه البرامج، على كل حال، ليست موضع تفضيل من المشاهدين الذين يُفضِّل المعلنون استهدافهم: الشباب والأغنياء.

جدول ٢-٢: اتجاه الاهتمام بالأخبار.*

نوع الأخبار التي تتابعها «عن كثب»	٢٠٠٠	٢٠٠٢	٢٠٠٤	٢٠٠٦
الطقس	—	—	٥٣	٥٠
الجريمة	٣٠	٣٠	٣٢	٢٩
المجتمع	٢٦	٣١	٢٨	٢٦
الصحة	٢٩	٢٦	٢٦	٢٤
الرياضة	٢٧	٢٥	٢٥	٢٣
أخبار العاصمة	١٧	٢١	٢٤	١٧
الشئون الدولية	١٤	٢١	٢٤	١٧
الشئون المحلية	٢٠	٢٢	٢٢	٢٠
الشئون الدينية	٢١	١٩	٢٠	١٦
العلوم والتكنولوجيا	١٨	١٧	١٦	١٥
الترفيه	١٥	١٤	١٥	١٢
المال والأعمال	١٤	١٥	١٤	١٤
أخبار المستهلك	١٢	١٢	١٣	١٢
الثقافة والفنون	١٠	٩	١٠	٩

* ملحوظة: جميع الأرقام المذكورة في الجدول نسب مئوية. تشير العلامة (—) إلى عدم توافر أرقام (المصدر: نُشِر الجدول بإذن من مركز بيو للأبحاث).

يعني هذان الاتجاهان أن عالم الويب هو الأفق الجديد الساطع للوكالات الإخبارية، حيث يمكن أن تلقى أخبارها التي تُعد بالآلاف يوميًّا اهتمامًا من قراء شغوفين بالتعرف على مجالات متخصصة، أو على استعداد لإحراز مكاسب مالية في جزء ما من «الذيل الطويل» للمعلومات.[٣]

فيما يلي مثال من وكالة رويترز من الممكن أن يُسهم في إيضاح هذه الظاهرة.

كانت الأخبار الخمسة الأكثر رواجًا على موقع رويترز الإلكتروني خلال القسم الأكبر من شهر سبتمبر عام ٢٠٠٦ كالتالي:

(١) هروب الفتاة النمساوية، ناتاشا كامبوش، بعد ثماني سنوات من اختطافها وحبسها في زنزانة تحت الأرض.
(٢) وفاة ستيف إروين، صائد التماسيح الأسترالي، إثر غَرْز سمكة اللخمة شوكتها في صدره خلال تصويره لفيلم وثائقي.
(٣) رفض فرنسا للحرب على الإرهاب.
(٤) غرق الدببة القطبية.
(٥) باريس هيلتون ترغب في تناول البرجر.

خلال الفترة ذاتها تقريبًا، كان عملاء رويترز الرئيسيون في صناعة الخدمات المالية يُطالعون الأخبار التالية:

(١) الأزمة النووية الإيرانية.
(٢) المداولات بشأن سعر الفائدة الذي حدده بنك إنجلترا.
(٣) قواعد نقل ملكية الأسهم.
(٤) نتائج مباريات كرة القدم.
(٥) حركة مؤشر أسعار المستهلك الأمريكي.

كانت توجد المئات، بل الآلاف، من الأخبار الأخرى التي كتبها المراسلون، ونشرتها الوكالة من خلال موقعها الإلكتروني ليُطالعها عملاؤها الإعلاميون، ومن خلال منافذها المتخصصة ليطالعها الاختصاصيون الماليون ... وفي الواقع، إن مثل هذه الأخبار قرأها كلا النوعين من القراء.

إن الوكالات الإخبارية التي تكتفي بنشر الأخبار الرائجة فقط لن يُكتب لها البقاء أبدًا، كما أن الوكالات الإخبارية التي لا تقيم مكاتب لها إلَّا في بؤر الأخبار الساخنة المشتعلة في اللحظة الراهنة لن يُكتب لها النجاح.

إن عمل الوكالات الإخبارية في الغالب الأعم يقوم على فكرة الطاقة الكامنة؛ مما يعني امتلاك الموارد اللازمة لتغطية الأخبار حين تقع. كما أن عملها يعتمد في معظمه على «جمع الخيوط»، وهو ما يتطلب بناء الوعي بالأخبار الوشيكة قبل أن تبرز على ساحة الأحداث، بحيث يصير القُراء والعملاء اليقظون مستعدين لتَلَقِّي الأخبار عندما يحين وقتها.

إن نظرية ذيل المعلومات مسألة معقدة.

تعد وكالات الأنباء الكيان الوحيد الذي يغطي كثيرًا من الأزمات العالمية ويكتب عنها. ولولا وجود تلك الوكالات التي تُنبِّه العالم إلى وقوع الأخبار لما تمكنت بقية وسائل الإعلام في العالم من معرفة الوجهة التي ستُرسل إليها فِرق مراسليها الأقل عددًا أو المادة الإخبارية التي ستُسلط عليها الضوء في صفحتها الأولى.



شكل ٢-٢: المصور الفوتوغرافي ديزموند بويلان خلال إرساله صورًا، ويشاهده جندي من قوات المارينز الأمريكية في معسكر مؤقت قرب الناصرية في مارس ٢٠٠٣.

ورغم ذلك، فإن محرري الأخبار والقائمين على الميزانيات في صراع دائم بين دفع وجذب: الدفع بالأخبار إلى بؤرة اهتمام عالم غير مهتم والانجذاب إلى الأخبار التي تحظى بالفعل باهتمام العالم على نحو واضح.

إن الأخبار صناعةٌ محورُها الأفراد، لكنها في الوقت نفسه صناعة باهظة التكلفة.

فللرواتب تكلفة، وللتأمين تكلفة، وللاتصالات تكلفة، ولتوفير أماكن الإقامة تكلفة، وللانتقالات تكلفة ... وهكذا؛ لذا، فإن اتخاذ قرار بشأن إرسال الطواقم الإخبارية لتغطية



شكل ٢-٣: المصور الفوتوغرافي كارلوس باريا خلال احتجاج في سانتياجو بتشيلي في سبتمبر ٢٠٠٥ (نُشرت الصورتان بإذن من تومسون رويترز).

خبر ما (تحديد الأفراد الذين سيجري إرسالهم وعددهم ومدة مهمتهم)، بل حتى الاختيار بين إرسال الطواقم إلى منطقة ريفية أم حضرية، كل ذلك ليس بالأمر الهين.

يكمن حل هذا التحدي في العلاقة بين قوَّتَي الدفع والجذب المشار إليهما سلفًا: فينبغي على المحررين الاستعانة بخبرتهم وغريزتهم الصحفية لمعرفة ما يهم الناس، وما يعتقدون أنه يجب أن يهمهم، وما قد يهمهم ومِن ثَمَّ يحسُن بهم تغطيته من باب الاحتياط.

أيجدر بنا إقامة مكتب إخباري كامل في مدينة كيتو؟ أنحتاج إلى إضافة مراسل تليفزيوني آخر إلى مكتبنا ببكين؟ ما العدد المناسب من الصحفيين الذي يجب إرساله إلى اجتماع مجموعة الثمانية؟

لهذه الأسئلة التحضيرية نظائر في مرحلةٍ ما بعد وقوع الحدث: «كيف فاتنا هذا السبق الصحفي؟ ولماذا سبقتنا الوكالة «س» إليه بثلاث دقائق؟ ولماذا التقطت كاميراتهم هذه الزاوية ولم نلتقطها نحن؟» ثم تليها أسئلة الميزانية التي لا مناص منها: «لماذا كلفتنا تغطية الخبر كل هذه التكاليف الكبيرة؟ أكنا في حاجة حقًّا إلى استئجار الهليكوبتر؟ وهل



شكل ٢-٤: المراسل أدريان كروفت أثناء تأدية عمله خلال إنذار بوجود إطلاق لغازات سامة داخل قاعدة بحرية في الجليبة بجنوب العراق في مارس ٢٠٠٣ (نُشرت الصورة بإذن من تومسون رويترز).

كان في استطاعتنا إتمام المهمة بنفس النجاح بتكاليف أقل؟ ولو كنا أنفقنا المزيد على المهمة، هل كان هذا سيُشكِّل فارقًا؟»[٤]

تقع مهمة نقل الأخبار على عاتق العاملين في الوكالات الإخبارية من مراسلين ومصوري فيديو ومصورين فوتوغرافيين ومحررين. وجميع الوكالات الكبرى لها نفس الهيكل التنظيمي تقريبًا: كوادر «دولية» تسافر من مكان إلى مكان لإنجاز مهام صحفية تمتد من ثلاثة إلى خمسة أعوام أو أكثر، وكوادر «محلية» عادةً ما تلزم المكان الذي عُيِّنت فيه.

يمكن للجنسية الفعلية للصحفي أن تؤثر بأشكال مختلفة على نوعية مساره المهني، وذلك بحسب المؤسسة التي يعمل بها، كما أن مهارات التغطية الإخبارية والخبرة والرغبة والطموح، كلها عوامل مهمة في هذا الشأن.

من الأهمية بمكان بالنسبة إلى المنظومة الإخبارية الوصول إلى أفضل العلاقات، والمعلومات والمعرفة على المستوى المحلي مع الحفاظ على منظور دولي لا ينتمي إلى دولة بعينها. علاوة على ذلك، لا بد للوكالات الإخبارية أن تبثَّ قيمها ومبادئها في الصحفيين الذين قد لا يُمضون وقتًا يُذكر في مقرها الرئيسي، مع الحرص على توفير مسارات مهنية تحفيزية لمن يرغب فيها.

لكلٍّ واحدة من وكالات الأنباء الكبرى نمطها الخاص الذي يصوغ تغطيتها الإخبارية، وذلك بناءً على احتياجات عملائها: تنقل وكالة أسوشيتد برس الكثير من الأخبار المتعلقة بأمريكا نظرًا لقاعدتها الكبيرة من الصحف الأمريكية المالكة لها؛ في حين تنقل وكالة فرانس برس أخبارًا كثيرة متعلقة بفرنسا نظرًا لقاعدتها الكبيرة من الصحف الفرنسية؛ أما رويترز، فينبغي عليها مراعاة احتياجات مجال الخدمات المالية إلى جانب احتياجات القطاع الإعلامي.

تؤثر هذه الاحتياجات لا محالة على عمليات التعيين والتدريب والترقية.

من الناحية التنظيمية، تدير الوكالات الإخبارية أنظمة مشابهة فيما يخص أقسام التحرير المركزية التي تتلقى المحتوى الإخباري الوارد من مكاتب الوكالة وتعمل على معالجتها. تتراوح مثل هذه المعالجة بين المراجعة البسيطة والتصنيف لضمان وصول الأخبار إلى المشتركين المناسبين، وصولًا إلى إعادة الصياغة الشاملة. وعادة ما تتحمل هذه الأقسام المسئولية الكاملة عن صياغة الأخبار النهائية، بينما يولي المراسلون تركيزهم إلى نقل الأخبار.

على سبيل المثال، تعمد وكالة رويترز إلى تحرير الأخبار الآسيوية في سنغافورة، والأوروبية والشرق أوسطية والأفريقية في لندن، والمتعلقة بالأمريكتين في واشنطن ونيويورك. أما الصور الفوتوغرافية من جميع أنحاء العالم، فتُحرَّر في سنغافورة، في حين تُحرَّر الصور التليفزيونية في لندن.

يكون المحررون صحفيين قرروا الابتعاد لبعض الوقت عن مجالهم الأصلي، أو أفرادًا اتخذوا من التحرير مهنة وتخصصًا.

إن للمراسلين المحليين دورًا حيويًّا في نقل الأخبار بدقة.

إن لديهم معرفة جيدة بمناطقهم ولديهم الخبرة والعلاقات. وكثير منهم كانوا يعملون في أفضل وسائل الإعلام المحلية، ومِن ثَمَّ فإنهم يتمتعون بسنوات من الخبرة في تغطية الأخبار وأهم القوى الفاعلة في محيطهم.

يرغب الكثيرون في البقاء بأوطانهم وبناء حياتهم المهنية في المكان الذي يعرفونه حق المعرفة. بينما يسعى آخرون إلى الانضمام إلى مصافِّ الوظائف الدولية وممارسة مهاراتهم الصحفية في مكان جديد، إما كجزء من مسيرة مهنية تتنقل فيما بعدُ من دولة إلى أخرى أو كفترة فاصلة تسبق عودتهم إلى أوطانهم.

يصدُق مثل هذا النمط على الأمريكيين الذين يلتحقون بالعمل في وكالات إخبارية بنيويورك كما يصدُق على الهنود الذين ينضمون إلى وكالات أنباء بنيودلهي؛ فقد يتضمن العمل صحفيًّا في وكالة إخبارية دولةً واحدة أو أكثر، مجالًا واحدًا أو عدة مجالات، تخصصًا واحدًا أو عددًا من التخصصات.

لدينا في رويترز حاليًّا صحفيون ينتمون إلى تسعين جنسية مختلفة مُمثَّلين في جميع المستويات المؤسسية.

بالنسبة إلى مسيرتي المهنية الخاصة، فقد عُيِّنت مراسلًا محليًّا بمكتب الوكالة في هونج كونج، حيث كنت أقطن آنذاك، ثم انضممتُ بعدها إلى صفوف الموظفين الدوليين في تايوان والصين وهونج كونج مجددًا، ثم عدت بعدها إلى موطني في الولايات المتحدة الأمريكية، التي لم يسبق لي العمل صحفيًّا بها قبل ذلك الحين، ثم انتقلت إلى لندن، ومن يدري أين ستحط رحالي المرة القادمة! تُعَد تجربتي قياسية إلى حدٍّ كبير وفقًا للنظام القائم في رويترز، أما الوكالات الأخرى فلها أساليب وأنماط وظيفية مختلفة نوعًا ما.

تتسم جميع الوكالات الإخبارية بالطابع العالمي في اللغة والتوظيف: فالمواد الإخبارية في رويترز يجري نقلها ونشرها بتسع عشرة لغة مختلفة، كما أن كلًّا من أسوشيتد برس وفرانس برس تنقلان تقارير حيوية بلغات مختلفة. إن التفاعل بين التقارير المحلية والتقارير الدولية وبين وجهات النظر المختلفة التي يتبناها أعضاء الوكالات الإخبارية المختلفة؛ من شأنه أن يُثري العمل الصحفي الناتج بالسياق والتنافس المحمود.

إلى جانب الموظفين العاملين بدوام كامل، تستعين جميع الوكالات الإخبارية بـ «صحفيين غير متفرغين» وذلك على نطاق واسع.

إن هؤلاء الصحفيين هم صحفيون تربطهم علاقة غير نظامية بوكالات الأنباء؛ إذ تستعين الوكالات ببعضهم لتغطية خبر واحد أو الحصول على صورة فوتوغرافية واحدة، بينما قد تستعين بالبعض الآخر لتغطية حدث معين، وقد يرتبط آخرون بعلاقة أوثق مع الوكالات تتطلب منهم تقديم إسهامات منتظمة بمرور الوقت.

ربما يرتبط هؤلاء الصحفيون بوظيفة منتظمة ذات دوام كامل في أحد المنافذ الإعلامية المحلية. أو قد يتكسَّبون من تقديم سلسلة من الأخبار أو ما شابه لعدة مؤسسات غير متنافسة.

قد يطمح بعض هؤلاء الصحفيين إلى الالتحاق بوكالة إخبارية صحفيين متفرغين، بينما يستمتع آخرون بحُرية العمل الحر وإدارة أعباء عملهم كما يحلو لهم.

تتراوح عقود التعامل مع هؤلاء الصحفيين بين المحاسبة على أساس القطعة، إلى دفع مقدم أتعاب بما يضمن للطرفين بعض الاستقرار في علاقتهما.

لا تستطيع الوكالات الإخبارية الاستمرار من دون إسهام الصحفيين غير المتفرغين؛ فهم يمنحون المنظومة المرونة اللازمة لحل بعض المسائل الرئيسية التي عرضنا لها قبل ذلك، والمتعلقة بإدارة التغطية الإخبارية لعدة أحداث في نفس الوقت وما تنطوي عليه من تكاليف.

تلجأ الوكالات الإخبارية إلى الصحفيين غير المتفرغين كعنصر مكمل للصحفيين المتفرغين؛ إذ عادةً ما يحلُّون محلَّهم في المناطق التي لا ترغب الوكالة في إقامة مكتب إخباري كامل لها. وهم يمكنهم أن ينقلوا الأخبار وقت وقوعها في أماكن لم ولن توجد فيها الوكالة أبدًا.

بالرغم مما سبق، فإن غياب العلاقة الوظيفية النظامية بين هؤلاء الصحفيين والوكالات يُولِّد صعوبة أكبر في الإشراف على مسائل التدريب والمعايير؛ لذا، عادةً ما تقع على عاتق مدير المكتب المحلي مسئولية التحقق من أن هؤلاء الصحفيين يجري اختيارهم من بين صحفيين جيدين، والتأكد من خضوع عملهم للإشراف. وعادة ما تعتمد الوكالات قواعد خاصة لضمان التعامل مع الأخبار الواردة من هؤلاء الصحفيين بعناية، كالتأكيد على ضرورة اطلاع أحد الصحفيين المتفرغين عليها قبل إحالتها إلى قسم التحرير، على سبيل المثال.

تنص قواعد رويترز في هذا الشأن على جملة أمور، من بينها:

> لا بد من إيلاء عناية قصوى لعملية الاستعانة بخدمات الصحفيين غير المتفرغين؛ بحيث نستعين بصحفيين مرموقين ممن لديهم القدرة والاستعداد اللازمان للالتزام بمعاييرنا الصارمة في الدقة والموضوعية واستقاء المعلومات والتجرد من التحيز. ولا يجوز لأي مراسل الاستعانة منفردًا بصحفي غير متفرغ دون الحصول على الموافقة الصريحة من مدير مكتبه أو المحرر المسئول. وينبغي

> علينا توخي أقصى درجات الحذر عند الاستعانة بصحفيين غير متفرغين مختصين لتغطية أخبار محددة. (رويترز ٢٠٠٧: ٣٧٩)

تتبنى جميع الوكالات الإخبارية قواعد صارمة فيما يتعلق باستقاء المعلومات في تقاريرها، ومثل هذه القواعد تسري على الجميع، سواءٌ أكانوا صحفيين متفرغين أم غير متفرغين. فتنُص قواعد أسوشيتد برس، التي تُعد نموذجية، على التالي:

> تلتمس أسوشيتد برس وتُوجب استقاء المعلومات من أكثر من مصدر وذلك بصفة أساسية. وينبغي الامتناع عن نشر الأخبار إلى حين الوصول إلى مصادر إضافية للتحقق من صحتها أو الحصول على المزيد من التفاصيل. في حالات نادرة يمكن الاكتفاء بمصدر واحد، وذلك حين تصدر المادة الإخبارية من شخصية ذات حيثيَّة تقدِّم معلومات في غاية التفصيل بما لا يدع مجالًا للشك في دقتها. (أسوشيتد برس ٢٠٠٦)

تواجه جميع وكالات الأنباء مشكلة المصادر المجهولة الهوية، وعادةً ما تسمح باستخدامها في حالة واحدة فقط، وهي عدم وجود وسيلة أخرى للحصول على المعلومات. إننا نحيا في عصر تقل فيه ثقة الجماهير في وسائل الإعلام الإخبارية؛ ومِن ثَمَّ فإن خط الدفاع الرئيسي الذي تملكه وكالات الأنباء ضد منتقديها هو الالتزام بأكبر قدر ممكن من الشفافية فيما يخص كيفية حصولها على المعلومات ومكانة المصادر التي تستعين بها.

رغم ذلك، يستحيل أحيانًا الاستغناء عن المصادر المجهولة، لا سيما عند نقل الأخبار من كثير من الدول التي لا عهد لها بحُرية الصحافة؛ ففي الأماكن التي يمكن أن يتسبب فيها الإدلاء بمعلومات إلى الصحفيين في معاقبة المصدر بالسجن، يصير على الصحفي واجب أخلاقي ومعنوي؛ وهو عدم الكشف عن هوية المصدر، حتى لو أدى ذلك إلى إضعاف الخبر المنقول.

كيف يتسنَّى إذًا لمراسل أن يحصل على أخبار في دولة كالصين، التي قد تعتبر المعلومات التي يُعتاد نشرها في الدول ذات التقاليد الإعلامية الغربية من أسرار الدولة؟ فيما يلي بعض الوسائل:[٥]

- «الإعلام الرسمي»: يُمضي المراسلون وقتًا طويلًا في متابعة وسائل الإعلام الرسمية، إما لالتقاط التصريحات الرسمية مباشرة أو لـ «قراءة ما بين السطور» في سبيل فهم التحولات الخفية في السياسات.

- «المصادر الرسمية»: يُصدِر المسئولون بيانات ويعقدون مؤتمراتٍ صحفية، وذلك حتى في البلدان التي تضع قيودًا على نشر المعلومات.
- «المصادر التجارية»: عادةً ما يسعد العاملون في مجال الأعمال التجارية بالحديث عن أعمالهم، وهو ما يمكن أن يمنح المراسلين لمحات عن كثير من جوانب المجتمع والسياسات الحكومية.
- «المصادر الدبلوماسية»: يتمتع الدبلوماسيون المقيمون في عواصم أجنبية بمجموعة متنوعة من العلاقات الرسمية وغير الرسمية التي يمكن أن تكون مصادر للمساعدة والإيضاح.
- «المصادر الخاصة»: ينشئ جميع المراسلين شبكاتهم الخاصة من الشخصيات المهمة التي يمكن أن تساعدهم، إما عن طريق تقديم رؤًى غير رسمية تمكِّنهم من فهم كيفية سير الأمور في بلدهم أو بتوفير معلومات موثقة، تتراوح بين حقائق شفاهية إلى نسخ فعلية من وثائق سرية. تتنوع هذه المصادر الخاصة ما بين صحفيين محليين إلى شخصيات أكاديمية مرموقة، وصولًا إلى مسئولين حكوميين أو ضباط عسكريين.

كما هو الحال في كلِّ مكان، ينبغي ألا يكتفي المراسل بتقييم شخصية مصادره ومصداقيتها، بل عليه أن يحاول استيعاب دوافعها للإدلاء بالمعلومات. ويتوجب عليه، أحيانًا، أن يحميَهم من أنفسهم، وذلك بالتأكد من فهمهم لمخاطر الإدلاء بمعلومات لمراسل من وكالة أخبار دولية وتبعاته.

من المهم ضمان سلامة مصادر المعلومات، وسلامة الصحفيين كذلك. يجدر بنا في هذا السياق اقتباس جزء من «دليل صحفيي رويترز» وفيه:

> إن سلامة صحفيينا، سواءٌ أكانوا متفرغين أم مستقلين، تحظى بأهمية فائقة؛ فما من قصة إخبارية ولا صورة تستحق التضحية بالنفس في سبيل الوصول إليها؛ ومِن ثَمَّ فإن جميع المهام الصحفية في بؤر النزاع وغيرها من المناطق الخطرة اختيارية، ولا يعاقَب أي صحفي بأي طريقة لرفضه أداء مهمة خطرة.
>
> إن الصحفيين الميدانيين لديهم مطلق الحرية في عدم الدخول إلى أيِّ منطقة خطرة. لا شك أن أيَّ تغطية صحفية للصراعات وغيرها من البيئات الخطرة تتضمن عنصرًا من عناصر المخاطرة، غير أنه يجب عليك تجنب الأخطار الواضحة والامتناع عن خوض مجازفات تتجاوز الحد المعقول. وقد تنجح من

> مسافة آمنة في تقديم قصة إخبارية بنفس جودة تقديمها من خطوط المواجهة الأمامية. وصحيح أن المصورين الفوتوغرافيين ومصوري الفيديو في حاجة إلى الاقتراب أكثر من الحدث، لكن يمكن لخبرتهم وتدريبهم في الغالب أن يُعزِّزا سلامتهم؛ وذلك من خلال اختيار مواقعهم بعناية. (رويترز ٢٠٠٧: ٣٨٢)

يتناول الفصل العاشر من هذا الكتاب مسألة السلامة بمزيد من التفصيل، لكن يجدر بنا التأكيد على أنه من المهم ألَّا تُرسِل الوكالات سوى المتطوعين المزودين بالتدريب والخبرة اللائقين لتغطية المناطق ذات الأوضاع الخطرة.

إن إنشاء وكالة إخبارية مكتبًا لها في بؤرة مضطربة كالعراق، مثلًا، ينطوي على بنية تحتية هائلة مكوَّنة من مراسلين دوليين ومراسلين محليين ومراسلين غير متفرغين ومصادر للمعلومات وطهاة وسائقين وحراس أمن ومستشارين أمنيين.

لا تتخذ وكالات الأنباء قرارات التغطية الإخبارية بمعزل عن قضية السلامة، بل تضعها نُصب أعينها بصفة مستمرة وتعقد مشاورات متكررة مع المستشارين الأمنيين، الذين عادةً ما يكونون عسكريين سابقين، وكبار المحررين الذين يتحملون المسئولية الكبرى لتحديد قواعد التحرك والتغطية التي ينبغي اتباعها يوميًّا.

ورغم اتخاذ الاحتياطات اللازمة، تتعرض جميع الوكالات الإخبارية لفقدان مراسلين لها إثر الصراعات والأزمات الدولية؛ ورغم ذلك، يبقى السعي الحثيث لإبقاء الصحفيين في مأمن قَدْر الإمكان هدفًا أساسيًّا.

يوجد في مقر رويترز الرئيسي بلندن، وفي أهم مكاتبها حول العالم، كتاب تذكاري يضم أسماء صحفيي رويترز الكُثُر الذين فقدوا حياتهم أثناء تغطيتهم للأخبار في سبيل تعريف العالم بما يجري. إن مثل هذا الكتاب يقف شاهدًا على شجاعة هؤلاء الصحفيين وتضحياتهم، وشاهدًا أيضًا على الإجراءات الواجب اتخاذها فيما يتعلق بمسألة سلامة الصحفيين.

الصحفيون ينتقلون إلى قلب الأحداث، مُعرِّضين حياتهم للخطر بالوجود في أماكن غير مألوفة؛ ليعودوا بصورة محايدة وصريحة للحقيقة إلى قُراء يبعدون آلاف الأميال، وقد ظلت هذه الصورة لأكثر من قرن ونصف من الزمان هي النموذج الشائع لوكالات الأنباء خاصة ولوسائل الإعلام في العموم.

لكن هذا النموذج يواجه الآن تحديًا.

إن مثل هذه الرؤية الأحادية الهرمية للعالم في القرن الحادي والعشرين تتعرض لهجوم على يد التغييرات التي تُحدِثها التكنولوجيا.

فنظرًا لإمكانية النشر الذاتي للمدونات على شبكة الإنترنت، صار بمقدور الجميع أن يكونوا صحفيين، ويمكن لأي شخص أن يؤرخ للأحداث، سواءٌ أكانت ذات أهمية كبيرة أم متواضعة، ولم يعد الصحفي يتمتع بذلك الدور المتميز والحصري.

بدأ الجمهور يتولَّى جمع الأخبار بذاته ويتجه إلى تسلية نفسه؛ ولذلك ينبغي على الموسيقيين والشعراء والفنانين الكوميديين والمراسلين والمؤرخين في وسائل الإعلام أن يرسخوا لأنفسهم مكانة متميزة، وذلك لكي يُكتب لهم البقاء على الساحة ومجاراة التطورات.

تمتلك وسائل الإعلام سمات معينة من شأنها أن تساعد في هذه المهمة.

يتمتع المهنيون بقدرة أكبر على الوصول للمعلومات: فبخلاف شخص عادي ربما يتصادف وجوده في المكان المناسب في الوقت المناسب، تبذل وكالات الأنباء كثيرًا من الوقت والمال لضمان وجود مراسليها في المناطق الرئيسية. وبالنسبة إلى المراسلين، يسهل عليهم الوصول إلى صُنَّاع الأخبار والمعلومات مقارنةً بغير المهنيين؛ إذ يرغب الجميع في إخبارهم بما لديهم من معلومات نظرًا لسُمعتهم الإعلامية وقدرتهم على الوصول إلى جمهور واسع.

يتمتع المهنيون بالاحترافية: فبفضل تبنِّي الصحفيين لمدونات السلوك المهني والأخلاقي والتزامهم بها، يستطيعون أن يحيطوا تقاريرهم بغطاء من الثقة، لكن كما رأينا فيما ذُكِر أعلاه فإن هذا الغطاء رقيق ويجب تقويته.

يعمل المهنيون على نحوٍ منهجيٍّ: يمكن للصحفيين أن يكتبوا مقالات عالية الجودة تفي بالمستوى المطلوب، وذلك بفضل اتباعهم لمنهجية معيارية في إنتاج التقارير، وذلك بدءًا من الفحص الدقيق لمصادر المعلومات وتدوين الملاحظات، وانتهاءً بالكتابة والتحرير اللذين تم التدريب عليهما جيدًا.

يتمتع المهنيون بالخبرة: فهم يحملون سنوات من التعلم أجادوا خلالها كيفية وضع الأحداث في سياقها واستيعاب الظواهر المعقدة، وهو ما يمكن أن يساعد القُرَّاء.

يتمتع المهنيون بسعة الانتشار: إن القدرة على امتلاك ملايين القُرَّاء بسهولة نتيجة للسمعة التجارية والتقليد تتيح للصحفي الوصول إلى المعلومات، وتضفي على تقاريره فاعلية.

ورغم كل ما سبق، يتمتع «الصحفيون المواطنون»، والذين يمثلون جزءًا من جمهور الصحفيين المهنيين لكنهم مستقلون عنهم في الوقت نفسه، بمكانة كبيرة أيضًا.

يمتلك الصحفيون المواطنون سعة انتشار أيضًا، وبإمكانهم بناء جمهور من القُراء وتدشين حركة فكرية سريعًا، مستفيدين من مناخ الديمقراطية السائد على شبكة الإنترنت.

كما أن لهم ميزة، ألا وهي سعة الوجود: فغالبًا ما سيوجد في مسرح الأحداث شخص له اتصال على شبكة الإنترنت لحظة وقوع الأحداث حتى لو لم يوجد صحفي محترف.

من بين الظواهر الأكثر إثارة للاهتمام ظهور المدونات كمنابر نقدية لاذعة للإعلام، تعمد لمهاجمة «وسائل الإعلام الرئيسية» عند ارتكاب أخطاء في نقل الوقائع أو الانزلاق في تغطية صحفية غير محايدة. كان النقد فيما مضى حكرًا على الصحفيين الآخرين أو على الأكاديميين، أما الآن فمتاح لأي شخص لديه شكوى من صحفي أو وكالةٍ إخباريةٍ ما منبرٌ فعَّال ومتاح بسهولة يستطيع من خلاله نشر تعليقاته.

وفي عالم تتعرض فيه مصداقية الصحفيين للهجوم، لا يسع وكالات الأنباء ووسائل الإعلام الأخرى تجاهل هؤلاء النقاد الارتجاليين أو ببساطةٍ الخضوع أمام هجماتهم؛ فلا بد من تقييم كل نقد بعناية وإنصاف، ولو اتضحت صحته، فإن على الوكالة أن تُقرَّ بأخطائها.

تذكَّر أيضًا أن الصحافة، في أغلب أنحاء العالم، مهنة يُنصِّب أصحابُها أنفسَهم فيها بأنفسهم؛ فليس ثمة اختبارات ينبغي اجتيازها، ولا شروط للوصول إلى درجة وظيفية معينة. ويمكن تعريف الصحفي بأنه الشخص الذي يراعي عمله أشكالًا ومعايير معينة، والذي باستطاعته الإشارة إلى مجموعة من الأعمال باعتبارها دليلًا على كفاءته، والذي يقع عليه اختيار مؤسسةٍ ما ليكون ضمن كوادرها الصحفية، ومن الواضح أن جميع ما سبق من معايير، ما عدا المعيار الأخير، يمكن أن ينطبق على أي شخص ينشر أعماله ذاتيًّا.

إذًا، نحن نشهد عصرًا يجب أن تتعايش فيه المدونات وصحافة المواطن جنبًا إلى جنب مع الصحافة التقليدية.

إن صورة مثيرة التقطتْها كاميرا الهاتف المحمول ربما تتفوق على صورة فوتوغرافية التقطتْها عدسة مهني محترف. والتعليقات المتاحة مجانيًّا للجميع في المدونات قد تكون أكثر عمقًا وفائدة من رواية واقعية للأخبار. كما أن تقريرًا أعدَّه شاهد عيان ونشره على موقعه الإلكتروني يمكن أن يقدِّم وصفًا أكثر حيوية من تقارير الصحفيين المحترفين.

أو قد تكون جميعها مفبركة؛ لذا، في عالم لم تَعُد المعايير المؤسسية هي المعايير الوحيدة الموجودة على الساحة، تكتسب القواعد القديمة المتعلقة باستقاء المعلومات والتحقق من مصادر الأخبار وشفافيتها طابعًا جديدًا ملحًّا.

ويمكن للمدونات والمحتوى الذي ينتجه المستخدمون أن يتعاونا مع وكالات الأخبار التقليدية، وقد يتنافسان معها أيضًا.

لكن تكمن المنافسة الكبرى في التعامل مع الإغراق المعلوماتي.

يشهد عالمنا المعاصر صخبًا تُحدثه أبواق الإعلام السمعي والمرئي وانتشارًا غزيرًا في المدونات؛ إذ قد تمتد روابط المدونات حول أي موضوع لمئات أو آلاف المواقع.

كما يشهد أيضًا ضجيج النقاشات المنفعلة، التي تبدو خلالها الشبكات التليفزيونية الشهيرة في مناطق مختلفة حول العالم أحيانًا مجرد قنوات يستغلها رموز المجتمع لصب جام غضبهم على الأطياف السياسية المختلفة معها.

ويشهد، إلى جانب كل ما سبق، استخدامًا مكثفًا لشبكة الإنترنت، بدءًا من مواقع الويكي مرورًا بمحرك البحث جوجل وخدمة الأخبار خاصته.

يمكن لوكالات الأنباء أن تضيف قيمة وتحليلًا وأن تُمثِّل إضافة إلى الحوارات التشاركية. لكنها لا يسعها أبدًا مرة أخرى احتكار أي جزء من المجال، بل غاية ما يمكن أن تقدمه هو المساعدة في اختراق الإغراق المعلوماتي، وترتيب أهم الوقائع، والنصوص، والتعليقات حسب أهميتها، وتنظيمها، وإبرازها بحيث يتسنَّى للجمهور بمختلف فئاته قراءتها.

لقد بدأت هذه الوكالات نقل المعلومات بواسطة الحمام الزاجل والتلغراف، غير أن سرعة نقل المعلومات إلى الجمهور لا يمكن أن تظل العامل الوحيد في استمرارها خلال المائة والخمسين عامًا المقبلة.

فلو استمرت أهمية الوقائع، فسوف تستمر وكالات الأنباء.

وإذا كانت اقتصاديات التغطية الإخبارية تعني أن وكالات الأنباء وحدها هي القادرة على إقامة مكاتب كبيرة لها حول العالم بما تمتلكه من قواعد واسعة من العملاء، فسوف تستمر تلك الوكالات.

وإذا استمرت أهمية المعايير العالمية للأخلاق الصحفية والتحرير، فسوف تستمر وكالات الأنباء.

وإذا استمرت أهمية نقل الأخبار للعالم، فسوف تستمر وكالات الأنباء.

لكنها لن تظل كسابق عهدها، ولا يسعها ذلك.

إن علاقات الوكالات الإخبارية مع جمهورها تعتريها تغييرات دائمة، وهو ما سيؤدي، لا محالة، إلى تغييرات في العملية والمنتج.

لذا، فإن المستقبل سيكون للشراكة والانتقاء وإضافة السياق وتقديم التفسيرات.

وسيكون أيضًا لإيجاد وسائل جديدة لأداء دور أكثر أهمية بالنسبة إلى جمهور يرغب في إسماع صوته وإمضاء وقت في مطالعة ما يظنه هامًّا، وليس فقط ما قد يختاره المحرر له.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) أشار ديفيد شليزنجر إلى أن الدراسات الحديثة التي أجراها مركز بيو أظهرت تراجعًا ملحوظًا في الاهتمام بالأخبار الدولية؛ فكيف يمكن لوكالات الأنباء أن تُواصل تغطيتها لأخبار العالم إذا لم يُبدِ القُراء، والمشاهدون، والمستمعون اهتمامًا بتلك الأخبار؟

(٢) ما المنهجية التي ينبغي على محرري الأخبار اتباعها لتحقيق التوازن المطلوب بين نشر الأخبار الأكثر طلبًا ونشر الأخبار الأكثر أهمية؟

(٣) إذا اختفت وكالات الأنباء غدًا، فكيف سيؤثر هذا على حرية تدفق المعلومات حول العالم؟

(٤) هل سيكون لوكالات الأنباء دور في مستقبل الصحافة؟

هوامش

(١) إن جميع عائدات الملكية الفكرية الخاصة بهذا الكتاب والمستحَقَّة لمحرريه سيجري التبرع بها لصندوق كورت شورك التذكاري، وهي المؤسسة التي أُنشئت باسمه لتكريم أبرز الصحفيين المستقلين العاملين في مجال الصحافة المطبوعة والذين قدموا أعمالًا متميزة في بلدانهم.

(٢) ترجع جذور وكالة فرانس برس إلى وكالة هافاس المؤسسة عام ١٨٣٥ (http://www.afp.com/english/afp/?pid=history). ويرجع تاريخ أسوشيتد برس إلى عام ١٨٤٨ (http://www.ap.org/pages/about/history/history_first.html). بينما تأسَّست رويترز عام ١٨٥١ (http://about.reuters.com/aboutus/history). تُعتبر تلك الوكالات الثلاث أهم الوكالات الإخبارية في العالم اليوم، وكانت ثمة وكالة رابعة تُدعى يونايتد برس إنترناشونال، لكن نجمها أفل عقب إفلاسات متتالية. ويمتلك كثير من البلدان وكالاته الإخبارية الوطنية، التي تكون أحيانًا بالغة الضخامة وتمد صحفها الخاصة بالأخبار بلغاتها، لكنها نادرًا ما تتمتع بمبيعات دولية واسعة النطاق.

(٣) روَّج كريس أندرسون لمصطلح «الذيل الطويل» وذلك في مقال كتبه لمجلة وايرد، وما لبث أن حوَّله لاحقًا إلى كتاب نُشر عام ٢٠٠٦. يصف أندرسون من خلال هذا المصطلح أن الشركات العاملة في الاقتصاد القائم على الإنترنت يمكن أن تزدهر ليس فقط من خلال مبيعات المنتجات الرائجة التي يمثلها الطرف السميك لمنحنى الطلب، بل أيضًا من خلال الاحتفاظ بمخزون ضخم من المنتجات الأقل شيوعًا والموجهة إلى شرائح بعينها، ومِن ثَمَّ تتمكن من إرضاء رغبات أعداد كبيرة من تلك الشرائح المتخصصة التي تختلف أذواقها عن الغالبية الساحقة من الجماهير.

(٤) لو حدث وواجهت أيًّا من هذه الأسئلة في الاختبار النهائي لهذا المقرر، فتأكد أنه ليس هناك جواب صحيح، بل فقط عدة إجابات خاطئة!

(٥) أقدِّم هذه المقترحات بناءً على خبرتي بصفتي مدير مكتب رويترز في الصين من عام ١٩٩١ إلى ١٩٩٤، ورئيس للتحرير في إقليم الصين العظمى من عام ١٩٩٤ وحتى ١٩٩٥.

الفصل الثالث

التكنولوجيا والسرعة والذوق العام: جبهات القتال الثلاث لوكالات الأنباء في القرن الحادي والعشرين

نايجل بيكر

أتاحت التكنولوجيا لوكالات الأنباء الوجود على الساحة الإعلامية، ولديها الآن القدرة على تدميرها. غير أنه في قلب كل تهديد تكمن فرصة؛ فالتكنولوجيا تُمكِّن الوكالات الدولية أيضًا من زيادة سرعة وتكرار التغطية الإخبارية من داخل بعضٍ من أشد مواقع العالم عدائية وصعوبة في الوصول إليها.

في منتصف القرن التاسع عشر، سمح نقل الكلمات عن طريق التلغراف لوكالات الأنباء الوطنية والدولية بنشر الأخبار على نطاق واسع إلى الصحف.

ثم ظهر نموذج مشابه واستطاع بسهولة نسبيًّا أن يصمد لما يقارب المائة والخمسين عامًا. وفي إطار هذا النموذج، كانت تتولَّى الوكالة الإخبارية تغطية خبرٍ ما مرةً واحدة، ثم تبيع هذا الخبر عدة مرات، عادةً إلى المئات أو الآلاف من عملائها المشتركين، مُستعينةً في ضخ الأخبار إليهم بنظام البرق.

ثم قامت الثورة الرقمية في ثمانينيات القرن العشرين. ومنذ ذلك الحين، غيَّرت التكنولوجيا، ولا سيما شبكة الإنترنت، طريقة جمع الأخبار ونشرها واستخدامها، بالإضافة إلى طبيعة المنافسة الإخبارية؛ فمن الناحية النظرية، كانت هذه المرة الأولى في التاريخ

التي تصير فيها التكنولوجيا في متناول أيِّ شخص يرغب في إنشاء وكالته الإخبارية الخاصة.

وبفضل شبكة الإنترنت، صار من الممكن جمع الكلمات ونشرها على نطاق عالمي بتكلفة ضئيلة أو دون تكلفة على الإطلاق. كما أن انخفاض أسعار الكاميرات والتحسن الدائم في نوعية الضغط الرقمي تُرجِما إلى سهولة في نشر الصور الفوتوغرافية ومقاطع الفيديو على شبكة الإنترنت.

ويمكن مشاهدة آثار جميع التطورات السابقة في ظاهرة «صحافة المواطن» التي يشهدها القرن الحادي والعشرين. ويمكن تعريف تلك الصحافة بأنها الصحافة التي يمارسها أفراد من الجمهور؛ إذ يُساهمون في تغطية الأحداث — وخاصة أهم الأخبار كالهجمات الإرهابية أو الكوارث الطبيعية.

لكن بينما تنقسم وسائل الإعلام الإخبارية إلى قطاعات متخصصة تخدم شرائح جماهيرية مختلفة الاهتمامات أو الآراء، تبدو وكالات الأنباء، حتى هذه اللحظة، محتفظة بموقعها في قلب المنظومة الإخبارية العالمية.

أشار بحث أجراه كريس باترسون، الأكاديمي بجامعة ليدز، نُشر في ٢٠٠٦ إلى أن ثمة اعتمادًا متزايدًا على التغطية الإخبارية التي تجريها وكالات الأنباء للأخبار الدولية وتنشرها على شبكة الإنترنت، وذلك بعد إخضاعها لقليلٍ من التحرير أو دون تحرير ألبتة. وخلص باترسون إلى أن «الحديث الدائر في نطاق الرأي العام العالمي بشأن الأحداث الدولية الهامة يتشكل إلى حدٍّ كبيرٍ بالممارسات الإنتاجية والأولويات المؤسسية لوكالتين إخباريتين: رويترز وأسوشيتد برس» (٢٠٠٦: ٢٠).

اكتشف باترسون أن «متوسط الاستخدام القابل للقياس» للتغطية الإخبارية التي أجرتها الوكالتان الإخباريتان السابقتان زاد على مدار السنوات الخمس الماضية عبر الإنترنت.

بيَّن تحليل لستة مواقع متخصصة في تجميع الأخبار — وهي إيه أو إل، وياهو، ونانديو، ولايكوس، وإكسايت، وألتافيستا — أن استخدام الأخبار الواردة من وكالات الأنباء ارتفع من ٦٨ بالمائة ليصل إلى ٨٥ بالمائة من المحتوى الخاضع للدراسة بين عامَي ٢٠٠١ و٢٠٠٦، كما ارتفع من ٣٤ بالمائة إلى ٥٠ بالمائة في سبعة من مقدمي المحتوى الإخباري الرئيسيين؛ وهم إم إس إن بي سي، وسي إن إن، وبي بي سي، وإيه بي سي، وسكاي نيوز، وصحيفتا ذا جارديان، وذا نيويورك تايمز.

لم تكن الأسباب واضحة تمامًا. وربما كانت هناك أسباب عدة لهذه الظاهرة؛ ففي الفترة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وخلال الغزو الذي قادته أمريكا للعراق في ٢٠٠٣، كان هناك اهتمام متنامٍ بالأخبار الدولية. ربما كان السبب وراء هذه الظاهرة هو أن الحاجة لتقديم محتوًى أكبر على عدد أكبر من المنصات، كان من شأنها أن تدفع وسائل الإعلام الرئيسية إلى بذل قدر أقل من الموارد لتغطية الأخبار الدولية بنفسها. أو قد يكون السبب هو رغبة تلك المنصات في تحديث الأخبار على مواقعها الإلكترونية على نحو أكثر تكرارًا.

لكن هذه الظاهرة، أيًّا كانت أسبابها، تُظهر أنه لا يزال هناك اعتماد قوي على وكالتَي أسوشيتد برس ورويترز فيما يتعلق بالتغطية الدولية.

في بحث أجرته شركة بي كيو ميديا لصالح أسوشيتد برس، تَبيَّن أن السوق العالمية للمحتوى التحريري المستقى من مصادر خارجية — من نصوص وصور ومقاطع فيديو ورسوم — الذي تبيعه الوكالات والخدمات الإخبارية، من المتوقع أن يزداد نموه من ٥٫٦ مليارات دولار في ٢٠٠٦ ليصل إلى ٧٫٨ مليارات دولار في ٢٠١١.

رغم أن سوق المحتوى النصي يبقى الأكبر بلا منافس، فإن أعلى معدلات النمو يسجلها محتوى مقاطع الفيديو والصور الفوتوغرافية؛ إذ يتوقع أن تزيد سوقهما لما يقرب من الضعف.

رغم أن كثيرًا من الصحف، التي تعد عميلًا تقليديًّا لوكالات الأنباء، تتلقى ضربات من منافسيها الرقميين، يبدو أن وكالات الأنباء قادرة على تحقيق نجاحات في المستقبل ما دامت تمكنت من التكيف مع الاحتياجات المتغيرة في الأسواق الرقمية وأسواق البث التليفزيوني.

إن أهم وكالات الأنباء الدولية تقدِّم نموذجًا يصعب على الآخرين تقليده دون بذل قدر معتبر من الاستثمارات؛ فهي لديها شبكة عالية التطور من الجهات التي تزودها بالأخبار، ويمكنها ضمان وجود تغطية سريعة ومنضبطة بمعايير صارمة لتحقيق الدقة.

في القرن الحادي والعشرين، تتوقف قيمة الاسم التجاري لأي وكالة إخبارية على دقة أخبارها وصحتها أكثر من أيِّ وقت مضى، بحيث تضْمن الشركات الإعلامية أن التغطية الإخبارية لوكالات الأنباء سوف ترسم صورة حقيقيةً وموثوقًا فيها للأحداث، وذلك في عالمنا الذي يعج بالمعلومات.

جدول ٣-١: السوق العالمية للمحتوى التحريري المستقى من مصادر خارجية.*

المحتوى	٢٠٠٦	٢٠١١
النصوص	٣٥٣٣	٤٥٣٩
مقاطع الفيديو	٦٥٧	١٢١٧
الصور	٦٩٨	١١٠٣
الرسوم	٧٢٠	٩٤٠
الإجمالي	٥٦٠٨	٧٧٩٩

* ملحوظة: جميع المبالغ المذكورة في الجدول بالمليار دولار أمريكي (المصدر: بي كيو ميديا).

ورغم أن التكنولوجيا أسهمت في تقليص العقبات التي تواجه الدخول في مجال تقديم التغطية الدولية، فقد ضخت كبرى الوكالات الإخبارية استثمارات هائلة في التقنيات الحديثة بما يكفل لها نقل الأخبار على نحوٍ أسرع من أيٍّ بؤرة مضطربة، مهما كانت بعيدة.

كان تنويع المحتوى الإخباري بتقديم مواد الفيديو مجالًا رئيسيًّا للتوسع، هدفه الوفاء بمتطلبات السوق ومواكبة المزاج العام لهذا العصر الذي يميل نحو تعدد الوسائط. إن الوجود في قلب المنظومة الإخبارية في القرن الحادي والعشرين يتطلَّب تقديم مواد الفيديو، إلى جانب النصوص والصور الفوتوغرافية، إلى الجماهير في كافة أنحاء العالم.

في عالمنا الرقمي، يتسم تلقِّي الجمهور للأنباء بنمط أكثر حركية، وصارت الأخبار تحيط بنا من كل جانب. ولم يعد تلقِّي الأخبار مقيدًا بأوقات أو أماكن محددة؛ لذلك صار لاستخدام الصور أهمية متزايدة في توجيه انتباهنا إلى أبرز الأخبار.

(١) السرعة ومحتوى الفيديو

من المُرجح أن جيناتنا تحمِل شيئًا يهيئنا للانتباه إلى الصور والحركة والصوت؛ إن ما ساعدنا قديمًا في البقاء على قيد الحياة ينبغي أن يُستغل الآن في إدارة الانتباه بفاعلية. (توماس إتش دافنبورت، «الانتباه: الجبهة المعلوماتية التالية»)

تهتم وكالة الأنباء في القرن الحادي والعشرين بالتغيير الواقع في تلقِّي الأخبار في عالم تبقى فيه الأحداث الكبرى محفورة في الذاكرة بفضل الصور المتحركة أكثر من النصوص والصور الفوتوغرافية.

ورغم أن الكلمة المكتوبة كانت العنصر الرئيسي الذي قامت عليه وكالات الأنباء لمائة وخمسين عامًا مضت، فإن مقاطع الفيديو الحية صارت أداة رئيسية في نقل «الأخبار العاجلة»؛ فليس بوسعك أن تكون أسرع من الوقت الآني.

إن أبرز أخبار العقد الأول من القرن الحادي والعشرين حدَّدت معالمها صور الفيديو: اصطدام طائرتين ببرجَي مركز التجارة العالمي بنيويورك خلال هجوم الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١؛ وسماء ليل بغداد المتوهجة بنيران القصف الأمريكي لنظام صدام حسين في بغداد أثناء عملية «الصدمة والرعب» في ٢٠٠٣؛ وموجات تسونامي الزاحفة نحو سواحل آسيا حاملة الدمار إليها أواخر عام ٢٠٠٤.

أسهم تدشين موقع يوتيوب، المتخصص في نشر مقاطع الفيديو ومشاركتها مع الآخرين، عام ٢٠٠٥ في إطلاق موجة مشاهدة مقاطع الفيديو على شبكة الإنترنت، وجذب ملايين المستخدمين العاديين إلى تصوير مقاطعهم الخاصة ونشرها على الموقع.

بحلول عام ٢٠٠٦، شهد العالم تدافعًا من الصحف الأمريكية والأوروبية نحو نشر مقاطع فيديو على مواقعها الإلكترونية، وهو ما أتاحه الانتشار المتزايد لخدمات النطاق العريض والرغبة في تحقيق إيرادات جديدة على الإنترنت، في ظل التراجع المستمر في أعداد من يقرءون الصحف الورقية في الدول المتقدمة.

منذ بداية الألفية الثالثة، صارت كلٌّ من وكالتَي أسوشيتد برس ورويترز أهم مصدر لمقاطع الفيديو الإخبارية الدولية بالنسبة إلى آلاف المواقع والبوابات الإلكترونية. وهما لم تتمكنا من تحقيق هذه المكانة إلا بإمضاء العقد الأخير من القرن الماضي في الاستعداد لاستقبال عصر الوسائط المتعددة.

إن توماس إتش دافنبورت الذي اقتبسنا كلماته آنفًا ليس صحفيًّا، بل أكاديمي وخبير أمريكي مرموق في مجال إدارة المعلومات للشركات. منذ أواخر تسعينيات القرن الماضي، أخذ دافنبورت يُحاجج بأن هناك قدرًا هائلًا من المعلومات في متناولنا بحيث يتوجب علينا أن نكون مشاركين فاعلين في «اقتصاد الانتباه»، حيث تُعتبر صور الفيديو الفعالة هي أفضل الطرق لتوصيل أي رسالة.

لطالما كانت السرعة شرطًا أساسيًّا في صناعة الأخبار، غير أن أهميتها تضاعفت أكثر من أي وقت مضى في عصر الإنترنت وقنوات الأخبار التليفزيونية المتاحة على مدار الساعة.

يمكن لمواد الفيديو أن تكون وسطًا مباشرًا أيضًا؛ فتنقل إلينا الخبر لحظة وقوعه وتكشفه لنا وكأننا نعاينه بأنفسنا.



شكل ٣-١: إلين نيكماير وهي تستخدم كمبيوترًا محمولًا، ومولِّدًا متنقلًا، وهاتفًا متصلًا بالأقمار الصناعية في مارس ٢٠٠٣ (نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور لورين ريبور).

لكن هل تساعد هذه المواد المرئية في تعزيز استيعابنا للأحداث، أم أنها لا تمنحنا سوى فهم سطحي لها؟ أنواجه خطر نقل ما يمكن أن تراه الكاميرات فقط وتجاهل القضايا الهامة التي لا تصلُح للخضوع للتغطية السريعة؟ وهل تؤدي السهولة المتزايدة في الحصول على مواد الفيديو إلى مشكلات أخلاقية وذوقية جديدة؛ حيث يتعرض الصحفيون والمشاهدون لمزيد من المشاهد الصادمة — بما في ذلك لحظات الاحتضار — في الحروب والمجاعات والإعدامات؟

أم أن الأمر لا يتعدى التالي: دائمًا ما سيرغب الصحفيون في أن تُستخدَم أخبارهم، وسيتنافسون ليصل الجمهور إلى أخبارهم بأفضل الطرق وأسرعها؟ وإذا لم تقدِّم وكالات

القرن الحادي والعشرين الأخبار في مقاطع فيديو جاذبة للأنظار لتصل إلى السوق المستهدفة في أسرع وقت ممكن، فسوف تفقد أهميتها بالنسبة إلى عملائها وربما تختفي من الوجود.

يجب على الوكالات الإخبارية العاملة في الألفية الجديدة أن تحارب على ثلاث جبهات: السرعة، والتكنولوجيا، والذوق العام:

- «السرعة»: كيف يمكن لوكالات الأنباء أن تظل الأسبق في تغطية الأخبار في ظل توافر الوسائل التكنولوجية، التي بإمكانها تسجيل الأحداث ونشرها على الإنترنت، في متناول أي شخص؟
- «التكنولوجيا»: إن مائة وخمسين عامًا من نشر الأخبار عبر التلغراف سمحت لوكالات الأنباء بالوجود، لكن هل ستختفي مع دمقرطة نشر الأخبار التي تحدُث حاليًّا؟ أيهما سيقود وكالات الأنباء: الصحافة أم التكنولوجيا؟
- «الذوق العام»: هل ستتمكن وكالات الأنباء من الاحتفاظ بسُمعتها، التي دأبت على حمايتها بحرص شديد، فيما يتعلق بالدقة والإنصاف والتوازن في مواجهة جمهور الويب الذي يرغب، فيما يبدو، في الوصول المباشر إلى الأخبار دون وسيط، وفي ظلِّ تَفوُّق الصادمِ والمثير على المُهم؟

لكن كما تقول المزحة القديمة: قطيع الخراف لا يمكن أن يُخطئ.

بذلت وكالات الأنباء الدولية استثمارات هائلة في إنشاء بنيتها الأساسية للإنتاج التليفزيوني منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي.

ففي عام ١٩٩٣، استحوذت رويترز على فيزنيوز، إحدى أكبر وكالتين دوليتين للأخبار التليفزيونية في العالم آنذاك، وكانت رويترز قبل ذلك التاريخ تملك حصة في الوكالة جنبًا إلى جنب مع شبكتَي بي بي سي وإن بي سي الأمريكية.

وأطلقت أسوشيتد برس في ١٩٩٤ وكالتها الخاصة للأخبار التليفزيونية، وكالة أسوشيتد برس التليفزيونية، بعد أن حذرها مستشاروها التجاريون من مجموعة بوسطن الاستشارية من أنها ستعاني معاناة شديدة في القرن الحادي والعشرين لو لم تضف عنصر الفيديو إلى محتواها الإخباري.

وفي عام ١٩٩٨، استحوذت أسوشيتد برس على الوكالة الأخرى الوحيدة للأخبار التليفزيونية، وكالة وورلد وايد للأخبار التليفزيونية، في مسعاها لتوحيد السوق، وأنشأت ما أُطلق عليه وكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية.

بحلول القرن الحادي والعشرين، كانت أكبر وكالتين دوليتين للأنباء، أسوشيتد برس ورويترز، مسلحتين بمحتوى الفيديو وجاهزتين لدخول عصر خدمات النطاق العريض، ولكن على أساسٍ متينٍ من أعراف شبكات البث التقليدية.

كان عدد العملاء المستفيدين من محتوى الفيديو الذي تُنتجه الوكالتان يبلغ حوالي ٥٠٠ شبكة بث وطنية ودولية. وكانت الخدمة التي تقدمها الوكالتان تشبه ما تقدمه قناة أخبار تليفزيونية دون مذيعي أخبار أو مراسلين يظهرون على الشاشة. وكانت لدى كل وكالة شبكة من القنوات مخصصة لإرسال توليفة يومية من أهم القصص الإخبارية، والرياضية، والترفيهية إلى عملائها.

لم تكن المقاطع بوجهٍ عامٍّ تحمِل أي تعليقات، لكن الوكالات كانت ترسل موادَّ نصية منفصلة إلى شبكات البث التي كانت تستخدم صور الفيديو دون الإشارة، غالبًا، إلى مصدرها.

ومن بغداد إلى بكين، ومن منصات عروض الأزياء في باريس إلى بساط هوليوود الأحمر، اعتمد أغلب شبكات البث على أهم وكالتين دوليتين للأخبار في الجزء الأكبر من تغطيتها الدولية للأخبار.

كان ذلك، من جانبٍ، حتميةً اقتصادية: كان من الأوفر بالنسبة إلى شبكات البث أن تسدد رسومًا سنوية إلى الوكالات مقابل تغطيتها الإخبارية لا أن تتولَّى التغطية بنفسها.

لكن من جانبٍ آخر أيضًا، بلغت وتيرة التغيير حدًّا سمحت معه التكنولوجيا بقدر أكبر وأوسع من التغطية الإخبارية. فلم يكن ممكنًا إلَّا لعدد قليل من شبكات البث الدولية الوصول إلى الأخبار في الوقت المناسب لإرضاء مشاهديها الذين يتوقعون تغطية فورية للأحداث في ذلك العدد المتنامي من قنوات الأخبار المتاح لديهم.

بحلول عام ٢٠٠٧، كان لدى أسوشيتد برس حوالي ٢٠٠ كاميرا فيديو موزَّعة على أكثر من ٨٠ مكتبًا إخباريًّا حول العالم. كما أشارت رويترز إلى وجود طواقم تليفزيونية في أكثر من ٨٠ مكتبًا إخباريًّا تابعًا لها. وفي العام نفسه، دشنت الوكالة الدولية الثالثة، فرانس برس، خدمتها التليفزيونية التي ضمت ٤٠ صحفيًّا تليفزيونيًّا و١٠ مكاتب دولية خارج نطاق موطنها الأم؛ فرنسا.

في الوقت الذي كانت تعتمد فيه جميع شبكات البث الوطنية والدولية تقريبًا على أسوشيتد برس في تغطيتها الإخبارية، قُدِّر عدد الأشخاص الذين قد يشاهدون صورة تليفزيونية رئيسية لحدث مهمٍّ، مثل إعصار تسونامي، بما يصل إلى مليار شخص.

من الأمور التي لا يعرفها سوى القليل، ولم يُسجلها سوى الأقل، أن وكالات الأنباء قد لعبت دورًا رئيسيًّا في تسريع عملية نشر مواد الفيديو حول العالم خلال حقبة ما قبل الإنترنت في أوائل التسعينيات.

قبل ذلك الحين، لم يحظَ أغلب العالم من أهم وكالتين للأنباء بأكثر من «نافذتين إخباريتين» يوميًّا، مدة كلٍّ منهما ١٥ دقيقة، تضُمَّان مقاطع مصوَّرة قصيرة محررة تتناول أهم الأخبار الدولية.

على سبيل المثال، لو اعتمدت شركة تليفزيونية في آسيا على وكالة إخبارية في الحصول على مقاطع تليفزيونية للأخبار الدولية، فإنها نادرًا ما كانت تتلقى تغطية اليوم نفسه، بل كان أغلب المقاطع من اليوم السابق على الأقل، مع شحن بعض المواد الإخبارية بالطائرات عبر القارات إلى مقرات الوكالات في لندن قبل بثها لتوفير تكاليف البث الباهظة عبر الأقمار الصناعية.

ثم أطلقت وكالة فيزنيوز في أوائل التسعينيات خدمة سمَّتها فيز يوروب، وهي التي بمقتضاها أصبح لها اتصال دائم بالقمر الصناعي بأوروبا تبثُّ من خلاله الأخبار على مدار الساعة إلى السوق الأوروبية المربحة، وذلك بمجرد توافرها.

ويُعد تدشين أسوشيتد برس لخدمتها التليفزيونية في ١٩٩٤ نقلة نوعية في المجال؛ فقد تبنَّت الوكالة نقلًا دائمًا للأخبار يستمر على مدار الساعة ووجَّهته إلى أغلب مناطق العالم، وما لبث منافساها، رويترز وَوورلد وايد، أن سارا على دربها.

لذا، بحلول منتصف التسعينيات من القرن الماضي، بدأت شبكات البث في آسيا والشرق الأوسط، ولأول مرة، في تلقِّي تغطية إخبارية للأحداث يوم وقوعها من جميع أنحاء العالم على نحو منتظم.

وصار لوكالات الأنباء دور أكثر حيوية في المنظومة المسيطرة على كيفية نقل محتوى الفيديو حول العالم.

بدأت، في الوقت نفسه، تكلفة جمع الأخبار التليفزيونية تشهد تراجعًا حادًّا؛ فقد أدى إطلاق المزيد من الأقمار الصناعية وإزالة القيود التنظيمية على الاتصالات في أغلب مناطق العالم إلى انخفاض في تكاليف استعمال الأقمار الصناعية لجمع الأخبار، وهو ما كان يعني بدوره زيادة في سرعة توفير التغطية الإخبارية.

ولكن في عام ١٩٩٧، وقع حدث قليلًا ما تذكره المصادر غير أنني أزعم أنه مهَّد الطريق لمحتوى الفيديو كي يتحدَّى هيمنة الكلمة المكتوبة على تحديد أجندة التغطية الإخبارية الدولية.

فقد صار بالإمكان، ولأول مرة، إرسال فيديو مضغوط من أيِّ مكان بالعالم عبر هاتفٍ متصلٍ بالأقمار الصناعية، ما دام بحوزة الصحفيين المعدَّات الأساسية ومصدر للطاقة.

كان لا بد، في السابق، من إرسال مقاطع الفيديو من محطة تليفزيونية قادرة على الاتصال بالأقمار الصناعية الدولية لتصل إلى مراكز الإنتاج الرئيسية التابعة لوكالات الأنباء. وكان البديل لهذه العملية هو نقل ما يصل إلى طنَّين من معدَّات البث المحمولة إلى موقع الحدث، وهو ما كان في الغالب من المستحيلات في مناطق الحروب النائية أو في الدول التي كانت ترفض أنظمتها العدائية السماح بدخول هذه المعدَّات.

غير أنه بمجرد أن أصبح بالإمكان إرسال مواد الفيديو عبر هاتف متصل بالأقمار الصناعية، فإن جميع المعدَّات اللازمة أصبحت أقل بحيث تسعها حقيبة سفر متوسطة الحجم.

وفجأة، لم تعد أي بقعة في العالم مستثناة من التغطية الفورية للأحداث، وصار بالإمكان التحايل على الأنظمة العدائية.

جرت العادة أن تستخدم الدول الشمولية المحطات التليفزيونية كنقاط تحكُّم يمكن أن تستخدمها للتلاعب بالرسائل الإعلامية الموجهة إلى الجماهير المحلية، ويمكن أن تفرض من خلالها رقابتها على أي تغطية تليفزيونية فورية موجهة إلى العالم الخارجي أو تحجبها بالكلية.

لكن تكنولوجيا الضغط الجديدة نجحت في كسر قبضة الطغاة الخانقة؛ فقد أمكن، ولأول مرة، نقل محتوى الفيديو بنفس سرعة وتواتر نقل الكلمة المكتوبة تقريبًا، محققًا في الغالب تأثيرًا يفوق بكثيرٍ تأثير الكلمة المكتوبة.

استعانت وكالة أسوشيتد برس بهذه التكنولوجيا في سبيل تحقيق تأثير تنافسي قوي لأول مرة في أوائل عام ١٩٩٧ في الدولة الأفريقية التي كان يُطلق عليها زائير، وتسمى الآن جمهورية الكونغو الشعبية الديمقراطية. زامن ذلك قيام قائد التمرد، لوران كابيلا، بقيادة قواته عبر الدولة الأفريقية التي تقارب في مساحتها أوروبا الغربية لإسقاط حكومة الرئيس موبوتو سيسي سيكو الفاسدة.

تابَع فريق تليفزيوني تابِع لأسوشيتد برس تقدُّم كابيلا، وأرسل تقارير فورية منتظمة باستخدام تكنولوجيا الضغط الجديدة، ونقل مقاطع الفيديو الملتقَطة عبر هاتف متصل بالأقمار الصناعية. وما كان من منافسي الوكالة إلا أن تراجعوا منسحبين نظرًا لأن

موادهم الإخبارية كان لا بد من نقلها إلى مطار لتقطع مئات الأميال إلى كينيا قبل بثها، وهو ما يعني تأخيرًا في إيصال الخبر يصل إلى ثلاثة أيام.

اعتُبِرَ ذلك الحدث نصرًا تنافسيًّا لصالح أسوشيتد برس، لكن دلالته كانت أبعد من ذلك؛ فقد فتحت هذه التكنولوجيا مناطق كبيرة من العالم أمام المزيد من التغطية التليفزيونية الدولية.

كانت المعادلة، حتى ذلك الحين، بسيطة؛ فلو طرأ خبر دولي ووصل إلى وكالات الأنباء، عادةً كنص مكتوب عبر التلغراف، فلا بد للجناح التليفزيوني في الوكالات وشبكات البث أن يقيِّم إمكانية حصوله على تغطية تليفزيونية في إطار زمني معقول.

لم يخضع كثير من الأخبار لتغطية الكاميرات التليفزيونية، ولم يُعرَض كثير من مقاطع الفيديو التي صُوِّرت في هذا الشأن، ويُعزى ذلك إلى قرار اتخذته هذه الوكالات والشبكات بأنه حالما يصل الفيديو المصوَّر إلى مقرها في لندن سيكون الاهتمام العام بالخبر قد تلاشى.

لكنني أزعم أنه سواءٌ أكان الحديث عن أفغانستان أم العراق أم الصومال أم إثيوبيا، فإن القدرة على نقل مقاطع الفيديو المضغوطة أحدثت تحولًا في الأعراف التي تتَّبعها وكالات الأنباء التليفزيونية في مهامها الصحفية، كما غيرت توقعات شبكات البث والجماهير بشأن ما يمكنهم مشاهدته من مناطق العالم الأبعد مسافة والأشد خطورة.

منذ مطلع الألفية، ازداد تدفق مقاطع الفيديو من أهم المراكز السكانية في العالم عبر الإنترنت، مما ترتب عليه أمران؛ أولًا: أن كمية مقاطع الفيديو ازدادت نتيجة لانخفاض تكلفتها كثيرًا إذا قورنت باستخدام الأقمار الصناعية، وهو ما يعني قدرة وكالات الأنباء التي تعمل تبعًا لميزانية يومية على تغطية المزيد من الأخبار. ثانيًا: لم تعد التغطية الإخبارية خاضعة لنفس القدر من الفحص والتدقيق على يد الأنظمة التقييدية؛ ففي السابق كانت نقطة البث في المحطة التليفزيونية نقطةً للرقابة أيضًا.

ورغم ذلك، فإن السباق لم ينتهِ بعدُ بأيٍّ حال من الأحوال؛ فغالبًا ما تحفِّز الحرب الطاقة الإبداعية، وهو ما تحقَّق في السنوات القليلة الأولى من القرن الحادي والعشرين.

ففي الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، تسمَّر مئات الملايين من المشاهدين لبضع ساعات وهم يطالعون الصور التليفزيونية المباشرة لهجوم تنظيم القاعدة على مركز التجارة العالمي بنيويورك، الذي خلَّف ما يقارب ٣ آلاف ضحية.

إن المأساة الحية المتمثلة في محاولات الهرب من البرجين المشتعلَيْن ثم انهيارهما في النهاية كانت على الأرجح أكثر تغطية إخبارية مباشرة شهدها العالم لحدث من حيث المأساوية والاستدامة.

وبينما تكشَّفَت هذه القصة الإخبارية في قلب أكبر الأسواق التليفزيونية في العالم، بدا أن الشركات التليفزيونية كانت تتنافس في نقلها على سرعة السبق لا عمق التناول. لا شك أن البث التليفزيوني المباشر يستنفد موارد كبيرة؛ لذا كلما بذلت الشركات المزيد من المال لتقديمه، قلَّت مواردها المتاحة للإنفاق على التغطية الإخبارية الاستقصائية أو المغامِرة، والتي لا تقل تكلفة عن عملية البث المباشر.

حين اتخذت الولايات المتحدة الأمريكية قرارها بغزو العراق في ٢٠٠٣، نشبت معركة أخرى في سبيل جعلها الحرب الأولى في التاريخ التي تجري تغطيتها مباشرة من خطوط المواجهة الأمامية.

في بعض الأحيان، كانت العمليات اللوجستية المرتبطة بنقل التكنولوجيا اللازمة لنقل بث تليفزيوني مباشر من مناطق الحروب تبدو على قدر من الصعوبة والتعقيد يكاد يماثل العمليات العسكرية نفسها.

وبينما كانت شبكات البث الكبرى تتنافس فيما بينها على إيجاد أفضل المعدَّات لاستخدامها في التغطية الحية، كان لزامًا على وكالات الأنباء أن تتجاوب مع هذه المنافسة، وإلا فلن تنجح في مواكبة متطلبات سوق الأخبار في القرن الحادي والعشرين.

لذا، أنشأت وكالة أسوشيتد برس عدة قنوات مباشرة بحيث يتسنَّى لأيِّ شبكة بث أن تتابع الصراع لحظة بلحظة. نُقِلَت كل مراحل الصراع نقلًا حيًّا، بدءًا من قصف بغداد خلال عملية «الصدمة والرعب»، ومرورًا بوصول القوات الأمريكية الأولى إلى شوارع العاصمة العراقية، وانتهاءً بإقلاع الطائرات الحربية النفاثة من حاملات الطائرات الأمريكية الرابضة في الخليج الفارسي.

مما لا شك فيه أن وكالات الأنباء، تمامًا كأيِّ قناة إخبارية تليفزيونية، ليست مستثناة من ذلك الاتهام بأن العرض الحي للأحداث لا يقدِّم تفسيرًا شاملًا لها وربما، في واقع الأمر، يُظهر وجهًا واحدًا للقصة. لا مفر من حدوث ذلك أحيانًا، لكن الأمر نفسه يمكن أن يصدُق تاريخيًّا على الصور الفوتوغرافية. لكن الفارق يكمن في التأثير الأكبر الذي قد تُحدثه سرعة البث التليفزيوني المباشر وانتشاره حول العالم.

طالما أُجريت التغطية المباشرة للأحداث بأكبر قدر ممكن من المسئولية وبُذِلت محاولات لتقديم مقاطع حية تعكس الخبر من كلا طرفَيه، حيثما أمكن ذلك؛ فلن

يكون من الواقعي الاعتقاد بضرورة استبعاد وكالات الأنباء من المشاركة في مجال البث التليفزيوني المباشر.

إن التنحي عن هذا الدور سيؤدي في نهاية المطاف إلى فقدان وكالات الأنباء أهميتها بالنسبة إلى جزءٍ كبيرٍ من قاعدة عملائها وسيوقف مسيرة تقدمها؛ إذ إن التطلع إلى التغطية الإخبارية الحية صار أمرًا واقعًا تشهده حياتنا المعاصرة.

ولا شك أن ثمة حاجة إلى التمهُّل ومحاولة فهم الخبر فهمًا شاملًا من جميع جوانبه، وهذه الحاجة تبرز في محتوى الفيديو والمحتوى النصي على السواء. كما يتعين على وكالات الأنباء أن تقدِّم رواية متزنة لأي خبر بمرور الوقت. وتُمثِّل التغطية الحية حاليًّا العرف السائد في كلٍّ من الوكالتين الإخباريتين الكبيرتين، وهي تلعب دورًا رئيسيًّا في دعم الجوانب الأخرى للتغطية الإخبارية.

ولا تُمثِّل التكنولوجيا سوى جانب واحد من سرعة نقل الأخبار التي تسعى إليها وكالات الأنباء؛ فلا شك أنه ينبغي استخدامها على يد الأفراد المناسبين في الأماكن المناسبة لجني أقصى فائدة ممكنة.

إن ما يميز وكالات الأنباء عن غيرها من المؤسسات الإخبارية هو ما يُطلق عليه «صحافة الوصول». فجميع وسائل الإعلام الإخبارية في العالم تعتمد على تلك الوكالات لتحظى بالسبق في الحصول على أهم الأخبار العاجلة ولتكفل لنفسها وجودًا دائمًا في أي بؤرة من بؤر الصراع الكبرى.

تُعوِّل الوكالات الإخبارية، أكثر من المؤسسات الإخبارية الأخرى، على الكوادر «المحلية»، الذين يجري تعيينهم في الدولة التي سيتولَّون تغطيتها، بدلًا من الكوادر الأجنبية الوافدة من الخارج.

غالبًا ما يُعتبر هؤلاء العاملون المحليون أمهر كوادر الوكالات وأكثرهم عرضة للمخاطر، لكنهم أقلهم حصولًا على التقدير الواجب؛ فهم يعايشون الأخبار على مدار العام، واضعين في اعتبارهم التبعات المحتملة على ذويهم وأصدقائهم لو أثارت تغطيتهم الصحفية سخط الأنظمة الحاكمة في بلدانهم.

ودائمًا ما يجب على تلك الكوادر المحلية اتخاذ قرارات مستندة إلى تقديرهم الخاص بشأن مقدار التغطية الصحفية للأخبار التي يمكنهم إجراؤها دون إثارة حفيظة الأنظمة، ودفعها إلى إلغاء تصاريح عملهم؛ وذلك مع بذل محاولات حثيثة للدفاع عن احتياجات جمهور الأخبار الدولية، وهو عادةً ما يحدث داخل دول تُعَدُّ حرية الصحافة فيها مجرد حلم بعيد المنال.

ساعدت التكنولوجيا هؤلاء العاملين المحليين منذ أوائل تسعينيات القرن الماضي في تيسير عملهم، ومكَّنتهم تكنولوجيا الإنترنت ومعدَّات البث الرقمي من نقل رسائلهم الإخبارية تحت رقابة أقل عند نقاط الإرسال.

لكن الخطر قد ينشأ الآن بعد إرسال الخبر لا أثناءه. لنأخذ مثالًا على ذلك من زيمبابوي: نجح مصور فيديو في بث صورٍ التقطها لاحتجاجٍ مناهضٍ للحكومة. وبُعَيد بثها على قناة إخبارية دولية، تعرَّض لهجومٍ وضرْبٍ مبرح على يد قوات الشرطة التابعة للحكومة، وهو ما فسره على أنه إجراء عقابي. لو كان المصور نفسه قد نجح منذ ثلاثين عامًا مضت في نقل صوره خارج حدود زيمبابوي، لما رأت صوره النور وشاهدها مواطنو دولته نظرًا لعدم وجود قنوات إخبارية دولية آنذاك.

كما أن الأنظمة الاستبدادية التي قد تمنع حرية استخدام الإنترنت داخل أراضيها لا تمانع في استخدام الإنترنت للبحث عن الأخبار السلبية المنشورة عنها. وربما كانت الأخبار في الماضي تواجه صعوبة أكبر في اجتياز حدود الدول لكنها قد تغيب عن دائرة رقابتها بمجرد وصولها إلى «العالم الحر».

إن الوسائل التكنولوجية التي سمحت بتغطية إخبارية أوسع نطاقًا تسببت هي نفسها، في كثيرٍ من الحالات، في تحفيز الأنظمة التقييدية لتسليط مزيد من الرقابة على الأخبار المناوئة لها. فمما لا مراء فيه أن التكنولوجيا أثمرت فوائد جمة، لكن هذا لا ينفي ضرورة التحلي بالحذر عند استخدامها لتجنيب الصحفيين مزيدًا من المخاطر.

(٢) التكنولوجيا والذوق العام

لم يقتصر الدور الذي اضطلعت به وكالات الأنباء منذ عهد بعيد على نقل الأخبار، بل امتد ليشمل فرزها وتصنيفها؛ أي استيعاب حقيقة ما يجري في العالم والاضطلاع بدورٍ مهمٍّ في وضع أجندة العالم الإخبارية.

يعتمد الصحفيون حول العالم على وكالات الأنباء كمصدر فوري للأخبار التي يملئون بها صحفهم أو نشراتهم الإخبارية. غير أن الوسائل التكنولوجية الحديثة شكلت ظاهرتين تعترضان الدور التقليدي لوكالات الأنباء باعتبارها المصدر الرئيسي لجمع المعلومات من جميع أنحاء العالم.

جرت العادة أن يكون لتقديرات وكالات الأنباء وأحكامها قبول واسع لدى قسم كبير من وسائل الإعلام الإخبارية التقليدية. أما الآن فإن جماعات الضغط ممن لها مصلحة في

النَّيل من مصداقية التغطيات الإخبارية تعمد إلى استعمال الوسائل التكنولوجية الحديثة باطراد في سبيل تقويض التغطيات المخالفة لوجهات نظرها.

ربما اطلعت وكالات الأنباء على تفاصيل حملات التشهير التي حِيكت ضدها من خلال الرسائل الإلكترونية المتسلسلة، وذلك حتى قبل أن تُقدِّم المدونات للكثيرين منصات للنقد على الإنترنت. وتشهد مثل هذه الحملات ظهورًا متزامنًا لانتقادات متشابهة لخبر ما من مناطق مختلفة من العالم. ومن الأهداف التقليدية لتلك الحملات الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي؛ إذ يستخدم أنصار كل طرف من الطرفين مثل هذا الأسلوب.

لا شك أن ثمة حالات كانت فيها الشكاوى من الممارسات الصحفية لوكالات الأنباء في محلها، لكنها حالات قليلة. أما في الأعم الأغلب، فكانت حملات الرسائل الإلكترونية ومن بعدها تلك الحملات التي يشنها البعض في الفضاء التدويني ذات مقاصد خبيثة؛ إذ عادةً ما كانت تتبنَّى الشائعات أو الافتراضات باعتبارها حقائق ومُسلَّمات.

وكان ذلك بمنزلة اختبار للوكالات الإخبارية ضاعف من أهمية تشدُّدها فيما يتعلق بتحري الدقة، في سبيل الدفاع عن نفسها حيال هذه الادعاءات أو الافتراءات.

ومع ظهور صور الفيديو المتحركة، واجهت وكالات الأنباء أكبر اختبار لها فيما يتعلق بالذوق العام خلال السنوات القليلة الماضية؛ ففي ضوء زيادة حجم المحتوى الذي يُنتجه المستخدمون، هل بإمكان وكالات الأنباء أن تتابع وتراقب كل هذا المحتوى؟ ولو أمكن لها ذلك، فهل يسعها ضمان موثوقيته والحصول على حقوق نشره؟

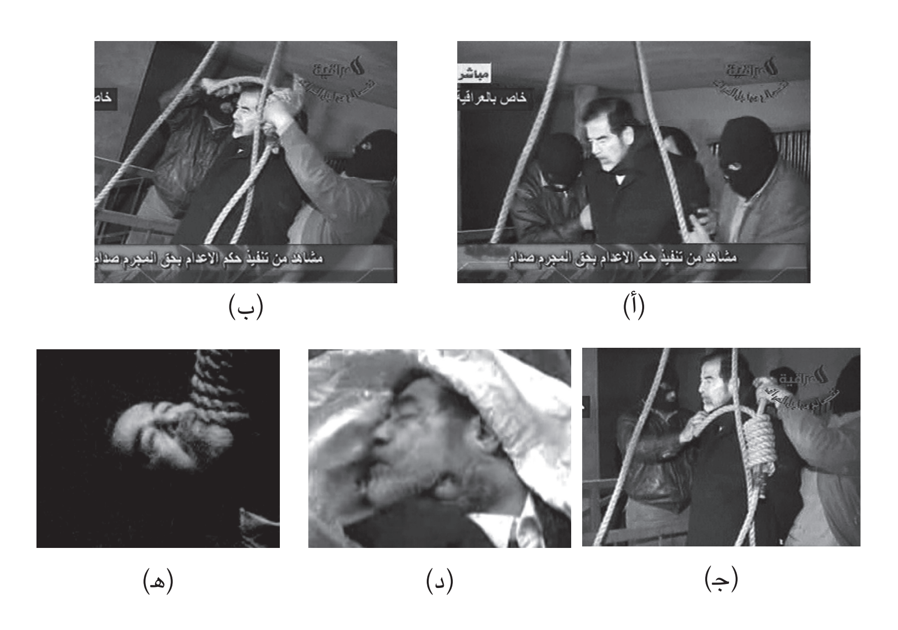
ونتيجة لذلك، هل يمكن أن يتحول دور الوكالات الإخبارية من المصدر الرئيسي للمنظومة الإخبارية إلى مجرد رافد لها؟

أوجزت حرب العراق بعضًا من أعقد المسائل التي تواجه وكالات الأنباء خلال محاولاتها لاستيعاب الطوفان الجارف من مقاطع الفيديو المنتشرة في جميع قطاعات التغطية الإخبارية داخل نطاق الذوق العام؛ إذ تمخضت عن بعض مقاطع الفيديو المفرطة في العنف: ابتداءً من قطع رءوس الرهائن وانتهاءً بإعدام الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين.

شهد هذا الصراع، ولأول مرة، استخدام الأطراف المتقاتلة لمواد الفيديو كأداة لإيصال رسالاتهم الخاصة إلى العالم، ولكن كلٌّ بطريقته.

تُعتبر عملية قتل عامل الاتصالات الأمريكي نيكولاس بيرج في مايو ٢٠٠٤، التي صُوِّرت في مقطع فيديو ونُشرت على الإنترنت بدايةً لسلسلة من الإعدامات المروعة المصوَّرة التي زُعم أنها تمَّت على يد جماعات مرتبطة بتنظيم القاعدة.

حين نجحت وكالات الأنباء في الحصول على هذا المقطع، وجب عليها أن تتخذ قرارًا حول مقدار ما ستعرضه منه. فإذا عرضته على شبكة قنواتها، فهل يمكن أن يؤدي ذلك، دون قصد، بشبكات البث إلى إذاعته كاملًا بطريق الخطأ؟ هل من الملائم أن يُطلَب من العاملين في وكالات الأنباء أو عملائها أن يتعاملوا بحرص مع هذا المقطع المزعج؟ وهل إن امتنعت عن تقديم المقطع كاملًا لعملائها، يُعد هذا حرمانًا لهم من فرصة توصيف مثل هذا العمل الوحشي بصورة واضحة ويُعرِّضها مِن ثَمَّ لتهمة تحريف الحقيقة بالتخفيف من حدَّة الحدث وبشاعته؟



شكل ٣-٢: صور عرضها التليفزيون الرسمي العراقي لصدام حسين قُبيل إعدامه في ديسمبر ٢٠٠٦ (أ-جـ)؛ وصورتان غير رسميتين مُلتقطَتان عبر هاتف محمول بعد إعدامه في ديسمبر ٢٠٠٦، ونشرتهما وكالة أسوشيتد برس لاحقًا (د-هـ) (نُشِرت الصور بإذن من أسوشيتد برس).

كانت هذه القضية منطقة تحريرية مجهولة وليس لها سوابق مشابهة، فقد شكَّل تسجيل عملية الإعدام صوتًا وصورة قصة إخبارية لا تقل أهمية عن الإعدام ذاته؛ إذ نشرت

أسوشيتد برس المقطع كاملًا لكن أرفقته بتحذيرات سابقة متكررة للمشتركين في خدماتها من بشاعته. وأما داخل الوكالة نفسها، فقد انحصر عدد الأشخاص الواجب تعاملهم مع المقطع إلى أدنى حدٍّ ممكن.

بالنسبة إلى عملاء الوكالة، كانت ردود أفعالهم تشير إلى رغبتهم في رؤية المقطع كاملًا لاتخاذ قرارهم التحريري الخاص. في غمار هذا الحدث، اختلفت شبكات البث حول العالم في طرق استخدامها لهذا المقطع؛ فقد عرضت بعض الشبكات المقطع كاملًا لكنها حجبت لحظة الإعدام، بينما أنهت بعضها المقطع قبل مشهد الإعدام. ولم يتنامَ إلى علمي أن أيَّ شبكة عرضت المقطع كاملًا دون تعديل. لم يُسجَّل أي شكاوى إلا واحدة تقدَّم بها عميل فاته المقطع ولم يُفلح في تسجيله.

عُرِضت المادة الإخبارية كاملة لتفرُّدها ولتمكين شبكات البث من فهم طبيعة الحادثة؛ ومِن ثَمَّ نُقِلت هذه الظاهرة الجديدة على نحو دقيق.

رغم أن أسوشيتد برس نقلت مثل هذا العمل نقلًا كاملًا، فإنها عمدت إلى حذف مشهد الإعدام من الحوادث المشابهة التي وقعت لاحقًا لئلَّا تبدو الوكالة محرضة، أو حتى مبجِّلة، لمثل هذه الأفعال، وللحد كذلك من الألم النفسي الذي قد يتعرض له من يتعاملون مع هذه المقاطع في غرف الأخبار حول العالم.

حين أُعدم صدام حسين على يد السلطات العراقية في الثلاثين من ديسمبر عام ٢٠٠٦، نُشر مقطع فيديو رسمي يُظهر صدام حسين وهو يُساق إلى المشنقة. وانتهى المقطع بحبل المشنقة ملفوفًا حول رقبته دون عرض لحظة موته.

غير أنه في وقت لاحق من يوم إعدامه ظهر على الإنترنت مقطع فيديو غير رسمي التقطته كاميرا هاتف محمول يعرض عملية الإعدام كاملة. فعادت أسوشيتد برس ونشرت المقطع الثاني باعتباره محتوًى يهم الرأي العام؛ فبالنسبة إلى قطاع واسع من المشاهدين — لا سيما جمهور الشرق الأوسط المتشكك في موته — قد أثبت المقطع بما لا يدع مجالًا للشك أن الرجل قد أُعدم. كما كشف المقطع الثاني التعليقات المُهينة التي وجَّهها إليه بعض من شهدوا إعدامه.

ربما كان من العسير التحقق من صحة المقطع الثاني لو لم يوجد المقطع الأول الرسمي، الذي سجلته قناة تليفزيونية عراقية. فلولا المقارنة بين المقطعين لما أمكن الجزم بأن المقطع الثاني يبدو حقيقيًّا.

في كلا المثالين، وجب على وكالات الأنباء أن تكون «سمع وبصر» الإعلام الإخباري العالمي، وذلك بالسبق في الحصول على مقاطع الفيديو، والاجتهاد في التحقق من صحتها، ثم القيام بدور محكِّم ذوقي بإقرارها لنشر المقاطع من عدمه.

(٣) التكنولوجيا وحقوق النشر

تمخضت ثورة الإنترنت عن موقف جديد تبنَّاه مستخدمو المحتوى الإلكتروني تجاه حقوق النشر. ولعل أقرب مثال لما يحدث في مجال الأخبار هو صناعة الموسيقى، حيث أسهمت شركات مثل نابستر في تفكيك النماذج التقليدية وذلك بسماحها بالمشاركة المجانية لملفات الموسيقى. ولم يعد أغلب المستخدمين يحترمون حقوق النشر لأصحاب المحتوى الأصليين.

من اللازم أن تتحلى وكالات الأنباء باليقظة الدائمة حيال كيفية استغلال المستخدمين لموادها ومحتواها عبر شبكة الويب، وذلك كي تُحقِّق مكاسبها المرجوة وتحافظ على مكانتها.

ويُعَدُّ تدشين خدمة أخبار جوجل في ٢٠٠٢ تحذيرًا قويًّا دق ناقوس الخطر؛ فقد جمعت جوجل في هذه الخدمة ٤٥٠٠ موقع إخباري على شبكة الإنترنت، مكوِّنةً موقعًا إخباريًّا على درجة كبيرة من الفاعلية ودون أي تدخل بشري.

كانت وكالات الأنباء، مرة أخرى، هي المصدر الأصلي لنسبة كبيرة من محتويات هذا الموقع؛ ومِن ثَمَّ كان من الضروري اتخاذ موقف يكفل عدم انتهاك حقوق النشر التي تمتلكها هذه الوكالات. فشهد عام ٢٠٠٦ إبرام صفقة بين أسوشيتد برس وجوجل بشأن استخدام محرك البحث لمواد الوكالة الإخبارية، رغم تأكيد جوجل الثابت على أن خدمة الأخبار خاصتها لا تستخدم سوى العناوين الرئيسية والمقتطفات والصور المصغرة، وهو ما يعني أن هذه الخدمة تضْمن «الاستخدام العادل» والمعقول للمواد المحفوظة بحقوق النشر الخاصة بالأطراف الأخرى، وتضم روابط تُحيل المستخدمين إلى مواقع المؤسسات الإخبارية التي تسدد رسومًا مقابل حصولها على المواد الإخبارية الصادرة عن الوكالات.

وهكذا حولت أسوشيتد برس جوجل إلى عميل لها. لكن وكالة فرانس برس اختارت أن تسلك طريقًا آخر، وذلك برفعها دعوى قضائية ضد شركة جوجل مطالبةً إيَّاها بسداد ١٧٫٥ مليون دولار لانتهاكها حقوق النشر خاصتها؛ فما كان من جوجل إلا أن ردَّت بوضع جميع المواقع المحتوية على مواد إخبارية تابعة للوكالة على القائمة السوداء.

وبعد سجال دام عامين، نجح الطرفان في تسوية نزاعهما في أبريل ٢٠٠٧ بتوصُّلهما لصفقة سرية صاحَبها بيان دلَّ على أنها كانت مُرضية للطرفين. نصَّ البيان على أن

الاتفاق سوف «يتيح استخدام المحتوى الإخباري لوكالة فرانس برس بطرق مبتكرة وجديدة» (ناتول ٢٠٠٧).

بعد أربعة أشهر من عقد هذه الصفقة، أعلنت شركة جوجل إبرامها لصفقة مع أربع وكالات إخبارية، وهي أسوشيتد برس، وفرانس برس، وكنديان برس، وبرس أسوشيشن (المزود البريطاني للأخبار)، تتمكن هذه الوكالات بموجبها من نشر موادها الإخبارية مباشرة على موقع أخبار جوجل. ونُظِرَ إلى هذه الصفقة باعتبارها تنطوي على استفزازات محتملة لعملاء هذه الوكالات التقليديين، الذين قد ينتابهم القلق حيال هذه الخطوة التي كانت تعني انخفاض عدد من يرتادون مواقعهم. كما تساءل المراقبون في الصناعة عما إذا كانت هذه الصفقة لا تعدو كونها مكسبًا قصير الأجل لتلك الوكالات، باعتبار ما يمكن أن تسببه من ردة فعل عكسية عنيفة من عملائها.

ينبغي على وكالات الأنباء، كما هو الحال بالنسبة إلى عملائها، بذل قدر كبير من المال والجهد لمراقبة استخدام موادها الإخبارية على الإنترنت. وثمة أسلوبان يجري استعمالهما على نطاق واسع في هذا الصدد، وهما «العلامات المائية» و«البصمات». ويعتمد الأسلوبان على تضمين علامة رقمية في المحتوى؛ بحيث يتسنَّى لصاحبه تتبُّع استخدامه، ومِن ثَمَّ تحديد هوية المستخدمين غير القانونيين ومحاسبتهم.

خاتمة

لقد أثرت التكنولوجيا الرقمية — ولا سيما الإنترنت — تأثيرًا عميقًا في أساليب عمل الوكالات الإخبارية الدولية؛ فهي تقدِّم لها فرصًا للنمو، لكنها تُمثِّل أيضًا تهديدًا مصدره الوافدون الجدد إلى مجال الأخبار.

كلما ازداد عالم المعلومات ازدحامًا وتسارعًا، عظمت الحاجة إلى وجود وكالات الأنباء لتكفل لنا اتساق التغطية الإخبارية ودقتها. وتجربة أسوشيتد برس تفيد أنه حين يقع خبرٌ عاجل هام، يعود متلقُّو الأخبار إلى المؤسسات الإخبارية «التقليدية» المعروفة للحصول على صورة دقيقة للأحداث حتى لو اعتاد هؤلاء المتلقُّون أنفسهم، في الظروف العادية، أن يتعاملوا مع الإعلام «التقليدي» بتشكك واستخفاف.

وتشير هذه التجربة إلى أنه أيًّا كان تفسير الوقائع الإخبارية الرئيسية في أيِّ مكان بالعالم أو تحليلها، فثمة حاجة إلى وجود مصدر أصلي للمحتوى الإخباري، كوكالة أنباء،

لاستجلاء الحقائق ونشرها بسرعة وموثوقية؛ فالمنظومة الإخبارية يجب أن تنطلق من مكان ما.

لكن يتعين على وكالات الأنباء أن تواصل تطورها لكي تنجح في تحقيق أجندة إخبارية عالمية أوسع نطاقًا وأسرع وتيرةً، قادرة على إيصال الخبر بأسلوب فعَّال ومؤثر وبجميع الأشكال الإعلامية، التي تشكل الصور جزءًا أكبر منها.

كانت البرقية الأولى الشهيرة التي أرسلها صامويل مورس، مخترع التلغراف، في ١٨٤٤ تصدح قائلة: «هذا فعل الله.»

واليوم، يصدح كثيرون بالعبارة ذاتها حين يرون مقاطع الفيديو الإخبارية الحية أو محتوى الفيديو المستخدم بطرق جديدة ومروعة كما هو الحال في العراق. تشير الدلائل إلى أن التكنولوجيا، خلال السنوات القليلة المقبلة، سوف تزيد من انتشار مقاطع الفيديو الحية في التغطية الإخبارية.

تسعى وكالات الأنباء بطبيعتها وراء استعمال أي أداة متاحة لجمع الأخبار بأكبر قدر ممكن من السرعة والشمولية؛ لذا فلا غرو في أنها ستتعرض للاندثار إذا تجاهلت الوسائل التكنولوجية المتاحة لمنافسيها الجدد المحتملين.

أزعم أن قدرة الصحفيين على تغطية أخبار الدول والأحداث بأوضح الطرق الممكنة تساعد الناس على فهم ما يجري حولهم، وتزيد من مسئولية القادة السياسيين والعسكريين.

ومن ثمَّ، يمكن أن تساهم التكنولوجيا في تمكين الصحافة والسماح للصحفيين بالوصول إلى أخبار كانت ستظل طي الكتمان خلال الأجيال السابقة. كما يمكن أن تساعد في نشر تلك الأخبار بالسرعة التي تحتاجها المؤسسات الإخبارية وعملاؤها في عالم سريع الوتيرة ومترع بالمعلومات.

قد يحمل الذوق العام دلالات مختلفة للثقافات المختلفة حول العالم؛ فبالنسبة إلى بعض الناس، قد تثير مشاهد العري استياءهم أكثر من مشاهد سفك الدماء.

يقع على عاتق وكالات الأنباء دورٌ حيويٌّ ينبغي أن تضطلع به، ألا وهو مواصلة عملها في إرساء معايير الدقة والتوازن والإنصاف، والحفاظ عليها؛ إذ إن ثمة حاجة دائمة إلى التفكير في تبعات أي تغطية إخبارية والاجتهاد لتقديم رواية متزنة ومنصفة للأحداث، حيثما أمكن.

لقد ضاعفت التكنولوجيا من سرعة التغيرات في جميع جوانب الوكالات الإخبارية. ومن المرجح أن التغطيات والصور التي توفرها هذه التكنولوجيا ستترك تأثيرها على

الذوق العام والمواد المقبولة تحريريًّا. لكن يبقى دور وكالات الأنباء وهو التأكد من أن التكنولوجيا مستمرة في تمكين الصحافة، دون أن تحل محلها.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) أيٌّ من صور إعدام صدام حسين كنتَ ستُقدِم على نشرها؟

(٢) ما القضايا الأخلاقية والذوقية التي يُحتمل أن تثيرها قدرة الوكالات التليفزيونية الحالية على نشر المزيد من الصور الصادمة للحروب، والمجاعات، والمعاناة حول العالم؟

(٣) هل تتحمل وكالات الأنباء مسئولية وضع قيود على نشر المواد التي قد يجدها المشاهدون مزعجة، أم أن دورها يقتصر على إيجاد جميع المواد المرئية الجديدة بالنشر وعرضها، تاركة لعملائها قرار نشرها من عدمه؟

الفصل الرابع

الصحافة المستقلة

فون سميث

تمهيد

جون أوين

عند دخولك إلى نادي فرونتلاين للصحفيين الدوليين في لندن، سوف تمر بمجموعة كبيرة مؤطرة من الصور لثمانية صحفيين، سبعة رجال وسيدة. إذا دققت النظر في تلك الصور، فستدرك أن جميعهم رحلوا عن الحياة، وأن جميعهم كانوا صحفيين مستقلين، وأنهم كانوا يعملون يومًا ما في وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية، وجنبًا إلى جنب مع أحد مؤسسيها، فون سميث.

طالما بذل الصحفيون المستقلون ثمنًا باهظًا لقاء مُخاطراتهم الصحفية؛ فعلى مدار عشر سنوات، بدءًا من ١٩٩٦ وحتى ٢٠٠٦، بلغ عدد الصحفيين الذين ذكر المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين أنهم قَضوا نحبهم أثناء تغطيتهم للأخبار ألف صحفيٍّ، منهم ٩٤ صحفيًّا مستقلًّا، وهو ما يعني واحدًا من كل عشرة صحفيين تقريبًا (المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين ٢٠٠٧).

لا يتلقى الصحفيون المستقلون أبدًا التقدير الملائم لإسهامهم في التغطية الإخبارية الدولية مقارنةً بالصحفيين المتفرغين العاملين في الوكالات الإخبارية؛ فقلَّما تمنحهم الشبكات أو الوكالات الإخبارية الإشادة اللائقة والمباشرة على ما قدَّموه من صور أو تحقيقات صحفية، ناهيك عن الاعتراف بإسهاماتهم داخل الوسط الإخباري نفسه.

جرت العادة طويلًا في بريطانيا أن يعمل الجنود السابقون كمصورين مستقلين، مستفيدين من تدريباتهم السابقة ومعرفتهم المفصَّلة بالصراعات والحروب، وهو ما يميزهم عن غيرهم ممن لا

يتمتعون بتلك الخبرة. وبعد انهيار جدار برلين وما شهدناه من سنواتٍ طِوال من القتال الدموي البغيض في البلقان والاتحاد السوفيتي السابق وأمريكا الوسطى وأجزاء كثيرة من أفريقيا، كان الصحفيون المستقلون في الغالب مصدرًا للمواد الإخبارية «الحصرية» التي كانت تتطلع إليها الوكالات والشبكات الرئيسية.

ورغم إقبال الصحفيين المستقلين على قبول تلك المهام الصحفية وخوض جميع المخاطر التي امتنع الآخرون عن مواجهتها مهما كانت، فإنهم قد استاءوا من كثرة حرمانهم من التأمين اللائق أو عدم حصولهم على معدَّات واقية بنفس جودة المعدَّات الممنوحة للصحفيين المتفرغين. ولقد أدَّت وفاة أحد مؤسسي وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية، روري بيك، في ١٩٩٣، إلى إنشاء مؤسسة خيرية تحمِل اسمه لتقديم تعويضات مالية لأسر الصحفيين المستقلين الذين لقوا حتفهم خلال أدائهم مهامهم الصحفية. إن المبالغ التي قد تبدو غير كافية بالنسبة إلى أُسَر الصحفيين المستقلين في الدول الغربية تُعتبر مبالغ هائلة بالنسبة إلى أولئك الذين عاشوا وعملوا في الدول النامية والمناطق الأقل رخاء.

حتى لو أبدى الصحفيون المستقلون استعدادهم لتغطية صراعات في بلدان — كالعراق والصومال — تزيد فيها احتمالات تعرُّضهم للقتل، بحسب ما يرى مديرو الأخبار في شبكات البث، فهل ينبغي عليهم تشجيع هؤلاء الصحفيين على خوض تلك المجازفات الخطيرة؟ يرى بعض المسئولين التنفيذيين الإخباريين أن مثل هذا السلوك لا يتسم بالمسئولية الأخلاقية؛ فإذا كانت تغطية خبر ما تُمثِّل خطورة كبيرة على موظفيهم، فلماذا يُعرِّضون الصحفيين المستقلين لمثل هذا الخطر الجسيم؟ في المقابل، يُجيب الصحفيون المستقلون على هذا الرأي بأن من حقهم خوض المجازفات التي لن يخوضها الآخرون. ويرفضون العبارة الشائعة، الواردة في الفصل العاشر من هذا الكتاب، والتي قالها الرئيس السابق لقناة سي إن إن إنترناشونال، كريس كرامر، بأنه ما من خبر يستحق التضحية بحياة صحفي.

إن الصحفيين المستقلين اليوم غالبًا ما يكونون صحفيين محليين في مناطق كالعراق وأفغانستان. وبحسب ما يشير إليه أنتوني بوردن في الفصل التاسع من هذا الكتاب، فقد تلقَّى كثير منهم تدريبًا ودعمًا ماليًّا من منظمات غربية غير حكومية، مثل معهد صحافة الحرب والسلام.

إلا أن أولئك الواقفين في طليعة حركة الصحافة المستقلة بقيادة فون سميث يرون أنه لا يزال بإمكانهم القيام بدورٍ حيويٍّ في التغطية الإخبارية الدولية، مستغلين الثورة التي أحدثتها خدمات النطاق العريض التي تجعل من نشر موادهم الإخبارية أمرًا غاية في السهولة. غير أن السؤال الذي ينبغي على سميث وغيره من الصحفيين المستقلين الإجابة عنه هو كيف سيحققون مكاسب مالية كافية في عصر اليوتيوب وصحافة المواطن، حيث يُعتبر أي شخص تقريبًا يحوز كاميرا تصوير أو هاتفًا محمولًا صحفيًّا مستقلًّا محتملًا.

إن لفون سميث تاريخًا طويلًا في إثارة حيرة الخبراء؛ فهو ضابط جيش أبًا عن جد، لكنه ودَّع حياته العسكرية في حرس رماة القنابل ليصير واحدًا من المصورين المستقلين الأكثر احترامًا. وفي حين بدا له العمل المستقل خيارًا غير قابل للتطبيق، خالف سميث جميع التوقعات وأنشأ مطعمًا وناديًا للصحفيين في لندن يضم حاليًّا أكثر من ألف عضو ويقدم أعمالًا وثائقية، ويستضيف مناقشات صحفية كل ليلة تقريبًا. وإذا لم يُفلح كل ما سبق، فإن سميث بإمكانه أن يحمل كاميراته وينطلق إلى مناطق كأفغانستان ليُقدِّم صورًا ممتازة للصراع الدائر بالإضافة إلى تحقيقات وتدوينات ثاقبة.



شكل ٤-١: فون سميث أثناء تصويره لجنود كروات في عام ١٩٩١ (نُشرت الصورة بإذن من فون سميث).

مرجع

International News Safety Institute (2007) *Killing the Messenger: Report of the Global Inquiry by the International News Safety Institute into the Protection of Journalists*. INSI.

> إن جميع المؤسسات التي لا تهبُّ عليها رياح النقد العام العاتية (كما هو الحال في المؤسسات العلمية ومجالس الشيوخ مثلًا) تشهد نموًّا سريعًا لفساد بريء، تمامًا كنمو عيش الغراب. (فريدريك نيتشه، «إنسان مفرط في إنسانيته: كتاب إلى العقول الحرة»)

> لقد لاحظتُ مبكرًا في حياتي أن الصحف لا تنقل الأحداث أبدًا على الوجه الصحيح. (جورج أورويل، «نظرة على الحرب الإسبانية»)

> لو افترضنا أن الصحف تفيد في إسقاط الطغاة، فإنها لا تُحقِّق ذلك إلَّا لتؤسس طغيانها الخاص. (جيمس فينيمور كوبر، «الديمقراطي الأمريكي»)

إن العمل صحفيًّا لصالح شبكة بث أو دار نشر يعني القبول بالحلول الوسط؛ ففي مقابل الأمن الوظيفي، والمساعدة التي يقدمها الدعم المؤسسي واللوجستي، والوصول إلى الجمهور بسهولة، عليك أن تتنازل عن استقلالك الفردي وتحكُّمك في النشاط التحريري؛ إذ أصبحا حينها محلًّا للتفاوض.

يصبح العمل لصالح «منظومة» بمنزلة استثمار فيها، ولكي ينجح، ينبغي اعتناق نهجها وثقافتها الجماعيين والإسهام فيهما. وهناك فريق يحتاج إلى الدعم، ويضم هذا الفريق بدوره مجموعة من الولاءات والصداقات التي قد تُسهم في رسم معالم المسار المهني الذي سيسلكه الصحفي.

حين يوجَّه الراتب لسداد قرض عقاري، تصبح التبعية المالية قيدًا يُضاف إلى مجموعة القيود التي تحصر الصحفيين بين جدران الرضا بالوضع الراهن، والثقافة المؤسسية، وتجعلهم يتجنبون المجازفات. يحيط بالمهام الصحفية خضم من العوامل التي تبعث على الارتياح، لكنها لا تدعمها بالضرورة.

ينشأ عن تلك المنظومة منتَج يروَّج له باعتباره صحافة «مستقلة»، بصرف النظر عن ارتباطه بأسعار الأسهم، وعبوديته لمعيار «الدقة» الرائج وما يلقى استحسان المشاهدين في مجال الأخبار في الوقت الحاضر. تُوجِّه مثل هذه الصحافة سهام النقد إلى الآخرين وتنسى آفاتها.

لا شك أن المؤسسات الإخبارية تتفاوت في دقتها، لا سيما من بلد إلى آخر، وينجح كثير من الصحفيين بمرور الوقت في بسط سلطتهم وتأثيرهم داخل مؤسساتهم وأن يوجدوا لأنفسهم درجة من الاستقلالية، قد تصل إلى المشاركة في التوجيه التحريري

للمنتَج الإخباري لمؤسساتهم. ورغم ذلك، لا يزال هناك عدد كبير جدير بالملاحظة من الصحفيين النابغين الذين يفقدون قدرتهم على التحليل النقدي حين يتناولون مجالهم ومهنتهم. قلائل فقط هم من يحملون همَّ هذه المهنة.

لكن هذا لا يعني أن الصحافة لم تشهد تحسُّنًا خلال القرن الماضي، إذا كانت حقًّا بذلك السوء الذي وصفه جون سوينتون، صحفي نيويورك البارز، أثناء حضوره كضيف شرف في مأدبة يُعتقَد أنها أقيمت عام ١٨٨٠ بحضور القيادات الصحفية، فقد هَمَّ شخص لا يعرف شيئًا عن الصحافة ولا عن سوينتون بالدعوة إلى احتساء نخب الصحافة المستقلة، فما كان من سوينتون إلا أن ردَّ مثيرًا غضب زملائه:

> ليس هناك، في تلك المرحلة من تاريخ العالم، في الولايات المتحدة الأمريكية ما يُسمى بالصحافة المستقلة. جميعكم يعرف ذلك كما أعرفه. ما منكم من أحد يجرؤ على البوح بآرائه الحقيقية، وإذا فعلتم، فإنكم تعلمون مسبقًا أنه لن يُكتب لها النشر أبدًا. إنني أتلقَّى راتبًا أسبوعيًّا لقاء كتماني لآرائي الحقيقية وحجبها عن الصحيفة التي أنتمي إليها. يتلقى آخرون منكم رواتب مشابهة مقابل أمور مماثلة، وأي فرد منكم تصل به الحماقة إلى أن يُصرِّح بآرائه الحقيقية، فسوف يجد نفسه هائمًا في الطرقات يبحث عن وظيفة أخرى. وإذا أتحْتُ الفرصة لآرائي الحقيقية للظهور في إحدى طبعات صحيفتي، فلن يمر أربع وعشرون ساعة قبل أن أكون عاطلًا عن العمل.
>
> إن وظيفة الصحفيين هي تدمير الحقيقة، والكذب البواح، والتحريف، والتشهير، والتمسُّح على عتبات الثروة، وبيع أوطانهم وبني جنسهم مقابل قوت يومهم. تعرفون ذلك كما أعرفه؛ فما أحمق هذه الدعوة إلى تناول نخب الصحافة المستقلة! إنما نحن أدوات في أيدي الأثرياء القابعين خلف الكواليس وأتباع لهم؛ إنما نحن دُمًى، يحركون خيوطنا فنتراقص. إن مَلَكاتنا، وإمكانياتنا، وحياتنا تقع جميعًا تحت رحمة غيرنا؛ إننا نمارس العهر الفكري. (مقتبس من كتاب بوير وموريس ١٩٥٥)

وحديثًا، أدى إخفاق الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها في إحراز النصر السريع الموعود في العراق والكشف عن أسلحة الدمار الشامل، التي كانت الذريعة الرئيسية لغزو العراق، إلى انتقاد الكثير من الصحفيين الأمريكيين للصحافة الأمريكية.

> من بين التبعات الباقية التي خلفتها أحداث ١١ سبتمبر ما قامت به هذه الإدارة من تسييس للتهديدات الإرهابية داخل الولايات المتحدة الأمريكية مع تهويل الإعلام التابع للسلطة لهذه التهديدات؛ إذ عمد إلى أن يكون بوقًا للنظام لا مصفاة للحقائق، حتى في أعقاب ما قدمته الإدارة من إثبات واضح على وجود مغالطات في الوقائع … لم يزد ذلك المؤسسات الإخبارية إلا إقبالًا على التشدق بالتحذيرات الإرهابية بدلًا من دراستها بجدِّيَّة أو وضعها في سياقها السياسي الملائم. (بوليرت ٢٠٠٦: ٣٠–٣٢)
>
> إن جميع مصادرنا الرئيسية للأخبار والمعلومات تقع فعليًّا تحت سيطرة حفنة من الإقطاعيات المؤسسية المعنية بخدمة مصالحها الخاصة؛ فشركة جنرال إلكتريك تملك حاليًّا شبكة إن بي سي، وشركة ديزني تملك شبكة إيه بي سي، وشركة فياكوم تدير شبكة سي بي إس، أما شركة نيوز كوربوريشن فتمتلك شبكة فوكس، وأخيرًا، شبكة سي إن إن تخضع لملكية شركة تايم وورنر؛ هؤلاء الخمس يُحكمون قبضتهم على الأخبار التليفزيونية … إن هؤلاء العمالقة المتعجرفين لا يتورعون عن التصريح بأن تحقيق أهدافهم الربحية هو علة وجود الآلة الإعلامية … أدلت شركة كلير تشانيل (التي تمتلك ثلث المحطات الإذاعية في الولايات المتحدة الأمريكية) برأيها في هذا الصدد قائلة: «ليست مهمتنا تقديم الأخبار والمعلومات. مهمتنا ببساطة هي بيع منتجات عملائنا.»
>
> يمتزج هذا التركيز الحثيث على العائد المادي بعجرفة مؤسسية عامة ليؤديا في النهاية إلى تضخم في ذوات القيادات الإعلامية … فبحسب تعبير أحد المسئولين التنفيذيين في شبكة فوكس: «إن هذه المحطات التليفزيونية تكلفنا ٣ مليارات دولار … نحن الذين نحدد الأخبار. إن الأخبار هي ما نقدمه لكم.» (هايتاور ٢٠٠٤: ١٥)

أدارت جامعة كولومبيا الأمريكية على مدار تسع سنوات مشروعها الذي يحمل اسم «مشروع التميز الصحفي» على الموقع: www.stateofthenewsmedia.com. وزعمت الجامعة أنه استخدم الأساليب التجريبية لتقييم أداء الصحافة ودراسته.

ذكر القائمون على المشروع أن «الصحفيين لا يشعرون بالرضا إزاء أحوال مهنتهم هذه الأيام»، مضيفين أن «غالبية كبيرة من الصحفيين الأمريكيين أصبحوا على قناعة بأن

الضغوط المتعلقة بتحقيق الربح «تُلحق ضررًا بالغًا» بجودة التغطية الإخبارية»، مشيرين إلى أن «المحطات التليفزيونية المملوكة للشركات الإعلامية الأصغر حجمًا تقدِّم في العموم نشرات إخبارية أفضل جودة» (مشروع التميز الصحفي ٢٠٠٤).

طرحت آيمي جودمان، التي وصفتها صحيفة لوس أنجلوس تايمز بـ «الصوت الإذاعي الممثل لليسار المحروم» (براكستون ٢٠٠٤)، سؤالها حول التغطية الصحفية الأمريكية لغزو العراق عام ٢٠٠٣ مستنكرةً: «لو كان لدينا إعلام تديره الدولة في الولايات المتحدة الأمريكية، فهل كنا سنجد أي اختلاف؟»

«أضحت الدعاية الإعلامية الواردة من الجهات الحكومية منتشرة في وسائل الإعلام الرئيسية؛ بدءًا من اختيار صحفيين من أجل كتابة مقالات تمجيدية ومرورًا باعتماد مراسلين وهميين، وانتهاءً بعرض تقارير متملِّقة للسلطة يرسلها المراسلون المرافقون للقوات الأمريكية في العراق؛ إذن، أين هو الإعلام المستقل؟» (جودمان وجودمان ٢٠٠٥).

حقًّا، أين هو؟ لقد ولَّت الأيام التي كان يحتاج الفرد فيها إلى العمل لحساب شبكة بث أو دار نشر ليطلق على نفسه صحفيًّا؛ فثمة طريق آخر، لكنه لا يصلُح لأصحاب القلوب الضعيفة؛ فالصحافة المستقلة تتطلب قدرًا كبيرًا من الشجاعة.

غالبًا ما ينتج عن العمل لدى جهةٍ ما قدرٌ أكبر من التقدير المادي والمعنوي؛ فسيكون أمامك مسار مهني واضح، ومن المفترض أن تكون المخاطر أقل، وستجد حولك زملاءَ تتعلم منهم أو تحاكيهم في طريقة عملهم.

أما العمل صحفيًّا مستقلًّا، فيُلزمك بخوض حياتك المهنية منفردًا مبحرًا ضد التيار. وعليك أن تتحلَّى بإيمان لا يتزعزع بذاتك؛ إذ نادرًا ما ستجد أحدًا يشاركك ذلك الإيمان، وفوق كل ذلك، لكي تنجح، ستحتاج عادةً إلى أداء عملك على نحوٍ أفضل من الصحفيين المعيَّنين. ومهما حققت من نجاحات، فسيحاول الآخرون إخفاءها أو انتحالها؛ فهم لا يعتبرونك واحدًا منهم.

لكن المجتمع الذي نحيا فيه لا يتغير إلا على يد أولئك الذين يخوضون المجازفات. ورغم أن مثل هذا التغيير ربما يُعَد دينامية ضرورية، فإن المؤسسات هي التي تعمل على منع ذلك التغيير أو تحجيم آثاره.

إن للصحفيين حرية الاختيار بالعمل في الصحافة المستقلة التي تُعد أرقى الأشكال الصحفية إذا مورست بمهارة ونزاهة دون قيد أو رقابة، وذلك رغم محدودية نطاقها.

(١) ما هي الصحافة المستقلة؟

يسعى الصحفي المستقل إلى كسب قوته من خلال العمل في مجال الإعلام بمعزل عن مؤسساته الرئيسية مع احتفاظه، قدر الإمكان، بحقوق النشر والتحكم في النواحي التحريرية الخاصة بعمله.

تتميز الصحافة المستقلة عن صحافة المواطن بأن ممارسيها اتخذوا من الصحافة مهنة وتقبَّلوا تمامًا جميع ما تُمليه من مسئوليات، لكن دون أن يتقبلوا سلطة شبكات البث ودور النشر وغيرها من المؤسسات العاملة في صناعة الأخبار.

غير أن ثمة صحفيين «مستقلين» لا يمتلكون حقوق النشر الخاصة بأعمالهم أو جزءًا منها؛ ومِن ثَمَّ لا يصدُق على عملهم اسم الصحافة المستقلة. إن مثل هذه الإشكالية تؤدي إلى بعض اللبس فيما يتعلق بمصطلح «المستقل»، الذي ينطبق على كلٍّ من الأفراد الذين يعملون مستقلين عن أي مؤسسة، وعلى أولئك الذين لا يعملون بموجب عقود تكفل لهم حقوقهم.

بالإضافة إلى ما سبق، يُعهَد إلى كثير من الصحفيين المستقلين أداء مهام عَرَضية أو يعملون في ظلِّ عقود لطواقم العمل المستقلة؛ ومِن ثَمَّ قد يفقدون حقوق النشر الخاصة بأعمالهم، كما أنه كثيرًا ما توجد ترتيبات يحدث بموجبها تقاسُم ملكية حقوق النشر بصورة ما.

إن للصحافة المستقلة وجودًا في جميع ميادين المهنة: الكتَّاب أو المدونون، المصورون الفوتوغرافيون، أو المصورون التليفزيونيون. كما أن كثيرًا من الصحفيين المستقلين يجمعون بين بعض هذه المهارات أو جميعها في إنتاجهم الصحفي.

استعانت الصحف، منذ نشأتها، بالصحفيين «غير المتفرغين»، والذين لا يتلقون رواتب منتظمة بل ينالون أجورهم بالقطعة، ويتخصص معظمهم في تغطية الأخبار العاجلة. ويوفر امتلاك عدد من هؤلاء الصحفيين في جميع أنحاء العالم للمؤسسات الإخبارية وسيلة غير مُكلِّفة تكفُل لها قدرًا من التغطية العالمية.

ينطوي مصطلح «غير متفرغ» على قدر من الاحترافية أو القبول، وهو ما لا نجده في مصطلح «مستقل»، وهو الأكثر شيوعًا في الأخبار التليفزيونية.

(٢) وينستون تشرتشل

> يتعثر البشر في الحقيقة بين الحين والآخر، لكن أغلبهم ينهضون وينطلقون وكأن شيئًا لم يكن. (وينستون تشرتشل)

لعل الصحفيين المستقلين المعاصرين يعرفون الاتفاقات التعاقدية التي عمل بموجبها وينستون تشرتشل مع صحيفة ذا مورنينج بوست وغيرها من صحف تلك الحقبة، وذلك خلال عمله صحفيًّا قبل انخراطه في السياسة ثم توليه لرئاسة وزراء بريطانيا (١٩٤٠–١٩٤٥، ١٩٥١–١٩٥٥). اضطلع تشرتشل، في إطار تلك الترتيبات، بتغطية حرب البوير في ١٨٩٩ وبأنشطة صحفية مبكرة في كوبا والسودان والإقليم الشمالي الغربي الحدودي الهندي.

لم تختلف هذه الاتفاقات عن الاتفاقات التي أجراها فيما يتعلق بكتبه، إلا أن الفارق أن أعماله الصحفية كانت تخضع للتحرير بخلاف كتبه؛ إذن، فإن الكُتاب المستقلين يشتركون مع الصحفيين المستقلين في كثير من الأمور.

لا شك أن قَبول تشرتشل وضعه كأسير حرب في جنوب أفريقيا لن يُلائم أفكار الصحافة المستقلة المعاصرة. حين أُلقي القبض عليه، كان يحوز مسدسًا، كما جرت عادةُ المراسلين آنذاك، كما كان من أشد المدافعين عن القضية البريطانية.

(٣) وكالة ماجنم فوتوز

> لا يكفي أن تمتلك الموهبة، بل لا بد أيضًا أن تكون مَجريًّا. (روبرت كابا)

تَدين الصحافة المستقلة اليوم بالفضل الأكبر في وجودها لوكالة ماجنم فوتوز التي أسسها كلٌّ من روبرت كابا، وهنري كارتييه-بريسون، وجورج رودجر وديفيد «تشيم» سيمور عام ١٩٤٧؛ أي بعد عامين من انقضاء الحرب العالمية الثانية، وكانوا جميعًا من روَّاد الصحافة المصوَّرة آنذاك.

أما روبرت كابا، قائد الوكالة النشيط وأشهر المراسلين الحربيين، فلقي حتفه إثر وطئه لِلَغمٍ أرضي في فيتنام في ٢٥ مايو ١٩٥٤.

كتب كورنيل كابا، شقيق روبرت كابا، عنه قائلًا:

> لقد عاش كثيرًا وأحب كثيرًا. وُلد بلا مال ومات على نفس الحال … إن حياته تشهد بتغلُّبه على المصاعب، ونجاحه في مواجهة التحديات، وفوزه بكل الرهانات، اللهم إلا في نهايتها. لقد وُلد دون أن يملك أسباب السفر ومتحدثًا بلغة لا تفيد إلا داخل حدود دولة صغيرة، وهي المجر، لكنه تمكَّن من أن يكتشف العالم من خلال وسيلة تواصل عالمية: التصوير الفوتوغرافي؛ ولذا كان قادرًا على التحدث إلينا جميعًا، في الماضي والحاضر. (ويلن وكابا ١٩٨٥)

اعتاد كابا أن يطلق على نفسه صحفيًّا لا مصورًا فوتوغرافيًّا، حتى بعد أن عُدَّ واحدًا من أبرز المصورين الفوتوغرافيين في القرن العشرين؛ وكأنه كان رافضًا لتعلُّم أو استخدام أي تقنيات خاصة بالتصوير الفوتوغرافي تزيد عما تتطلبه مهمة نقل الأخبار؛ فهو لم يُتقن قَطُّ استعمال فلاش الكاميرات تمام الإتقان، وكثيرًا ما كان يتصرف بإهمال شديد في غرفة التحميض.

تساءل بعض محرريه عما إذا كان يدمج عمدًا شيئًا ما في كاميرته لإضافة خدوش إلى أفلامه. لقد بدا الأمر وكأنه كان يرى، بطريقة ما، أن من المشين المبالغة في تجميل صورة تعكس المعاناة البشرية.

تأثَّر روبرت كابا وصديقه هنري كارتييه-بريسون خلال وجودهما في باريس أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي بأندريه كيرتس، الذي كان من أعظم روَّاد التصوير الفوتوغرافي بعدسة ٣٥مم. تعاون الصديقان مع ثالثهما، ديفيد «تشيم» سيمور، في استحداث أسلوب جديد في التصوير الفوتوغرافي يهدف إلى التقاط ما سمَّاه كارتييه-بريسون «اللحظة الحاسمة»، وهو الأسلوب الذي ارتبط لاحقًا بوكالة ماجنم فوتوز.

لقد أُسِّست وكالة ماجنم فوتوز انطلاقًا من رغبة الثلاثة في العمل خارج إطار النماذج السائدة آنذاك في صحافة المجلات، واستطاعت أن تتحرَّر من الممارسات التقليدية بدعمها للمصورين الصحفيين التابعين لها بدلًا من توجيههم. كما نصَّت قواعد الوكالة على أن حقوق النشر مملوكة لأصحاب الصور الفوتوغرافية لا المجلات التي تتولَّى نشرها.

كان ذلك يعني أن مصوري الوكالة يستطيعون تغطية الأخبار التي يختارونها، دون تكليف، وأن الوكالة تتولَّى بيع أعمالهم لحسابهم إلى المجلات في جميع أنحاء العالم مقابل عمولة. وبموجب هذه القواعد، أمكن لمصوري الوكالة التخلص من إملاءات إصدار واحد وما تفرضه هيئة تحريره، والعمل لفترات طويلة على تغطية ما يختارون من أخبار.

تبنَّت وكالة ماجنم فوتوز التصوير بعدسات ٣٥مم وأنشأت الصحافة المصوَّرة؛ وهو ما ألهم أجيالًا من المصورين الفوتوغرافيين والصحفيين وجعلهم يُقدرون قيمة أعمالهم الخاصة. ولا يزال بالإمكان ملاحظة آثار هذا الإنجاز الفائق في سعة الحيلة التي لا يزال يتمتع بها أفضل المصورين الصحفيين اليوم، والتي تتسم بالاستقلالية، بل والانعزالية.

وكما صدح بها كارتييه-بريسون في إحدى مذكراته إلى الصحفيين الآخرين: «تحيا الثورة الدائمة» (ماجنم فوتوز ٢٠٠٧).

(٤) الصحافة المصوَّرة اليوم

منذ عام ١٩٩٧، شرع عملاقَا الصور الفوتوغرافية، جيتي وكوربس، في الاستحواذ على أغلب وكالات الصحافة المصوَّرة المستقلة. ولا شك أن أهم ما تبقَّى من تلك الوكالات المستقلة، والتي يمتلكها بالفعل المصورون الفوتوغرافيون أنفسهم، هما وكالة ماجنم فوتوز ووكالة السبعة للصحافة المصوَّرة، الأحدث عهدًا بكثير.

رغم التغيرات الهيكلية الكبيرة التي شهدتها الصحافة المصوَّرة، فلا تزال تحظى بمتابعة جماهيرية واسعة؛ فالتصوير الفوتوغرافي هواية لها شعبية كبيرة بحيث يجد أفرادها أنفسهم مدفوعين إلى ممارستها في أحلك الظروف.

لا يزال المصور الفوتوغرافي يتعرض لضغوط، فسوف يتزايد تفضيل الصحف لأولى الصور التي تصل إليها أو أقلها سعرًا لا أفضلها جودة. غير أن الصحافة المصوَّرة تظل أفضل وسيلة إعلامية بالنسبة إلى الصحفي المستقل؛ إذ تحفظ له أكبر قدر من التحكم في المسائل التحريرية، إلى جانب «الإعلام الجديد» الذي لم تُثبَّت أركانه بعدُ.

تظل الحقيقة الثابتة هي أن الصورة الفوتوغرافية الإخبارية يجب أن تُستخدَم كما التقطها مصورها. ورغم أنه يمكن من الناحية الفنية التلاعب في الصور وتعديلها، فإن هذه الممارسة غير شائعة وما زالت تلقى استهجانًا شديدًا. وقد يعمد محررو الصور إلى اقتصاص أجزاء من الصور غير أن هذا نادرًا ما يؤدي إلى تغيير رسائلها الصحفية.

خلافًا للتصوير الفوتوغرافي، عادةً ما تخضع أعمال الكُتَّاب للتحرير على يد محررين مساعدين، ومن المعتاد أن يعمل مصورو الفيديو في طواقم. كما أن النصوص التي يكتبها الصحفيون التليفزيونيون لا بد أن تلقى موافقة الإدارة أولًا، وتخضع أخبارهم كذلك لمزيد من التحرير لتلائم الجداول الزمنية للبث والسياسات التحريرية.

أما الصحافة المصوَّرة، فإن تحرُّرها يدعو إلى الدهشة.

(٥) وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية

جمعت مجموعة صغيرة من الأفراد المغامرين يقودها جوين روبرتس كاميرات من طراز سوني فيديو ٨مم وحاولوا العمل خارج آلة الأخبار التليفزيونية بين منتصف ثمانينيات القرن الماضي وأواخره، وقد ركزوا اهتمامهم على تغطية الأخبار الأجنبية التي كان من العسير الوصول إليها، كالتي تقع في أفغانستان أو السودان.

تُعَد وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية في لندن أول وكالة أُسِّست لمساندة صحافة الفيديو المستقلة والتي نشأت عن توفر مثل هذه الكاميرات، لا سيما كاميرات هاي ٨ الأعلى جودة.

تأسَّست هذه الوكالة على يد كلٍّ من بيتر جوفينيل، وروري بيك، ونيك ديلَّا كاسا، وكاتب هذا الفصل، وذلك خلال تغطيتنا للثورة الرومانية خلال موسم أعياد الميلاد عام ١٩٨٩. لقد أورد مراسل بي بي سي، ديفيد ليون، قصة هذه الوكالة في كتابه الذي يحمل عنوان: «فرونتلاين: القصة الحقيقية للمتمردين البريطانيين الذين غيَّروا معالم الصحافة الحربية» (٢٠٠٦).

برزت وكالات أخرى أصغر حجمًا ولا تزال باقية إلى يومنا هذا، وأكثرها تأثيرًا وكالة إنسايت الإخبارية التليفزيونية التي أنشأها المنتج التنفيذي رون ماكولاج. لقد عملنا معًا لبناء كيان موازٍ مستقل يمثل إضافة جديدة للأخبار التليفزيونية.

تعمدت فرونتلاين استلهام نموذج ماجنم فوتوز، غير أن مؤسسي ماجنم أمضوا سنوات في العمل بمجالَي الصحافة والتصوير الفوتوغرافي قبل إنشاء وكالتهم، أما نحن في فرونتلاين، فلم نكن نتمتع بمثل هذه الخبرة.

كانت الأعمال المستقلة التي أنجزتها فرونتلاين في بادئ مسيرتها تهدف إلى الدخول السريع والمجزي إلى عالم الأخبار التليفزيونية مدعومًا بشكل من أشكال الخبرة العسكرية.

كانت الأخبار التليفزيونية آنذاك تعتمد على استخدام كاميرات بيتاكام ضخمة، وهي التي كانت تتكون إلى عهد قريب من جزأين وتحتاج إلى مصورَين ومهندس صوت. كما قد يضم طاقم الأخبار منتجًا ومراسلًا، وغالبًا ما كان يصحبهم أيضًا محرر فيديو.

كان المصورون لا يزالون يتوقعون أن عليهم إتمام فترات تدريبهم المهني ونَيل فترات راحة طويلة لتناول الغداء. غير أن كل هذا كان على وشك التغير؛ إذ شهد المشهد ظهور عدد كبير من المصورين الأستراليين بمجموعة أكبر من المهارات ومنظومة مختلفة تمامًا للأخلاق المهنية.

رأينا، في فرونتلاين، أننا إذا نجحنا في التقاط مقاطع فيديو مثيرة للاهتمام، فسوف نتمكن من بيعها لأي شبكة بث بريطانية بما يعادل ٧٥٠ جنيهًا إسترلينيًّا للدقيقة الواحدة أو ما يقارب ذلك. ثم يمكن أن نحدد بعد ذلك سعرًا أعلى مقابل بيعها لشبكات البث الأخرى حول العالم.

رأينا أننا إذا تمكَّنَّا من تصوير خبر كامل وحررنا مقطعنا تحريرًا ملائمًا، فسوف يتسنَّى لنا بيع المزيد من الدقائق لأحد البرامج الإخبارية الكثيرة المنتشرة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، والمتعطشة للحصول على مادة إخبارية جيدة.

كان المصورون في بداية الأمر، وقبل تعيين باقي طواقم العمل، يتنقلون بين المناطق الخطرة حول العالم، ثم يرسلون إلينا شرائط الفيديو لأحاول أنا بيع المقاطع لشبكات البث.

بالنسبة إلى صحفي فيديو مستقل يتسم بالجرأة والذكاء، كان من الممكن تحقيق مكاسب مادية تضاهي تلك التي يحققها أي مراسل تليفزيوني ناجح، لكن بالطبع دون عناء العمل الشاق الذي يسبق تلك المكاسب. لقد كان عملنا مثيرًا، لكنه خطير.

كنا جميعًا في العقد الثالث من عمرنا، واعتقدنا أن بإمكاننا أن نجني كثيرًا من المال لننفقه سريعًا ونعيش حياة جامحة غريبة. كنا ننعم بالاستقلالية، ولا نخضع لأي قيد، نتنقل وننقل الأخبار كيفما شئنا، ونختار قواعدنا الخاصة. كان العمل متعة حقيقية؛ فحين ارتحلنا إلى أفغانستان، كنا نسعى وراء الإثارة، أما في البلقان، فقد انغمسنا في الحرب وحقيقتها.

إن محاولة استيعاب حجم المعاناة الإنسانية الناجمة عن الحرب من شأنها أن تُثقل القلب وتُبصِّره بحقيقة الحياة، تلك المعاناة التي تبخسها الإحصائيات قدرها؛ إذ تقصر هذه الإحصائيات عن نقل ولو نزرًا يسيرًا من كم الأرواح التي أُزهقت، والأطراف التي قُطعت، والمنازل التي هُدمت، والآمال التي فُقدت. كانت المعاناة تحيط بعدساتنا من كل ناحية، ولم نصبح صحفيين إلا بعد أن تعلَّمنا كيفية نقلها.

بدأنا ندرك القسوة المُتبلِّدة التي يُبديها المشاهدون غير المُبالين بما يجري لغيرهم، الذين لا يفصلهم عن الحرب سوى الجغرافيا، أو الزمن، أو ربما شجاعة أجدادهم. لقد شعرنا أنه من الواجب علينا أن يكون لنا دور؛ أن ننغمس في عملنا بالوجود في مواقع الأحداث، آملين أن تُحدِث مقاطعنا أي تأثير.

نجحنا في اكتساب الاحترافية الصحفية، وعملنا على تحسين مهاراتنا وتنمية حس بارع بنوعية الأخبار التي قد تسعى «الآلة الإخبارية» إلى شرائها منا. لم نقتصر على

تغطية الصراعات، بل تَركَّز أغلب عملنا، في الواقع، على تصوير القصص الإخبارية ذات الطابع الإنساني التي تجري فصولها في المناطق النائية من العالم حيث لا توجد شبكات البث كثيرًا، أو تلك القصص الخفية التي يصعب إيجادها، من أمثال «تجار صينيين على متن القطار السريع العابر لسيبيريا» أو «جدَّات يبعن المخدرات في موسكو».

كنا ننغمس في أيِّ قصة إخبارية ننقلها، مُمضين في كثير من الأحيان أسابيع مع أبطالها، في حين أنه نادرًا ما كانت تُمنَح الطواقم الإخبارية التقليدية أكثر من بضعة أيام لتغطية الخبر الواحد، مما يضطرها إلى اتباع أسلوب تطفلي في استقاء الأخبار.

عند تغطية الصراعات، كنا كثيرًا ما نختار تلك الأخبار التي تسير عكس التيار، مثل «وقائع فساد الأمم المتحدة في سراييفو»، والتي كان يتجنبها بقية الصحفيين خشية أن تؤثر سلبًا على سهولة وصولهم إلى الأخبار في المستقبل. فمثلًا، في أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١، حين وُضعت قيود شديدة على وجود شبكات البث والصحف في العراق، تنكرتُ في زي ضابط بريطاني للحصول على مقاطع مصوَّرة للصراع.

حين صار بيع الأخبار أشد صعوبة، اتجه كلٌّ منا إلى الاضطلاع بمهام إضافية داخل طاقم العمل لتغطية نفقاتنا ومواصلة وجودنا في أماكن تصوير أعمالنا لأطول فترة ممكنة. مثلًا، ساهم بيتر جوفينيل، أحد أعضاء وكالتنا والخبير بالشئون الأفغانية، في ترتيب مقابلة مع أسامة بن لادن وتولَّى تصويرها لحساب شبكة سي بي إس.

حين توقفت وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية عن تنفيذ مهام جديدة بحلول عام ٢٠٠٣، كان ثمانية صحفيين مستقلين، ممن عملوا في الوكالة، قد لقوا حتفهم. وكان اثنان منهم، وهما نيك ديلا كاسا وروري بيك، من بين مؤسسي الوكالة، بالإضافة إلى بيتر جوفينيل وكاتب هذا الفصل.

أما باقي الثمانية فهم روزانا ديلا كاسا، وتشارلي ماكسويل، وكارلوس مافروليون، ورودي سكوت، وجيمس ميلر، وريتشارد وايلد. وقد قضوا نحبهم جميعًا خلال تأدية عملهم.

تُوفي كلٌّ من نيك ديلا كاسا، وروزانا ديلا كاسا، وتشارلي ماكسويل عام ١٩٩١ في شمال العراق حيث يسيطر الأكراد، بينما تُوفي روري بيك في موسكو عام ١٩٩٣، وكارلوس مافروليون في باكستان عام ١٩٩٨، ورودي سكوت في إنجوشيا عام ٢٠٠٢، وجيمس ميلر في غزة عام ٢٠٠٣، وريتشارد وايلد في العراق عام ٢٠٠٣.

رغم أن الخسائر الفادحة التي تكبدناها في الصحفيين قد لا تشي بذلك، فإننا كنا من أوائل المعنيين بتنمية الممارسة الآمنة في صناعة الأخبار. وعملنا كمستشارين لأول دورة



فون سميث متنكرًا في هيئة جندي بريطاني أثناء حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١ عندما كان المصور الوحيد الشاهد على المعارك الميدانية.



... وواحدة من لقطاته الحصرية.

شكل ٤-٢: نُشرت الصورة ولقطة الفيديو الثابتة بإذن من فون سميث.

تدريبية عن السلامة في صناعة الأخبار عام ١٩٩٣، وبدأنا نُروِّج فيما بيننا لمنهج منضبط في خوض المخاطر التي لا تقابلها فائدة محتملة.

غير أننا واصلنا مقاومتنا للفكر التقليدي الذي قامت عليه سياسة السلامة الناشئة، وهو ما قدَّم أرواحنا على معاناة غيرنا.

عقب وفاة بيك، قررت زوجته جولييت بيك بمساعدة صديقه المصور الصحفي، جون جنستون، إنشاء مؤسسة خيرية تحمِل اسمه؛ وهو ما تحقَّق عام ١٩٩٥ بدعمٍ من وكالة فرونتلاين وغيرها الكثيرين.

سعت المؤسسة إلى تدشين جائزة لمن يُبدي شجاعة كبيرة في عمله في مجال صحافة الفيديو المستقلة، وإنشاء صندوق لمساندة أسر المصورين المستقلين الذين قُتِلوا خلال أداء عملهم. لم يكن العاملون في صحافة الفيديو المستقلة في أوائل التسعينيات يتلقون أي جوائز عن أعمالهم إلا فيما ندر جدًّا؛ وذلك لأنهم لا يعملون لحساب شبكات البث.

شهد منتصف التسعينيات تغيرات ضخمة في مجال البث؛ إذ أُنشئت مئات من القنوات التليفزيونية الخاصة الجديدة لتُنافس شبكات البث القديمة، والتي كان معظمها حكوميًّا. تقلصت الميزانيات مع اشتداد المنافسة، وتوقفت برامج المجلات، وأطلقت أسوشيتد برس ذراعها التليفزيونية تحت اسم وكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية، وعمدت هي ورويترز إلى التوسع في إنتاجهما الإخباري الذي تبيعه لشبكات البث، مع إجراء تحسينات بارزة في نوعيته.

وانتشر استعمال الكاميرات التي تستخدم أشرطة صغيرة بحلول عام ١٩٩٧، خاصة من قِبل صُنَّاع الأفلام الوثائقية. كما ظهرت صيغة رقمية جديدة تُسمى دي في، والتي ساعدت في التقاط صور بجودة أفضل كثيرًا من كاميرات هاي ٨.

ومع انخفاض أسعار المواد الإخبارية، أبدت شبكات البث حرصًا متزايدًا على الترويج لأسمائها التجارية من خلال تزويد مراسليها بكاميرات بدلًا من شراء الأخبار من الصحفيين المستقلين. ورغم كل التوسع الذي حققته شبكات البث في إنتاجها الإخباري، كان هذا الإنتاج يتبنى نفس الأجندة الإخبارية؛ ومِن ثَمَّ لم يَعُد هناك مجال لتحقيق التميز فيه.

لم يُفلح صحفيو الفيديو المستقلون قَطُّ في أن يضمنوا نسبة مقاطعهم إليهم عند عرض شبكات البث لها، وتَبيَّن أن ذلك كان أحد أوجُه قصورنا في وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية؛ فقد كانت المواد الإخبارية التي نبيعها لصالح صحفيي الفيديو

المستقلين تحمِل صوت مراسلِي شبكات البث؛ ومِن ثَمَّ كانت تقدَّم باعتبارها من إعدادهم، سواءٌ أكان هؤلاء المراسلون موجودين في موقع الحدث أم لا.

كان هذا هو النظام المعمول به فيما يتعلق بالمحتوى الإخباري الخاص برويترز ووكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية، وهو نظام كان من شأنه أن يخفي المصدر الحقيقي للمحتوى الإخباري التليفزيوني الضخم الذي اشترته شبكات البث. ولم يكن من الممكن المحافظة على مستوًى معقول من الأسعار مقابل عملنا في مجال يجهل مقدار إسهاماتنا.

ومع تراجع عدد الصحفيين المستقلين الأوروبيين والأمريكيين الذين نجحوا في دفع مؤسسات الصحافة التليفزيونية إلى دعم أعمالهم، اتجهت مؤسسة روري بيك، بعد إخفاقها في توعية المجال بدور الوكالات المستقلة، إلى إتاحة جوائزها أمام نطاق أوسع من صحفيي الفيديو المستقلين، وقررت الاعتماد في بقائها على ما تُقدِّمه صناعة البث من تبرعات.

توقفت وكالة فرونتلاين الإخبارية التليفزيونية عام ٢٠٠٣ عن الحصول على مهام إخبارية جديدة، لكن العام نفسه شهد ميلاد نادي فرونتلاين.[١]

(٦) التكنولوجيا

إن كل ما أحرزته الصحافة المستقلة الحرة من تقدمٍ ملموس، على حد علمي، كان مدفوعًا بالتطورات التكنولوجية في مجال المعدَّات التي يمكن استخدامها في الحصول على الأخبار.

فمن العوامل التي مكَّنت من تأسيس وكالة ماجنم فوتوز استحداث كاميرات التصوير الفوتوغرافي المحمولة ذات العدسات ٣٥مم، وذلك قُبيل الحرب العالمية الثانية.

شهدت صحافة الفيديو المستقلة ازدهارًا في حقبة التسعينيات حين اتجه الصحفيون المستقلون إلى استخدام الكاميرات المعتمدة على أشرطة صغيرة، والتي كانت تُباع في الشوارع الرئيسية، كأدوات للحصول على الأخبار؛ إذ كانت الصور الملتقَطة بعدسة كاميرا هاي ٨، التي صنعتها سوني في البداية لتُباع في السوق الاستهلاكية، تقل في جودتها كثيرًا عن نظيراتها الملتقَطة بعدسة كاميرا بيتاكام الأكبر حجمًا والمستعملة آنذاك، غير أن كاميرا هاي ٨ كانت أفضل بما يكفي إذا قورنت بكاميرا فيديو ٨ القياسية؛ مما يعني إمكانية بيع الصور إذا كان المحتوى جاذبًا للاهتمام.

كما أن تكنولوجيا الإنترنت والكمبيوتر، رغم أنها ليست معنية بتصوير الأخبار، تُقدِّم الآن منصةً للأفراد تمكِّنهم من نشر الأخبار دون اللجوء نهائيًّا إلى المؤسسات الإخبارية

التقليدية. غير أن هذه التكنولوجيا تمنح الجميع الفرصة ذاتها، سواءٌ أكانوا صحفيين محترفين أم لا.

ورغم أن الإنترنت، والاتصالات عن طريق الهواتف المحمولة، و«الإعلام الجديد» لم تُقدِّم بعدُ عائدًا ماديًّا مجزيًا يُمكِّن الصحفيين المستقلين من إعالة أسرهم وسداد قروضهم العقارية في مدينةٍ كلندن، فإنه من الواضح أنها قادرة على تحقيق ذلك بمرور الوقت.

تمكَّنتُ خلال رحلتي الأخيرة إلى جنوب أفغانستان في سبتمبر ٢٠٠٧ من تحقيق مكاسب مالية تكفي احتياجاتي الأساسية، وذلك من خلال الدمج بين استخدام الوسائل التكنولوجية السابقة وبيع بعض المواد الإخبارية. كانت هذه المرة الأولى في حياتي الصحفية التي تمكنت فيها من نشر الأخبار بنفسي خلال وجودي وسط السهول الأفغانية، ويكون لي التحكم الكامل في الجوانب التحريرية لتغطيتي (إلا فيما يخص اعتبارات «أمن العمليات» التي يحددها مرافقي وحارسي العسكري).

لقد نجحت في الاستفادة المادية من رحلتي بعد عودتي منها من خلال بيع بعض أفلامي لجهات مثل برنامج الأخبار والأحداث الجارية الرئيسي في قناة بي بي سي، «نيوزنايت». كما كتبت مدونة مرئية على موقع fromthefrontline.co.uk، ونشرت الفيديوهات على موقع اليوتيوب. بالإضافة إلى ذلك، استعنت بإحدى شبكات التواصل الاجتماعي، تويتر، لربط متابعي أعمالي المتزايدين بي وتعريفهم بأنشطتي. لم أُعِدَّ الموقع بحيث أجني منه أي عائد مادي، لكنني بدأت أبني قاعدتي الجماهيرية.

(٧) الصحافة المستقلة اليوم

> تتعرض الخدمات الإخبارية التي تعرضها شبكات البث لضربات من جميع الجهات؛ فمالِكو هذه الشبكات، من ناحية، لا يُفوتون فرصة لاعتصارها لمضاعفة أرباحهم عن طريق التقتير في نفقات التغطية، والدفع باتجاه تغطية «الأخبار الصفراء»، والاستخفاف ببقية الأخبار. وتشهد نسب المشاهدة تراجعًا … من الجلي أن المستقبل لشبكات البث المحدود، كشبكة فوكس بتيارها اليميني وجون ستيوارت بأخباره التي تحمِل شعار «الأكاذيب أصدق من الحقائق». (أولترمان ٢٠٠٤: ١٢)

يحقق البث المحدود التوازن المطلوب في صناعة الأخبار ويكفل فُرصًا متساوية للجميع. فمن المتوقع أن يقوى دور الصحافة المستقلة كجزء حيوي وضروري من المجتمع الصحفي

الاحترافي، ويثبت قدرتها على تتميم دور الإعلام التقليدي وتقاسُم فضاء «الإعلام الجديد» معه؛ فلا مجال لإعادة الزمن إلى الوراء.

اتسعت حدود صناعة الأخبار، في الوقت نفسه، لتتجاوز نطاق أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية؛ فالحروب المندلعة في العراق وأفغانستان دفعت بالمهارات الإعلامية إلى منطقة الشرق الأوسط، وبدأت المنظمات الإعلامية غير الحكومية تعمل على تقديم التمويل اللازم لتنمية هذه المهارات على نطاق دولي.

سيأتي الصحفيون المستقلون في المستقبل من جميع الدول بلا استثناء. وسيبقى الهواة أكثر عددًا من المحترفين، غير أنه من المؤكد أن الصحفيين المستقلين سيبذلون جهودًا لا تقل عن جهود أيٍّ مؤسسة أو كيان لضمان ورعاية جميع الحريات التي ينعم بها أبناؤنا وأحفادنا، أيًّا كانت.

غير أن ثمة حتمية ملحة لتعزيز ممارسة النزاهة والإنصاف المهنيين خلال التغطيات الإخبارية على أوسع نطاق ممكن، وحماية جميع أشكال الصحافة الرشيدة من الهجوم بسبب التخبط والثرثرة العبثية اللذين قد ينتشران في الفضاء التدويني.

أسئلة يُجِيب عنها الطالب

(١) إذا أبدى الصحفيون المستقلون استعدادًا للمخاطرة بتغطية الأخبار التي تمتنع المؤسسات الإخبارية عن إرسال صحفييها المتفرغين لتغطيتها نظرًا لخطورتها الشديدة، فهل يجب تشجيعهم على خوض تلك المخاطرة؟

(٢) ما إيجابيات العمل الصحفي المستقل وسلبياته؟

(٣) هل من المبرَّر أخلاقيًّا رفض تقديم الدعم المادي لصحفي مستقل قبل خوضه تغطية إخبارية شديدة الخطورة، مع تقديم وعد له بالنظر في إمكانية شراء مواد الفيديو التي سيجلبها في حال كانت جديرة بالنشر؟

(٤) يزعم فون سميث أن الصحفيين المستقلين يمكنهم خوض التغطيات الإخبارية التي يُعرِض عنها الصحفيون المتفرغون؛ وذلك لأن الصحفيين المتفرغين ينبغي عليهم أن يفرضوا رقابة ذاتية على أنفسهم لحماية المصالح التجارية أو المؤسسية لمالكي كياناتهم الإعلامية. فهل فون محقٌّ في زعمه؟

هوامش

(١) نادي فرونتلاين (www.frontlineclub.com) معني بأولئك الذين فقدوا أرواحهم خلال تغطية الصراعات حول العالم، ويدعم حرية التعبير للصحفيين في كل مكان.

الفصل الخامس

رسالة إلى مصور صحفي شاب

جاري نايت

تمهيد
جون أوين

فتاة فيتنامية صغيرة، تصرخ في ارتياع وتُهرَع عارية بعد أن أحرقت قنبلة نابالم ملابسها، محاوِلةً الفرار من تفجيرات هجوم جوي شنته طائرة فيتنامية جنوبية خطأً على قريتها. من سينسى تلك الصورة التي التقطها مصور أسوشيتد برس، نيك أوت، للطفلة كيم فوك، وقد حُفِرت إلى الأبد في ذاكرتنا كرمز لحرب فيتنام؟

«الرجل الساقط»، تلك الصورة التي لا يسعنا أبدًا إزالتها من ذاكرتنا متى استحضرنا كابوس أحداث الحادي عشر من سبتمبر، يوم شنَّ تنظيم القاعدة هجومًا جويًّا على برجي مركز التجارة العالمي. لقد تمكَّن مصور أسوشيتد برس، ريتشارد درو، من التقاط صورة رجل، ظلت هويته مجهولة لبعض الوقت، غير أن سقوطه الحر من أحد برجَي مركز التجارة العالمي لا يزال يُطارد خيالنا.

على الجانب الخلفي من باب حجرة نوم ابنتي ذات الثمانية عشر ربيعًا، يوجد ملصق يمثل نسخة رديئة لصورة «القُبلة»، تلك الصورة الخالدة للحرب العالمية الثانية. تُظهر تلك الصورة بَحَّارًا أمريكيًّا محتضنًا ممرضة أمريكية بين ذراعيه ويُقبِّلها، وقد نجح مصور مجلة لايف الشهير، ألفريد آيزنستات في التقاط هذه اللحظة التي ستبقى إلى الأبد شاهدةً على يوم الانتصار على اليابان.

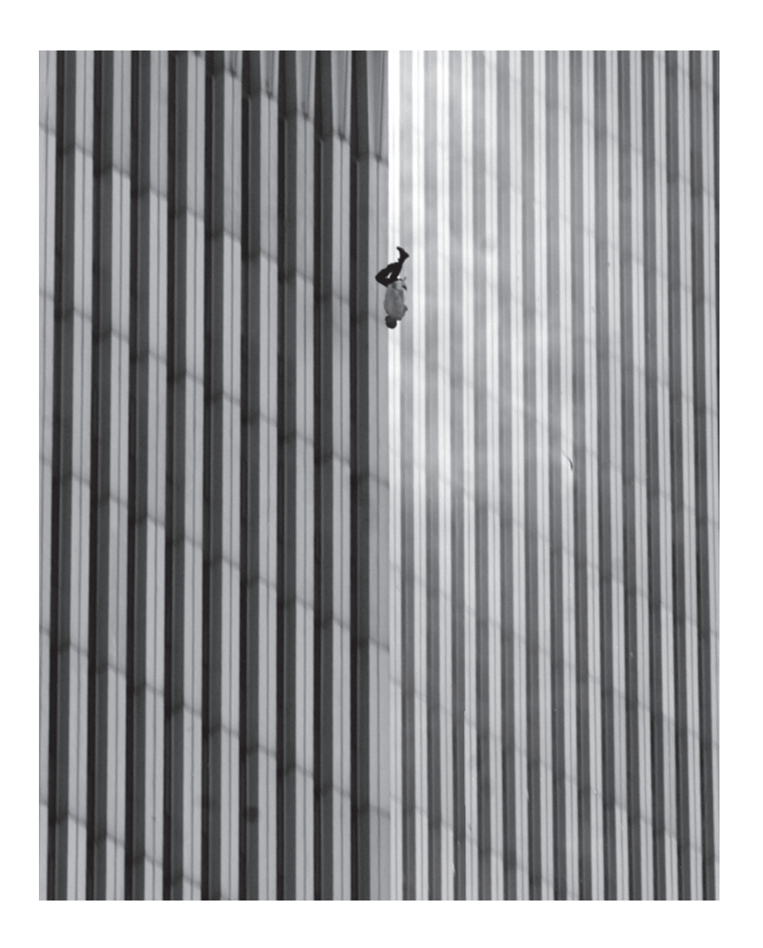


شكل ٥-١: عساكر فيتناميون جنوبيون يسيرون خلف أطفال مذعورين، من بينهم كيم فوك التي كانت في التاسعة من عمرها، وهم يركضون في طريق ١ قرب ترانج بانج عقب هجوم جوي بقنابل النابالم على مواقع اشتُبه أنها تُئوي قوات حركة فيت كونج، وذلك في يونيو ١٩٧٢ (نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور نيك أوت).

تلك ثلاث صور فقط تبادرت إلى ذهني عندما كتبت تمهيد هذا الفصل الذي يتناول دور التصوير الفوتوغرافي في عالم الصحافة. لكنني، في الحقيقة، أستطيع أن أُغلق عينيَّ، مثل أي شخص، وأستدعي إلى خاطري صورًا لا تُحصى لأمورٍ مروعة ومزعجة ولأمور تافهة ومبهجة أيضًا.

لطالما استحوذت الصحافة المصوَّرة على اهتمامنا، ويرجع ذلك إلى أسباب منها أن التصوير الفوتوغرافي نشاط يمارسه أغلبنا بشكل أو بطريقة ما، إلا أن المصورين المحترفين، لا سيما أولئك الذين يسجلون الصراعات والكوارث الطبيعية حول العالم، لهم سطوة خاصة علينا؛ يرجع ذلك من ناحية إلى أن كثيرًا من المصورين أنفسهم كانوا شخصيات استثنائية، مثل روبرت كابا وتيم بيدج،

أو هورست فاس، مصور أسوشيتد برس، والحائز على جائزة بوليتزر مرتين وعلى إعجاب الكثيرين لذكائه وخبرته الصحفية الشاملة.



شكل ٥-٢: رجل يسقط من البرج الشمالي لمركز التجارة العالمي في نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١، بعد أن اختطف الإرهابيون طائرتين واصطدموا بهما ببرجَي مركز التجارة المكون كلٌّ منهما من ١١٠ طوابق مما أدَّى إلى انهيارهما (نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور ريتشارد درو).

يشير معظم طلاب الإعلام والتصوير الفوتوغرافي إلى تأسيس وكالة ماجنم فوتوز عام ١٩٤٧ في باريس باعتباره التطور الأهم في تاريخ الصحافة المصوَّرة. لقد أرست هذه المؤسسة التعاونية، تحت قيادة كابا وهنري كارتييه-بريسون، تقليدًا استطاع المصورون المستقلون في ظله أن يتحكموا في صورهم، وأن يُكرِّسوا جهودهم لتغطية الأخبار ذات الأهمية، والتي تُدرُّ المال عليهم وعلى عملائهم في الوقت نفسه. ومن الأقوال المأثورة عن كارتييه-بريسون في هذا الشأن: «غالبًا ما نصوِّر الأحداث التي تسمى أخبارًا» (ماجنم فوتوز ٢٠٠٧).

قبل انتشار الصور البصرية الفورية على شاشات التليفزيون، كانت المجلات ذات الجودة الإنتاجية العالية والثرية في محتواها البصري هي التي تمزج التحقيق الصحفي بالصور الفوتوغرافية الصحفية الجذابة واللقطات البرَّاقة للنجوم وصناع الأخبار، ومن أمثلة هذه المجلات لايف في الولايات المتحدة الأمريكية، وشتيرن في ألمانيا، وباري ماتش في فرنسا.

لكن رغم أن مجلة لايف وغيرها الكثير من المجلات الواسعة الانتشار (باستثناء شتيرن وباري ماتش) شهدت تراجعًا في شعبيتها، فإن المصورين الصحفيين لم يتوقفوا عن المخاطرة بأرواحهم في سبيل التقاط الصور التي نُشِرت في أهم الصحف والمجلات الإخبارية الأسبوعية ذات الطابع الجاد.

ثم حدث تطوُّران تغيَّر على أثرهما كل شيء: الإنترنت والتكنولوجيا الجديدة؛ فبحلول عام ٢٠٠١، كان محررو الصور في الصحف الكبرى يحاولون تتبُّع الصور الرقمية المتدفقة إلى أجهزة الكمبيوتر خاصتهم من جميع أنحاء العالم، والتي كانت تصل إلى ألفَي صورة يوميًّا. وبينما اعتاد المصورون الصحفيون أن يلتقطوا صورهم، ثم يتولوا تحميضها وإرسالها، وذلك في عملية ربما يمكن أن تستغرق أيامًا، فإن المصورين الصحفيين الرقميين المنتشرين اليوم في مهام صحفية في أغلب بقاع العالم يمكنهم التقاط صورهم وإرسالها في ثوانٍ من أجهزة الكمبيوتر المحمولة خاصتهم عبر البريد الإلكتروني. وبناءً على تقديرات سانتياجو ليون، مدير التصوير في وكالة أسوشيتد برس، فإن الصحيفة الواحدة ربما تتلقى ما يزيد عن ٦ آلاف صورة يوميًّا، منها ألفا صورة من أسوشيتد برس و٤ آلاف من بقية الوكالات كرويترز وفرانس برس. ولا يقتصر جهد هؤلاء المصورين الصحفيين الرقميين على عملهم الدءوب لتحديث المواقع الإلكترونية الخاصة بصحفهم أو وكالاتهم، والتي تعرِض أحدث الصور لحظة بلحظة من جميع أنحاء العالم، بل يتعرضون أيضًا لمخاطر أشد؛ إذ يعملون لفترات أطول من ذي قبلُ، وهو الاتجاه الذي يثير قلق ليون.

من الإشكاليات التي طالما واجهت المصورين الصحفيين ومحرريهم تلك المتعلقة بمقدار الحقيقة الواجب عرضه للقراء والمشاهدين. بعبارة أخرى، متى تكون الصورة ضرورية للتعبير عن حقيقة معركة ضارية أو كارثة طبيعية مفجعة؟

تكون لحظة التقاط الصور الرقمية مفعمة بالمشاعر بحيث تقلل من الإطار الزمني اللازم لتحديد الصور التي تخالف أي توجيهات تحريرية مرتبطة بالذوق العام واللياقة. لكن في مقرات الصحف،

على المحررين أن يحددوا معيارهم في نشر الصور في الصحيفة أو على الموقع الإلكتروني: أهو المحافظة على مشاعر قرائهم أم المخاوف التجارية من غضب المعلنين.

في وقتنا الحالي غالبًا ما ترتبط قضية تحديد ما يُنشر وما لا يُنشر بالصور التي يُقدمها الهواة لا المصورون الصحفيون المحترفون، أو ما يُعرف الآن بـ «المحتوى الذي ينتجه المستخدم». لم يعد كثير منا حتى يحمل كاميرات، بل صرنا نعتمد بدلًا منها على هواتفنا المحمولة المزودة بكاميرات متطورة تلتقط الصور الثابتة وتسجل مقاطع الفيديو. وتُمثِّل الصور التي يقدمها الجمهور جزءًا من المحتوى المرئي الذي يغمر العمليات الإخبارية في التليفزيون والصحف والمجلات. وكانت أبرز الصور المعبرة عن موجات تسونامي وتفجيرات لندن هي تلك التي التقطها «الصحفيون المواطنون» بكاميراتهم وهواتفهم.



شكل ٥-٣: مصور ذا جارديان، شون سميث، خلال توثيقه لتبعات الهجمات الجوية الإسرائيلية على قرية قانا اللبنانية خلال الصراع الذي دار بين حزب الله وإسرائيل عام ٢٠٠٦ (نُشرت الصورة بإذن من شون سميث).

لكن لا يزال للمصورين الصحفيين المدربين والموهوبين دور مهم في العملية الاحترافية لجمع الأخبار؛ فالصور الخالدة إنما هي تلك التي التقطتها عدسات المصورين الفوتوغرافيين ممن لهم

شغفٌ برواية الأخبار ونهمٌ للمغامرة وخوض المخاطر. وبخلاف المراسلين التليفزيونيين القادرين على تجميع الأخبار وترك انطباع بوجودهم في موقع الحدث، أو مراسلي الصحف والمجلات القادرين على تغطية الأحداث دون الوجود في قلبها، فإنه يتوجب على المصورين الصحفيين أن يشهدوا الأحداث بأنفسهم لتصويرها. هناك مقولة شهيرة مأثورة عن روبرت كابا تقول: «إذا لم تكن صورتك جيدة بما يكفي، فإن هذا يعني أنك لم تكن قريبًا بما يكفي.» وهذه المقولة تصدُق الآن كما صدقت خلال ثلاثينيات القرن الماضي حين التقط صوره الخالدة للحرب الأهلية الإسبانية.

رغم أن وكالة ماجنم فوتوز التي أسسها كابا لا تزال قوة مرموقة في مجال الصحافة المصوَّرة، فإن لها الآن منافسًا يتخذ من باريس مقرًّا له مثلها، ألا وهو وكالة أو مجموعة السبعة للصحافة المصوَّرة (إذ تضم سبعة أعضاء مؤسسين) التي أُسِّست عام ٢٠٠١ قبل أيام من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وتضم مصورين دوليين لامعين مثل جيمس ناكتوي ورون أفيف.

كان المصور الصحفي البريطاني جاري نايت هو القوة المحركة لهذه المجموعة، وترأَّس مجلس إدارتها طوال السنوات الثلاث الأولى من عملها. استهل نايت حياته المهنية بالعمل كمصور فوتوغرافي في جنوب شرق آسيا أواخر ثمانينيات القرن الماضي. غير أن حرب البوسنة تُعَدُّ المحطة التي وطدت شهرته وبدأ خلالها توثيق ما اعتُبِر لاحقًا جرائم حرب، وذلك انطلاقًا من الإيمان المشترك بأن الصحافة يمكن أن تساهم في تسليط الضوء على أيِّ فرد مسئول عن وقوع أحداث تسببت في انتهاك أعراف الحرب واتفاقيات جنيف.

ثم تعاقد نايت لاحقًا مع مجلة نيوزويك للعمل كمصور فوتوغرافي لحسابها، فحمل كاميراته وتوجَّه إلى أفريقيا بهدف تسجيل المعارك الدموية الكثيرة التي نشبت هناك وليبقى وفيًّا أيضًا للعقيدة التي تتبناها مجموعة السبعة، والتي تنص على الآتي: «إن ما يُوحِّد عمل مجموعة السبعة هو ذلك الشعور بأننا لم نخسر كل شيء، بتواصلنا مع الآخرين على الأقل؛ وبأن خيوط الأمل والعزيمة يمكن أن تغمر أشد صفحات الهمجية عتمةً؛ وبأن جبر ما انكسر ممكن دائمًا؛ وبأنه ليس هناك يأس مطلق» (وكالة السبعة للصحافة المصوَّرة ٢٠٠٦).

ورغم ذلك، عانى نايت يأسًا عميقًا عام ٢٠٠٧ بعد إتمام مهمته في دارفور مع زميله المراسل رود نوردلاند لحساب مجلة نيوزويك. في ذلك الوقت الذي تواصل فيه تهجير الآلاف من منازلهم، كان نايت ونوردلاند الصحفيَّين الغربيَّين الوحيدَين اللذين نقلا ما وصفه الصحفيون المرموقون والمسئولون الحكوميون رفيعو المستوى بالإبادة الجماعية.

ورغم ذلك، لم يفقد جاري شغفه بالصحافة المصوَّرة وإيمانه بقدرة المصور الفوتوغرافي على التقاط صور يمكن أن تُحدث تغييرًا في العالم.

مراجع

Magnum Photos (2007) History of Magnum. http://agency.magnumphotos.com/about/history.

VII Photo Agency (2006) About VII Photo Agency. http://www.viiphoto.com/photographer.html.

إن الصحافة المصوَّرة لا تصلُح لأصحاب القلوب الضعيفة، لكنني أستطيع أن أستحضر قليلًا من الأمور الشائقة التي تصلُح لهم. ظللت أقرأ عن اندثار تلك الصحافة طوال حياتي المهنية تقريبًا، عادةً من أشخاص ساخطين في منتصف أعمارهم. (تعرفون ذلك النمط من الأشخاص الذين يروون لك كيف اعتادوا السير مسافة عشرة أميال للذهاب إلى مدارسهم مرتدِين أحذية خشبية تحت الأمطار!)

ثق بعينيك وانظر حولك، في أكشاك المجلات أو على الإنترنت، وستجد أن الحقيقة مغايرة نوعًا ما؛ فالصحافة المصوَّرة لا تزال منتعشة، وما يتحلى به هؤلاء الرجال والنساء، الذين يمثِّلون أبرع المصورين الصحفيين، من التزام واستقلالية هو ما يدفعني إلى الإيمان بأن تلك الصحافة سوف تبقى لفترة طويلة في قابل الأيام.

إذًا ما نعاه أولئك الكهول لم يكن وفاة الصحافة المصوَّرة، وإنما وفاة بضعة هياكل تجارية منهكة لا صلة لها بالصحافة المصوَّرة تخصصت في بيع الصور الفوتوغرافية لوسائل الإعلام؛ أو وفاة وظائفهم؛ أو وفاة المجلات غير المهمة؛ أو لعلهم كانوا يصبون غضبهم على التطورات التكنولوجية التي أُحرزت في مجال التقاط الصور ونشرها والتي تستعصي على فهمهم. لا أدري ما علاقة أيٍّ مما سبق بالصحافة المصوَّرة؛ فالصحافة المصوَّرة هي رواية الأخبار مدعومة بالصور الفوتوغرافية، وليست نشاطًا تكنولوجيًّا أو تجاريًّا، وإن كان استيعاب كلا المجالين أمرًا ضروريًّا.

حين أطالع الصور الفوتوغرافية المحفوظة في أرشيفات الصحف أو المجلات أو الوكالات خلال عقدَي الستينيات والسبعينيات، لا أجد فيها مصدر إلهام لي بوجه عام. لطالما أُخبِرت بأن هاتين الحقبتين مثَّلتا الأيام الذهبية للصحافة المصوَّرة، لكنني أجد صعوبة في استنباط السبب وراء ذلك. لا شك أنني أذكر الأعمال العظيمة؛ تلك الصور الأيقونية لحرب فيتنام، والكفاح في سبيل الحرية في الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب

أفريقيا، والأعمال العميقة والثاقبة الرؤية للمصورين الفوتوغرافيين من أمثال لاري بوروز ودون ماكولين وفيليب جونز جريفتس وغيرهم، لكن المحتوى الفوتوغرافي الذي تقدمه الصحف والمواقع الإلكترونية يوميًّا في عصرنا هذا يفوق نظيره من القرن الماضي من كل وجه تقريبًا، وذلك إذا تحررنا من تأثير الحنين للماضي. إن التحدي الذي يواجه الصحافة المصوَّرة الآن هو أن الصور الفوتوغرافية صارت مألوفة ولم تعد تؤثر في القراء بسهولة.

إن للصحافة المصوَّرة مستقبلًا واعدًا، وما من شك في أنها لم تزل تُمثِّل، في أفضل حالاتها، أنقى أشكال الصحافة المعاصرة وأنبلها على الإطلاق.

(١) الموضوعية في مقابل امتلاك وجهة نظر

تُعَد الموضوعية بمنزلة حبل المشنقة الذي لُفَّ حول رقاب كثير من الصحفيين، وهي كلمة ينبغي ألا يكون هناك تعارضٌ بينها وبين امتلاك وجهة نظر.

إن الصحفي الذي لا يمتلك وجهة نظر ليس شخصًا مثيرًا للاهتمام أو ذا منفعة تُرجى، ويجب ألا يتهرب المصورون الفوتوغرافيون من مسئولية التعبير عن آرائهم؛ فالاحتماء خلف مبدأ الموضوعية، الذي أُسيءَ استعماله، ليس من الشجاعة ولا جدوى منه؛ فإننا، من دون وجهة نظر، نختزل دورنا في عمل كاميرات المراقبة. والمصورون الفوتوغرافيون، من هذه الناحية، لا يختلفون ألبتة عن أيِّ فئة أخرى عاملة في مجال الإعلام؛ فلا يقتصر دور الصحافة المصوَّرة على تقديم الصور الإيضاحية؛ ولهذا أضيفت «المصورة» إلى «الصحافة».

(٢) تصوير الهواة والإعلام

إن ما يميز الصحفيين المحترفين عن الهواة هو أن المحترفين ينبغي أن يحظوا بمصداقية معترَف بها عالميًّا استنادًا إلى المسئولية والخبرة وسجلات أدائهم السابقة، وأخيرًا، ومن منظور مثالي، التزامهم بأعراف الصحافة الرشيدة؛ أي السعي إلى الالتزام بالمبادئ الصحفية والتحلي بالأمانة المهنية.

لا تُعَد الاستعانة بصور الهواة أمرًا مستغربًا في تلك الحالات التي يقع خلالها حدث جلل لم يشهده سوى أولئك الهواة، مثل تسونامي في آسيا عام ٢٠٠٤ أو تفجيرات مترو أنفاق لندن عام ٢٠٠٥، غير أن النشر اليومي لصور الهواة على يد المؤسسات الإعلامية



شكل ٥-٤: صورة فوتوغرافية التقطتها عدسة جاري نايت، في كوسوفو، في ١٩٩٩ (نُشرت الصورة بإذن من جاري نايت).

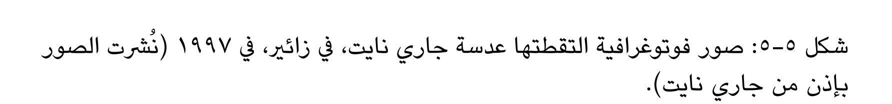
الكبرى، التي تطلب من الجمهور التقدم بصوره، ما هو إلا حيلة تسويقية ووسيلة للحصول المجاني على المحتوى الإخباري، ولا يعدو كونه ذلك؛ فلا تعتبره تحديًا أمامك.

(٣) الأخلاق الصحفية

لم يكن حريًّا بي حقًّا أن أقول ما يلي، لكن يتعيَّن على كلِّ مَن يسعى لتقديم نفسه كعضو في صناعة الإعلام أن يتحلى بالأمانة ويبرهن على اتصافه بالنزاهة التي نحتاج احتياجًا ماسًّا إلى إقناع الجمهور بأنها لا تزال إحدى مناقبنا.

ليس هناك ما يدعو إلى استثناء المصورين الفوتوغرافيين من هذه القاعدة الأساسية؛ إذ يحتاجون إلى إبداء حرص شديد في هذا الشأن؛ فتحريف الحقائق، وتزييف الوقائع، والتلاعب بأفلام التصوير أو الصور الرقمية ممارسات مألوفة ونشأت منذ أن خطا المصورون الأوائل أولى خطواتهم نحو حقول القرم حاملين كاميرات الألواح الفوتوغرافية منذ أكثر من ١٥٠ عامًا.





شكل ٥-٥: صور فوتوغرافية التقطتها عدسة جاري نايت، في زائير، في ١٩٩٧ (نُشرت الصور بإذن من جاري نايت).

لا تغش. لا تكذب. وحاول أن تنقل الحدث كما رأيته. إن هدف المصور الرئيسي هو تحفيز المشاهدين على التفكر في الموضوع المصوَّر والتجاوب معه؛ لذلك عليك أن تبني وعي المشاهدين بالموضوع كي يتسنَّى لهم اتخاذ رد فعل تجاهه. إن فبركة الصور أو تصوير القضايا بأسلوب لا يخدم سوى أغراضك الشخصية سلوك جبان وشائن، ولو فعلته مرة واحدة، فربما يصبح كل ما تفعله محل تشكك، وغالبًا ما سيكون كذلك.

إن بعض المصورين الفوتوغرافيين يتوجهون إلى مناطق الحروب وفي حوزتهم ملابس ليرتديها الأفراد محل التغطية الإخبارية، ويدفعون مبالغ لأشخاص مقابل إعادة تمثيل المشاهد التي فاتهم تصويرها، ويصيحون في الجنود أثناء التدريبات طالبين منهم أن يُظهروا مزيدًا من الهلع لكي تكون الصور أكثر إقناعًا، ويحظى هؤلاء المصورون في النهاية بالإشادة. تقع المسئولية عن هذا السلوك في المقام الأول على عاتق المصورين، الذين يجدر بهم أن يكونوا أكثر وعيًا وحكمة، غير أن مثل هؤلاء الأفراد ما هم إلا شخصيات ضعيفة يدفعها الجشع والطموح، كما يتحمل قدرًا كبيرًا من المسئولية المحررون والوكالات التي يمثلونها؛ وذلك لتشجيعهم على مثل هذه التصرفات، أو التهاون بشأنها، أو غض الطرف عنها.

إن الصحافة المصوَّرة ليست للأفاقين والطامعين؛ فالفقراء والمقهورون يستحقون ما هو أفضل من أن يكونوا مجرد أداة بيد الأدعياء والتافهين المغرورين، يرسمون بها صورًا براقة لذواتهم المتضخمة.

لو أن الصحافة المصوَّرة تواجه أزمة ما، فلن تكون أزمة مال أو مجلات، بل أزمة شرف ونزاهة؛ فالتصوير الفوتوغرافي، كالصحافة المطبوعة أو التليفزيونية، يتسم بالبساطة والوضوح الشديدين، وما يُميز بعض المصورين الصحفيين ليس براعتهم الفنية وإنما وجهات نظرهم وقدرتهم على الإقناع ونزاهتهم والتي يصوغون في إطارها اللغة التي يستعملونها في رواية قصصهم الإخبارية. لا شك أن البراعة الفنية والأسلوبية مهمة، لكنها لا تكفي دون وجهة النظر الخاصة بالرواية الإخبارية.

(٤) الصور الصادمة

ألقى صديقي وزميلي جيمس ناكتوي كلمة في ندوة عُقِدت حديثًا في نيويورك قال فيها إن الرقابة الذاتية يجب أن تكون سابقة على الرقابة الخارجية، وأعتقد، بوجه عام، أن هذا من المبادئ التوجيهية الحكيمة. جاءت كلمات جيمس إجابة عن سؤال كنت قد أجبت عنه، وقلت إن ثمة حالات واجهتُها عمدت فيها إلى عدم تصوير مشهد ما أو إلى عدم نشره.

أعلم أن جيمس يتفق معي على أن كلينا لا يريد أن يعلم ذوو جنديٍّ أو مدني فقدَ حياته أثناء حربٍ ما بوفاته من خلال إحدى صورنا الفوتوغرافية؛ لذلك من الأفضل أحيانًا إرجاء نشر مثل هذه الصور إلى أن يعلم ذووهم بمصابهم من مصادر أخرى. لقد مرت بي أوقات بلغتُ فيها قدرًا من الإحباط دفعني إلى اختيار عدم نشر صورٍ عن قرب، على سبيل المثال، لديدان متساقطة من دماغ طفل صغير وهو يزحف على أرضية مستشفًى بالكونغو. كانت تلك الصورة بالذات واحدة من صور كثيرة التقطتها يومها كانت تُعبِّر عن هول الرعب والوحشية التي يلقاها المدنيون على يد العسكريين، فقررت يومها أن أنشر صورًا أخرى.

الحقُّ أنها مجرد مسألة حُسن تقدير للموقف والتحقق من أن الصور التي نقدمها للجمهور تعبِّر عن الوقائع تعبيرًا دقيقًا ومنصفًا. لعلك ترى أن كوننا أعضاءً في صناعة الإعلام يمنحنا عادةً امتيازَ الاطلاع على أدقِّ تفاصيل اليأس والمعاناة التي يعانيها الآخرون؛ إذ يُطلعوننا عليها مدفوعين باعتقاد أن باستطاعتنا مساعدتهم. يجلب الامتياز في هذه الحالات إحساسًا بالمسئولية؛ أن تروي القصة كما رأيتها، وأن تضع المسئولين موضع المساءلة، وأن تطالب بالعدالة والقصاص، لكن مع احترام من يقفون أمام عدستك لتصويرهم؛ لذا أسأل نفسي دائمًا عما إذا كان ما سأنشره يصب في صالحي أم صالحهم.

(٥) القطيع والغريزة

احذر القطيع، وثِق بغريزتك وتقديرك، ولا تخشَ ارتكاب أخطاء أثناء محاولاتك؛ فإن ذلك أفضل من ألا تفعل أيَّ شيء مطلقًا.

إن صحبة الزملاء عادةً ما تكون ممتعة من الناحية الاجتماعية، لكن عليك أن تحترس من الوقوع تحت إغراء ضغوط الأقران أثناء تغطيتك لقصة إخبارية تستهوي كثيرًا منهم. فربما تجد نفسك على مدار حياتك المهنية منشغلًا بتغطية قصة إخبارية كبرى مع مئات، بل آلاف، من الصحفيين الآخرين. بعض من هذه الأحداث، كالكوارث الطبيعية، يكون ذا طابع آني، بحيث لا تجد أمامك خيارًا سوى اتخاذ قرارات عفوية مستندًا إلى أقل قدر من المعلومات. وهذه الأحداث تكون مباشرة للغاية، ويكمن سرُّ تغطيتها في سرعة التحرك، والوصول إلى قلب الحدث، والتحلي بشخصية منظمة بالقدر الذي يمكِّنك من تسليم عملك في موعده. أما الأحداث المخطط لها، كخوض الحكومات الغربية لحرب ما، فإنها تُمثِّل

مشكلات مختلفة، ليس أقلها ذلك الوقت الذي تمضيه بين زملاء لهم جميعًا آراء حول الطريقة المُثلى لتغطية الخبر وما ستسفر عنه الأحداث. لا أذكر أيَّ مناسبة صدقت فيها تكهنات من استمعت إليهم، ولا أستثني نفسي!

من بين الوسائل الأكثر فاعلية التي تلجأ إليها الحكومات والجيوش لإبعادك بوصفك صحفيًّا عن أشد جوانب الحدث حساسية وأهمية؛ إقناعك بأنك لا تملك أيَّ فرصة للوصول إلى موقع الحدث دون مساعدتهم. وغالبًا ما يَعِدونك بالحصول على كل ما تحتاجه في الوقت المناسب لو تعاونت معهم، وهو ما سيمتثل له كثير من زملائك راضين، بل وسيحاولون، بأساليب مجرَّبة منذ زمن بعيد، إقناعك بحمق القيام بالأمر منفردًا؛ أي حمق أن تكون متمردًا. وكثيرًا ما يُتَّهم المصورون بأنهم متمرِّدون نزقون، وعادةً ما تأتي هذه الاتهامات من زملاء يحاولون التأكد من أنك لن تصل إلى الخبر لأن حذرهم المفرط يمنعهم من محاولة ملاحقته. فقط اعتبر الاتهام بمنزلة إطراء منهم لك.

إنك أنت المسئول عن التوجه إلى محل وقوع الأحداث وتسجيلها، دون التحدث إلى من سبقوك إلى هناك؛ لذلك فإني أحثك على أن تشق طريقك بنفسك، وأن تجمع معلوماتك الخاصة، وحين يبدأ الحدث، احرص على أن تكون في المقدمة، تاركًا كلَّ مَن سواك منشغلًا بمحاولة اللحاق بك. وأيًّا كانت معدَّات التصوير التي تمتلكها، فعليك أن تتحلى بسرعة البديهة. فحين تندلع الحروب، دائمًا ما تسنح فرص قليلة للوصول إلى الخبر، ولو لم تنتهز تلك الفرص، فقد تُمضي أيامًا في محاولة اللحاق بالآخرين. لم أشهد حالةً واحدة تقريبًا نجح فيها أتباع القطيع في الحصول على الأخبار.

أثناء انتظارنا في الكويت لبدء غزو العراق عام ٢٠٠٣، حاول الكثيرون، عسكريون وإعلاميون على السواء، إقناعي وإقناع غيري من المصورين بانتظار الجيش الأمريكي ليصحبنا إلى هناك، لكننا استأجرنا سيارات دفع رباعي وملأناها بالوقود والطعام وغطيناها بالشحم والرمال وتوجَّهنا إلى هناك حيث اختبأنا أيامًا تحت الأشجار وداخل المنازل الريفية على الحدود بحيث يتسنَّى لنا، حين يبدأ القصف، عبور المنطقة المحرمة خلف طليعة القوات المقاتلة. نجح عشرون منا في عبور المنطقة، مخلِّفين وراءنا عدة مئات من المصورين في الكويت العاصمة ينتظرون أيامًا قوات التحالف لتصحبهم معها. ففاتتهم الأيام القليلة الأولى للغزو وبقوا بعيدًا خلف الخطوط الأمامية، حيث برزت أفضل القصص الإخبارية.

(٦) السلامة

يوجد عدد من «الدورات التدريبية الخاصة بكيفية التعامل مع البيئات الخطرة» المتاحة حاليًّا للإعلاميين. والواقع أن كثيرًا من المؤسسات الإخبارية لن يُقْدم على تعيينك إلا إذا أتممت واحدة منها. إنني دائمًا ما أوصي بهذه الدورات في حال وجدت جهة تساعدك في سداد رسومها، لكن ضع نصب عينيك أن بعض الأخبار خطرة ولن يغير من تلك الحقيقة أي قدر من التدريبات تلقيته. تساعد هذه الدورات في تقليص المخاطر بتنمية وعيك وانتباهك، لكن هذا لا ينفي أن عددًا كبيرًا من الصحفيين لقوا حتفهم أثناء الحروب وأن كثيرًا منهم كانوا شبابًا. إذا لم تكن قادرًا على التعامل مع مشاعر الخوف، فلا بأس في ذلك. ما عليك سوى أن تنسحب وتعود إلى منزلك. أما إذا عزمت على الوجود في قلب المعارك، فإن عليك التزامًا نحو من تصوِّرهم ومن تعمل لحسابهم ومن يشاهدون صورك ونحو ذاتك، بأن تتقن عملك.

(٧) الجانب التجاري الممل (لكن المهم) للتصوير الفوتوغرافي

لا معنى لمحاولة سرد خبرٍ ما دون وجود جمهور يتلقاه؛ مما يعني أن عملية النشر والتوزيع والعلاقات التي تقيمها مع وكالات الأنباء والصحف والمجلات والناشرين ومُجمعي ومُنقحي الأخبار سيكون لها جميعًا أهمية محورية في بلوغ أهدافك، وسوف تقيك أن ينتهي بك الحال إلى أن تكون هاويًا توَّاقًا إلى الكمال وحسن النوايا، لكنه معدم.

لعله من المغري للغاية أن تترفع عن المسائل التجارية وتزدريها، لكنك، ما لم تكن رئيسًا لصندوق ائتماني، فلن تجد بُدًّا من مواجهة الحقيقة القائلة بأنك، كأي تاجر، سوف تحتاج إلى بيع بضاعتك. إن سوق الصحافة المصوَّرة، تمامًا كأي سوق آخر، يستجيب لقواعد العرض والطلب وهو يشهد حاليًّا انتعاشًا نسبيًّا. أعلم أنه من الصعب تقبُّل هذه الفكرة، لكن لا فضل لك على أحد، ورغم أنك قد تعتقد أن صورك مؤثرة وقوية، فربما لا تجد من يعتنق ذلك الرأي سوى أقرب أقربائك؛ لذلك لا تُبالغ في تقدير ذاتك، ولا تستهِن بقيمة السوق.

أخبرني جيل بيريس[١] ذات مرة أن عليَّ الاختيار بين العمل كمصور عام أو كمبدع، وهو ما فسرته على أنه اختيار بين تعددية المهام؛ أي العمل كمصور متاح لأي شخص لتنفيذ أي مهمة، والتركيز على عدد ضئيل من الموضوعات التي تهمني ونَيل الشرعية

اللازمة لعملي استنادًا إلى ما أبديه من التزام وتركيز وفهم. ينبغي عليك أن تقرر الأهم بالنسبة إليك: التصوير الفوتوغرافي، أم أسلوب الحياة، أم القضايا الأهم بالنسبة إليك، ثم تختار مسارك بناءً على قرارك. وبمجرد استقرارك على اختيار ما، يمكنك الشروع في إنشاء منظومة من الكيانات والعلاقات التي سوف تمكِّنك من الترويج لعملك والوصول إلى الجمهور الملائم.

عندما يصل هذا الكتاب إلى يديك، ستكون وكالات ومطبوعات جديدة قد نشأت بينما سوف يكون البعض الآخر الذي أطَّلع عليه عبر الإنترنت من غرفتي بالفندق قد اندثر؛ لذا فليس بالإمكان أن أوصي بقائمة من الوكالات والمطبوعات التي تستطيع التعامل معها. وحتى إن كان هذا بالإمكان، فلن أفعله؛ إذ ما يناسبني ربما لا يناسبك. لقد وجدت أن أفضل الوكالات هي تلك التي تقيم معها أفضل العلاقات، بصرف النظر عن شهرتها أو حجمها. وإذا تفهمت هذه الوكالات عملك وارتبطت بعلاقة وثيقة مع المطبوعات اللائقة بعملك، فسوف تخطو أولى خطواتك نحو النجاح. وإذا كانت لدى هذه الجهات خطة عمل جيدة وسوف يمنحونك مستحقاتك المادية في موعدها، فهي جديرة بالاعتبار غالبًا. يجب أن تعلم أن إضافة كلمات مثل «مجموعة السبعة» أو «ماجنم» بعد اسمك لن تُغيِّر من جودة العمل، وهذه الجودة هي التي تهم المطبوعات في العموم، أو على الأقل تلك التي ينبغي عليك أن تطمح إلى العمل معها.

الوكالات هي التي تُمثِّل المصورين المستقلين وليس العكس؛ لذا عليك ألا تنسى هذه الحقيقة، خاصة عندما تتفاوض مع الوكالات بشأن بنود الاتفاق فيما بينكما.

تعمل الوكالات لجني المال، تمامًا مثل بائعي السيارات، ويجدر بك أن تتأكد من أن الصفقة التي يعرضونها عليك مجزية بالنسبة إليك. لا تخضع لترهيبهم، واحرص على أن يشرحوا لك كيف ينوون تنمية عملهم وما دورك في هذه العملية؛ فإن جزءًا كبيرًا من وضعك المالي سيكون تحت أيديهم.

حين تتعامل مع العملاء، لا تحاول أن تُريهم ما هو أكثر من اللازم؛ فمن الأفضل أن يطلبوا هم مشاهدة المزيد من أعمالك بدلًا من أن يُقلِّبوا أعينهم في مللٍ وهم يُطالعون عينات عديدة من أعمالك دون أن يطلبوا ذلك. لا تُمطرهم برسائل إلكترونية تحوي صورًا لم يطلبوها؛ فسوف يتعاملون معها عادةً باعتبارها بريدًا غير مرغوب فيه. وحين تعرِض أعمالك، احرص على أن تعكس ما سوف تقدمه لا ما قد قدمته؛ فلن تجد أحدًا مهتمًّا بإنجازاتك في الماضي ما لم تُمثل هذه الإنجازات ما سوف تقدمه إليه في المستقبل.

حين استهللتُ حياتي المهنية في هذا المجال، بدأ الأمر كله بمصافحة. كان هناك شيء ساحر نوعًا ما في هذه العلاقات ونادرًا ما كانت تقع مشكلات. أما الآن فالأمور اختلفت تمامًا، لكن بدلًا من التحسر على الماضي لا بد من التعامل مع الحاضر؛ إذ سيُطلَب منك في مرحلةٍ ما توقيع عقد لبدء التعامل مع محررٍ ما. تبدأ أغلب المفاوضات المتعلقة بالعقود بأن يعرض عليك العميل شيئًا في صالحه لكنه قد لا يكون في صالحك، وعادةً ما يكون ذلك الشيء في هيئة حقوق النشر والاستخدام. أوصيك بعدم التوقيع على أي اتفاق يسلبك حقوقك في النشر أو يُشرك آخرين فيها؛ فإن مثل تلك الحقوق تُمثِّل أمنك الاقتصادي في المستقبل، وأجور التحرير اليومية المنخفضة تعني أنك سوف تتمكن من استغلال صورك عقب صدور الطبعة الأولى من المطبوعة التي ستساهم فيها بصورك. لا تخشَ التفاوض بشأن العقود، وحاول قدر إمكانك أن تفعل ذلك بمساعدة الضغط الجماعي لوكالة أو مجموعة خاصة من المصورين ذوي الاهتمامات المشتركة.

(٨) القصص الإخبارية

سوف يعمد بعض العملاء، مثل مجلة فانيتي فير، إلى ابتكار أفكار قصصهم الإخبارية، لكن المهام تنبثق بوجه عام من الأفكار التي يبتكرها المصورون الصحفيون بأنفسهم أو بالتعاون مع الكتَّاب.

(٩) خارج حدود الإعلام

لا تُمثِّل المجلات والآلة الإعلامية سوى جزء من الأدوات المتاحة أمامك في سعيك نحو تغيير العالم؛ أي إنهما ليستا نهاية المطاف. إن للإعلام حدوده من ناحية نسبة المتابعة الجماهيرية وكذلك من ناحية ما يعتبره مقبولًا أو مثيرًا للاهتمام. ولكل مطبوعة، بوجه عام، وجهة نظرها التي قد تختلف كليةً عن وجهة نظرك، وفي بعض الأحيان تخشى المطبوعات تحدي الوضع القائم بسبب اعتبارات تجارية. إن ما يمكن أن تتيحه لك هذه المطبوعات هو وسائل الوصول إلى الخبر، لكنها نادرًا ما يمكن أن تمنحك الفرصة لروايته حسبما تريد. ولكي تنال هذه الفرصة، عليك أن تفكر في نشر أعمالك الخاصة؛ فهذا واحد من بضع وسائل يمكنك من خلالها رواية القصص الإخبارية حسبما رأيتها. ومن بين أشد الوسائل فاعلية وأسهلها على الإطلاق تنفيذ ذلك على شبكة الإنترنت، سواءٌ على موقعك الشخصي أم موقع وكالة ما.

إن نشر كتبك أو إقامة معارضك الخاصة من شأنه أن يوسِّع من دائرة انتشارك، ويمكن، لو أديرت العملية بكفاءة، أن يحقق لك أرباحًا تساعدك على تحمُّل تكاليف مشروعاتك القادمة. غير أن كلتا الخطوتين تتطلبان الكثير من الوقت والتخطيط، الذي يستغرق في أغلب الحالات أعوامًا.

(١٠) المعدَّات

قليل من المال في جيبك وتذكرة طيران في يدك خير من حقيبة مكتظة بالمعدَّات الجديدة تضعها إلى جوارك وأنت تشاهد الأحداث على شاشة التليفزيون.

إن أليكس ماجولي، المصور في وكالة ماجنم وأحد أكثر المصورين إثارة للاهتمام حاليًّا، يستخدم بضع كاميرات رقمية مضغوطة ثمنها أقل من وجبة غداء في أحد مطاعم لندن الأنيقة. أما مصور ماجنم، أنتوان داجاتا، ففي كل مرة ألقاه فيها، أجد كاميرا بسيطة مختلفة متدلية من عنقه؛ فالصور لا تصنعها الكاميرات.

جديرٌ بالذكر أنه يتعين عليك حيازة المعدَّات الضرورية لإنجاز عملك. سرتُ ذات مرة إلى أحد الجيوب البوسنية الذي يُسمى جوراجده، وذلك خلال الحرب في تسعينيات القرن الماضي، وكان بصحبتي بيتر نورثال، المصور في أسوشيتد برس، وأندرو ريد، المصور في وكالة جاما[٢] وعدد قليل من الصحفيين الآخرين. كانت تجربة مريرة بحيث يصعب نسيانها؛ فقد سرنا لمدة ١٦ ساعة وقضينا ليلتنا في ظل عاصفة ثلجية، وشهدنا في بعض الأحيان قصف مدافع الهاون والرشاشات عبر الجبال، كل ذلك ونحن نرتدي سراويل جينز وأحذية خفيفة. لقي عدد من البوسنيين الذين كانوا يسيرون معنا حتفهم متجمدين بعد أن جلسوا على الجليد منهكين، ولم أنجُ إلا لأن بيتر رفض رفضًا باتًّا أن يدعني أجلس على الجليد وأموت. قرَّر أندرو في مرحلة ما من الرحلة أن يضع كاميراته على ظهر حمار مارٍّ بجوارنا؛ إذ لم يكن بإمكانه استخدام الكاميرات أثناء الليل ولم يعد بإمكانه حملها أكثر من ذلك. لا شكَّ أن هذه ردة غير معهودة للمنطق ولا تقع إلا عرَضًا. ضحكنا جميعًا حين وصلنا واكتشفنا أن الحمار تردَّى من أعلى جبل فمات، لكننا ضحكنا أكثر حين أدركنا أنه لا خيار أمامنا سوى الاستعانة بحمار آخر لنقل فيلم التصوير من الجيب البوسني في سبيل الوفاء بموعد التسليم.

إن المغزى من هذه القصة — باستثناء الحذر من الحمير المارَّة ليلًا — مزدوج: لا تأخذ إلا ما تستطيع حمله، واستعمل كل وسيلة ممكنة لكي ترى صورك النور.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) هل الصحافة في حاجة إلى قَدْر أقل من الحيادية والمزيد من وجهات النظر المحددة بوضوح؟

(٢) ما الذي يميز الصحافة المصوَّرة الاحترافية عن صحافة المواطن؟ وما ميزات وعيوب كلٍّ منهما؟

(٣) حدد جاري نايت خطوطه الحمراء لعدم التقاط صورة معينة أو عدم طبعها؛ فما هي خطوطك الحمراء؟ أم أنه لا بد من محو جميع الخطوط الحمراء وإلغاء أيِّ رقابة ذاتية للمصور على نفسه؟

(٤) هل ثمة أزمة أو صراع في العالم كان يمكن أن يُنمَّى الوعي الدولي به لو جرى تصويره فوتوغرافيًّا؟ إذا كانت الإجابة بنعم، فأوضح سبب عدم تصويره.

(٥) حلل صراعًا أو أزمة حول العالم كان للصحافة المصوَّرة تأثير في مجرياته.

(٦) أنشئ سردًا اعتمادًا على الصور المعروضة في هذا الفصل.

هوامش

(١) جيل بيريس مصور صحفي ومؤلف حائز على جوائز، وهو عضو في وكالة ماجنم فوتوز.

(٢) جاما هي وكالة فرنسية أُسِّست عام ١٩٦٧.

الفصل السادس

الدبلوماسية والصحافة

بريدجت كيندال

تمهيد

جون أوين

هل الصحفيون «يمنحون فرصة للسلام»، لو جاز لنا استعارة كلمات أغنية جون لينون المناهضة للحرب؟ أيركز الاتجاه السائد في العمل الصحفي بشدة على الحروب والصراعات بحيث إنه لا يبذل سوى القليل من موارده لتغطية أخبار المدافعين عن الحلول السلمية؟ تلك هي وجهة النظر المُعتبرة التي تعتنقها إحدى مدارس الفكر الصحفي والتي يناصرها جيك لينتش، الصحفي والأكاديمي البريطاني. قدم لينتش في كتابه «التغطية الإخبارية للعالم» منهجًا يدعو إلى تعيين «مراسلي سلام» يتمتعون داخل مؤسساتهم الإخبارية بنفس المكانة التي يحظى بها «المراسلون الحربيون» المرموقون والذين تُقدَّم لهم الجوائز عادةً. يعمل لينتش حاليًّا مدربًا لصحافة السلام بكلية دراسات السلام والنزاع بجامعة سيدني، ويتولَّى خلال عمله البحث في نماذج أدَّى فيها الإعلام إلى تأجيج الصراعات.

غير أن كثيرًا ممن يؤيدون وجهة نظر لينتش النقدية المدعومة بحجج مقنعة ودراسات حالة متعددة، يرفضون ما يسميه «صحافة السلام»؛ ففكرته القائلة بأن الصحفيين ينبغي أن يحملوا على عاتقهم، بنحو أو بآخر، مسئولية المبادرة نحو إيجاد حلول لأزمات العالم تنطوي على أوجه تشابُه مع فكرة «الصحافة المدنية» التي لاقت رواجًا لفترة قصيرة في الولايات المتحدة الأمريكية.

بدلًا من تعيين «مراسلي سلام»، تحتاج الصحافة إلى المزيد من التغطية الصحفية الدبلوماسية الماهرة التي تدرس الجهود التي تبذلها الحكومات لتجنُّب الحروب؛ وذلك في مسعاها لإيجاد حلول

سلمية. لاحظ أني قلت «الحكومات»؛ لأنه كثيرًا ما ترتبط الصحافة الدبلوماسية بترويج الصحفي لآراء حكومته دون مساعدة المشاهدين والقراء على أن يفهموا كيف ترى الدول الأخرى خلافًا أو صراعًا محتملًا من منظورهم الخاص. إن الصحفيين الذين يتولون تغطية أنشطة وزارات خارجيتهم وسفاراتهم كثيرًا ما تُقدَّم لهم المعلومات أو يُحرَمون منها حسب ما يُبدونه من وداعة خلال تغطيتهم الصحفية. كما أن ثمة افتراضًا بأنهم سيحترمون القواعد المرسومة لهم أثناء تغطياتهم الصحفية لعمل تلك الجهات وأنشطتها. فحينما كان هنري كيسنجر مستشار الأمن القومي للرئيس نيكسون ومتحكمًا في ويليام روجيرز، الذي كان وزير الخارجية آنذاك، كان يصر على أن يُشارَ إليه في الإحاطات والتسريبات الموجهة إلى الصحفيين باعتباره «مستشارًا رفيعًا في البيت الأبيض»، ولم يُحرَم سوى جموع الشعب من الاطلاع على هذا السر المعروف لعالم الصحافة. وشهدنا مؤخرًا الحيلة ذاتها خلال تولي توني بلير للحكومة في بريطانيا العظمى؛ فقد صمَّم ألاستير كامبيل، المستشار الإعلامي ذو النفوذ لتوني بلير، على ألا يُصرَّح باسمه، وإنما يُعرَّف بأنه «مستشار رفيع في داونينج ستريت»، وذلك خلال عملية التضليل البارعة للصحفيين الذين كانوا ينقلون أخبار السياسة البريطانية وحكومة بلير.

شهدنا في العقود الأخيرة تراجعًا في «الدبلوماسية المكوكية» التي ميَّزت حقبة كيسنجر وانتشارًا فيما صار يُعرف باسم «تأثير سي إن إن». وهو ما يعني استضافة الشبكة لزعماء الدول التي تُعتبر غير صديقة للولايات المتحدة أو معادية لها، وذلك عوضًا عن مشاركة هؤلاء الزعماء في أيِّ مفاوضات هادفة مع الدبلوماسيين أو المبعوثين أو الموفدين الأمريكيين رفيعي المستوى.

ثم أصبحت الجزيرة شبكة البث الإخباري الأولى في العالم العربي، وسرعان ما حلَّت قناتها الفضائية محل سي إن إن في استضافة الزعماء الراغبين في توجيه رسالةٍ ما إلى القادة العرب أو ما يُطلق عليه «الشارع العربي».

واليوم، ونحن نعيش في عالمٍ لحظيٍّ تسُوده اتصالات الإنترنت ووصلات الشبكات التليفزيونية الفضائية ذات الطابع العالمي، يُشكِّك البعض في قيمة الدبلوماسية التقليدية. يرى جون سنو، وهو واحد من أبرز الصحفيين البريطانيين والمقدم الرئيسي للبرنامج الإخباري المؤثر الذي يُعرض مساءً على شاشة القناة الرابعة البريطانية، أن هناك «تحولًا هائلًا في النظام العالمي كله» نتيجة للآثار الاستقطابية الناجمة عن الحرب التي تقودها أمريكا ضد الإرهاب والحروب الدائرة في العراق وأفغانستان. وزعم سنو أنه عندما وقع نزاع بين إيران وبريطانيا أسفر عن احتجاز ١٥ بحارًا بريطانيًّا، لم يتحرر البحارة إلَّا بفضل المقابلة التي أجراها في برنامجه «أخبار القناة الرابعة» مع أحد كبار المسئولين الإيرانيين. جاء تعليق سنو هذا خلال مناظرة في نيويورك نظمها نادي فرونتلاين الذي مقره الرئيسي في لندن. كان من بين المشاركين في هذه المناظرة روجر كوهين، مراسل ذا نيويورك تايمز، الذي رفض الفكرة القائلة بأن الصحفيين يجب أن يعتبروا أنفسهم دبلوماسيي المستقبل.[١]

من القضايا ذات الأهمية المحورية في هذا الصدد تلك المتعلقة بما إذا كان على الصحفيين نقل آراء ألدِّ أعداء «بلدانهم»، بما فيهم مَن يُمارسون الإرهاب وينتمون إلى جماعات توصف بالإرهابية. تعرضت بي بي سي ومراسلها ديفيد لوين لموجة استنكار من بعض الصحفيين وكثير من المشاهدين في بريطانيا لبث آراء جماعة طالبان، وذلك كجزء من التقرير الإخباري الذي قدَّمه ليون من أحد معاقلهم في جنوب أفغانستان. خاض لوين مخاطر جمة في سبيل الوصول إلى طالبان في الوقت الذي كان يتعرَّض فيه الجنود البريطانيون لهجمات متزايدة. أثير جدل مشابه بصدد برنامج وثائقي بريطاني كان يسعى إلى تقصِّي آراء مسلمين بريطانيين كان لهم صلة بتفجيرات لندن التي وقعت في يوليو ٢٠٠٥.

بالرغم من جميع الشكوك التي تحيط بالدبلوماسية التقليدية وأهمية تغطيتها بانتظام، فلا تزال الصحف وشبكات البث الأكثر احترامًا تعتبر الصحافة الدبلوماسية جزءًا جوهريًّا من عملياتها الإخبارية. بالحديث عن بي بي سي، ظلت بريدجت كيندال أهم مراسليها الدبلوماسيين لما يُقارب عقدًا من الزمان، وقد أصبحت كذلك بعد إجراء تغطيات واسعة في بلدان أخرى، من بينها روسيا التي تُعتبر مجال خبرتها الأساسي حيث عملت لمدة خمس سنوات خلال عقد الثمانينيات. تمكنت بريدجت، بفضل إجادتها للغة الروسية، من استضافة الرئيس الروسي فلاديمير بوتين مرتين في برنامجَين إذاعيَّين حيَّين وتفاعليَّين يسمحان بمداخلات هاتفية (ويُبَثان على الإنترنت بالتزامن مع البث الإذاعي). كما أن بريدجت ملمة جيدة بالسياسة الأمريكية بفضل عملها مراسِلة صحفية في واشنطن على مدار خمس سنوات.

تسجل بريدجت في هذا الفصل خواطرها حول التغيرات الهائلة التي طرأت على دور المراسل الدبلوماسي نتيجة الأحداث التي أعقبت الحادي عشر من سبتمبر، وثقافة «الأخبار العاجلة» المسيطرة على القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة، والتكنولوجيا الحديثة.

لا ريب في أن فن فهم الدبلوماسية الدولية كثيرًا ما يتسم بالصعوبة. فعادةً ما تتعثر المفاوضات إثر تفاصيل معقدة، غير أن مهمة المراسل هي استيعاب التفاصيل الدقيقة وإجمالها في صيغة يسهل على الجمهور الحائر في الغالب فهمها، والعمل في الوقت نفسه على أن يوصل إلى هذا الجمهور عددًا لا حصر له من وجهات النظر التي يستحيل غالبًا التوفيق بينها.

إذا كان ذلك يبدو مملًّا، فلا تصدِّقه. ألقِ نظرة عن كثب وستجد أن الأساليب التي يتبعها قادتنا السياسيون في التعامل بعضهم مع بعض على الساحة الدولية مثيرة للاهتمام، بل وغريبة للغاية في بعض الأحيان.

منذ بضع سنوات تابعتُ وزير الخارجية البريطاني ونظيره الفرنسي في رحلتهما المشتركة إلى عدة بلدان أفريقية. كان الهدف المعلَن هو إظهار قوة التفاهم الودي الذي يجمع بين البلدين، غير أن ما بدا كان عمق الاختلاف بين الدبلوماسية الفرنسية ونظيرتها البريطانية.

كان المسئولون البريطانيون، كعادتهم، منشغلين بالبروتوكول: نقاط المناقشة، وتجهيزات المراسم، وقوائم الوفود، ونوعية الدعاية التي قد تُثيرها الرحلة. أما اهتمامات الفرنسيين فكانت أبعد من ذلك.

بعد وصول الوفدين إلى عاصمة جمهورية الكونغو الديمقراطية، شكا أحد الدبلوماسيين البريطانيين قائلًا: «لقد التقينا بنظرائنا الفرنسيين لوضع اللمسات الأخيرة على قائمة المدعوين إلى حفل الحديقة في كنشاسا واستغرق الأمر ثلاث ساعات. كل ما كان يشغلهم هو الحديث عن قائمة الطعام.»

أيبدو ذلك قولبة نمطية غير عادلة قائمة على القومية؟

يشكل الطعام جزءًا أساسيًّا من الدبلوماسية الفرنسية؛ ولذلك عمد الفرنسيون إلى عزل المفاوضين من الصرب وألبان كوسوفو لمدة ثلاثة أسابيع في قصر فرنسي عام ١٩٩٩: وذلك على أمل أن يكون للمطبخ الفرنسي الراقي وأنواع الخمور الفرنسية الفاخرة تأثير على الغرماء البلقانيين، فيقبلون إبرام اتفاق سلام. غير أن أمل الفرنسيين لم يكن في محله؛ فقد استفحل الصراع ليصل إلى تدخل جوي واسع النطاق لحلف الناتو، وهو ما دل على أن الابتسامات الدبلوماسية الواهنة قد تتحول في لمح البصر ودون سابق إنذار إلى مأساة مروعة.

تتعلق الدبلوماسية بالأشخاص والأهواء الشخصية والهوس بالهويات القومية وسوء الفهم، والصدفة البحتة أحيانًا. إن الدبلوماسية، كأي جانب آخر من جوانب الحياة البشرية، تشبه المسلسلات الدرامية؛ فكل ما تحتاج إليه هو أن تزيل الحوارات الناعمة والتعليقات اللبقة لتصل إلى ما وراءها.

(١) التحديات الصحفية

(١-١) التفكير الاستباقي

أول التحديات هو أن تتعرف على ما يجري بالفعل على أرض الواقع. وحين تواجه «دبلوماسية الأبواق» — وهي لجوء المسئولين إلى الإعلام للإعلان عن مواقفهم علنًا — فلا

تعد هذه مشكلة. لكن المعتاد أكثر هو أن يعقد الدبلوماسيون محادثات خلف الأبواب المغلقة ويحيطونها بقدر كبير من السرية والتكتم. إن هؤلاء الدبلوماسيين لا مصلحة لهم في الكشف عن أوراقهم، كما أنهم على درجة كبيرة من الانشغال؛ فلا يمكنك التطفل عليهم أو إزعاجهم بمكالمات هاتفية أو رسائل إلكترونية، بل يجب عليك أن تجد وسائل أخرى للحصول على المعلومات.

لقد احتجت إلى بعض الوقت حتى أدرك أن الحل يكمن في التفكير الاستباقي. غالبًا ما تنظم الحكومات، سواءٌ أكانت بريطانية أم أجنبية، لقاءات إعلامية قبل عقد الاجتماعات الهامة وذلك للترويج لتوقعات ما أو التقليل من أهميتها. فلو استطعت أن تصل لبعض المعلومات قبل هذه الاجتماعات وقبل أن يصير الموضوع «خبرًا ساخنًا»، فربما تنجح في معرفة المزيد؛ فالمسئولون في هذه المرحلة لديهم المزيد من الوقت، ويكونون أقل تحفظًا في تعليقاتهم، فيمكن أن تتمكن حينها من سؤالهم عما يأملون في تحقيقه ثم تقارن إجاباتهم بالنتيجة النهائية. غالبًا ما تُختتم المؤتمرات والقمم ببيانات مبهمة، لكن إذا أحسنت الاستعداد، فسوف تستطيع أن تقيِّم ما إذا كانت النتائج النهائية تفوق التوقعات أم لا ترقى إليها.

كما تُعد المصادر غير الحكومية والمراكز البحثية والمنظمات الخيرية والجماعات الحقوقية وجماعات الضغط الأخرى مصدرًا ثريًّا للمعلومات؛ فقد يتحدث أعضاؤها بمزيد من الصراحة وبقدر أقل من «التنميق» مقارنة بالمسئولين الحكوميين، وقد يبوحون لك بأمر قبل وقوعه ويتيحون لك الاتصال بشهود عاينوا حدثًا مفصليًّا أو أزمة حرجة، وربما تُبرِز تصريحاتهم الفجوة الواقعة بين مصالح الحكومات ومصالح الناس العاديين. وحتى لو كان لدى هذه المجموعات مصالح تدافع عنها، فإنها، في العموم، تقدِّم مقابلًا لا غناء له لعالم الدبلوماسيين المنغلق ودوائرهم النخبوية.

(١-٢) توخي الحذر

التحدي الثاني الذي يواجهك بوصفك صحفيًّا دبلوماسيًّا هو الحذر من قبول المعلومات على علاتها، لا سيما لو صدرت على «نحو غير رسمي»، بحيث لا يرغب مصدرها في الإشارة إلى هويته مباشرةً؛ فالمسئول الذي يتطوع بالحديث إليك بصراحة لكن بشرط عدم ذكر اسمه لا يُقْدِم على تلك الخطوة إلا لسبب ما؛ ربما هي رغبة صادقة منه في أن يوضح لك التعقيدات التي تواجه مفاوضات ما، أو لعلها محاولة متعمدة للثرثرة

أو الإدلاء بمعلومات مغلوطة إليك. وحتى الأشخاص الذين يؤمنون إيمانًا صادقًا بأنهم يخبرونك بالحقيقة قد يكونون مخطئين؛ لذلك عليك أن تعيد تقييم مصادر معلوماتك بصفة دائمة والتحقق من مصداقيتها مقارنةً بالواقع.

ثمة داعٍ آخر لتوخي الحذر، ألا وهو أن الدبلوماسية نادرًا ما تتعامل مع حقيقة واحدة، بل غالبًا ما يكون الأمر أشبه بأحجية معقدة متعددة الأوجه. وفي بعض الأحيان تنتهي المفاوضات بسوء فهم مقصود أو غير مقصود بين مختلف الأطراف أو الدول؛ لذا فبدلًا من أن يحاول تقريرك الصحفي فك خيوط الأحجية لإجلاء الحقيقة، ربما ينبغي أن يكشف عن حالة من الفوضى المتشابكة أو مجموعة من النتائج الملفقة عمدًا والتي قد تُفضي إلى كارثة دبلوماسية. ولا بد من توضيح كل ما سبق في عبارات واضحة مبينة، يسهل على عموم الجماهير فهمها — وليس ذلك سهلًا على الإطلاق!

من الأمثلة المعبرة عن هذه الحالة ذلك النشاط الدبلوماسي الذي سبق غزو العراق عام ٢٠٠٣. شهد خريف عام ٢٠٠٢ جهود الممثلين الدبلوماسيين لأعضاء مجلس الأمن الخمسة عشر الذين أمضوا أسابيع في دراسة كل كلمة وفاصلة للوصول إلى نص يوافق عليه جميع الأطراف. وتُوِّجت هذه الجهود أخيرًا في نوفمبر ٢٠٠٢ بتصويت جميع الأعضاء لصالح القرار رقم ١٤٤١، والذي ألزم صدام حسين بالسماح لمفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة بالعودة إلى العراق للبحث عن دلائل تشير إلى امتلاك بلاده لبرامج أسلحة غير مشروعة.

اعتُبِر التصويت بالإجماع آنذاك نصرًا دبلوماسيًّا، ولكن النص في الواقع كان يحتوي على إشكاليات جسيمة؛ فقد تضمَّن تحذيرًا هامًّا فحواه أن العراق إذا لم يَفِ بأيٍّ من مطالب الأمم المتحدة، فقد يواجه عواقب وخيمة وسوف يُجري مجلس الأمن مشاورات بشأن اتخاذ تدابير إضافية.

صرح السياسيون الفرنسيون في الحال أنه لا يمكن بأي حال استغلال هذا التحذير كذريعة لشن حرب؛ ذلك لأن التحذير يُشير إلى إجراء مجلس الأمن لمزيد من المشاورات. غير أن المسئولين الأمريكيين كانت لهم حجة مختلفة؛ فقد زعموا أن القرار ذكر كلمة «مشاورات» وليس تصويتًا ثانيًا، ومِن ثَمَّ فإن صدام حسين صار بالفعل يواجه تهديدًا بعمل عسكري محتمل.

أما بريطانيا، فقد اتخذت موقفًا وسطًا؛ فأدلى الدبلوماسيون البريطانيون إلينا بتصريح مفعم بالتفاؤل غير المبرَّر قائلين: «لا شك أننا نفضل الوصول إلى قرار ثانٍ قبل خوض الحرب، لكننا نأمل ألا يصل الأمر إلى هذا الحد.»

مع مرور الأشهر وكشف النقاب عن عزم الرئيس الأمريكي على غزو العراق حتى ولو لم تمنحه الأمم المتحدة موافقتها، اتضحت حساسية هذا الاختلاف في وجهات النظر؛ ففرنسا وغيرها من الدول أصرت على أن الغزو يفتقد إلى الشرعية الدولية ما لم يحظَ بقرار أممي ثانٍ، وهو ما عارضه جورج دبليو بوش، مدعومًا بتوني بلير.

إن هذه الانقسامات حول حرب العراق كان من شأنها أن تُلقِي بظلالها على العملية برمتها وأن تسبب ضررًا بالغًا للتحالف عبر الأطلسي. لكن لو عدت إلى الوراء وأمعنت النظر فيما جرى، فستدرك أن مثل هذه الانقسامات كانت متأصلة بالفعل في قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١، الذي حظي حينها بإشادة واسعة بوصفه نموذجًا عظيمًا لوحدة الموقف الدبلوماسي.

(١-٣) التوقعات

قد يسأل البعض: هل استشرفتِ تلك الأزمة الدبلوماسية قبل وقوعها؟ إقرارًا للحق، لم أستشرفها. لكن هكذا كان أيضًا حال أغلب الدبلوماسيين في ذلك الوقت.

من التحديات التي يُجابهها أي مراسل التنبؤ الجيد حيال حدث ما والتوقع الدقيق لما قد يقع فيه.

لكن حين تتعامل مع موقف دبلوماسي حرج فإنك نادرًا ما تحصل على معلومات كافية تُكسبك ثقة في قدرتك على وضع توقعات محددة وسريعة. وحتى لو كانت مصادرك رفيعة المستوى، فربما لا تكون الأقدر على إرشادك إلى الحقيقة.

«نحن لا نفكر في الإخفاق. وكل جهودنا مُركزة على إحراز النجاح.» كان هذا ردًّا مقتضبًا لدبلوماسي بريطاني حين سألته ذات مرة عن احتمالات إخفاق مبادرة دبلوماسية معينة.

تساهم الخبرة في صقل إدراكك بأن الأمور قد لا تسير كلها وفقًا للخطة الدبلوماسية. لكن احترس: ربما يكون من المفيد استرجاع تفاصيل الإخفاقات الدبلوماسية السابقة، لكنه قد يُنمي أيضًا داخلك حسًّا مفرطًا بالريبة والتشكك.

إن المفتاح الحقيقي لاستشراف الأحداث يكمن في تجميع معلومات أساسية والتي ربما لن تستخدمها أبدًا، لكنها ستثري حُكمك وتقديرك للمواقف؛ فإن ما تكتبه أو تقوله لا يعدو غالبًا غيضًا من فيض ما تعرف.

وإذا لم تكن مطمئنًّا إلى قدرتك على استشراف الحدث قبل وقوعه، فتجنب المخاطرة والتخمين. ولو بدا أمامك المستقبل ضبابيًّا ولم يكن لديك سوى معلومات محدودة، فاخفض سقف طموحك ليكون منتهى أملك هو إعداد تقرير صحفي لا تندم عليه فيما بعدُ وترى «أنك كنت مخطئًا فيه تمامًا».

(٤-١) المجتمعات المنغلقة

كثيرًا ما تشمل التوترات والأزمات الدولية بلدانًا ذات مجتمعات منغلقة لا تسمح بدخول الصحفيين إلا في نطاق ضيق. فإذا كنت تتولَّى تغطية مفاوضات تضم، على سبيل المثال، جمهورية كوريا الشمالية الديمقراطية المعروفة بنظامها السياسي المنغلق، فكيف تُعد تقريرًا صحفيًّا متوازنًا يعكس أيضًا آراء ذلك النظام؟

لا توجد حلول سهلة في هذا الشأن. فربما تجدر بك في البداية محاولة الاتصال بسفارة كوريا الشمالية، لكنها قد لا تجدي نفعًا. «نحن لا نتحدث إلى بي بي سي.» كان ذلك هو الرد الذي تلقيته حين هاتفتهم لأول مرة.

الخيار الثاني هو أن تحاول تكوين صورة من خلال مجموعة متنوعة من المصادر الرسمية والمصادر غير المباشرة.

من مزايا الدول ذات الرقابة الإعلامية المشددة أن التقارير الإعلامية غالبًا ما تُعطي فكرة عن الموقف الرسمي؛ فبعض التعليقات قد تكون أشكالًا دعائية متعمدة، تهدف الحكومات من خلالها إلى التأثير على الرأي العام. مرة أخرى، تتضح أهمية تجميع المعلومات العامة الأساسية والتي كلما حصلت على المزيد منها، سَهُل عليك تفسير ما قد يبدو لأول وهلة عبارات رنانة يتشدق بها المسئولون. اتصِل ببعض الشخصيات المحلية واسألهم عن تفسيرهم لما يقال، وراجع آراء الشخصيات المرموقة في المجالات الأكاديمية والدبلوماسية والعمل الإغاثي. وقارن اللهجة المستخدمة بالتقارير الأخرى الصادرة في وسائل الإعلام الرسمية. من بين الأمور التي اكتشفتها خلال عملي مراسِلة في موسكو أواخر أيام الاتحاد السوفيتي أنك إذا اعتدت تحليل البيانات الحكومية الرسمية بالقدر الكافي، فسوف تندهش من قدرتك على قراءة ما بين السطور! (من المصادر التي لا تُقدَّر بثمن في هذا الشأن، لو استطعت الوصول إليها، خدمة الرصد الإعلامي التابعة لبي بي سي، ومقرها في كافرشام بالقرب من ردنج بالمملكة المتحدة، وهي خدمة معنية برصد وترجمة التقارير الإعلامية الصادرة من مختلف أنحاء العالم.)

لكن ينبغي أن تحرص على فهم معالم المشهد الإعلامي في بلد ما قبل أن تفترض أن صحفيًّا معينًا ليس سوى بوق للحكومة. فليس بمستغرب أن تعمد دولة ما إلى فرض رقابة صارمة على قنوات تليفزيونها الوطني، لكن المستغرب أن تسمح بإجراء مناقشات فعَّالة وواسعة النطاق في الصحف أو الإذاعة أو على الإنترنت. (في هذا الإطار، يتبادر إلى الأذهان نموذجان: روسيا وإيران.)

كما هو الحال في جميع المساعي الصحفية، يلزمك أن تفهم السياق الذي تُقدم فيه المعلومات، وحينها فقط ستتمكن من تقييم جدواها.

(١-٥) فك الشفرة الدبلوماسية

إن جزءًا من براعة التغطية الدبلوماسية يكمن في اكتسابك لمهارة فك الشفرة الدبلوماسية. ينبغي أن أقر أنني لم أتلقَّ مهارة «فهم اللغة الدبلوماسية» من أحد قَطُّ. لكنك سرعان ما ستنجح في اكتسابها. إن عبارة «تبادل صريح لوجهات النظر» تعني أن خلافًا محتدمًا جرى بين الطرفين. وإذا أفضى اجتماع إلى تشكيل لجنة «لبحث المسألة» بدلًا من إبرام اتفاق كما كان مزمعًا، فإن هذا يدل دلالة واضحة على أن الاجتماع انتهى إلى طريق مسدود. تشي البيانات المشتركة أن ثمة قدرًا من التوافق، رغم أن هذا التوافق قد لا يتعدَّى في بعض الأحيان نص البيان الصحفي. كما أن غياب أي بيان مشترك أو عدم ظهور الأطراف في مؤتمر صحفي مشترك ربما يعني انعدام أي توافق بينها. لكن احترس: إذا انتهى اجتماع لعدة وزراء خارجية وغادروا جميعًا مسرعين دون أن ينبسوا ببنت شفة، فلا يشير ذلك بالضرورة إلى وقوع كارثة. لا يتعدى الأمر أحيانًا كونهم مسئولين منشغلين وعليهم أن يلحقوا بطائراتهم وتتسم علاقاتهم المتبادلة بقدرٍ كافٍ من المرونة بحيث يتركون الأمر للدولة المضيفة للتحدث باسمهم.

في بعض الأحيان، يمكن أن يمنحك محل اجتماع الأطراف أو نبرة حديثهم فكرة عن الحالة المزاجية الحقيقية التي سيطرت على الاجتماع؛ إن مؤتمرًا صحفيًّا مرتبكًا يبدو فيه أحد المتحدثين غاضبًا أو يتعمد مقاطعة متحدث آخر له دلالة تنبئ بالكثير، ثم شاهد لترى كيف يرقب كل طرف — أو ممثلوهم الجالسون في الصفوف الأمامية — كلمات الطرف الآخر بكل تمعن. في بعض الأحيان، يلقي صحفي سؤالًا جريئًا خلال مؤتمر صحفي مُتلْفَز فيكون له دور هام: إجبار المسئولين على الإجابة عن سؤال لم يُطرح ألبتة

خلال الاجتماع المغلق القصير للغاية الذي انتهى لتوِّه، أو الكشف عن استعداد مسئول ما أن يعيد علانيةً تعهدًا قد قطعه سرًّا؛ فالوعود المعلنة على الملأ أمام الكاميرات يصعب نقضها فيما بعدُ.

قد تتضمن هذه الشفرة الإيماءات والكلمات على السواء. كنت من بين الصحفيين الذين نقلوا قمة ريكيافيك عام ١٩٨٦ التي جمعت الزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف والرئيس الأمريكي رونالد ريجان. كانت هذه مواجهة نادرة بين رئيس أمريكي وزعيم روسي يسيطران على أغلب ترسانة العالم من السلاح النووي، في وقت كانت توترات الحرب الباردة لا تزال تخيم على المشهد السياسي، ورغم أن جدول أعمال محادثاتهما لم يجرِ الإعلان عنه، فقد كان جليًّا أنَّ تبعات اللقاء قد تكون مصيرية. ومع طول أمد المحادثات، تضاعفت الإثارة. احتشد الصحفيون والمسئولون، الغربيون والسوفيت، في قاعة كبيرة في انتظار نتائج المحادثات، مع وجود شاشات ضخمة تعرِض صورة حية لمدخل قاعة الاجتماع الذي من المتوقع أن يبرز منه الزعيمان.



شكل ٦-١: الزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف والرئيس الأمريكي رونالد ريجان في ريكيافيك، آيسلندا، في أكتوبر ١٩٨٦ (نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس).

كنت واقفة إلى جوار المتحدث باسم وزارة الخارجية السوفيتي، جينادي جيراسيموف، الذي لم يكن أقل منا انفعالًا. همس إليَّ جينادي قائلًا: «إذا خرجا وتصافحا، فقد وصلا إلى اتفاق.»

في تلك اللحظة، خرج الزعيمان، ولوَّحا للكاميرات، ثم غادرا. فأدركت على الفور، بفضل سيد جيراسيموف، أن امتناعهما عن المصافحة دلَّ على عدم توصلهما إلى اتفاق على الأرجح.

غير أن وقتًا طويلًا قد مضى قبل أن ينكشف النقاب عن المستور. تبيَّن أن الزعيم الروسي اقترح اتفاقًا مفاده تخليص العالم من جميع الأسلحة النووية، شريطة أن يتخلى الرئيس ريجان عن خطته الخاصة بمبادرة الدفاع الاستراتيجي، المعروفة إعلاميًّا باسم «حرب النجوم»، وهو ما رفضه ريجان.

(١-٦) ذكر مصادر المعلومات

كثيرًا ما تتعاطى الدبلوماسية مع مصادر «غير رسمية»، شأنها في ذلك شأن أغلب التغطيات السياسية. إننا نشهد حاليًّا شيوعًا في التعليقات العامة المنقولة عن مسئولين محددين؛ فالسفراء البريطانيون يُجرون في وقتنا الحالي مقابلات «رسمية» بانتظام. إلا أنه في المقابل يُفضِّل كثير من المسئولين الحكوميين عدم النقل عنهم مباشرة. لا يعني ذلك امتناعهم عن التحدث إليك، لكن ينبغي الاتفاق معهم على صيغة معينة لكي يتسنَّى لك استخدام المعلومات التي يمدونك بها.

الأمر نفسه يسري على المصادر الأخرى — كالسياسيين مثلًا — الذين قد يقبلون في كثير من الأحيان الكشف عن هوياتهم، لكن ربما يمنحونك معلومات أكثر إثارة للاهتمام لو أخفيتها.

إذا لم تُحدَّد القواعد صراحةً مسبقًا، فلكَ إذًا أنْ تعتبر تعليقاتهم «رسمية» بالمعنى الدقيق للكلمة بحيث يمكن نقلها عنهم مباشرةً. لكن إذا كنت عازمًا على الاستعانة بهم كمصادر للمعلومات في المستقبل، فربما سيكون عليك التفكير مرتين قبل التصريح بأسمائهم ومناصبهم دون إذنٍ صريحٍ منهم؛ لذا لعله من الأفضل في هذه الحالة الاتفاق على قواعد أساسية مسبقًا.

تختلف الصيغ المستعملة في الإشارة إلى مصادر المعلومات اختلافًا طفيفًا من دولة إلى أخرى؛ لذلك احرص على معرفة هذه الصيغ، فإذا أخبرك مسئول أمريكي أن تصريحه

«يمكن استخدام المعلومات الواردة فيه مع عدم اقتباس مصدره» ولا تدري معنى ذلك على وجه التحديد، فاطلب إيضاحًا. غالبًا ما تكون هذه مسألة تقديرية.

إذا كنت في لندن وأشرت إلى «مسئول رفيع في وزارة الخارجية»، فسيكون واضحًا أن المصدر مسئول أو سياسي رفيع المستوى في وزارة الخارجية؛ ومِن ثَمَّ فلن يكون من الصعب جدًّا استنتاج هوية من تحدثت معه. قد لا يزعج ذلك المصدر أحيانًا، لكن في أحيان أخرى، ربما يفضل المصدر إحاطة هويته بمزيد من الغموض، فيطلب منك أن تشير إليه بصفته «مصدرًا في وزارة الخارجية» أو «مسئولًا بريطانيًّا». وفي حال تناولت مفاوضات تضم عدة دول (في الأمم المتحدة على سبيل المثال)، فربما يطلب منك دبلوماسي بريطاني أن تخفي هوية الدولة مصدر المعلومات وأن تستعيض عنها بمصطلح «دبلوماسيين أوروبيين».

يستخدم بعض مراسلي بي بي سي لفظ «علمتُ» كصيغة لإخفاء هوية مصدر موثوق فيه لا يرغب في الكشف عن شخصيته. وهو ما يُعتبر أسلوبًا مجديًا، لكن الأفضل عدم اللجوء إليه إلا في الحالات الاضطرارية؛ لأن أغلب الجمهور لن يستوعب المقصود منه؛ لذلك فالأفضل أن تُورد، إن استطعت، اقتباسات مباشرة من مصادر معروفة لتدعيم معلوماتك.

يقول المسئولون في بعض الأحيان إن المعلومات التي يُدلون بها أو التحليلات التي يقدمونها ليست للاقتباس المباشر؛ أي إنها مجرد «دردشة»، ولا ينبغي الكشف عن هوية صاحبها. ثمة طرق متعددة للتعامل مع هذا الموقف: إذا كانت المعلومات في سياق غير رسمي، كمقابلة إذاعية أو تليفزيونية مباشرة مثلًا، يمكنك أن تقدِّم لها بقولك: «لن أفاجأ إذا ...» أو «يمكنك القول أيضًا بأن ...» لكن الأمر الذي عليك أن تقيِّمه تقييمًا نقديًّا بوصفه مراسلًا صحفيًّا هو: إذا لم أورد اسم المصدر، فكيف سيؤثر ذلك على موثوقية معلوماته؟

(١-٧) تحدي المراوغة

«المراوغة الحكومية» هي مصطلح سيِّئ السمعة، صار بالنسبة إلى كثيرين مرادفًا لتحريف الحقائق أو إغفالها أو حتى اختلاق الكذب البواح لتضليل الصحفيين ومِن ثَمَّ الجمهور. وليس بمستغرب أن يواجَه هذا النمط من التلاعب المنهجي بردود أفعال عدائية؛ فبمجرد أن يدرك المرء أنه وقع فريسة لخديعة متعمدة، تتبدد كل جسور الثقة ويصعب إعادة بنائها؛ لذا، فإن المراوغة تعد لعبة خطرة بالنسبة إلى ممارسيها، وكذلك لمن يقعون ضحية لها.

إلا أنه في بعض الأحيان لا يوجد مفر منها؛ فالمسئول — أو أي مصدر آخر للمعلومات — الذي يُدلي إليك بتصريحات، مقدمًا إليك معلومات وتفسيرات، لا شك أنه يريدك أن تُولِي وجهة نظره تركيزًا إضافيًّا. ومهمتك بوصفك صحفيًّا ألا تنسى على الإطلاق أن له أجندته الخاصة.

قد تصل المراوغة على الصعيد الدبلوماسي إلى حد محاولة صرف انتباهك: من أمثلة ذلك مكالمة هاتفية من مسئول إعلامي يحاول من خلالها تحويل اهتمامك إلى حدثٍ هامشيٍّ لتنشغل عن شيء آخر، ربما يكون تقريرًا جديدًا يحوي إحصائيات مخزية أو ربما فضيحة يعرف (لكنك لا تعرف) أنها على وشك الانكشاف؛ لذلك فمن القواعد العامة الجيدة أن تسأل نفسك عن دافع هذا الشخص: لماذا يحرص إلى هذا الحد على توجيه اهتمامك نحو هذا الموضوع بعينه؟

لكن الخطورة تكمن في أن يصيبك داء الشك. سبق أن استبعدت معلومات مرة أو مرتين بدعوى أنها على الأرجح من قبيل المراوغة ومِن ثَمَّ لا قيمة لها، ثم ندمت بعدما تبيَّن أن هذه المعلومات كانت تتعلق بحدث أكثر إثارة للاهتمام بكثير مما توقعت.

في بعض الأحيان، قد تكون المراوغة السافرة أمرًا مفيدًا. فتلقِّي رسالة حكومية مباشرة يُعَد أمرًا هامًّا. فحين يُصرُّ مسئول ما على تزويدك بمعلومات دون محاولة تمويهها، فربما يساعدك ذلك غاية المساعدة؛ فهو أقل خداعًا من ذلك الدبلوماسي الأكثر حنكة الذي يصعب الكشف عن مراوغته.

من أشكال المراوغة الأخرى التسريب المبكر للأخبار السيئة للتخفيف من وطأة الإعلان عنها لاحقًا، ولتقييم تأثيرها المحتمل على الرأي العام ككل، وذلك من خلال ردود أفعال الصحفيين.

في فبراير ١٩٩٩، كانت المفاوضات المنعقدة في ضاحية رامبوييه الفرنسية بين قادة الصرب وألبان كوسوفو على وشك الانهيار. أذكر جيدًا وقوفي وسط موقف للسيارات مرصوف بالحجارة حين خرج مسئولان بريطانيان بهدوء من باب جانبي للقصر، واتجها نحوي ليبلغاني أن المحادثات باءت بالفشل لكنهما سيحاولان إحياءها في غضون أسبوعين. وأذكر أنني قلت لهما: «هذه كارثة. إذا تركتم الطرفين يغادران الآن، فلن يصلا إلى اتفاق مطلقًا.» لم يعترض المسئولان البريطانيان. وخلال أقل من شهر، مهد هذا الإخفاق الدبلوماسي الطريق أمام حملة القصف التي شنها حلف الناتو — غير المدعومة من الأمم المتحدة — والتي استغرقت حوالي ٧٠ يومًا. استنتجتُ فيما بعدُ أن الهدف

الرئيسي لخروج الدبلوماسيِّين وتسريب نتائج المحادثات إلينا كان اختبار ردود الأفعال المحتملة حيال مؤتمر صحفي مزمع وذلك من خلال رؤية ردة فعلنا نحن.

ثمة نوع آخر من الإحاطات التي قد تكون خادعة، وهو عندما يُصر المسئولون على أن ما حدث في العلن يختلف اختلافًا بيِّنًا عما جرى خلف الأبواب المغلقة. لكن أنَّى لك أن تعرف أين الحقيقة؟

قُبيل غزو العراق، على سبيل المثال، عبَّر الرئيس بوتين بوضوح تام عن تحفظه حيال استخدام القوة ضد صدام حسين. وشهد خريف ٢٠٠٢ زيارة توني بلير إلى موسكو في محاولة لمغازلة الدب الروسي وثنيه عن معارضته. لكن الرئيس بوتين رفض التخلي عن موقفه، وذلك خلال مؤتمر صحفي مشترك عُقِد في المنزل الريفي للرئيس الروسي المحاط بتذكارات الصيد التي يرجع تاريخها إلى حقبة الزعيم السوفيتي الأسبق ليونيد بريجنيف. رفض الرئيس الروسي تقارير المخابرات البريطانية بشأن أسلحة الدمار الشامل العراقية، واصفًا إياها بـ «الدعاية»، ثم نظر نحو السيد بلير بحدَّة معلنًا أن روسيا ليست «سوقًا» تُباع فيه الولاءات أو تُشترى. استمعنا — نحن الصحفيين — إلى كلماته في ذهول؛ فالعلاقات بين الرجلين كانت جيدة حتى هذه المرحلة، لكن بدا أنها لم تَعُد كذلك.

بعدها جاء مسرعًا خلفي مسئول في الحكومة البريطانية كان مرتبكًا بعض الشيء ليقول لي إن السيد بوتين كان أكثر لطفًا خلف الكواليس منه أمام الإعلام. وأضاف قائلًا: «إن لهجته العدائية لم يستهدف بها سوى الصحافة الروسية. إننا، في الواقع، في غاية الرضا عن اللقاء. إنهما متفاهمان تمامًا.»

هل كان المسئول البريطاني يكذب عليَّ، أم كان الرئيس بوتين يخدعنا هو والسيد بلير؟

انضم الرئيس بوتين لاحقًا إلى فرنسا في معارضتها لغزو العراق وواصل انتقاداته للغزو منذ ذلك الحين؛ لذلك إذا نظرنا إلى الوراء، فسنجد أن تعليقاته العلنية في ذلك المؤتمر الصحفي عام ٢٠٠٢ كانت دلالة أوضح على المنحى الذي كانت تسلكه الدبلوماسية الروسية بشأن العراق (وتجاه المملكة المتحدة).

(١-٨) الحروب والدبلوماسية

لعلك تظن أن المراسلين الدبلوماسيين يتعاملون مع مسائل السلام لا الحرب. غير أن خطر الحرب غالبًا ما يقف خلف النشاط الدبلوماسي داعمًا له. والدبلوماسية تُرى أحيانًا

كذريعة يُقصَد بها تمهيد الطريق أمام استعمال القوة. وحين تدور رحى الحرب، تتعرض في الغالب العلاقات بين الصحفيين والحكومات لتوترات كبيرة؛ فقد يُثير أسلوبك في تناول المعلومات التي تَرِدك بعض القضايا الخطيرة.

ازدادت أهمية الدور الذي يلعبه الإعلام فيما يُعرف باسم «معركة الفوز بالقلوب والعقول» طيلة الأعوام الماضية التي تتراوح بين عشرة وخمسة عشر عامًا. لقد أثبتت الصراعات الحديثة — في العراق ولبنان وأفغانستان — أن الطرف الذي يستعين بالهجمات الجوية، التي لا تميِّز قنابلُها بين الأهداف العسكرية والضحايا المدنيين، يخاطر بفقدان الدعم الجماهيري لأفعاله.

لا يكفي في وقتنا المعاصر أن تسحق خصمك بقوتك العسكرية، بل يلزمك أن تنتصر عليه بالحجة أيضًا؛ ففي ظل حقبة الأخبار العالمية المتواصلة التي نحياها، حيث يمكن أن تُذاع المقاطع الحية للمعارك لحظة اندلاعها وتصل إلى الناس مباشرة بينما يجلسون داخل منازلهم وعلى المقاهي وأمام شاشات أجهزة الكمبيوتر وهواتفهم المحمولة في جميع أنحاء العالم، أصبحت طريقة نقلك لما يجري ميدانيًّا من العناصر المحورية لما يُعرف باسم «الحرب المعلوماتية».

أُثيرَ جدل واسع بشأن إخفاق الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها في العثور على أسلحة للدمار الشامل في العراق ولجوئها إلى المعلومات الاستخباراتية لتبرير الحرب. وتراجعت على نحو كبير منذ ذلك الحين ثقة الجماهير فيما تقوله حكوماتهم مما يعني أن أيَّ محاولة حكومية واضحة لتضليل الرأي العام قد تأتي بنتائج عكسية على الفور.

حين شن حلف الناتو حملته ضد يوغوسلافيا بشأن قضية كوسوفو عام ١٩٩٩، كانت الحالة المزاجية مختلفة كل الاختلاف. كانت الحكومة البريطانية حريصة على تبرير ما اعتبرته تدخلًا إنسانيًّا لصالح ألبان كوسوفو، الذين كان يفر مئات الآلاف منهم تاركين منازلهم ليبحثوا عن ملاذٍ لهم في أماكن أخرى. وكانت الحكومة حينها صريحة تمامًا فيما يخص رغبتها في الاستعانة بالإعلام كأداة داعمة لحملتها العسكرية.

لم أشعر أنني تعرضت لتضليل متعمد إلا في القليل النادر، غير أنني في مرة أو اثنتين حسبت أنني وقعت ضحية له.

لن أنسى أبدًا عصر ذلك اليوم الذي تلقيت فيه مكالمةً تطوع بها مسئول بريطاني رفيع، وزعم خلالها أن معلومات استخباراتية قد وصلته للتوِّ تفيد بأنه من المرجح أن الاعتداء الأخير على قافلة من اللاجئين الألبان كان من تنفيذ الجيش الصربي. سألت

المسئول كيف يمكنه أن يكون متأكدًا من أن الهجوم لم يشنه طيارو حلف الناتو على سبيل الخطأ، نظرًا لأن مقر حلف الناتو كان يشهد في ذلك الوقت تحقيقًا في الحادثة. فأجابني أن المعلومات الاستخباراتية تبدو موثوقًا فيها، لكنه أسرع وأضاف أنه لا يمكنني نقل الخبر وذكر اسمه وأن البنتاجون سيعقد مؤتمرًا صحفيًّا حول الأمر خلال ساعات.

سألته ما إذا كان يتوقع أن البنتاجون سيُقر مزاعمه، فراح يراوغني؛ لذا قلت له بأنني لا أستطيع استخدام مثل هذه المعلومات المثيرة للجدل والتي لا يدعمها أي دليل وأنني سأنتظر تأكيدًا رسميًّا — لسبب وجيه، كما تبيَّن لاحقًا.

أصدر الناتو خلال أيام اعتذارًا عما وصفه بخطأ فظيع وغير مقصود.

ربما كان المسئول مدفوعًا بقناعته بأنها «حرب عادلة» وأراد أن يقنع الآخرين بذلك. وربما كان يحاول بخبث خداعي. لكن ذلك في الحالتين لا يهم؛ لأنني لم أستخدم المعلومات التي قُدمت لي. لقد علمني ذلك بأنه من الحكمة الحرص على ذكر مصادر المعلومات متى أمكن، وإلا، فينبغي التفكير مرتين قبل استخدام المعلومات.

(١-٩) حجب المعلومات

في بعض الأحيان، يبدو حجب المعلومات الخيار الأمثل. لكن ذلك قد يُثير إشكاليات عويصة.

لا يرغب أيٌّ منا في أن يفجع أُسرةً بإذاعة اسم قتيل أو جريح لهم قبل الاتصال بذويه.

في عصر التهديدات الأمنية المتصاعدة، قد يطلب منك مسئولون حكوميون أن تحجب معلومات معينة، كعدم الإعلان المسبق عن خطط الوزراء الحكوميين للسفر خارج البلاد.

لكن ثمة حالات قد يتراءى للحكومة استعمال مسألة الدعاوى الأمنية لأغراض سياسية. لا شك أن عدم الحديث عن زيارة سياسي رفيع المستوى إلى أفغانستان مقبول تمامًا، لكن ماذا عن خطاب سيُلقى في بلد قريب ويُخشى من ردة أفعال المحتجين؟ لذلك لا بد من التقييم الدقيق للموقف.

تثير مقاطع الفيديو التي يصورها المتمردون لرهائنهم ويرسلونها للشبكات الإخبارية العالمية مشكلة أخرى؛ فحين بدأت تتسرب من العراق مقاطع فيديو للرهائن البريطانيين، أثار ذلك مناقشة حامية بين شبكات البث التليفزيوني في المملكة المتحدة. وبرز السؤال التالي: إلى أي مدًى ينبغي استخدام هذه المقاطع وعرضها في البرامج الإخبارية؟

ذهب البعض إلى أن هذه قصة إخبارية مشروعة تحتاج إلى الإيضاح وأن تجاهل مقاطع الفيديو ربما يعني حرمان هؤلاء الرهائن من الدعاية اللازمة لمواصلة الضغط على الحكومات في سبيل العمل على تحريرهم. بينما رأى آخرون أن مشاهدة أولئك الرهائن وهم يتوسلون من أجل إنقاذ حياتهم قد تكون مؤلمة بل وربما مهينة للضحايا وذويهم. كما أنه كان هناك قلق من أن شبكات البث بإذاعتها لمثل هذه المقاطع قد تخدم المتمردين عن طريق الترويج لقضيتهم ودعم رسالتهم الإرهابية.

اتخذت شبكة بي بي سي قرارًا باستخدام الحد الأدنى من هذه المقاطع، والاستعانة أحيانًا بلقطات ثابتة فقط إذا كانت القصة ذات قيمة إخبارية، لكن مع محاولة عدم تكرار بث المادة بلا داعٍ. وحين انحسرت عادةُ نشر مقاطع الفيديو الخاصة بالرهائن، بدت هذه فكرة سديدة.

أثارت هذه القضية أيضًا تساؤلًا بشأن نوعية المواد الإخبارية التي يجب على الصحفي أن يستعملها في سياقات أخرى.

فإلى أي مدًى، على سبيل المثال، ينبغي علينا أن نعرض صور أسرى الحرب الآخرين أو — كما هو الحال في معتقل جوانتانامو — «المقاتلين الأعداء غير الخطرين» كما كانت تصفهم الولايات المتحدة الأمريكية؟

أين عساك أن ترسم ذلك الخط الفاصل بين مهمتك في توعية الجماهير ومسئوليتك في عدم إشعال موقف ما؟

واجهتُ منذ عدة سنوات تلك الإشكالية ذاتها في سياق آخر. كنت أعمل في موسكو لحساب شبكة بي بي سي وسافرت إلى الشيشان في رحلة قصيرة لمقابلة زعيمها الانفصالي جوهر دوداييف، الذي كان طيارًا سابقًا في الجيش السوفيتي.

لم يلبث الاتحاد السوفيتي أن انهار، وصارت الشيشان جمهورية صغيرة نصف مستقلة داخل الاتحاد الروسي. لكن الجنرال دوداييف أراد أن يظفر لشعبه بالاستقلال نفسه الذي نالته كلٌّ من أذربيجان وجورجيا. كان الوضع تسوده الفوضى والتوتر، غير أنه كان ثمة إشارة ضئيلة إلى احتمال صعود أجندة الإسلاميين في الشيشان بعد الانفصال. ورغم أن روسيا كانت على وشك خوض حربين ضد الثائرين الشيشان على مدار السنوات العشر التالية، فإن فتيل العنف لم يكن قد اشتعل بعدُ.

طلب مني الجنرال دوداييف ذات يوم في وقت متأخِّر من الليل الحضور إلى قصره مُعربًا عن رغبته في عقد مقابلة مع بي بي سي. أجريتُ معه حوارًا طويلًا تحدثنا فيه في

عدة موضوعات، صرَّح خلاله أنه في حال رفضت روسيا انفصال الشيشان، فإنه سوف يختطف طائرات ويستعين بها في قصف محطات الطاقة النووية الروسية.

لم أكن متأكدة من مدى جديته؛ فقد كان رجلًا استعراضيًّا بعض الشيء، ذا شارب أسود مصقول وقبعة صغيرة سوداء، وكان ميالًا إلى استخدام الإيماءات المُبالَغ فيها. استقر بي الرأي حينها على أن ثمة احتمالًا أن يُستخدم ذلك التصريح الاستفزازي كذريعة وارتأيت أنه ينبغي ألا أسمح أن تُستغَل مقابلتي هذه كبوق لإطلاق تهديدات من هذه الشاكلة؛ ولذلك حذفت ذلك الجزء.

بعد مُضي ما يقرب من ١٥ عامًا، أتساءل عما إذا كنت قد اتخذت القرار السليم. تُعرَض الآن على مسامعنا وأنظارنا مقاطع صوتية ومرئية تحوي تهديدات إرهابية يُطلقها قادة تنظيم القاعدة، وترى الأغلبية أنه من المهم التعرف على تلك التهديدات. أكنت حذرة أكثر من اللازم عام ١٩٩١؟ أم أن الزمن قد تغيَّر وصرنا الآن أشد حصانة حيال المفهوم المقلق للتهديدات والهجمات الإرهابية، التي صارت للأسف من القضايا المهيمنة على العقد الأول من القرن الحادي والعشرين؟

(١-١٠) تجنب التحيز

هل بوسعك التزام الحيادية عند تغطية القضايا الدولية؟ أم أن تغطيتك دائمًا ما ستصطبغ باهتماماتك وتجاربك الشخصية، وجنسيتك وبلدك؟ أعتقد أنه لا مناصَ من تأثُّر تغطيتك بكل ذلك.

أحيانًا، أتصور كيف ستختلف تغطيتي الإخبارية باختلاف المكان الذي أكون فيه. تتعلق المسألة بكيفية صياغتك للتغطية؛ فقد تختلف أساليبك في تقييم المواقف وتوصيف الأخبار حسب مدى قربك من الحدث أو — كما هو الحال في الميدان الدبلوماسي — المشاركين في المفاوضات. فمثلًا، إذا كنت في موسكو، فإن تقريرك الصحفي غالبًا ما سيعكس الفروق الطفيفة الكامنة في فكر الحكومة الروسية. أما إذا كنت في واشنطن، فإن ما سمعته من المسئولين الأمريكيين غالبًا ما سيلقي بظلاله على آرائك.

لا أرى بأسًا في ذلك ما دمت مدركًا لتلك الحقيقة وحريصًا على وضع وجهات النظر الأخرى في الحسبان وتنبيه الجمهور على ضرورة أن ينظروا إلى هذه الآراء باعتبارها وجهات نظر شخصية. إن الأهم هو القدرة على الاحتفاظ بقدر من الموضوعية عند تناول الأخبار وأن تحاول تنحية ميولك وأهوائك الشخصية جانبًا.

لا يعني ذلك أن تبدو باهتًا، بلا هوية ولا رأي؛ فبعض الأحداث (كالقتل الجماعي وغيره من الفظائع والأكاذيب الصارخة) تتطلب في واقع الأمر ردًّا قويًّا. لكن وجهة النظر التي أتبناها في أسلوبي الصحفي هي أنك لو تركت لنفسك حرية التعبير عن الغضب الجارف أو الانغماس الانفعالي، فإنك تخاطر بإضعاف التأثير المرجو لما تقوله.

(١-١١) التحديات التكنولوجية

ثمة جانب من جوانب الصحافة مرَّ بتغيرات جذرية منذ أوائل التسعينيات، حين استهللت عملي مراسِلة أجنبية: التكنولوجيا.

لقد يسرت التكنولوجيا حياة الصحفيين تيسيرًا كبيرًا بطرق عدة.

في تلك الرحلة ذاتها التي قمت بها في أواخر ١٩٩١ إلى الشيشان، لم يكن بإمكاني سوى إرسال تقارير إذاعية إلى لندن بطريقة معقدة تطلبت براعة تقنية عالية. كان عليَّ أن أفكِّك الهاتف الموجود في الفندق وأن أوصل أسلاكًا وماسكات إلى جهازِ تسجيلي، ثم أستعين بعامل الهاتف التابع للفندق لكي يوصلني إلى موظف بمكتب بريد شيشاني، وقد كان دمث الخلق لدرجة أنه ظل ساهرًا إلى منتصف الليل لمساعدتي في حجز مكالمة متأخرة إلى مكتب بي بي سي في موسكو (فلم يكن هناك حينها اتصال مباشر من الشيشان) حيث أوصلني منتِجٌ ما عبْر خط هاتفي آخر إلى مكالمة كان قد حجزها لغرفة الأخبار في لندن.

أما اليوم، فيمكن للصحفيين أن يركبوا طبقًا هوائيًّا، أو يفتحوا هاتفًا محمولًا، أو كمبيوترًا محمولًا للاتصال في ثوانٍ بغرفة الأخبار في لندن من أيِّ بقعة في العالم مهما بعدت. لقد أزال هذا التطور التكنولوجي قدرًا كبيرًا من القلق والحيرة اللذين كانا يُسيطران على مهمة التغطية الإخبارية من الخارج. كما أنه يعني إمكانية الوصول إلى المعلومات على نطاق عالمي؛ فبضغطة زر واحدة يمكنك أن تُطالع الحقائق أو أحدث التطورات لكي تتمكن من وضع مادتك الإخبارية في سياقها الصحيح.

إلا أن التطورات الجارية في المجال التكنولوجي تثير أيضًا طائفة من القضايا الجديدة.

(١-١٢) تدفق الأخبار على مدار الساعة

إن الضغوط التي يشكلها «تدفق الأخبار على مدار الساعة» تفرض على الصحفيين أن يصدروا أحكامًا وقرارات سريعة؛ فقد تحتاج أحيانًا إلى نقل حدث ما نقلًا مباشرًا بينما

لا يزال في طور الوقوع. فكيف لك أن تقيِّم أهمية مؤتمر صحفي للرئيس الأمريكي وأنت لم تسمع سوى نصفه؟

لكن هذه الضغوط لا تواجه الإعلام المرئي والمسموع فقط؛ فالصحفيون العاملون في الجرائد ليسوا بمنأًى عنها. وتحتاج أي غرفة أخبار عاملة على مدار الساعة خاصة بموقع على الإنترنت أن تحصل على تحديثات دائمة. ويصعب، في ظل هذه الظروف، إمعان النظر في أي موضوع بما يكفل توازن التغطية ودقتها.

لن يزداد هذا التحدي سوى صعوبة في ظل ما تشهده الاتصالات العالمية من تنامٍ في السرعة والحركية. والحل يكمن، كالعادة، في الجاهزية، على الصعيدين الصحفي واللوجيستي.

(١-١٣) مصادر جديدة للمعلومات

كيف سيصمد الصحفيون التقليديون في عالم مضطرين فيه إلى التنافس مع المدونات وما يُعرف باسم «صحافة المواطن»؟ لقد أتاحت شبكة الإنترنت للجميع كمًّا هائلًا من الفرص للتعبير عن آرائهم وللتفاعل بعضهم مع بعض.

بالنسبة إلى الصحفيين التقليديين — ومن بينهم المراسلون الدبلوماسيون — يمثل ذلك الوضع فرصة وتحديًا في آنٍ واحد.

وهو يخلق بالفعل بيئة يكتنفها مزيد من الغموض والتحديات. فثم تشكك متنامٍ لدى الرأي العام حيال المسئولين، وكذلك حيال الصحفيين الذين يعتمدون على المسئولين كمصدر لمعلوماتهم.

على الجانب الآخر، فإن الحكومات بصدد إعادة النظر في أساليب «المراوغة» ووسائل الدعاية التقليدية التي تستخدمها؛ فالرسائل الإلكترونية التي يرسلها الجنود واصفين الأوضاع الميدانية في معاركهم، عندما يمكن أن يجري تداولها إلكترونيًّا حول العالم، فإن ذلك سيسهم في زيادة الضغوط على القيادات الحكومية والعسكرية لتجنب أي مبالغات أو محاولات لإخفاء الحقائق؛ إذ غالبًا ما سيُكشَف أي تلاعب بالوقائع بمنتهى السهولة.

ينبغي التعامل بحذر مع جميع المعلومات الإلكترونية، لا سيما لو قُدِّمت دون طلب. لكن الإنترنت أيضًا من شأنه أن يجعلنا — نحن الصحفيين — في حالة تأهب دائم؛ فقد ولَّت تلك الأيام التي كنت تستطيع خلالها أن تُغطي أخبار بلد ناءٍ، مطلقًا أحكامًا جزافية عن الأوضاع هناك، مطمئنًّا إلى أنه ليس هناك غالبًا من سيقرؤها أو يسمعها. أما الآن،

فربما تتلقى خلال دقائق رسالة إلكترونية تحاسبك على كلماتك وآرائك. وقد تتسبب واقعة واحدة من سوء التقدير أو الخطأ في تصعيد الأمر، بين ليلة وضحاها، لتصبح قضية رأي عام. لقد أضحى جميع الصحفيين المحليين الآن عالميين، ويسهل الوصول إليهم أينما كانوا في لمح البصر.

(١-١٤) مؤامرة أم صدفة

بالإضافة إلى ما سبق، فإن عالم الصحافة الإلكترونية الجديد يغذي بعض المفاهيم الخاطئة والمغالطات ونظريات المؤامرة. فكثيرًا ما يطفو على السطح افتراض بأن أي منعطف سياسي أو تاريخي لا بد وأنه قد خُطِّط له سلفًا وأنه نتاج تدبير معقد حاكه سرًّا شخص ذو نفوذ.

لا أبرئ نفسي من توهُّم مؤامرات لا وجود لها على الأرجح في الواقع. راقِب الدبلوماسيين والسياسيين لوهلة وسرعان ما سوف تدرك أنهم ليسوا معصومين وأنهم عرضة لارتكاب نفس الأخطاء والقيام بنفس التخمينات مثلنا جميعًا.

لذلك لا تستبعد أبدًا عامل «الصدفة» في العلاقات الدولية؛ فمن المحتمل دائمًا أن يخفق عمل دبلوماسي أو ينجح بمحض الحظ أو لأتفه الأسباب وأهونها؛ فقد يرفض سياسي بارز إبداء تعاونه لأنه مرهق من أثر السفر، أو لم تجرِ إحاطته بالمعلومات المطلوبة، أو يعاني نزلة برد. وفي المقابل، لربما ينسى سياسيان دوليان خلافاتهما فجأة لاكتشافهما ولعهما المشترك بصيد الأسماك.

(٢) لماذا ستصمد الصحافة الدبلوماسية؟

إنني على يقين بأن الصحافة الدبلوماسية سوف تصمد؛ ذلك لأنه، إلى جانب المصادر المفتوحة المتزايدة للمعلومات الإلكترونية، ستكون ثمة حاجة دائمة إلى الصحافة التخصصية المعتمدة على التواصل المباشر والتحقق الدائم من المعلومات من مصادر موثوق فيها.

يكمن التحدي في القدرة على تقديم تحليل مبتكر للأحداث، لا يكتفي بالوقوف على ما وراءها، بل ويعطي الجواب الصحيح عن ذلك التساؤل: إلى أين يتجه العالم؟

لا شك أن محاولة مسايرة التطورات العالمية يومًا بيوم مهمة شاقة للغاية. وكثيرًا ما أمزح قائلةً بأن وظيفتي أشبه بالمراجعة الدائمة استعدادًا لاختبار أعلم أنه قادم، لكنني

لا أعلم في أيٍّ مادة. وهو ما يشبه نصيحة أسداها إليَّ أحد زملائي القدامى حين بدأت عملي، إذ أخبرني قائلًا: «سوف تشعرين كأنك فراشة، تُحلق من زهرة إلى أخرى، لكنك نادرًا ما ستمضين ما يكفي من الوقت لتنغمسي في أيٍّ منها كما يجب.»

غير أنك في المقابل ستحظى بفرصة لتكوين نظرة عامة شاملة، وهو أمر شديد الأهمية في عصر تترابط فيه الكثير من العوامل والأحداث وتتداخل. إن أمامك فرصًا لتقصِّي المصادر وتقييم المعلومات التي لا يستطيع الكثيرون إليها سبيلًا.

والمفتاح لذلك هو الاستعداد الكافي ببذل الوقت لإجراء عملية البحث وإقامة العلاقات. عليك أن تقرأ قدرَ استطاعتك وأن تنتهز كل فرصة ممكنة للسفر والانخراط في موقف أو بلد ما؛ فالسياق التاريخي والجغرافي مهم للغاية. كما ينبغي عليك أن توسع نطاق تغطيتك. فحين تنشب أزمة هائلة فجأة وتتصدر العناوين الرئيسية، لا يوجد ما يسمى مكانًا صغيرًا جدًّا أو موضوعًا سريًّا للغاية. إن الصحافة الدبلوماسية مجال لا يبلى أبدًا ومهنة لا تفتأ تجدد نفسها على الدوام.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) ما المخاطر التي تحيط بالاعتماد المفرط على المصادر الرسمية؟ استشهد بنماذج من التغطية الحديثة، بما في ذلك تلك الخاصة بالفترة السابقة على نشوب الحرب ضد العراق.

(٢) أيعي متلقو الأخبار العاديون بوضوح كافٍ كيفية «تشفير» المعلومات المتبادلة بين المصادر والمراسلين؟ أمن المهم لهم أن يفهموا المقصود بقولنا «مصادر غير رسمية» أو «استخدام المعلومات الواردة في التصريحات مع عدم اقتباس مصدرها»؟ كيف يؤثر ذلك على فهمهم للخبر وطريقة استقائه من مصادره؟

(٣) أتتفق مع بريدجت كيندال أم تعارضها فيما يتعلق باستحالة التزام «الحيادية» عند تغطية القضايا الدولية لأن آراءك دائمًا ما «ستصطبغ باهتماماتك وتجاربك الشخصية وجنسيتك وبلدك»؟

(٤) هل جيك لينتش مصيب فيما ذهب إليه أم مخطئ؛ فهل نحن في حاجة إلى «صحافة سلام» تُبادر بالتصدي لتأثير «صحافة الحرب»؟

هوامش

(١) عُقِدت مناظرة بعنوان «الحوار مع العدو» خلال فعاليات افتتاح نادي فرونتلاين بنيويورك في السادس عشر من أبريل ٢٠٠٧.

الفصل السابع

مواعيد نهائية لا تنتهي: تدفق الأخبار على مدار الساعة

نيك بولارد

تمهيد

جون أوين

في يوليو عام ١٩٨٩، ذلك العام الذي هُدِمَ فيه جدار برلين، أطلقنا في شبكة سي بي سي للأخبار التليفزيونية ثالث قناة تليفزيونية متخصصة في الأخبار والمعلومات على مستوى العالم، وهي التي تحمِل اسم نيوز وورلد. قبل ذلك التاريخ بخمسة أشهر، رد روبرت مردوخ على تأسيس تيد تيرنر لشبكة سي إن إن بإطلاق شبكة سكاي نيوز البريطانية التي بثت برامجها تحت شعار «نحن موجودون متى احتجتم إلينا!» وصف مردوخ تدشين شبكة سكاي نيوز بأنه إيذانٌ ببزوغ عصر جديد من حرية المشاهد.

ورغم ذلك، كانت شبكة سي إن إن القناة الإخبارية الرائدة في العالم على الإطلاق. كانت موجودة على الساحة منذ ١٩٨٠ وأحدثت تحولًا في عالم الأخبار التليفزيونية والاتصال العالمي، واستغلها زعماء العالم لاختصار العملية الدبلوماسية؛ فالحقائق التي أدركها كبار المسئولين منها كانت تفوق تلك التي توصلوا إليها من خلال القنوات الدبلوماسية التقليدية. وهو ما عبرت عنه كلمات الصحفي وارن ستروبل أصدق تعبير وهو يروي كيفية تجاوب سفيرة الولايات المتحدة الأمريكية إلى الأمم المتحدة آنذاك، مادلين أولبرايت، إزاء القصف الدامي لسوق سراييفو خلال الصراع البوسني عام ١٩٩٤، فقد نقل قولها: «فعلتُ مثلما كان سيفعل الجميع. فتحت قناة سي إن إن، وظللت جالسة في غرفة المعيشة بقية اليوم أشاهد التليفزيون والهاتف في يدي.»

لقد كان هناك ما أطلق عليه الكثيرون «تأثير سي إن إن» لوصف نفوذها وتأثيرها في الضغط على قادة الحكومات، لا سيما الرؤساء الأمريكيون، للتجاوب مع الأحداث العالمية كما اتضح من خلال تغطية «الأخبار العاجلة» على الشبكة. يروي ديفيد هالبرستام قصة الرئيس بيل كلينتون (عام ١٩٩٤ أيضًا) حين استفزته كرستيان أمانبور، كبيرة مراسلي سي إن إن، في لقاء مفتوح بثته قناة سي إن إن على الهواء مباشرة في جميع أنحاء العالم. كانت أمانبور مشحونة بالعواطف والانفعالات إثر تغطيتها للحرب البوسنية، فقد وجدت في سراييفو حيث شهدت قدرًا كبيرًا من المعاناة؛ لذلك فقد ضغطت على كلينتون خلال هذا اللقاء ليبرر عدم إقدام إدارته حتى تلك اللحظة على وضع سياسة حيال البوسنة، متهمةً إياه بالتخبط. ذُكِر أن كلينتون استشاط غضبًا من المعاملة التي تلقَّاها ومن الطريقة التي كشفت بها أمانبور عن تقاعسه (هالبرستام ٢٠٠٢: ٢٨٣).

رغم هيمنة سي إن إن على الساحة الإخبارية والحتمية الواضحة للاتجاه إلى البث الإخباري على مدار الساعة، فإنه لم يكن ثَمَّ إقبال عالمي على المنافسة. كانت التكاليف باهظة، والبث الفضائي مُكلِّف للغاية، وكذلك التكنولوجيا اللازمة داخل غرف الأخبار وخارجها من أجل جمع الأخبار على نطاق عالمي، فضلًا عن التكلفة الإضافية لتعيين الموظفين الذي سيعملون على مدار الساعة، خاصة في المؤسسات الإخبارية التي تحكمها الاتفاقات الجماعية مع النقابات المهنية. علاوةً على ذلك، ظل مشاهدو القنوات الإخبارية، سواء الفضائية أو التي تُبث عبر تليفزيون الكابل، قِلَّةً لم تكن تزداد إلا عند وقوع أخبار عاجلة خطيرة. زعمت القنوات والمحطات الرئيسية أنها كانت لا تزال قادرة على اجتذاب جماهير غفيرة عن طريق وقف بث البرامج المعتادة في أوقات الأزمات وتقديم تغطية إخبارية متواصلة للأحداث التي تجريها طواقمها الإخبارية الخاصة. لكن قطع البرامج التجارية المربحة ذات الإيرادات العالية لم يكن أمرًا سهلًا، كما كان كثير من المشاهدين يعترضون على قطع مسلسلاتهم الدرامية المفضلة أو مسلسلات الست كوم التي يحبونها لعرض تغطيات إخبارية مباشرة. (كما أن القنوات الإخبارية نفسها لم تكن في حِلٍّ من استبداد البث المعتاد؛ فقد كانت ولا تزال القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة تشعر بالقلق إزاء قطع البرامج الوثائقية التي تُذاع في مواعيد منتظمة أو البرامج المثيرة التي تسمح بمداخلات هاتفية من الجمهور على شاكلة برنامج لاري كينج من أجل تقديم تغطيات إخبارية متواصلة لوقائع كثيرًا ما تكون أقل إثارة.)

يثير نقاد القنوات الإخبارية، وما أكثرَهم، تساؤلًا بشأن مقدار ما يُخصَّص بالفعل من بث القنوات الإخبارية على مدار الأربع والعشرين ساعة لتغطية قصص إخبارية لا تُقدَّم في أي نشرة إخبارية تذاع في مواعيد منتظمة. إن الذين درسوا هذه القضية — والاستعراض السنوي للإعلام الأمريكي الصادر عن مؤسسة بيو الأمريكية وهو ما يبدو أنه أكثر التحليلات منهجية — وجدوا أن المزاعم التي تحمِل شعار «كل الأخبار على مدار الساعة» ليست سوى محض وهم. فقد اكتشفت دراسات مؤسسة بيو أن ثلثي الأخبار التي تبثها القنوات الإخبارية الأمريكية — أمثال سي إن إن، وإم إس إن بي سي، وفوكس — هي في أغلبها نُسَخ معدلة من الأخبار ذاتها، ولا تُمثِّل الأخبار «المحدثة ذات المغزى»

سوى ١٠ بالمائة منها. خلُص تحليل لمركز بيو يرجع تاريخه إلى عام ٢٠٠٥ (مشروع التميز الصحفي ٢٠٠٥) إلى التالي: «ماذا يعني ذلك؟ إن القنوات الإخبارية، ذات البث المباشر الذي يمتد لساعات والمراسلين الكثر، لا تكرس مواردها لجمع المعلومات الجديدة أو التعمق في التغطيات الأساسية بقدر ما تكرسه لتبقي على بثها المباشر ولتبدو على رأس أبرز ثلاثة أو أربعة أخبار في يومها.» (اشتُهرت سكاي نيوز في بداياتها بتحديثها الدائم لأخبارها، مدفوعةً في الأساس بحاجتها إلى تصحيحها لا تحديثها — وقد تكرر ذلك كثيرًا حتى اعتاد نقادها أن يسخروا منها قائلين: «سكاي نيوز: استدراك الأخبار لحظة بلحظة».)

النقطة نفسها أشار إليها المؤرخ والكاتب البريطاني تيموثي جارتون آش، الذي أطلق على نفسه مدمن الأخبار التليفزيونية، وذلك في مقابلة عام ٢٠٠٥، حيث أوضح قائلًا:

من الأمور غير الطبيعية في عصر الوسائط والقنوات المتعددة ألا نجد أمامنا، بطريقة ما، سوى تغطية لحدثٍ واحدٍ في فترة ما. [خلال إعصار كاترينا]، لم تكن تُذاع أخبار أي شيء آخر على شاشتَي سي إن إن وفوكس على مدار الساعة. كان من الممكن أن تندلع ثلاث ثورات في العالم دون أن تجد لها مكانًا مطلقًا [على قائمة الأخبار].

يرى جيريمي باكسمان، المقدم اللامع لبرنامج الأحداث الجارية البارز الذي يُعرض مساءً على شاشة بي بي سي، نيوزنايت، أن أهم ما يعيب القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة أن ما يحكمها هو الكثير من الجنون والقليل من التعقل: «ما حدث هو أن لدينا دينامية في الأخبار حاليًّا تُعنى بإخفاء الأحداث أكثر من عنايتها بالكشف عنها وسبر أغوارها؛ فلا يهم إذا نشبت حرب في لبنان أو وقعت فيضانات في دونكاستر، فإنه لا وجود لهذه الأحداث حقيقةً بالنسبة إلى هذه القنوات حتى يوجد مراسلها هناك ويقدم تقريرًا إخباريًّا مرتديًا معطفًا واقيًا من الرصاص أو حذاءً مطاطيًّا طويلًا» (باكسمان ٢٠٠٧).

لن تكتمل مناقشة لتاريخ القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة دون ذكر التأثير الجذري بحقٍّ الذي حققته قناة الجزيرة، التي تُعد أول قناة فضائية غير ناطقة باللغة الإنجليزية تصبح لاعبًا رئيسيًّا في عالم الأخبار الدولية وقوة في عالم السياسة. لو كانت الثمانينيات وأوائل التسعينيات قد شهدت ما يُعرف بتأثير سي إن إن، فقد وُجِد ما يطلق عليه تأثير الجزيرة بعد عام ١٩٩٦ حين بدأت تلك القناة بث برامجها من مقرها الرئيسي العالمي في قطر، تلك الدولة الخليجية الصغيرة. أنت لست في حاجة إلى أن تكون ناطقًا بالعربية لكي تستوعب الأسباب التي أكسبت هذه القناة أهميتها البالغة لدرجة أنها أصبحت القناة التي تنقل صوت ٢٥٠ مليون عربي تقريبًا.

لكن بدلًا من أن تُحاكي الجزيرة نمط بي بي سي، حيث تَدرَّب أغلب صحفييها في قناة بي بي سي العربية التي لم تدم طويلًا وسبق أن عملوا بها أو في سي إن إن، فقد عمدت إلى تقليد نمط عمل

شبكة فوكس نيوز وبرامجها التي تعتمد على المذيعين ذوي الجرأة والانتماءات المعلنة من أمثال بيل أورايلي. صار أعلى برامجها مشاهدةً برنامجا «الشريعة والحياة» و«الاتجاه المعاكس» (وهذا الأخير يعد نسخة معدَّلة من برنامج «نيران متبادلة» الذي يذاع على شاشة سي إن إن، والذي يقدِّم تعارضًا في وجهات النظر، غالبًا ما يكون مفتعلًا). كما منحت هذه القناة العالم العربي شيئًا لم ينعم به من قبلُ: وهو فرصة لأي شخص أن يُعبِّر عن رأيه في برنامج يسمح بالمداخلات الهاتفية.

لكن الجزيرة حظيت بشهرتها الأوسع لكونها القناة المختارة لأسامة بن لادن. فحين كان بن لادن أو، مؤخرًا، نائبه أيمن الظواهري يُصدر مقاطع فيديو له، كانت الجزيرة أول من يبثها ثم تتيحها لبقية القنوات لتقرر ما إذا كانت ستعرضها أم لا.

تُعزَى شعبية قناة الجزيرة على مستوى العالم العربي إلى تغطيتها الجريئة لممارسات الفساد؛ لذلك عمدت الحكومات غير الراضية عن تغطياتها إلى منعها نهائيًّا أو إغلاقها على نحوٍ مؤقت. غير أن الجزيرة أضحت في الفترة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وغزو العراق القناة الأقل تفضيلًا للإدارة الأمريكية؛ فقد دُمِّر مكتبها في كابول بقذيفة أمريكية في هجوم لم يُجرَ تحقيق شامل بشأنه أو تفسره الإدارة الأمريكية تفسيرًا رسميًّا لقطر حتى الآن. كما لم تقتنع الجزيرة قَطُّ بتبرير البنتاجون لما حدث في الثامن من أبريل عام ٢٠٠٣ حين أطلقت القوات الجوية الأمريكية قذيفة دمرت مكتب القناة في بغداد، وقتلت مراسلها طارق أيوب بينما كان يقف على سطح المبنى أثناء تقديمه لتقارير حية.

كما هو الحال بالنسبة إلى سي إن إن التي كان عليها أن تتصدى لتحديات دولية كبرى من شبكتَي سكاي نيوز وبي بي سي وورلد نيوز (التي أُسِّست عام ١٩٩١) ثم وجدت نفسها مستبعدة من المركز الأول من حيث نسب مشاهدة القنوات الإخبارية التي تُبث عبر تليفزيون الكابل لصالح فوكس نيوز، وجدت الجزيرة نفسها كذلك في مواجهة بعض المنافسة القوية؛ فقد أصبحت قناة العربية أهم منافسيها. تضم مدينة دبي مقر قناة العربية التي يمولها السعوديون والذين يمقت حكامهم ما يبديه أمير قطر من رعاية لقناة اعتُبرت معاديةً سياسيًّا لهم. قدمت العربية نفسها إلى المشاهد العربي باعتبارها قناة أكثر توازنًا وحياديةً من الجزيرة.

بعد بذل القليل من المحاولات الحقيقية لتدشين قنوات باللغة الإنجليزية — قليل نتيجة للتكاليف التي يستلزمها الأمر — شهدت السنوات الأخيرة زيادة حقيقية هائلة في القنوات الإخبارية المحلية الجديدة العاملة على مدار الساعة، وذلك إلى جانب القنوات الدولية الأبرز حضورًا؛ ففي الهند على سبيل المثال يوجد ما يُقدَّر بثلاثين قناة تبثُّ برامجها بعدة لغات، ومن بينها الإنجليزية، في جميع أنحاء الدولة شاسعة المساحة.

لم تعد التكنولوجيا باهظة التكلفة. يُعتبر كين تيفين، المسئول التنفيذي السابق في سي إن إن، واحدًا من أكثر الاستشاريين الإعلاميين تنقلًا لإسداء استشاراته إلى الدول بشأن كيفية إطلاق قنواتها

الخاصة. يُقدِّم تيفين استشاراته إلى الجهات المقبلة على إنشاء القنوات العاملة على مدار الساعة لكي تتجنب شراء التكنولوجيا الباذخة غير الضرورية لتشغيل قنواتها. لقد صرح لِذا نيويورك تايمز ذات مرة قائلًا: «إذا كان لديك اليوم كمبيوتر محمول من نوع ماكنتوش، فيمكن أن تُنفِّذ به تقريبًا كل ما ترغب فيه. ليس عليك سوى أن تُدخل مقطع الفيديو خاصتك إليه وتُدخل عليه ما ترغب من تعديلات ثم تعيد إخراجه على شريط فيديو أو على كمبيوتر خادم موصل بشبكة» (كارفاخال ٢٠٠٦).

غير أن المال لم يكن مشكلة بالنسبة إلى الحكومات التي رأت أن تمويل قناة تُبَث على مدار الساعة لا يختلف عن افتتاح سفارة أو مكتب تجاري. كما أن هذه الحكومات آثرت القنوات الناطقة باللغة الإنجليزية لتتمكن من التنافس في الساحة مع القنوات القائمة بالفعل أو على الأقل تقديم بديل لما كان في نظر الكثيرين صورة عن بلادهم منحازة لوجهة النظر الأمريكية أو البريطانية. أسست روسيا ابتداءً من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٦ قناة روسيا اليوم، وأطلقت فرنسا قناتها فرانس ٢٤، كما أسس الرئيس الفنزويلي هوجو شافيز قناة جديدة تُمثِّل دول أمريكا اللاتينية تحمِل اسم تيليسور، وذلك بالتعاون مع حكومات كلٍّ من أوروجواي وكوبا والأرجنتين. وقد صرح مديرها الجديد معلنًا: «من اليوم، سنبدأ نرى أنفسنا بعيوننا نحن» (أهارونيان ٢٠٠٥).

كانت أبرز الخطوات المتوقعة، وأعلاها طموحًا وتكلفة على الإطلاق (والتي تأجلت في الغالب بسبب المتطلبات المعقدة والمكلفة لإطلاقها بدقة عالية) هي قناة الجزيرة الدولية. لكن النجاح لم يُحالف شبكة الجزيرة في إيجاد موزع خدمة تليفزيون كابل في الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بالرغم من قوتها الصحفية ونجومها اللامعين الذين نجحت في استقطابهم من أهم الشبكات في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية (مثل ديفيد فروست، مقدم البرامج الحوارية الشهير في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، الذي صار له برنامجه الخاص على القناة).

قد تتدخل التكنولوجيا مجددًا لإنقاذ قنوات كالجزيرة من مواجهة مصير الاستبعاد من عالم القنوات التي تُبث عبر تليفزيون الكابل الذي يسيطر عليه بشدة الطابع السياسي. أصبحت قناة الجزيرة الدولية متاحة الآن على شبكة الإنترنت، مثلها في ذلك مثل كثير من القنوات الأخرى المستفيدة من الثورة التي أحدثتها خدمات النطاق العريض. وبمجرد أن ينجح إدماج هذه الخدمات في عاداتنا التليفزيونية ويسهل استخدامها من خلال التليفزيون وأجهزة الكمبيوتر على السواء، يُعتقَد أن قنوات كالجزيرة الدولية وفرانس ٢٤ وروسيا اليوم ستجد فئات جماهيرية جديدة أكثر انفتاحًا على العالم تتطلع إلى وجهات نظر بديلة عن الأحداث.

يركز الفصلان التاليان على تاريخ القنوات الإخبارية وطريقة عملها. في هذا الفصل، يُقدِّم الصحفي البريطاني نيك بولارد، الذي لعب دورًا فعالًا في تمكين سكاي نيوز من أن تصير مثالًا يحتذي به الكثيرون، شرحًا لتاريخ هذه القناة، ويتناول التحديات التي واجهت فكرة إذاعة الأخبار على مدار الساعة ولا تزال تواجهها.

في الفصل التالي، يعرض توني بورمان، الذي تنحَّى مؤخرًا عن منصبه بصفته رئيس تحرير بشبكة سي بي سي، الرؤى العالمية تجاه الأخبار الدولية. تولَّى برومان قيادة القسم الإخباري بشبكة سي بي سي من عام ٢٠٠٠ حتى ٢٠٠٧، وتقلد جميع المناصب الرفيعة في خدمة البث العام الكندية على مدار ٣٥ عامًا.

حين سألتُ تيموثي جارتون آش عما إذا كان المواطنون في عالم القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة يشاهدون واقعًا أقرب إلى الحقيقة من أي وقت مضى، أجاب قائلًا: «لا شك أن مواطني العالم المتقدم اليوم على اطلاع بما يجري في بقية العالم أكثر من أي وقت مضى في التاريخ البشري. كما أنني أرى جيلًا كاملًا من المواطنين والمدونين والصحفيين والناشطين المنخرطين بشدة في الأحداث والمعتمدين على ذلك البث الاستثنائي للمعلومات.»

مراجع

Aharonian, A. (2005) Quoted in ‘A Latin Al-Jazeera?’ *Newsweek*, 4 July.

Carvajal, D. (2006) All-news channels abroad look to their future in English. New York Times nytimes.com, http://www.nytimes.com/2006/01/11/arts/television/11engl.html?_r=1&pagewanted=print&oref=slogin.

Garton Ash, T. (2005) Interviewed at the 2005 NewsXchange conference ‘24-Hour News: Rolling News and Big Events’. http://www.newsxchange.org/newsx2005/rolling_news_01_05.html.

Halberstam, D. (2002) *War in a Time of Peace: Bush, Clinton and the Generals*. Scribner.

Paxman, J (2007) MacTaggart Lecture. Telegraph.co.uk, http://www.telegraph.co.uk/news/main.jhtml?xml=/news/2007/08/25/npaxspeech125.xml&page=3.

Project for Excellence in Journalism (2005) *The State of the News Media: An Annual Report on American Journalism*. http://www.stateofthemedia.org/2005/narrative_cabletv_contentanalysis.asp?cat=2&media=5.

ربما يصعب الآن تصديق الحقيقة التالية: لقد مر علينا وقت لم تكن لدينا أخبار متواصلة على مدار الساعة. من العسير كذلك على بعض مَن عمل منا آنذاك أن يتخيل العمل الذي كنا ننجزه طوال اليوم!

لكنها حقيقة. كانت هناك بالفعل حقبة سبقت ظهور سي إن إن وسكاي نيوز ونيوز ٢٤ والجزيرة وفوكس نيوز وسبقت بفترة طويلة، بالطبع، تلك الموجة العارمة التي نشهدها حاليًّا من الأخبار المتاحة على الإنترنت، ومقاطع الفيديو التي تُقدَّم حسب الطلب، وعناوين الأخبار التي يتلقاها هاتفك المحمول، والقنوات الإضافية المتدفقة إلى جهاز الاستقبال خاصتك، وانتهاءً بالأخبار التي تلاحقك على الشاشات داخل محطات القطارات وخلف مقاعد سيارات الأجرة.

لو عدنا بذاكرتنا إلى تلك الأيام الخوالي، حين كانت التغطية الإخبارية تخطو خطواتها الأولى، فسنجد أن كلًّا من شبكات البث والمشاهدين كانوا يعرفون أدوارهم جيدًا. كان الأمر بسيطًا؛ كان المشاهدون ينتظرون أن تجمع لهم شبكات البث الأخبار وتكون مستعدة لعرضها ثم يجتمعون حينها لمشاهدتها بأعداد كبيرة. كان للأخبار مواعيد محددة، وكان المشاهدون (الذين لم نكن نعتبرهم حينها «مستهلكين») يعرفون بالضبط متى يفتحون التليفزيون: حوالي نصف ساعة في وقت الغداء، ثم ١٥ أو ٢٠ دقيقة عند تناول الشاي بعد العصر، ثم نصف ساعة كاملة من الأخبار في المساء. ولو جدَّ جديد بين المواعيد السابقة، فليس أمامك سوى أن تنتظر حتى يحين موعد النشرة التالية لتعرف الأخبار.

آه، يا لها من أيام! كان عصرًا ذهبيًّا كانت الجماهير فيه غفيرة، والتغطية الإخبارية كان لها بريقها الدائم، أما الميزانيات، فلم تكن تثير قلقك سوى مرة واحدة في العام.

أجل، كانت الأمور تبدو كذلك إلى حد ما. فحين انتقلت من بي بي سي إلى الشبكة التجارية آي تي إن عام ١٩٨٠، كانت نسب المشاهدة لأهم برامجها الإخبارية، «أخبار العاشرة»، هائلة بمعاييرنا المعاصرة. فعندما كان يُذاع برنامجنا عقب أحد البرامج الناجحة، كنا «نرث» ما يزيد عن ١٥ مليون مشاهد، وننجح في استبقاء نسبة كبيرة منهم أمام برنامجنا بفضل التقارير الإخبارية الخفيفة التي كنا نعرضها في نهاية البرنامج والتي اشتُهرنا بها.

كنا نحب بطبيعة الحال أن نستفيد من الموقف أقصى استفادة: عندما كانت نسب مشاهدة برنامجنا ترتفع، كنا نتبادل التهاني ونستأثر بالفضل لأنفسنا، لكن متى انخفضت، كنا نكيل اللوم للبرنامج المذاع قبلنا ونعزو إليه نسب المشاهدة المنخفضة التي خلفها لنا.

كان هناك قدر من العمل الصحفي الرائع أيضًا. أذكر أن غرفة الأخبار داخل بي بي سي كانت مكانًا أهدأ من آي تي إن أغلب عقد الثمانينيات، وذلك رغم ما كانت تضمه

من بعض الكوادر الممتازة. لقد هيمن برنامج «أخبار العاشرة» على الساحة وعُدَّ أفضل البرامج الإخبارية على مستوى المملكة المتحدة.

ولم تعدم هذه الفترة أيضًا المراسلين البارزين، في شبكتَي آي تي إن وبي بي سي على السواء.

بدا أن لدى الجانبين أموالًا طائلة، ولم يكن أحدهما يتوانى عن تغطية أبرز الأخبار حينها: حصار السفارة الإيرانية، حرب جزر الفوكلاند، تفجير لوكيربي، كارثة زيبروجه، حادث منصة إنتاج النفط بايبر ألفا، الحرب في لبنان، تفجير فندق برايتون، إضراب عمال المناجم لمدة عام كامل اعتراضًا على إغلاق المناجم. كنا ننفق بقدر ما يحتاج إليه العمل وتتولَّى الشبكة في نهاية العام جبر أي عجز (لم نكن ننظر إلى القائمين على الشبكة باعتبارهم مديرين) دون تبرُّم يُذكَر.

ثم إن لنمط الحياة دورًا أيضًا؛ فكما قد يتعذر على صحفي شاب اليوم أن يستوعب العالم دون أخبار متلاحقة، يبدو بعيدًا عن التصديق ما كانت عليه طبيعة الأمور آنذاك من أن العمل، بالنسبة إلى أغلبنا، لم يكن سوى شيء يقع بين تناول الغداء واحتساء المشروبات.

إن مجرد فكرة أن الغداء قد لا يعدو أن يكون شطيرةً تؤكل على المكتب لئلَّا يتعطل سير العمل المزدحم بالمهام كانت ستُعتبر أمرًا شاذًّا غير مفهوم؛ فقد كان الغداء وجبة متكاملة من ثلاثة أطباق نتناولها في مطعم فاخر.

كانت الكلمات الختامية لنشرة أخبار السادسة إلا الربع مساءً (وهي استعراض خاطف لأحداث اليوم لا يزيد عن ١٢ دقيقة ونصف الدقيقة، بمعدل دقيقة وربع لكل خبر على الأكثر) دائمًا ما تضيع وسط ضوضاء الكراسي المتصادمة ووقع الأقدام المغادرة لغرفة الأخبار متجهةً إلى الفندق المحلي.

وكان من «العادات والممارسات» المتعارف عليها في القناة أن نعود قبل عشرين ثانية على الأقل من موعد الاجتماع التحضيري الأخير لبرنامج «أخبار العاشرة» الذي ينعقد في السابعة مساءً، حتى ساد اعتقاد بأن هذا الاجتماع لم يُستحدث إلا لإجبار الجميع على العودة من الفندق.

والآن سأصرح لكم بالأمر الغريب. لم يحدث قَطُّ أن قصَّر أحدنا عن العمل بجد وفاعلية شديدين، وذلك لسببين: أحدهما أن الثقافة ذاتها بالضبط، بدرجة أو بأخرى، كانت متبَعة في كل غرف الأخبار في المملكة المتحدة تقريبًا، سواءٌ أكانت في مجال الأخبار

المسموعة أم المقروءة أم المرئية. أما السبب الثاني فهو أن برامجنا كانت بالفعل جيدة للغاية ويُنظر إليها على ذلك النحو.

من الأسباب التي تفسر الجودة العالية التي بدا عليها برنامج «أخبار العاشرة» أنه كان لدينا متسع من الوقت للتحضير له؛ فقد كرَّسنا بحقٍّ جهدًا بالغًا للتوصل إلى الأسلوب الصحيح في تناول الأخبار، وكنا نمعن التفكير في الموضوعات والنصوص (رغم أننا لم نصل قَطُّ إلى درجة اتباع الممارسة الأمريكية المعروفة باسم «اعتماد النصوص»، والتي كانت تُوجب على كل مراسل أن يُسلِّم نص كلماته، حتى لو كانت تلك التي يخاطب فيها الكاميرا متحدثًا للجمهور، إلى محرر البرنامج ليُخضعها للتدقيق).

كما أن «البث الحي» كان أمرًا نادرًا. ولم تكن قد أطلَّت برأسها بعدُ تلك العادة الحديثة بإتباع كل خبر تقريبًا ببث حي لمستجدَّاته يُقدمه مراسل من موقع الحدث. كان هناك على الأقل سببان وجيهان يَحُولان دون إمكانية اتباع هذه العادة، حتى لو كانت طُرِحت حينها؛ أولًا: لم يكن لدينا القدر اللازم من المعدَّات، وثانيًا: بالنظر إلى مدة عرض البرنامج التي كانت تبلغ، بعد طرح الاستراحة الإعلانية وعناوين الأخبار وغيرها، حوالي ٢٥ دقيقة، سنجد أنه كان علينا تقديم الكثير من الأخبار بحيث لا يوجد وقت لعرض مثل هذه التقارير الحية.

يجدر بنا تذكُّر القليل من الأمور الأخرى التي كانت تختلف اختلافًا ملحوظًا عما هي عليه الآن. كان الاستمتاع ببعض الوقت من بث الأقمار الصناعية، على سبيل المثال، أمرًا عزيز المنال، فقد كان محدودًا وباهظ التكلفة. لم تكن الوصلات الصاعدة للأقمار الصناعية متاحة حقًّا في الغالب إلا من المدن الغربية الكبيرة وقليل من عواصم العالم الكبرى. كان عليك أن تحجز حصة زمنها ١٥ دقيقة (أو ١٠ إذا استطعت أن تفوز بها) لبث أخبارك. وإن فاتتك الفترة المخصصة لك، فلن تحصل على فترة أخرى في الغالب، ولن يستطيع جهاز البث خاصتك المتقن الصنع، الذي بات عديم الجدوى الآن، القيام بعمله.

كان لا يزال يجري «شحن» الكثير من المواد الإخبارية أو نقلها يدويًّا من خارج البلاد إلى مقر الشبكات. وهذا يدل أيضًا على مدى تغيُّر الأوضاع بين الماضي والحاضر لدرجة أنه كان بإمكانك الذهاب إلى أيِّ مطار في العالم تقريبًا وإيجاد راكب لطيف أو أحد أفراد طاقم الطائرة لتطلب منه تسليم صندوقٍ يحوي شرائط فيديو أو أفلامًا لشخص آخر غريب تمامًا عنه ينتظر في جهة وصول الرحلة. (تخيَّل أنك تحاول تنفيذ ذلك حاليًّا: «لا تفتح تلك العلبة المعدنية وتنظر داخلها مَهما حدث. كل ما عليك هو أن تحملها معك على متن الطائرة وكل شيء سيكون على ما يرام!»)

نتيجة لهذا الأسلوب البسيط، غالبًا ما كانت الأخبار، أو الجانب المصور منها على الأقل، تستغرق وقتًا أطول بكثير مما تستغرقه الآن للوصول إلى المشاهد. ولا شك أن هناك من سيرى أن ذلك لم يكن أمرًا سلبيًّا؛ إذ يمنح الصحفيين مزيدًا من الوقت للنظر في كلماتهم وصورهم وتأثير كليهما على المُشاهد. كما قد يقال إن الأخبار المثيرة حقًّا، عند إذاعتها، كانت تخلِّف أثرًا أكبر بكثير نظرًا لغياب ذلك «الطوفان» الثري والعميق من المعلومات الذي يغشانا الآن.

كان هناك اختلاف آخر كبير أيضًا. كانت الأخبار التليفزيونية تخضع بشدة لقواعد النقابات العمالية في كلٍّ من آي تي إن وبي بي سي. وكانت الممارسات التقييدية شائعة. وعادةً ما كان يجري تنسيق أنماط المناوبات، لا سيما بالنسبة إلى طواقم التصوير، بما يلائم ظروفهم، لا حسبما تمليه متطلبات البرامج، بل إنه كان من الممارسات المعتادة لدى أعضاء تلك الطواقم الأقل حماسًا أن يطالبوا باستراحة لتناول الطعام في نفس اللحظة التي تزداد الأخبار فيها إثارةً.

كان وقت الشبكة شيئًا عزيزًا بالطبع وكان مراقبو شبكة آي تي في يمانعون بشدة في منح الأخبار وقتًا أكثر مما هو محدد في جدول البث؛ فعلى سبيل المثال، عندما اقتحمت قوات الخدمات الجوية الخاصة مقر السفارة الإيرانية في لندن لتحرير الرهائن يوم الخامس من مايو عام ١٩٨٠ (وهو عطلة رسمية في المملكة المتحدة)، أصرَّ مراقب شبكة آي تي في على عرض الدقائق القليلة الأخيرة من المسلسل الدرامي الطويل «شارع كورونيشن» قبل الانتقال إلى التغطية المباشرة المهمة.

رغم كل ما سبق، أصبحت التغطية الإخبارية أكثر إبداعًا وجرأةً مع انقضاء حقبة الثمانينيات؛ فقد اتسعت الآفاق التكنولوجية وشهدنا بروز العناصر والمقومات التي أسهمت في رسم ملامح الأخبار التليفزيونية كما نراها الآن.

كان الإقدام هو كلمة السر. رغم أن الوصلات الصاعدة للأقمار الصناعية ظلت كبيرة الحجم إلى حد مذهل — وذات تكلفة شحن عالية — فقد تزايد استخدامها في المجال: في نورماندي في عام ١٩٨٤ حيث الاحتفال بالذكرى الأربعين لعملية الإنزال التي قام بها الحلفاء والتي مهدت الطريق لانتصارهم في الحرب العالمية الثانية؛ في الصين بعدها بعامين لالتقاط الصور التاريخية للملكة وهي تسير فوق سور الصين العظيم؛ وزيبروجه لمتابعة آثار غرق عبَّارة عام ١٩٨٧ (مع بث صور مدهشة على الهواء من قارب تجديف يُقِلُّ مذيعًا إلى جانب العبَّارة الغارقة)؛ وأفغانستان عام ١٩٨٩ لنرى المجاهدين وهم

يحتفلون بالرحيل المثير للقوات السوفيتية؛ وأخيرًا ألمانيا أواخر العام نفسه لنقل سقوط جدار برلين.

طوال ذلك الوقت، كان هناك، عبر المحيط الأطلنطي في مدينة أتلانتا، من يغرس بذور ثورة من نوع مختلف بعيدًا عن المملكة المتحدة. أما من غرس تلك البذور فكان تيد تيرنر، رائد الأعمال الذي يملك مئات الملايين، والذي قاد ذات مرة اليخت الفائز في كأس أمريكا للملاحة وكوَّن ثروته من العمل في مجال الإعلانات الإذاعية واللافتات الدعائية. اشترى تيرنر بداية الستينيات من القرن الماضي سلسلة من المحطات التليفزيونية المحلية الخاسرة، واستطاع أن يحوِّل خسائرها إلى أرباح ثم استخدم أمواله لإطلاق قناة سي إن إن في يونيو عام ١٩٨٠ لتُصبح أول قناة تليفزيونية متخصصة في بث الأخبار على مدار الساعة.

كحال أغلب المشروعات ذات الطابع الابتكاري الحقيقي، لاقت سي إن إن سخرية واسعة ممن لديهم أسبابهم الوجيهة للشعور بالخطر. لقد وصفها أحد خصومها على نحو شهير بأنها «شبكة نودلز الدجاج»، جزئيًّا بسبب استعانة تيرنر بموظفين شباب ليسوا أعضاءً في نقابات لشغل أغلب المناصب الفنية. ورغم أن ثقة تيرنر بنفسه كانت مضرب الأمثال، لم يكن هو ولا المسئولون التنفيذيون في قناته واثقين تمامًا من مدى قدرة قناتهم الناشئة على الصمود، لا سيما وهي تواجه منافسة خدمة إخبارية على مدار الساعة ما لبثت إيه بي سي وَوستنجهاوس أن أطلقتاها بعد انطلاق سي إن إن مباشرةً. لكن تيرنر نجح عام ١٩٨٣ في الاستحواذ على خصمه الذي كان يُعاني من عدة مشكلات، ثم شرع تيرنر في الانطلاق إلى الأمام. وبحلول عام ١٩٨٥، صارت سي إن إن موجودة في منازل ٣٠ مليون أمريكي وبدأت تجني أرباحها الأولى. وبلغت القناة أوج نضجها ومجدها الباهر خلال حرب الخليج الأولى (١٩٩٠-١٩٩١) بتغطيتها المباشرة والمتواصلة للهجمات الجوية الغربية على بغداد ليلًا.

تجدر الإشارة إلى أنه كان يستحيل تدشين مثل تلك القنوات في المملكة المتحدة في منتصف عقد الثمانينيات لعدم وجود القدرات اللازمة للبث بكل بساطة. غير أن هذا الوضع تغيَّر تغيرًا هائلًا بحلول أواخر الثمانينيات بفضل إطلاق خدمتين فضائيتين متنافستين: بي إس بي المدعومة حكوميًّا وتليفزيون سكاي الذي أسسه روبرت مردوخ والذي أطلق قناته سكاي نيوز التي تعد القناة الإخبارية الثانية عالميًّا والأولى أوروبيًّا التي تذيع الأخبار على مدار الساعة.

تبع إنشاء الخدمتين الحديثتين منافسة طاحنة بينهما، مع تصاعد الخسائر الجسيمة لكلا الجانبين. انتهت هذه المنافسة أخيرًا باندماجهما معًا — وإن كانت سكاي قد استولت في حقيقة الأمر على بي إس بي التي كانت على شفا الانهيار — وولدت مجموعة بي سكاي بي.



شكل ٧-١: مقر الأخبار العالمية، سكاي نيوز، عام ٢٠٠٧ (نُشرت الصورة بإذن من سكاي نيوز).

استطاعت سكاي، خلال سنواتها الأولى التي زامنت بداية التسعينيات، أن تُهيمن على مجال الأخبار المذاعة على مدار الساعة في المملكة المتحدة وبدأت تترك بصمتها الصحفية، رغم أن نسب المشاهدة كانت منخفضة إلى حد ما نظرًا لقلة الاشتراكات. واجهت سكاي نيوز في البداية، كما كان الحال مع سي إن إن، ازدراءً من منافسَيها الكبيرَين، بي بي سي وآي تي إن، لكنها أحرزت بعض النجاحات البارزة بتغطيتها الخاصة لحرب الخليج ونجاحها الباهر الذي حققته الصور الحية التي بثتها للحكم المثير الصادر في محاكمة أوه جيه سيمبسون؛ إذ كانت القناة الوحيدة في المملكة المتحدة التي عرضت المحاكمة،

الأمر الذي جلب إليها مكسبًا مذهلًا تَمَثَّل في مليون مشاهدة إضافية، ولا تزال هذه، حتى تاريخ كتابة هذا المقال، ثالث أكبر مُشاهدة في تاريخ سكاي نيوز.

مع هيمنة الخدمة التليفزيونية متعددة القنوات في المملكة المتحدة، اعتمادًا على التكنولوجيا التناظرية في البداية ثم التكنولوجيا الرقمية، صار من الجلي أن البث المتواصل للأخبار على مدار الساعة لم يكن أمرًا واقعًا وباقيًا فحسب، بل إنه سيلعب أيضًا دورًا رئيسيًّا في مستقبل الصحافة المرئية والمسموعة.

خاضت بي بي سي عام ١٩٩٧ غمار المنافسة بإطلاق قناتها الإخبارية الخاصة على مدار الساعة والتي أطلقت عليها اسم نيوز ٢٤. غير أن بدايتها لم تكن موفقة؛ فرغم ما تتمتع به من موارد صحفية لا نظير لها، فقد بدا أنها كانت تفتقر إلى سرعة التغطية ومراعاة احتياجات المشاهد، وهما الأمران اللذان أجادتهما سكاي نيوز. كان عرضها الأول نموذجًا فريدًا لزوايا التصوير غير الملائمة وانعدام التناسق بين المواد الإخبارية. ووجد المشاهدون أنفسهم مشتتي الانتباه برؤية الموظفين في غرفة الأخبار وهم يلتهمون غداءهم أو يرتدون معاطفهم بتثاقل استعدادًا للرحيل. إلا أن أكثر ما أضر بالقناة هو ما أبداه بعض الشخصيات الرفيعة داخل القناة من استخفاف بها، على الشاشات أو خلف الكواليس، واصفين إياها «بصحافة غير لائقة». في ظل تلك الأوضاع، كان من الحتمي أن تبدو سكاي نيوز أكثر احترافية وحداثة بالمقارنة مع القناة الناشئة.

لكن قناة بي بي سي الجديدة وجَّهت إلى سكاي نيوز ضربة قوية عاجلة ممتدة المفعول: فقد قوضت الأساس التجاري لسكاي نيوز تقويضًا كاملًا. كانت سكاي نيوز، حتى إطلاق قناة نيوز ٢٤، تُحصِّل من مشغلي خدمات تليفزيون الكابل في المملكة المتحدة ٦ جنيهات إسترلينية سنويًّا مقابل بث القناة إلى كلٍّ من عملائهم البالغ عددهم آنذاك ثلاثة ملايين. لكن مع تقديم بي بي سي خدماتها الإخبارية مجانًا، اتضح أن هذه الرسوم ينبغي أن تتضاءل، وهو ما كان. أدت تلك الضربة إلى تلاشي إيرادات سكاي نيوز من الاشتراكات تمامًا خلال أسابيع وانتقال القناة من الربح إلى الخسارة.

ورغم ذلك، واصلت سكاي نيوز مسيرتها كمثال يُحتذى به في العمل الصحفي ونسب المشاهدة. إن محاكمة جليسة الأطفال البريطانية لويز وودورد عام ١٩٩٧ بتهمة قتل طفل في رعايتها في ولاية بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية أثبتت أنها قضية رأي عام في المجتمع البريطاني وكشفت أن المشاهدين سيمكثون شاخصين أمام شاشات التليفزيون لساعات لو كانت القضية مثيرة للاهتمام بالقدر الكافي. وعندما توفيت ديانا، أميرة ويلز،

عام ١٩٩٧ حظي المشاهدون بأسبوع كامل من التغطية الإخبارية لهذا الحدث، وهي التغطية التي جلبت لسكاي نيوز جائزة جمعية التليفزيون الملكي المرموقة للتغطية الإخبارية.

على نحو متزايد، أصبحت التكنولوجيا والإقدام هما مجالَي التنافس الأساسيَّين في المجال الإخباري. لقد صارت المعدَّات المستعملة في جمع الأخبار، خلال عقد الثمانينيات، أصغر حجمًا وأخف وزنًا وأسهل نقلًا، وقد تزامن ذلك مع ثورة تكنولوجية أطلق عنانها التحول من استخدام الأفلام إلى استخدام شرائط الفيديو. وأضحى التحرير الميداني للمحتوى الإخباري، بدلًا من شحن مقاطع الفيديو الأصلية إلى المقر الرئيسي للشبكات الإخبارية، هو العرف السائد. ومن التطورات التي لا تقل أهمية عن كل ما سبق أن الوصلات الصاعدة للأقمار الصناعية أصبحت أقل تكلفةً وأسهل حملًا، إما بتثبيتها في ظهر شاحنات صغيرة ونقلها برًّا أو بوضعها في بضع حقائب للسفر لتنقلها الطواقم الصحفية معها جوًّا إلى بلدان بعيدة.

كشفت حرب الخليج الأولى بعضًا من إمكانيات الوصلات الصاعدة النقالة؛ إذ تسابقت الطواقم الأمريكية والبريطانية لتكون أول من يُدشن وصلاتهم في الكويت المحرَّرة حديثًا بعد هزيمة القوات العراقية.

لكن الصراع الذي شهدته كوسوفو هو الذي ارتقى بتلك الميزة التي وفرتها تلك الوصلات، والحرية الصحفية التي نشأت عنها، إلى مستويات جديدة. كما أثبت ذلك الصراع مدى الصعوبة التي ستواجهها السلطات العسكرية في المستقبل لفرض سيطرتها ورقابتها المادية على شبكات البث من خلال تقييد وصولها إلى الموارد أثناء وجودها في ميادين القتال.

مع استعداد قوات حلف الناتو لدخول كوسوفو من مقدونيا في يونيو عام ١٩٩٩، اعتقد «المشرفون» الإعلاميون التابعون لوزارة الدفاع البريطانية أنهم نجحوا في تقييد قدرة شبكات البث على التغطية الإخبارية بالسماح لشاحنة واحدة مزودة بخدمة الاتصال بالأقمار الصناعية بمرافقة القوات، بل والحرص على إبقائها في مؤخرة الجيش.

غير أن سكاي نيوز، في الأسابيع السابقة لذلك الإجراء، وجهت أربع شاحنات من نفس النوع عبر أوروبا إلى جنوب إيطاليا ثم شُحِنت على متن عبَّارة إلى اليونان ومنها إلى شمال مقدونيا حيث كانت على أهبة الاستعداد لمرافقة قوات حلف الناتو أثناء عبورها الحدود إلى داخل كوسوفو. كانت النتيجة بثًّا يوميًّا مشهودًا للأحداث، تتوقف خلاله شاحنتان من الشاحنات الأربع لبث التغطية الحية بينما تتقدم الشاحنتان الباقيتان

لتغطية المزيد من المناطق. ثم كانت تتقدم الشاحنتان الأُوليان بمحاذاة رتل القوات لمزيد من التغطية وهكذا، بما يكفل قدرة سكاي نيوز على تقديم التغطية المتواصلة ومواكبة تقدُّم القوات في الوقت نفسه.

دفعت مثل هذه التطورات التكنولوجية إلى زيادة الطلب على «البث الحي»، الذي صار واحدًا من سمات الوسط الإعلامي الغالبة وإحدى القضايا التي أثارت نقاشات حامية داخل صناعة الأخبار التليفزيونية. إن السؤال ببساطة الذي يطرح نفسه في هذا الشأن هو: إذا استطعنا أن نرسل «بثًّا حيًّا» من موقع الخبر، فهل سيضيف ذلك كثيرًا، أو بالأحرى سيضيف أي شيء، إلى جودة التغطية؟

لا شك أن الكثير يعتمد على الخبر نفسه. لا أظن أن هناك من سيزعم أنه لا توجد قيمة حقيقية في رؤية حدث وهو يجري بالفعل أمام الكاميرات، سواءٌ أكان ذا أهمية تاريخية كهجمات الحادي عشر من سبتمبر، أو وصول القوات الأمريكية إلى بغداد، أو تقلُّد رئيس وزراء جديد لمهام منصبه في المملكة المتحدة، أم كان حتى أقل أهمية.

لكن من المؤكد أن هناك مجالًا للجدل بشأن ما يجري الآن بصورة روتينية من تغطية حية من موقع جميع الأخبار تقريبًا، خاصة حين لا تتضمن تلك الأخبار الكثير من المستجدات. من الحجج القوية المعارضة لهذا الاعتماد على «البث الحي» أنه يمنع المراسلين من أداء عمل صحفي حقيقي. فالشكوى (التي يطلقها كثير من المراسلين) هي أن هناك خطرًا حقيقيًّا بأن ينتهي بهم الأمر إلى أن يكونوا «متسابقين في سباق الأقمار الفضائية»، بحيث يكونون مرهونين بمواقع العرض الحي وعاجزين عن الانطلاق لجمع وقائع جديدة.

إن تفجير السيارة المفخخة الذي وقع بمدينة أوماه في أيرلندا الشمالية عام ١٩٩٨، والذي خلَّف ٢٩ قتيلًا دفعنا في سكاي نيوز إلى معالجة تلك الإشكالية ونجحنا في التوصل إلى قاعدة عامة تساعدنا في تحديد عدد العاملين الواجب إرسالهم لتغطية مثل هذه الأحداث الكبرى بحق. شكَّلنا فريقًا مكونًا من صحفي ومنتِج وطاقم تصوير وطاقم دعم فني، ثم شكلنا ثلاث فِرَق أخرى تضم نفس التخصصات. كانت الفكرة التي اعتمد عليها هذا التشكيل هي أن الفريق الأول سيكون موكَّلًا بتقديم تغطية حية متواصلة بينما سينشغل أفراد الفريق الثاني خلف الكواليس بجمع المعلومات، ومقابلة شهود العيان، وإعداد تقارير بأحدث التطورات — وهي المهام التي لا يسع الفريق الأول تنفيذها.

أما السبب وراء تشكيل الفريقين الثالث والرابع، فكان بديهيًّا: فبعد ١٢ أو ١٥ ساعة، لا شك أن أول فريقين سينتابهما من الإجهاد ما يعوقهما عن مواصلة العمل؛ لذلك

إن أردت تغطية حقيقية للأخبار على مدار الساعة، فعليك أن تستبدل بهما فريقين آخرين في أوج نشاطهما. حقَّق هذا النهج نتائج جيدة في تغطية حادث أوماه وغيره من نقاط الأخبار الكبرى مثل تسونامي الذي وقع في آسيا عام ٢٠٠٤، رغم أنه بالطبع يُكلِّف الكثير من الموارد البشرية والمادية، لا سيما لو احتجت إلى نقل العشرات من العاملين وأطنان من المعدَّات عبر مختلف أنحاء العالم. لكن الأهم هو أن هذا الأسلوب يمكِّن شبكات الأخبار التليفزيونية بالفعل من أداء عمل صحفي حقيقي بدلًا من مجرد التعقيب على الأحداث الجارية.

إن التغطية المتواصلة للأخبار على مدار الساعة مجال يشهد منافسة شرسة تدفع أهم القنوات إلى البحث دائمًا عن أساليب تكنولوجية حديثة تمنحهم ميزة جوهرية على منافسيها، خاصة عند تغطية الحروب وغيرها من الأخبار المهمة.

بعد كوسوفو، وقع صراع آخر بارز في أفغانستان، لكنه تطلَّب نهجًا مختلفًا. لم يكن بالإمكان نقل الشاحنات المزودة بخدمة الاتصال بالأقمار الصناعية برًّا؛ لذلك نُقِلَت الوصلات الصاعدة النقالة جوًّا ثم حُمِلَت فوق سيارات نقل مستأجرة، وقد أخذت تتهادى فوق الطرق المغبرة حتى وصلت إلى موقع الحدث. استطاعت بي بي سي أن تفُوق الجميع حيلةً ودهاءً بأن نجحت في تفكيك وصلة صاعدة ووضع أجزائها في بضعةٍ وعشرين صندوقًا صغيرًا، حُمِل كلٌّ منها على ظهر حمار، ثم مضت القافلة كلها عبر الجبال حتى وصلت إلى مشارف مدينة كابول لنقل تغطية حية لاستيلاء التحالف الشمالي وحلفائه الغربيين على المدينة.

كما شهد الصراع الأفغاني أول استخدام ابتكاري واسع النطاق حقًّا لوصلات «هواتف الفيديو» الحديثة، والتي تستخدم تكنولوجيا الهواتف المحمولة لإرسال صور حية مضغوطة (لكنها مشوشة بعض الشيء لا محالة) دون الحاجة إلى استعمال وصلات صاعدة للأقمار الصناعية؛ ومِن ثَمَّ أصبح بإمكان المشاهدين في بريطانيا رؤية بعض الأحداث الهامة وقت وقوعها في مناطق لم يكن بالإمكان الوصول إليها باستعمال وصلات الأقمار الصناعية التقليدية.

أضحت حرب العراق التي اندلعت عام ٢٠٠٣ واحدة من أكبر العمليات الصحفية والفنية واللوجستية في تاريخ البث الإخباري؛ فالجماهير المتابعة لقنوات الأخبار المتواصلة على مدار الساعة قفزت أعدادها حول العالم واتسعت حدود التطورات التكنولوجية أكثر فأكثر. وأذهلت شبكة البث الأمريكية إن بي سي منافسيها بإزاحة النقاب عن مركبة رائعة

لإصلاح الدبابات جرى تعديلها لتحمل وصلة صاعدة مثبَّتة للأقمار الصناعية؛ مما سمح لمراسلي القناة بالبث الحي عن قرب بينما تطوي المركبة العملاقة الصحراء العراقية طيًّا برفقة الجيش الأمريكي.

لقد أثارت التغطية التليفزيونية للحرب العراقية جدلًا شديدًا داخل صناعة الأخبار وفي العالم أجمع. على وجه الخصوص، أثارت «مرافقة» المراسلين للقوات العسكرية تساؤلًا عما إذا كان بإمكانهم حقًّا التزام الحيادية بينما يعتمدون في ضمان سلامتهم وتنقلاتهم وطعامهم وإيوائهم على تلك القوات. عبَّر النقاد كذلك عن تشكُّكهم في قيمة مثل هذه التغطية لعدم تمتع المراسلين وأطقم التصوير بحُرية التنقل خارج نطاق المحيط الملاصق للوحدة المخصصة لهم.

لكن أغلب شبكات البث الغربية تقبلت الفكرة بدعوى أن إرسال أكثر من عشرين مراسلًا بصحبة القوات البريطانية، الذين يحشدون جميعهم تغطياتهم الإخبارية، وعشرات المراسلين الآخرين برفقة القوات الأمريكية، من شأنه أن ينتج الكثير من المواد الإخبارية القيِّمة — والمعتمدة على الجانب المرئي اعتمادًا كبيرًا — وهو ما حدث بالفعل. كما أشارت شبكات البث إلى أن جميع المؤسسات الإخبارية الكبرى لم تعتمد على المراسلين المرافقين للقوات العسكرية فقط، بل أرسلت آخرين مراسلين «منفردين» (أو «متمردين» كما كان العسكريون يفضلون أن يصفوهم)، وقد استطاعوا، بصعوبة ومخاطرة كبيرة، أن يؤدوا قدرًا معينًا من العمل الصحفي المستقل ميدانيًّا. كانت هناك أيضًا مستويات أخرى من التغطية، متمثلة في المراسلين الذين نقلوا الأحداث نقلًا حيًّا — بشجاعة فائقة — من بغداد وغيرها من بؤر الصراع الرئيسية: الكويت والبحرين والدوحة والمناطق الكردية داخل العراق.

شهدت حربَا أفغانستان والعراق ارتفاعًا كبيرًا في عدد الصحفيين الذين فقدوا حياتهم في ميدان القتال؛ إذ وقع بعضهم ضحايا لتبادل إطلاق النار، والبعض الآخر نتيجة «النيران الصديقة»، والبعض الثالث نتيجة حوادث. لقد تبيَّن أيضًا أن الصحفيين لم يعودوا يحظون بـ «الحصانة» التي سبق أن تمتعوا بها في حروب وحقب أخرى؛ إذ يمكن أن يتعرضوا في كثير من بؤر الصراع للهجوم أو الاختطاف أو القتل، مثلهم مثل الجنود تمامًا.

وفي سوق الأخبار المتواصلة على مدار الساعة بالمملكة المتحدة، كانت الأمور تشهد تغيرًا؛ فقد أطلقت شبكة آي تي إن في عام ٢٠٠٠ قناتها الخاصة المذاعة على مدار الساعة،

مدفوعة بنية واضحة لإزاحة سكاي نيوز عن صدارة المجال لتحل محلها. لكنها عانت من مشكلات منذ البداية؛ إذ أبقتها نسب المشاهدة المنخفضة في المرتبة الثالثة ولم تتجاوزها رغم ما قدمته من بعض البرامج القوية. الأخطر من ذلك أن اقتصاديات الصناعة، لا سيما مع استمرار بث قناة بي بي سي مجانًا، قضت عمليًّا وإلى الأبد على فرص قيام أي مؤسسة أخرى تسعى لجني الأرباح من مجال بث الأخبار على مدار الساعة. نتيجة لتلك الظروف، قررت شبكة آي تي في، المالك الرئيسي لآي تي إن، أن تكتفي بهذا القدر وأغلقت القناة في أواخر عام ٢٠٠٥.

بعد بضع سنوات عجاف في مستهل مسيرتها، بدأت قناة نيوز ٢٤ التابعة لبي بي سي تقوى مكانتها، من حيث الجوانب التحريرية ونسب المشاهدة على السواء. لقد أقرت قيادة الشبكة أخيرًا بضرورة أداء القناة دورًا محوريًّا في القسم الإخباري. وتلقت دفعة حقيقية بعد نجاح فريفيو، وهي خدمة متعددة القنوات تقدِّم مجانًا إلى الأسر التي لا ترغب في اقتناء طبق هوائي أو وصلة تليفزيون كابل. وبالرغم من أن مشاهدي القنوات الفضائية لم يتوقفوا عن متابعة الأخبار المتواصلة على شاشة سكاي نيوز، فإن المنازل المشتركة في خدمة فريفيو آثرت بقوة قناة نيوز ٢٤. بالإضافة إلى ما سبق، أقبل المشاهدون على الاشتراك في خدمة فريفيو على نحو يفوق بكثير إقبالهم على شراء الأطباق الهوائية؛ مما مكَّن نيوز ٢٤ من اللحاق بسكاي نيوز وتخطيها بتؤدة من حيث نسب المشاهدة. ومع ذلك ظلت المنافسة الصحفية بين المؤسستين على أشدها.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فإن معركة مختلفة تمامًا كانت تدور رحاها بين قناة سي إن إن، التي كانت تحظى بتقدير بالغ، وخصمها الشرس والطموح، فوكس نيوز، وهي القناة المملوكة لمؤسسة روبرت مردوخ، نيوز كوربوريشن، مع وجود قناة ثالثة تُدعى إم إس إن بي سي، تكافح بجسارة بمحاولة اللحاق بالمنافسَين الكبيرين.

أطلق مردوخ قناته فوكس نيوز عام ١٩٩٦ لمجابهة ما اعتبره انحيازًا ليبراليًّا في وسائل الإعلام الإخبارية الأمريكية، بما فيها سي إن إن، وقد تبنَّت هذه القناة أجندة محافظة ذات طابعٍ قومي قوي، وذلك رغم تأكيدها بأن تغطياتها، بوجه عام، «منصفة ومتزنة» كما ينص شعارها. سددت نيوز كوربوريشن، وقت إطلاقها لفوكس نيوز، ضربة محكمة لمنافسيها بتقديمها لمشغلي خدمات تليفزيون الكابل ١٠ دولارات مقدمًا مقابل كل مشترك وذلك لتشجيعهم على بث القناة، وهو الإجراء الذي قوضت به المؤسسة ببراعة جميع جهود تايم وورنر (المؤسسة المالكة لسي إن إن) لكبح مسيرة القناة. ودخلت

فوكس نيوز، بحلول عام ٢٠٠٧، أكثر من ٩٠ مليون بيت أمريكي، متمكنةً من الوصول إلى الأغلبية العظمى من الشعب الأمريكي، ومحتلةً المرتبة الأولى بين القنوات الإخبارية من حيث نسب المشاهدة على مستوى الولايات المتحدة الأمريكية.

إذًا، كيف يبدو المستقبل بالنسبة إلى إذاعة الأخبار على مدار الساعة؟ تكثر التوقعات، لكن حتى الذين يديرون دفة كبريات المؤسسات الإخبارية يُقرُّون بأنه ليس ثمَّة مسار واحد واضح المعالم. ورغم ذلك، يمكننا أن نرسم الخطوط العريضة لبضعة اتجاهات رئيسية.

من المرجح أن الاندثار الوشيك لجميع وسائل الإعلام التقليدية، والذي دأب كبار المتخصصين في دراسة مستقبل العالم الإلكتروني على التنبؤ به لعدة سنوات حتى الآن، سيجري على نحو أكثر تدرجًا مما يخشاه البعض ومما يرجوه آخرون. فمثلما لم يقضِ الراديو على الصحف ولم يُلغِ التليفزيون وجود الراديو، فإنه لم يَحِن بعدُ الوقت الذي يُبطِل فيه المحتوى الإلكتروني التليفزيون. ورغم ذلك، فمن الجلي أنه يستحيل لنا أن نتخيل انقلابًا عكسيًّا في مستويات الانخفاض المطردة في أعداد المتابعين لنشرات الأخبار التي تبثها الشبكات المحلية وتُشاهَد في نفس الوقت في كلٍّ من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا. كما يبدو من الواضح أن مبيعات الصحف ستواصل انخفاضها ما دام قُرَّاؤها يجدون بدائل إلكترونية في مكان آخر.

لكن القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة لن تقدِّم وحدها بديلًا متكاملًا أو ما شابه. بل إن هناك بالفعل من يزعم أن القنوات الرئيسية منها في طريقها إلى الزوال مع انصراف المشاهدين عن الخدمات الإعلامية الأحادية — أي التي تتضمن مشاهدة سلبية بلا تفاعل من جانب المتلقي — إلى الخدمات الإعلامية التي تكفل قدرًا أكبر من التفاعل بين المتلقي والمصدر. إن أكبر مثالب القنوات الإخبارية الدائمة البث، في المملكة المتحدة على الأقل، هو اعتمادها على الأخبار العاجلة البارزة — التي يستحيل التخطيط لها مسبقًا بحكم طبيعتها — من أجل مضاعفة أعداد المشاهدين أو الوصول إلى نسب مشاهدة قياسية، ولم تفلح جهودها في اجتذاب المشاهدين إلى برامج «محددة المواعيد»، تقوم على أشخاص أو موضوعات معينة.

أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فالحال ليس كذلك؛ فمقدمو البرامج المرموقون، من أمثال لاري كينج في سي إن إن وبيل أورايلي في فوكس نيوز، هم نجوم تجذب الجماهير، وما ساعد على ذلك في حالة شبكة فوكس هو الموقف الرقابي تجاه الآراء المؤثرة الذي يتسم في الولايات المتحدة الأمريكية بمزيد من التحرر مقارنةً بالمملكة المتحدة.

من الواضح أنه سيتوجب على جميع المؤسسات الراغبة في احتلال مكانة محورية في عالم الأخبار أن تعرِض منتجاتها من خلال طائفة متكاملة من المنافذ — وهو ما يقوم به بالفعل أكثرها. وهذا يعني، في الوقت الحالي، تقديم برامج تليفزيونية وخدمات إخبارية على مدار الساعة، وتحقيق وجود قوي على شبكة الإنترنت (أي موقع إلكتروني إخباري)، بالإضافة إلى توفير مجموعة من القنوات والمواد الإخبارية ذات البث التدفقي عبر أجهزة الاستقبال، وإرسال عناوين الأخبار ومقاطع الفيديو إلى الهواتف المحمولة، وربما إلى جانب خدمة إذاعية أيضًا.

قد يبدو ما سبق مجموعة مربكة من المتطلبات، لكن الواقع أن الأمر يسير نسبيًّا بالنسبة إلى شبكات البث في ظل الكيفية التي تُنسَّق بها غرف الأخبار الحديثة؛ فالمحتوى الإخباري كله يُحفَظ حاليًّا على خوادم فيديو حاسوبية ذات قدرات عالية — لا على شرائط فيديو كما كان الحال منذ خمس سنوات — ومِن ثَمَّ يسهل على الطواقم أو الأفراد القائمين على إعداد الخدمات الإخبارية لجميع هذه المنافذ المختلفة الحصول عليه واستخدامه («إعادة تكييفه» هو المصطلح المستخدم في المجال). بناءً على ذلك، تكمن التكلفة على نحو متزايد في عملية إنتاج المادة الإخبارية ابتداءً، لا عملية تقسيمها بطرق مختلفة وإرسالها إلى المتلقي.

إن أصحاب الصحف عازمون على ألا يتخلَّفوا عن الركب. إنهم يدركون أنه لم يعد بإمكانهم كسب رضاء عملائهم بمجرد بعض الكلمات والصور الفوتوغرافية المؤثرة (والتي لا تُعرَض بالتأكيد مرة واحدة في اليوم). فعليهم أيضًا أن يستحدثوا خدمات إخبارية أكثر تكاملًا تضم، في أفضل الأحوال، مقاطع فيديو إخبارية وأخبارًا يجري تحديثها بانتظام. أما الصحف الأبعد نظرًا، فتعمد بالفعل الآن إلى إعادة تصميم غرف الأخبار خاصتها بحيث يوجد قسم الطباعة التقليدي جنبًا إلى جنب مع فريق إدارة المحتوى الإلكتروني، مع إمكانية تقاسم جميع المواد الإخبارية فيما بينهما. وليس من الصعب الآن تخيُّل جريدة المستقبل غير البعيد: فهي ستكون صحيفة إلكترونية مرنة (تخيلها على هيئة شاشة كمبيوتر محمول، رقيقة جدًّا قابلة للطي، حجمها نصف حجم الجرائد الصغيرة أو أقل)، يمكن أن تُنزَّل عليها الأخبار المقروءة والصور الثابتة ومقاطع الفيديو والخرائط الحية، إلخ. ربما تقرأ تلك الجريدة وأنت في طريقك إلى العمل على متن قطار، وتتركها في حقيبة مستنداتك طوال اليوم ثم تخرجها وأنت في طريق عودتك لتقرأ نسخة محدَّثة تمامًا تضم محتوًى إخباريًّا جديدًا جرى تنزيله قبل أن تستقل قطار العودة بخمس دقائق فقط.

لكن كيفية سداد تكاليف توفير كل هذه الخدمات الإلكترونية مسألة عويصة، وهي أصعب، من أوجه كثيرة، من مسائل التكنولوجيا والمحتوى. لا تُعَد هذه المسألة مشكلة كبيرة بالنسبة إلى تلك المؤسسات التي توفر القسط الأكبر من إيراداتها من الاشتراكات، مثل سكاي، أو من رسوم الترخيص، كما هو الحال بالنسبة إلى بي بي سي، ذلك لأن مثل هذه الخدمات المقدمة عبر الإنترنت يمكن استخدامها لمنح المشتركين «قيمة مضافة» وربما لتبرير الزيادات في الرسوم.

لكن بالنسبة إلى مؤسسات أخرى، كالصحف، التي تستمد أغلب إيراداتها من المبيعات الفردية، فإن مثل هذه الخدمات تُمثِّل عبئًا حقيقيًّا. إن الإنترنت يضم حشدًا هائلًا من الأخبار والمعلومات المجانية التي يتشبث المستخدمون بفكرة عدم دفع مقابل لها. كما توجد «خدمات تجميع» ضخمة للمحتوى الإلكتروني مثل خدمة أخبار جوجل التي تزعم عرضها لأفضل محتوًى إخباري تقدمه أكثر من ٤ آلاف خدمة إخبارية حول العالم، مع التحديث المنتظم لهذا المحتوى وإتاحته مجانًا. لا تُنتج خدمة جوجل أي خبر بنفسها ولا تلتقط صورة فوتوغرافية واحدة أو تسجل مقطع فيديو واحدًا، لكنها تعمل كمركز عملاق لتبادل الأخبار يتعامل مع كل المنافذ الإخبارية في العالم تقريبًا؛ لذلك ما لم تكن عملياتك الإخبارية شديدة التخصص أو عالية القيمة، كأجزاء من ذا نيويورك تايمز أو فايننشال تايمز على سبيل المثال، فإن محاولة تحصيل رسوم من العملاء مقابل استخدامهم لموقعك الإلكتروني هي فكرة محكوم عليها بالفشل في ظل وجود عدد كبير من البدائل المتاحة مجانًا.

مِن ثَمَّ تبدو الدعاية الإلكترونية المصدر الوحيد المعتبر للدخل والذي تتنافس عليه جميع المنافذ الإخبارية بشراسة (إلا أنه مع استحواذ جوجل على نسبة كبيرة منه، فمن الواضح أنه لن يبقى ما يكفي الآخرين).

إذًا كيف يؤثِّر ذلك على مجال الأخبار المذاعة على مدار الساعة؟ حسنًا، من الواضح أن هذا المجال، بنحو أو بآخر، أمر واقع وباقٍ. إن الشيء الوحيد الذي لن يتضاءل هو تعطُّش الجماهير لمعرفة ما يجري في عالمهم، وتلقِّي الآراء والتفسيرات المطلعة حول الأحداث، وتكوين آرائهم الخاصة بشأنها أيضًا، وهو ما صار أسهل من أي وقت مضى، لكن حسب رؤيتي الخاصة للمستقبل (التي لعلها يكون مصطبغة بما أتمناه بقدر ما هي استشراف حقيقي للمستقبل)، فإني أعتقد أن الصحافة الحقيقية لن تقل أهمية في المستقبل عن أهميتها في وقتنا الحالي، بل ربما حتى ستزداد أهمية؛ فمع كل التطورات التكنولوجية

التي أحرزناها، وكل وسائل التوزيع التي تشهد تحسنًا مطردًا، تظل أفضل أداة يُستعان بها ميدانيًّا هي صحفيٌّ متفانٍ يتمتع بالخبرة وقدرٍ صحيٍّ من التشكك، حاصل على كل ما يحتاج إليه من المساندة والدعم، بحيث يكون مستعدًّا لنقل كل ما رآه بعينيه أو علمه من المصادر التي يعرفها ويثق بها. لو كنت تبحث عن أفضل أداة صحفية، فإن هذا هو كل ما تحتاج إليه في الحقيقة.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) صار بالإمكان، بفضل التكنولوجيا الحديثة، «البث الحي» للأخبار التليفزيونية المذاعة على مدار الساعة من أي مكان وفي أي وقت تقريبًا. لكن كما أشار نيك بولارد، هناك جدل كبير حول ما إذا كانت القدرة على «البث الحي» من موقع الخبر ستضيف الكثير، أو بالأحرى ستضيف أي شيء، إلى جودة التغطية. ما رأيك في هذا؟

(٢) كيف يمكن للقنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة أن تجتذب المشاهدين والمُعلِنين في حال لم تكن هناك أخبار عاجلة مهمة تنقلها؟

(٣) ما المخاطر التي تتعرض لها قنوات الأخبار التليفزيونية العاملة على مدار الساعة وما الميزات التي تمتلكها؟

الفصل الثامن

الرؤى العالمية للأخبار الدولية: تجاهُل العالم يكلفنا الكثير

توني بورمان

لماذا صرنا نهتم ببقية العالم أكثر من ذي قبل؟ لماذا نحتاج إلى نقل ثقافات الآخرين ووجهات نظرهم المختلفة عنا من أجل فهم ثقافاتنا ووجهات نظرنا على نحو أفضل؟ وكيف يمكننا، على أشد المستويات عمليةً، أن نجعل الأخبار «الدولية» تبدو «محلية»؟

بالنسبة إلى كثير منا، شكلت أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتبعاتها، حتى الآن، العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. لكن ذلك لم يكن المتوقَّع لهذه المرحلة من التاريخ.

بعد أن نجا العالم من حربين عالميتَين وكثير من الحروب الأصغر، ومن ويلات الفاشية والشيوعية، ومن كارثة نووية محتملة خلال الحرب الباردة، أقبل معظم العالم على القرن الجديد المثير آملين أن تتسم بدايته بالسلام والاستقرار النسبيين. بل اعتقد الكثيرون أن هذا القرن سيكون فرصة للتعامل أخيرًا مع العديد من القضايا المُلحة التي تخص العلاقة بين الشمال والجنوب والتي تَجنَّب العالم مواجهتها طوال عقود من التوترات بين الشرق والغرب.

بدت الأوضاع سانحة؛ فبعد أن أنهكت العالم الصراعات التي شهدها خلال أغلب القرن العشرين، بدا أشد ترابطًا من أيِّ وقت مضى، وفي نفس الوقت في غاية الضعف والصغر. وشهد أغلب أجزائه انطلاق الثورة المعلوماتية والتكنولوجية التي بشَّرت بالوصول غير المسبوق إلى أماكن وأفكار كانت حتى ذلك الحين غير مطروقة. ويقع في قلب ذلك كله — أو هكذا تطلَّع كثير من الصحفيين على الأقل — انتشار لإعلام إخباري عالمي يبث أفكارًا نبيلة، وربما كذلك قدرًا من معاني الديمقراطية إلى جميع أرجاء كوكبنا.

على سبيل المثال، رغم أنه لم يكن في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي سوى ثلاث شبكات تليفزيونية كبرى متخصصة في الأخبار — سي إن إن الأمريكية، وسكاي البريطانية، وسي بي سي نيوز وورلد الكندية — فقد وُجِد ما يُقارب المائة من تلك القنوات حول العالم بعد عقد من الزمان.[١] لقد رفع ذلك سقف التوقعات. إن الصحافة، كما كتب الصحفي الأمريكي المعروف والتر ليبمان عام ١٩٢٢، يجب أن تكون «كمشاعل النور التي تتنقل بلا هوادة هنا وهناك لتخرج حدثًا تلو الآخر من الخفاء إلى العلن» (١٩٢٢: ٢٢٩). أحيت الثورة المعلوماتية العالمية آمالنا، ونحن نخطو أولى خطواتنا إلى القرن الحادي والعشرين، في أن أنبل غايات الصحافة قابلة للتحقيق على أرض الواقع.

لكننا تعجَّلنا في توقعاتنا. إن الاضطرابات التي شهدها هذا العقد، لا السكينة والهدوء، هي التي شكلت ملامح هذه الفترة. لقد اتخذ الإعلام الإخباري، في كثير من الحالات، موقفًا سلبيًّا، على أفضل تقدير، أو حتى متواطئًا، وهو يرى الأحداث العالمية تتصاعد خارجة عن السيطرة: تنامي الصراع في الشرق الأوسط، وانتشار التطرف الديني والسياسي، وتزايُد القلق بشأن تغيُّر المناخ، والمخاوف بشأن الهجرة وتلاشي الحدود، وشبح صراع نووي محتمل مجددًا، وبالطبع تفاقُم حدة الفقر واليأس في كثير من الدول النامية … والقائمة تطول.

نتيجة لتلك الاضطرابات، اتجه الكثيرون في الدول الصناعية — لا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية وأجزاء من أوروبا — إلى الانطواء على الذات؛ فبدلًا من الترحيب بالقرن الجديد بقلوب متفتحة ونفوس متطلعة، صاروا أكثر تحفظًا بشأن ما يملكون وأشد خوفًا من فقدانه خلال هذا المستقبل المجهول.

أما ردود فعل وسائل الإعلام الإخبارية حول العالم حيال هذه الأحداث، فكانت مختلطة، بل ومتناقضة.

- بُذِلت جهود دءوبة في العالم النامي لتوسيع نطاق التغطية الإخبارية للعالم وتقديم أصوات بديلة للاحتكار الأنجلو-أمريكي (ممثلًا في سي إن إن، وبي بي سي، إلخ) الذي طالما هيمن على مجال الصحافة الدولية. ظهر أبرز هذه النماذج في الشرق الأوسط بتدشين شبكة الجزيرة ومنافسيها الأحدث عهدًا، وهو ما شكل تطورًا ملهمًا لمبادرات مشابهة في أفريقيا وآسيا.
- على النقيض، أقدَمَ كثير من كبريات المؤسسات الإخبارية التجارية في العالم — شبكات البث الأمريكية الكبرى على وجه الخصوص — على اتخاذ إجراءات عكست إحساسها بما اعتُبِر مزاجًا عامًّا، وذلك بتقليص تغطيتها الدولية للأخبار. ورغم أن تلك المؤسسات لا تزال ثرية بأغلب المقاييس،[٢] فقد تجاوبت مع ما مارسه مساهموها من ضغوط وما أبداه المشاهدون من لا مبالاة، وذلك بتخفيض عدد مكاتبها الدولية على نحوٍ كبيرٍ وتقليص المقدار القليل نسبيًّا من المساحة والوقت الذي تخصصه لعرض «الأخبار الأجنبية».

بإلقاء نظرة شاملة على التاريخ، يمكن القول بأنه في هذا الوقت بالتحديد يُعَد استيعاب ثقافات الآخرين شرطًا ضروريًّا لتفهم ثقافتك الخاصة فهمًا حقيقيًّا. وإذا كانت المعرفة قوة، فالجهل قد يكون خطيرًا. أُجري في يونيو ٢٠٠٧ — وهو تاريخ ليس عنا ببعيد — استطلاع قومي للرأي العام في الولايات المتحدة كشف عن أن أربعة من بين كل عشرة مواطنين أمريكيين (٤١ بالمائة) لا يزالون يعتقدون أن نظام صدام حسين كان ضالعًا بنحو مباشر في تمويل هجمات القاعدة في الحادي عشر من سبتمبر أو التخطيط لها أو تنفيذها، وذلك رغم عدم تقديم أي أدلة تدعم مثل هذه الصلة (نيوزويك ٢٠٠٧).

في معرض تبرير بعض المؤسسات الإعلامية لتقليص التغطية المكلفة للأخبار الدولية، لم تجد بُدًّا من أن تلوم الضحية — وهي الجمهور في هذه الحالة — كما في قول بعضها «إن الناس لا يبالون حقًّا بالأخبار الأجنبية.» لكن هذا زعمٌ مدفوع برغبة هذه المؤسسات في خدمة مصالحها الخاصة؛ فرغم أنه يبرئ ساحة الصحفيين والقائمين على البرامج من مسئولية التسبب في إثارة ملل جماهيرهم أو إرباكهم، فإن الكثير من الجهود البحثية في أمريكا الشمالية تشير إلى أن التغطية السطحية للأخبار العالمية هي أهم مسببات عدم الاكتراث السائد لدى الجماهير تجاهها.



شكل ٨-١: مصور شبكة سي بي سي سات ناندلال في أثناء مهمة صحفية في أفغانستان عام ٢٠٠٢ (نُشرت الصورة بإذن من القسم الإخباري بشبكة سي بي سي).

كما أن هناك تجاهلًا لدور آخر حيوي منوط بالمؤسسات الإخبارية، وهو: تقديم الأخبار التي تؤمن بأن الجماهير «تحتاجها» ليصبحوا مواطنين أفضل اطلاعًا وإلمامًا بما يجري حولهم. إن مثل هذا الدور قائم على افتراض أن الصحفيين، في نهاية المطاف، يجب أن يتجاوز دورهم تقديم ما يطلبه الجمهور. لقد مضت فترة في الإعلام الأمريكي رأت خلالها المؤسسات الإعلامية الأمريكية الكبرى أنه من واجباتها العامة أن تحافظ على قوة وحداتها الإخبارية وأن تزودها بجميع الموارد اللازمة، وذلك كشكل من أشكال «رد الجميل»، وعرفانًا بوصولها إلى موجات البث العام وما تجنيه من أرباح طائلة من وراء ذلك. ربما كان أفضل تلخيص لهذه الفكرة ما عبَّر عنه بيل بيلي، مؤسس سي بي إس، في خمسينيات القرن الماضي في الولايات المتحدة الأمريكية حين قال ما مفاده: «إنني أجني الأرباح من برنامج جاك بيني الكوميدي لأتمكن من تقديم «أفضل» الأخبار.»

إذًا ما هي «أفضل» الأخبار؟ ما هي الأخبار التي «يحتاج» الجمهور إلى معرفتها؟ حسنًا، دعنا نُعرِّف هذه الأخبار تعريفًا سلبيًّا. إن أفضل الأخبار ليست تلك التي تتبنى الدعاية الصاخبة ولا تنفك تصنف العالم إلى «أخيار، وأشرار، هؤلاء الذين معنا، وهؤلاء

الذين ضدنا». لقد أشار الكثيرون في دراسات استطلاعية إلى مثل هذه الأبواق الدعائية باعتبارها إحدى أكبر مثالب التغطية الإخبارية للشئون الدولية.

يحتاج الجمهور — وربما «يريد» — أن يعرف ما هو أبعد من التصنيفات والسباب؛ أن يعرف مَن هؤلاء الزعماء وكيف وصلوا إلى السلطة. وماذا يسعنا أن نتعلم من هذا؟ لمَ أعرض الإيرانيون عن زعمائهم التقليديين وصوَّتوا لصالح محمود أحمدي نجاد ليكون رئيسًا لهم؟ أيراه الإيرانيون موفيًا بوعوده أم منشغلًا أكثر من اللازم بالولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل؟ يحتاج الجمهور إلى تغطية متعمقة ومتجردة تكشف عن شخصيته والاتجاه الذي يمثله. ولمَ أزاحت حماس، في فلسطين، حركة فتح عن السلطة بعد وفاة عرفات؟ ولماذا اندهش كثيرون من فوز حماس في الانتخابات؟ ولو تجاوزنا تصنيفها كحركة «إرهابية»، فما هي دلالة شعبيتها؟ وما الذي يُفسِّر التأييد الذي يلقاه حزب الله في لبنان؟ أو الأهمية التي يتمتع بها شافيز في فنزويلا؟

أسئلة كثيرة تطرح نفسها.

ربما تبدو إدارة ظهورنا للعالم علاجًا ناجعًا بالنسبة إلى البعض، لكنه علاج قصير المدى، ومسيرة التاريخ الطويلة تُثبت لنا ذلك. إن إيلاء مزيد من الاهتمام إلى دراسة كلا الاتجاهين المختلفين للإعلام من شأنه أن يفيدنا في الوصول لاستراتيجية تفيد العالم.

(١) دروس مستفادة من خارج الحدود

تُعتبر قناة الجزيرة، التي تُبَث من دولة قطر المتناهية الصغر والواقعة في الخليج الفارسي، أكبر قناة إخبارية عربية وأشدها إثارة للجدل في الشرق الأوسط. وهي واحدة من القنوات الإخبارية الأعلى مشاهدةً على مستوى العالم؛ إذ يُقدَّر عدد مشاهديها بين ٣٠ و٥٠ مليون مشاهد (لينتش ٢٠٠٦؛ مايلز ٢٠٠٦؛ زياني وصحراوي ٢٠٠٧).

علاوة على ما أحدثته تلك القناة من جدل في واشنطن منذ بروز أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فهي تلقى متابعة حثيثة في جميع أنحاء العالم النامي — خاصة أفريقيا — باعتبارها نموذجًا يمكن الاحتذاء به عند إنشاء قنوات إخبارية دولية جديدة.

أُسِّست قناة الجزيرة عام ١٩٩٦ على يد أمير قطر لتكون قناة فضائية تعكس صورة تقدمية لدولته الصغيرة وتُقدِّم منظورًا مختلفًا عن القضايا العالمية. ومنذ ذلك الحين، أحدثت الجزيرة وغيرها من القنوات الفضائية الجديدة المنافِسة في الشرق الأوسط

تحولات في وجه السياسة العربية. واستطاعت الجزيرة، بفضل تحطيمها لقبضة الدول على المعلومات وتشجيع النقاش المفتوح بين طائفة من الآراء، أن تتحول من شبكة بث إقليمية لا يعرفها سوى القليلين إلى مؤسسة دولية متعددة القنوات، واللغات، والخدمات.

أطلقت الجزيرة في ديسمبر ٢٠٠٦ قناة إخبارية منفصلة ناطقة باللغة الإنجليزية (www.english.aljazeera.net)، لكن من المفارقات المثيرة للسخرية أن هذه الخدمة متاحة على نطاق واسع في أغلب أنحاء العالم ما عدا الولايات المتحدة الأمريكية وكندا؛ إذ لا تُبَث شبكة الجزيرة باللغة الإنجليزية على أي نظام من أنظمة الأقمار الصناعية الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية رغم العدد الكبير من القنوات التي تتيحها والذي يُقدر بالمئات.

يُعزى ذلك جزئيًّا إلى سمعة خدمة الجزيرة العربية المثيرة للجدل، ولكن يرجع ذلك أيضًا إلى الهيمنة الكاسحة التي تحظى بها القنوات التجارية غير الإخبارية — كقنوات القمار والجنس — على نظام الأقمار الصناعية الأمريكي. والدليل على ذلك أن أيًّا من القنوات الإخبارية الدولية الناطقة بالإنجليزية التي أُطلِقت في ٢٠٠٦ (الجزيرة الإنجليزية، وبي بي سي وورلد نيوز، وفرانس ٢٤، وهي قناة فرنسية جديدة) لم تستطع اقتحام سوق الأقمار الصناعية الأمريكية.

تتميز الجزيرة بشبكتيها العربية والإنجليزية، بفضل صحفييها المنتشرين في جميع أنحاء العالم والذين يزيد عددهم عن ٥٠٠، بتغطياتها الموسَّعة للعالم النامي، بما في ذلك أجزاء من أمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا، وهي القارات التي نادرًا ما تجد لها مساحة في القنوات الإخبارية البريطانية والأمريكية. وفي ظل عالم مَعني بالعلاقة بين الشمال والجنوب، تبذل هاتان الشبكتان جهدًا مقصودًا لعرض وجهة نظر «الجنوب» حيال أهم الأخبار، ليست فقط التي تخص القضايا الإقليمية بل وأيضًا القضايا ذات النطاق الدولي. وهذا لا يعني أنها تنجح دائمًا في إنجاز هذا الهدف، لكنها كثيرًا ما تنجح.

من أبرز ما تُعرَف به شبكة الجزيرة العربية تلك النقاشات الساخنة التي تُذاع في برامجها الحوارية، والتي تقدِّم طيفًا من الآراء التي لم يُسمح قَطُّ بالجهر بها في العالم العربي. كان شعار الجزيرة الأصلي هو «الرأي ... والرأي الآخر»، أما قناتها الناطقة بالإنجليزية، فترفع شعار «نصوغ أجندة الأخبار».

يرى المدير العام للجزيرة، وضاح خنفر، أنه ليس هناك ما يدعو إلى العجب فيما أثارته الشبكة من جدل داخل العالم العربي وخارجه؛ إذ كان ذلك مقصدها منذ البداية:

> منذ بداياتها الأولى، وجدت الجزيرة نفسها في مواجهة ثنائيات متناقضة تناقضًا حادًّا: الرسمي مقابل غير الرسمي، المركز مقابل الأطراف، الرئيسي مقابل الهامشي. كان من الضروري بالنسبة إلى الجزيرة أن تتحسس طريقها عبر هذا الواقع لتصل إلى أصحاب السلطة وأولئك البعيدين عنها. كيف يسعنا استخدام الكاميرا لتسليط الضوء على جميع ما أبقته السلطة رهن الخفاء؟ … في حين كان المُشاهِد يُعتبر في نظر الإعلام العربي الرسمي مجرد متلقٍّ للدعاية السياسية الرسمية، اختارت الجزيرة منذ البداية أن تكون «منبر مَن لا منبر له»، كابحةً تلك النزعة المتأصلة لدى السلطة للتحكم في الإعلام والهيمنة عليه. (خنفر ٢٠٠٦: ١١)

أثار نجاح الجزيرة كشبكة بثٍّ دهشة أغلب مراقبي الصناعة؛ فإلى جانب ما أوجدته من فرصة جوهرية للحوار الديمقراطي في العالم العربي — وهو ما أثنت عليه الحكومة الأمريكية خلال السنوات الأولى لظهور الشبكة — فقد قدَّمت دروسًا وعبرًا لشبكات البث العاملة في مناطق أخرى من العالم النامي. فلم يَعُد من المفترض أن نجاح الشبكات الإعلامية مرهون بتقربها إلى السلطة؛ إذ إن شعبية الجزيرة لدى الكثيرين نابعة إلى حد كبير، في الواقع، من ابتعادها المقصود عن مراكز السلطة الراسخة.

نشر فيليب فيسك دي جوفيا، مدير مركز السياسة الخارجية في لندن، أحد أهم المراكز البحثية في أوروبا، ورقة بحثية عام ٢٠٠٥ تحمِل عنوان «قناة جزيرة أفريقية؟ وسائل الإعلام والنهضة الأفريقية». حث دي جوفيا، في هذه الورقة، كلًّا من الحكومة البريطانية وأعضاء الاتحادين الأفريقي والأوروبي على إيجاد طرق لخلق شبكة بث مستقلة موجَّهة إلى الدول الأفريقية، وربط ذلك بتجربة شبكة الجزيرة:

> ثمة دروس يمكن استقاؤها من تجربة قناة الجزيرة الفضائية العربية المتخصصة في الأخبار التليفزيونية. ورغم أن هذه المحطة لم تبدأ بثها إلا في عام ١٩٩٦، فإنها أحدثت تأثيرًا حقيقيًّا بالفعل على عدة أصعدة، منها على سبيل المثال الارتقاء بالشفافية والمساءلة على امتداد منطقة الشرق الأوسط؛ مما

> اضطر الإعلام الرسمي للدول، الذي كان يميل في السابق إلى «الأخبار الرسمية» غير الناقدة، إلى تحسين تغطيته الإخبارية. ومن المرجح فيما يبدو أن إنشاء شبكة بث أفريقية سيكون له نتائج مشابهة … سيكون من الأسهل الحد من الفرص المتاحة أمام الإعلام الفئوي المتحزب للتحريض على العنف، كما كان الحال في رواندا عام ١٩٩٤ مثلًا. إن تدشين منبر إعلامي بديل عن شبكات البث الغربية القائمة يعرض على نحو أفضل صورة أفريقيا أمام نفسها سوف يعزز من ثقة القارة بذاتها. (فيسك دي جوفيا ٢٠٠٥: ١٥)

شهد عام ٢٠٠٦ إعلان أحد اتحادات الشركات الأفريقية، تحت قيادة سليم أمين رئيس مؤسسة محمد أمين،[٣] عن خطط لتدشين قناة إيه ٢٤، لتكون قناة إخبارية على مدار الساعة من أفريقيا وإليها. السيد أمين هو ابن المصور والصحفي الشهير محمد أمين الذي كان أول من صوَّر المجاعة الإثيوبية عام ١٩٨٤ وتُوفِّي في حادث تحطُّم طائرة قبالة جزر القمر عام ١٩٩٦. شبَّه سليم أمين القناة الجديدة، بتركيزها المزمع على التغطية الإقليمية، بقناة تيليسور الإخبارية الجديدة التي أُنشئت في فنزويلا وتستهدف مشاهدي أمريكا اللاتينية، وشبكة الجزيرة العربية:

> سوف تعرِض إيه ٢٤ للأفارقة حقيقة عالمهم، وذلك برسم صورة لأفريقيا الحقيقية، تلك القارة التي تحمِل على أرضها الخير والشر، النزاهة والفساد، الانتعاش الاقتصادي والفقر، رواد الأعمال الطموحين إلى جانب أولئك الذي لا يزالون معتمدين على المعونات الأجنبية. إن القناة الجديدة سوف تُسهم في تسليح الأفارقة بالمعرفة لمساعدتهم في اختيار قياداتهم السياسية والاجتماعية، وتحديد الأوجه الجديرة بأن يستثمروا فيها أموالهم التي جنوها بعرق جبينهم، ورسم خطة لكيفية المضي قدمًا والانطلاق في قارتهم … إن هذا، بالنسبة إليَّ، هو أعظم غاية اجتماعية يمكن أن يحققها الإعلام … إن المعرفة قوة، ولطالما افتقد الأفارقة هذه القوة. (أمين ٢٠٠٧)

يمكننا ملاحظة بعض الأوجه المشتركة بين هذه المشروعات المختلفة التي تتجاوز أهميتها حدودها الإقليمية. إنها تُصوِّر نفسها بوضوح كمبادرات تُلبِّي مصالح مشاهديها، لا مصالح المُعلِنين أو السياسيين. لا تكتفي هذه القنوات بالتعهد بتقديم تغطية إقليمية حقيقية تستمد جذورها بالفعل من الواقع الأفريقي، بل إنها تعلن أيضًا تعاطفها مع

المصالح الجماهيرية دون أيِّ خجل؛ فهي لا تزعم أنها القنوات الخاصة بالأغنياء وذوي النفوذ، بل تبذل، على النقيض تمامًا، جهدًا دءوبًا لاستيعاب مشاعر قلة الحيلة المنتشرة بين عامة الشعب والتعبير عنها. إنها تحاول، ببساطة، أن تستجيب للنهم الواضح والمتزايد لدى العامة لتلقِّي الأخبار والمعلومات التي تشكِّل عالمهم.

(٢) العالم خارج بؤرة الاهتمام

إلى جانب ما شهده القرن الحادي والعشرين من أحداث سياسية مثيرة، فهو يعد إيذانًا ببدء عصر إعلامي جديد. لقد شهدنا في السنوات القليلة الماضية عددًا ضخمًا من التغيرات التي طرأت على أسلوب «إنتاج» الأخبار و«تلقِّيها» يوازي ما شهدناه على مدار تاريخ البث بأكمله. إن المشهد يتغير من حولنا؛ فكما تتحول مجتمعاتنا تدريجيًّا إثر تزايد موجات الهجرة والتعددية الثقافية، يشهد عالمنا الإعلامي تحولات مماثلة.

يقوم هذا التحول على عدة عناصر أساسية، منها التنامي الهائل للإنترنت، وبروز القنوات الإخبارية التي تُبث عبر تليفزيون الكابل والتي تُذاع على مدار الساعة، والثورة الرقمية التي تُسهم في تمكين الجماهير وإتاحة المجال للتفاعل بأساليب تعيد تشكيل وجه الصحافة.

أيتبع ذلك إذًا تغيُّر فيما يبديه الجمهور من موقف متضارب حيال فهم العالم الأوسع نطاقًا من حدودهم الإقليمية؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل متباينة، وفقًا للمنطقة التي نقصدها. فهناك مؤشرات تدل على تزايد الإقبال على الأخبار الدولية في كلٍّ من العالم النامي وأوروبا وكندا، أما في الولايات المتحدة الأمريكية، فيبدو أن الإقبال لم يتزايد بعدُ، وهي مفارقة تدعو للسخرية في ظل النفوذ العالمي المُتشعب الذي تتمتع به تلك الدولة التي تُمثِّل آخر القوى العظمى المتبقية في العالم.

نشر مركز بيو لأبحاث الشعب والصحافة في أغسطس ٢٠٠٧ تحليلًا كاشفًا بعنوان «عقدان من التفضيلات الإخبارية للأمريكيين: تحليل لما يتابعه الأمريكيون من الأخبار، وما لا يتابعونه» والذي أجراه اختصاصي العلوم السياسية الأمريكي مايكل جيه روبنسون. شمل التحليل السنوات من ١٩٨٦ وحتى ٢٠٠٦ وتناول بالدراسة مؤشر بيو السنوي للاهتمام بالأخبار خلال العشرين عامًا السابقة.

كانت نتائج التحليل مثيرة للدهشة: فطوال العشرين عامًا الماضية، لم تتغير قَطُّ الاهتمامات الإخبارية للجمهور الأمريكي:

> رغم التغيرات الهائلة التي طرأت على حجم الإعلام الإخباري الأمريكي ونطاقه منذ ثمانينيات القرن الماضي، فإنه من المثير للاستغراب أن اهتمامات الجمهور الإخبارية وتفضيلاته لم تتغير. فلم تُلاحَظ تغيرات كبيرة في أيٍّ من المؤشرَين الرئيسيين اللذين يركز عليهما هذا التقرير، وهما مستوى الاهتمام العام بالأخبار وتفضيلات الجمهور لمختلف أنواع الأخبار. ومثل هذه الملاحظة تصدُق على نحوٍ خاصٍّ فيما يتعلق بالمؤشر الثاني؛ فالأمريكيون مستمرون في متابعة — أو تجاهل — الأنواع ذاتها من الأخبار على مدار عقدين ماضيين وحتى وقتنا الحالي ... تثير الأخبار الأجنبية — الأخبار الواردة من خارج الحدود والتي لا تمُتُّ إلى الولايات المتحدة الأمريكية بِصِلة — أدنى مستوًى من الاهتمام لدى الأمريكيين، ولم تبرح مكانها في ذيل المؤشر، أو بالقرب منه، على مدى ٢١ عامًا. (روبنسون ٢٠٠٧: ٢–٤)

ما ليس عاديًّا في هذه الدراسة هو قائمة الأخبار التي «تصدَّرت الصحف» ضمن هذه التصنيفات العامة. اتسمت هذه الفترة التي بدأت أواسط الثمانينيات وامتدت لعشرين عامًا بإثارتها الشديدة فيما يخص أهمية الأخبار التي برزت خلالها، والتي حمل كثير منها بصمات أمريكية لا يخطئها الرائي. ورغم كل ذلك، بدا الجمهور العريض في الولايات المتحدة الأمريكية غير مكترث بها:

> لا يحظى بانتباه الرأي العام سوى أبرز وأهم المستجدات لدى «الدول الأخرى». أما أغلب الأخبار الدولية الهامة غير ذات الصلة بالشأن الأمريكي، فتكاد تمر مرور الكرام. والأمثلة على ذلك كثيرة: لم يتابع عن كثب اعتقال رئيس تشيلي أوجستو بينوشيه وتسليمه (١٩٩٨) سوى ٣ بالمائة من الجمهور؛ انتخاب توني بلير (١٩٩٧) في بريطانيا العظمى، الذي أنهى ١٦ عامًا من سيطرة حزب المحافظين، لم يتابعه باهتمام سوى ٥ بالمائة من الجمهور الأمريكي؛ اتفاق السلام في أيرلندا الشمالية (١٩٩٨)، الذي أنهى عقودًا من الصراع، انتزع بصعوبة متابعة ٧ بالمائة من الجمهور؛ تابع ١٣ بالمائة فقط من الجمهور باهتمامٍ التصويت لصالح إنهاء أكثر من أربعة عقود من التمييز العنصري في

> جنوب أفريقيا (١٩٩٢)؛ عودة هونج كونج إلى حظيرة الصين (١٩٩٧) تابعها عن كثب ١٤ بالمائة؛ بل إن المفاوضات التي أدَّت مباشرةً إلى الوحدة بين شرق ألمانيا وغربها لم تلقَ متابعة مكثفة إلا من ٢١ بالمائة فقط من الرأي العام، وهو ما يقل بخمس نقاط عن المعدل المتوسط لجميع الأخبار. (روبنسون ٢٠٠٧: ٣١)

إذًا ما الذي يحدث؟ ما الذي يجعل واحدًا من أفضل شعوب العالم تعليمًا وتقدمًا — والذي يرتبط كثير من مصالحه بقوة بتلك القضايا الدولية الكبرى — يبدو بهذا القدر من اللامبالاة حيال الشئون الدولية؟ يمكن أن نجد الجواب الواضح في دراسة أخرى نشرها مركز بيو في يونيو ٢٠٠٢؛ أي بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر بعام واحد. ذهبت هذه الدراسة إلى أن من عليه تحمُّل وزر هذا الوضع هو وسائل الإعلام، لا جمهورها:

> تقدِّم الدراسة الاستطلاعية دلائل قوية على أن الاهتمام العام بالأخبار الدولية يثبطه إلى حدٍّ كبير افتقار الجماهير إلى المعلومات الأساسية المرتبطة بها. فبوجه عام، ذهب حوالي ثلثي مَن يعيرون اهتمامًا متوسطًا أو ضعيفًا بتلك الأخبار (٦٥ بالمائة) إلى أنهم أحيانًا ما يفقدون اهتمامهم بتلك الأخبار نتيجة لعدم إلمامهم بالمعلومات الأساسية الضرورية لمتابعة تطوراتها. كشف الاستطلاع عن أن نسبة أقل من المشاركين يَعْزون عدم اهتمامهم بالأخبار الدولية إلى تكرار عرض الأخبار الأجنبية، أو بُعدها، أو التغطية المفرطة للحروب والعنف. (مركز بيو لأبحاث الشعب والصحافة ٢٠٠٢: ٢)

أظهرت دراسة استطلاعية مشابهة أُجريت في كندا لصالح القسم الإخباري بهيئة البث الكندية (سي بي سي) عام ٢٠٠٣ نتائج مشابهة (سي بي سي ٢٠٠٣). أعرب أغلب من شملتهم الدراسة عن شعورهم بأن «الأخبار» في جميع وسائل الإعلام كثيرًا ما كانت مربكة وسطحية، وتتراوح بين كونها «مزعجة ونمطية للغاية» إلى كونها «غير قابلة للفهم» بالكلية.

تاريخيًّا، كثيرًا ما أحجم الأمريكيون، وحكوماتهم، في واقع الأمر عن الانخراط في شئون العالم الخارجي. إن «أمريكا»، بالنسبة إلى كثيرين، جزيرة قائمة بذاتها منعزلة عن غيرها، وهو ما لا يمثل مشكلة لهم؛ فعلى أيِّ حال، لا تتجاوز نسبة الأمريكيين الذين يمتلكون بالفعل جواز سفر ٢٠ بالمائة. غير أن الدراسة التي أجراها مركز بيو عام ٢٠٠٢

وغيرها من الدراسات التي تتناول هذه القضية تُشير إلى سببٍ نادرًا ما يُطرَح في غرف الأخبار حاليًّا؛ وهو أن الصحفيين ينبغي أن يتحملوا القسط الأكبر من اللوم؛ فمن خلال تهميش التغطية الدولية وتعزيز القوالب النمطية العامة — كل ذلك استنادًا إلى افتراض أن «الجمهور لا يبالي» — خلق الكثير من المؤسسات الإخبارية نبوءةً مسلَّمًا بتحقيقها تكفل ببساطةٍ استمرار الوضع على ما هو عليه؛ ولذلك لم تطرأ تغيرات على أنماط «التفضيلات» الإعلامية الأمريكية حتى بعد كارثة الحادي عشر من سبتمبر.

تناولت سوزان مولر الأستاذة بجامعة ميريلاند الاتجاهات التي نحاها الإعلام في تناوله للأخبار الدولية. ترى مولر أنه نظرًا لأن أغلب وسائل الإعلام تفترض أن الجمهور ليس مهتمًّا بالأخبار الدولية، «فإن ثمة حاجة ملموسة إلى المبالغة في الترويج للتغطية التي تستهدف الأحداث «الخارجية» أكثر من تلك التي تستهدف الأخبار المحلية» (مولر ١٩٩٩: ١). مولر تشغل منصب مدير المركز الدولي للإعلام والأجندة العامة بجامعة ميريلاند، وهي صاحبة عدة مؤلفات، منها «فتور التعاطف: كيف يروِّج الإعلام للأمراض، والمجاعات، والحروب، والموت؟» (١٩٩٩).

تقدِّم مولر، في ذلك الكتاب، نبذة عامة عن تصورها لـ «العادات الأربع لتغطية الأخبار الدولية» والتي تُسهم في تفسير المشكلة:

(١) تقديم تسلسل زمني نمطي للأحداث: «يحب الأمريكيون أن ينظروا إلى الأمور من حيث تصنيف الأشخاص إلى أخيار وأشرار» (١٩٩٩: ١).

(٢) استخدام اللغة على نحو مثير للمشاعر وقائم على التهويل: «يتطلب الأمر المزيد والمزيد من التغطية المثيرة لاستدرار نفس القدر من التعاطف الذي أثارته الكارثة الأخيرة» (١٩٩٩: ٣).

(٣) اللجوء إلى استعارات وصور مجازية معينة تَلْقَى صدًى لدى الأمريكيين: إن هذا «يمكن أن يُعتبر امتدادًا لتوجه الإعلام نحو الإثارة، لكنه قد يكون محاولة أيضًا لإحلال الأمور الكمية المعلومة محل المعاني المعقَّدة، وذلك من خلال استخدام تعبيرات مجازية مفعمة بالحياة» (١٩٩٩: ٤).

(٤) التأكيد على صلة الأخبار بالشأن الأمريكي: «لا تستطيع وسائل الإعلام (لا سيما التليفزيونية) أن تتحمل تكاليف تغطية جميع الكوارث التي تقع، وذلك في ظل الخفض العام للميزانيات الإخبارية. ومِن ثَمَّ تختار تغطياتها على أساس شوفيني ... فتُهمَّش أفريقيا، وأمريكيا الجنوبية، وأغلب آسيا في تلك المعادلة» (١٩٩٩: ٥).

وفقًا لمولر، فإن تلك «العادات» التي يتبعها كثير من المؤسسات الإخبارية هي التي تفضي إلى تسطيح تغطية الأحداث الدولية المعقَّدة والمشوقة في كثير من الأحيان.

(٣) إعادة العالم إلى بؤرة الاهتمام

ثمة نمط متكرر يظهر واضحًا للعيان كلما درسنا تناول الأخبار الدولية على يد الكثير من المؤسسات الإخبارية الأمريكية، خاصة الشبكات التليفزيونية الثلاث الكبرى في الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها الوسيلة الإعلامية الأكثر تأثيرًا.

التغطية باهظة التكلفة، ومِن ثَمَّ فهي محدودة.
ونظرًا لمحدوديتها، فإنها سطحية، ومربكة في كثير من الأحيان.
نتيجة لجميع ما سبق، يُعرِض الجمهور عن متابعتها.
ونظرًا لانصراف الجمهور، تشهد ميزانيات التغطية مزيدًا من الانخفاض.
ويستمر هذا النسق الحتمي دون انقطاع.

لكن ثمة منهجيات بديلة، ليس فقط في الشرق الأوسط وأفريقيا وأوروبا، بل إن بعضًا من هذه المنهجيات تتبناها كبرى الصحف الأمريكية، مثل ذا نيويورك تايمز أو ذا واشنطن بوست أو الإذاعة الوطنية العامة. إنها تُحاكي، بطريقتها الخاصة، الأسلوب «الجريء» الذي تبنته الجزيرة، لكنها تُمثِّل الاستثناء، لا القاعدة.

يوجد نموذج آخر مثير للاهتمام في كندا، حيث تختلف الرؤى بشأن الأخبار الدولية — والدور المحوري الذي يلعبه الإعلام في تغطيتها — اختلافًا كبيرًا عن الرؤى التي يتبناها جيرانها الجنوبيون في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أن تجربتهم تستدعي نموذجًا مختلفًا.

أجرت شبكة سي بي سي الكندية عام ٢٠٠٣ دراسة إخبارية كبرى، هي الأوسع نطاقًا من نوعها في كندا، لبحث مواقف الكنديين تجاه «الأخبار» و«المعلومات» في هذا القرن الجديد. أعدَّ الدراسة اثنتان من الشركات البحثية المستقلة التي تحظى بالاحترام، وقد استندت الدراسة إلى آراء آلاف الكنديين من جميع أنحاء البلاد ممن ينتمون إلى كثير من البيئات والظروف. ثُم وضع معدُّو برامج الشبكة «استراتيجية إخبارية» بديلة، جرى تصميمها بحيث تستجيب لاهتمامات الجمهور.

كانت النتيجة المذهلة التي توصلت إليها الدراسة هي أنه خلافًا لما هو شائع، فقد أشار أغلبية الكنديين إلى رغبتهم في الاطلاع على «مزيد» من الأخبار الدولية، لا العكس، وإلى إيمانهم أكثر من أيِّ وقت مضى بالأهمية الكبيرة لما جرى خارج حدودهم. لكنهم أعربوا أيضًا عن رغبتهم في «عرض الأخبار الدولية بعين محلية»، بحيث تكون أوثق صلةً بواقعهم وأقرب إلى متناولهم:

> إن المسافات بين الدول تزداد تضاؤلًا، وصارت قضايا العالم هي ذاتها قضايانا. وكان ذلك نمطًا فكريًّا سائدًا على امتداد بحث سي بي سي. يُعزى ذلك، في بعض الحالات، ببساطة إلى أنه لم يَعُد بإمكاننا تجنُّب العالم، وفي حالات أخرى إلى أن التكنولوجيا والتغطية الإخبارية على مدار الساعة جعلتا أحداث العالم مشوقة ويسهل الاطلاع عليها. وهناك شعور بين أغلب الناس بأن القضايا العالمية هي، في الحقيقة، قضاياهم وتخصهم. ويبدو أنهم قادرون وبسهولة على خلق صلات بين الأخبار وبين حياتهم حتى لو كانت الأخبار خارج حدود خبراتهم تمامًا. لقد صار العالم الآن يدق أبوابنا، وسواءٌ شئنا أم أبينا، أصبح التعامل مع النزاعات العالمية وغيرها من القضايا حقيقةً لا مناص منها من حقائق حياتنا اليومية في الوقت الحالي. وهو ما صعَّد من الاستجابة للأخبار الدولية وأثار شهية المتلقين إلى المزيد منها. لقد أضحى الاهتمام بالأخبار الدولية، بالنسبة إلى كثير من الكنديين، ضرورة تُعادل في أهميتها الاهتمام بالأخبار المحلية، بل ويرون أن الفروق بينهما أمر غير ذي بال. إنهم يريدون «الأخبار الدولية بعين محلية».

رصدت الدراسة أيضًا أوجه الضعف العامة في عرض الأخبار — بما في ذلك الأخبار الدولية — والمرتبطة بجميع وسائل الإعلام، لا التليفزيونية منها فحسب، وهي كالتالي:

- كثيرًا ما توصف الأخبار الدولية وصفًا أضيق مما ينبغي، بحيث يركز الصحفيون على الأخبار «السيئة» غير ذات الصلة الكبيرة بغالبية الجمهور، بالإضافة إلى استخدامهم للغةٍ غالبًا ما تكون مربكة، كما أنهم كثيرًا ما يختارون عرض الأخبار التي تهمهم أكثر مما تهم جمهورهم.
- غالبًا ما تُعرَض الأخبار باعتبارها فعلًا سلبيًّا بدلًا من التركيز على تلك الأخبار التي تكشف تغيرًا ذا مغزًى يمكن أن يثير استجابة ذات مغزًى؛ ومِن ثَمَّ فإن

قدرًا كبيرًا جدًّا من أخبارنا الحالية لا يعدو كونه «ذا أهمية عابرة» أو مثل «الضوضاء المحيطة».

- ينبغي على الصحفيين أن ينقلوا المزيد من الأخبار القائمة على «قضايا» معينة والتي توضح الرؤية أمام الجماهير وتمنحهم فهمًا وخلفيةً وسياقًا، مع تقليل اعتمادهم على «الأحداث» الفارغة المفتعلة.
- كما يُصرح الجمهور برغبته في التعرف على «كل» جوانب الخبر، لا جانبين فقط. إنهم يتطلعون إلى إنهاء ذلك العالم البسيط الذي يسوده اللونان الأبيض والأسود وإلى المزيد من التعرض لآراء ووجهات نظر أكثر تباينًا.

لقد أظهرت الدراسة أن اهتمام الكثيرين بالعالم الخارجي صار يُعادل اهتمامهم بعالمهم المحلي؛ وذلك لأن أمورًا كثيرةً جدًّا قد تغيرت.

لقد تغيَّر العالم. يبدو أن الناس، في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر، يُقدِّرون على نحوٍ متزايد قيمة الأخبار العالمية وتأثيرها على حياتهم. كما أنهم لا يثقون في أيِّ محاولة لتقديم تغطية ناقصة للأحداث. وتتوقع الجماهير التعرف على السياق والحصول على رواية مثيرة للأخبار، ويريدون من الصحفيين كذلك أن يجعلوا القضايا العالمية مألوفة بالنسبة إليهم تمامًا كقضايا مجتمعاتهم المحلية؛ إنهم يريدون أن يروا نقلًا واقعيًّا للأحداث كما لو أنها كانت تحدُث داخل حدود بلادهم.

لقد تغيرت المجتمعات. إنها تتحول على نحو متزايد إلى عالم متعدد الثقافات، يرتبط سكانه بوشائج في كافة أنحاء العالم؛ فالمهاجرون متلهفون لتلقِّي «أخبار عن مواطنهم الأصلية»، وكثيرًا ما تنتقل العائلات من مسقط رأسها وإليه. كما أننا غالبًا ما نرى انعكاسات الصراعات العالمية في التوترات، والتطلعات، والنزاعات المتجلية في مدننا.

كما أن الجماهير قد تغيرت. يُعبِّر الجمهور، أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، عن رغبته في التعرف على التغيرات ذات المغزى التي تجري في بلدانهم وفي العالم الخارجي. وهو يتطلع لمعرفة أفكار الشعوب في مختلف أنحاء العالم والدوافع التي تحركهم. وهو يرغب في الحصول على معرفة أكثر تعمقًا مما يُقدَّم إليه حاليًّا.

أبدت شبكة سي بي سي في ٢٠٠٧ استجابةً شاملةً لتلك الدراسة؛ إذ زادت من وقت البث المخصص للأخبار الدولية، مع تركيز خاص على تقديمها بعين محلية، وأضافت فقرة دولية ثابتة — بعنوان «عالمنا» — إلى نشرة الأخبار الوطنية المسائية. أما فيما يخص الشبكة الإخبارية المتخصصة التابعة لسي بي سي، نيوز وورلد، فقد أضيفت ساعة

من الأخبار الدولية كل مساء في ساعة الذروة. كما أن كثيرًا من البرامج التي حظيت بمشاهدات عالية على شاشة نيوز وورلد كانت وثائقيات تتعلق بالقضايا الدولية.

كما زادت سي بي سي من عدد مكاتبها الدولية. فحين عملتُ في الخارج كمنتج للأخبار والوثائقيات لحساب القسم الإخباري بشبكة سي بي سي خلال عقد الثمانينيات، عملت جنبًا إلى جنب مع الشبكات التليفزيونية الأمريكية. ولطالما أثار إعجابي ما كان يبديه الصحفيون وطواقم الإنتاج الأمريكيون العاملون في الخارج من تفانٍ ومهارة، لكنني كنت أحسدهم على مواردهم؛ ففي الثمانينيات، كان عدد الصحفيين العاملين في الخارج لحساب كلٍّ من الشبكات الأمريكية الثلاث الكبرى (إن بي سي، وسي بي إس، وإيه بي سي) يفوق بنحو عشر مرات عدد نظرائهم العاملين لحساب سي بي سي، ولا غرابة في تلك النسبة باعتبار أن التعداد السكاني للولايات المتحدة الأمريكية يفوق نظيره في كندا بنحو عشر مرات.

لكن حاليًّا، وبالرغم مما شهدته شبكة سي بي سي من اقتطاعات كثيرة في ميزانيتها خلال الخمس عشرة سنة الماضية، فإن القسم الإخباري بها يملك الآن عددًا من الصحفيين الذين ينقلون الأخبار الدولية يفوق نظيره لدى كلٍّ من الشبكات الأمريكية الثلاث الكبرى. أو، بمعنًى آخر، تمتلك الشبكة ١٤ مكتبًا إخباريًّا دوليًّا، وهو ما يُعادل تقريبًا عدد المكاتب الدولية التي تمتلكها الشبكات الثلاث «مجتمعة». لا شك أن هذه حقيقة تثير الذهول لو وضعنا في اعتبارنا مدى أهمية الحضور الأمريكي في العالم مقارنةً بالحضور الكندي.

اتبعت شبكات ومؤسسات إخبارية أخرى النهج نفسه وتوسَّعت في تغطيتها الدولية، وذلك كرد فعل للتوترات التي يشهدها عالمنا اليوم؛ فشبكة بي بي سي، مثلًا، تمتلك الآن ما يقرب من ٥٠ مكتبًا دوليًّا وأكثر من ٢٥٠ مراسلًا أجنبيًّا، وهو العدد الأضخم بين جميع المؤسسات الإخبارية على مستوى العالم.

(٤) لصالح مَن؟

ونحن نستعرض العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تبرز مسألة تحتاج إلى المناقشة العاجلة: حين يتخذ الصحفيون قرارهم بشأن مقدار التغطية التي سيعرضونها على الجمهور لهذا «العالم»، ما الجهات التي ينبغي عليهم أن يخدموا مصالحها؟

بالنسبة إلى من يعتقدون منا أن هذا العالم المتضائل يجرفنا، على نحو يؤثر في الحياة اليومية لكل فرد، تُمثِّل هذه الحقبة مرحلة مُثقلة بالتحديات؛ فنحن الآن جزء من

«ثقافة إخبارية» تحظى فيها أخبار المشاهير كباريس هيلتون وآنا نيكول سميث بتغطية تفوق تغطية المآسي الفادحة كمأساة دارفور. لقد حان الوقت لنُمعن النظر جميعًا في الأسباب الكامنة وراء هذا الوضع.

أدرجت الدراسة الاستطلاعية التي أجراها مركز بيو، والتي أشرت إليها سلفًا (روبنسون ٢٠٠٧)، الأخبار «الصفراء» و«الخارجية» باعتبارهما المجالين «الأقل» إثارة لاهتمام الجماهير خلال العقدين المُمتدَّين فيما بين عامي ١٩٨٦ و٢٠٠٦. لا شك أن تغطية الأخبار «الخارجية» تقلَّصت خلال السنوات الأخيرة، وهو ما لا يصدُق على الأخبار «الصفراء»، التي شهدت «زيادة» كبيرة بصفة عامة. ورغم ذلك، لا يزال الاهتمام الجماهيري بالأخبار «الصفراء» محدودًا ولم يتزايد مؤخرًا.

لماذا ازدادت التغطية إذًا؟ أفادت الدراسة بأن الدافع وراء ازدياد تغطية الأخبار الصفراء لم يكن تلبيةً لرغبة جماهيرية واسعة، وإنما كان لأسباب تجارية وتنافسية؛ بتعبير آخر، من أجل اجتذاب قطاعات جماهيرية معينة من شأنها أن ترفع نسب المشاهدات وتُرضي المُعلِنين.

تناولت الدراسة وفاة عارضة الأزياء الأمريكية الشهيرة، آنا نيكول سميث، ودفنها عام ٢٠٠٧، وهي القصة الإخبارية «الملحمية» التي دامت تغطيتها ثلاثة أسابيع. أجرى كثير من المؤسسات الإخبارية، لا سيما الشبكات الأمريكية التي تُبث عبر تليفزيون الكابل، تغطية واسعة النطاق لتلك القصة الإخبارية؛ إذ خصصت لها ٢٢ بالمائة من كامل برامجها الإخبارية. ضاعفت سي إن إن نسبة مشاهديها، يوم وفاة سميث، ثلاثة أضعاف نسبتهم اليوم السابق للوفاة، وهو ما أشاد به المسئولون التنفيذيون اللامعون للشبكات التليفزيونية باعتباره استجابة للاهتمام الجماهيري.

غير أن دراسة مركز بيو قدمت تفسيرًا مختلفًا:

> ما حجم هذا التحول من منظور الجمهور الوطني؟ ازداد مشاهدو قناة سي إن إن مبدئيًّا بمعامل قدره ٣، وهو ما يُترجَم إلى زيادة تقارب المليون مشاهد؛ أي أقل من نقطة واحدة حسب تصنيفات نيلسن. يمثل ذلك التحول، من منظور علم الاجتماع، أقل من نصف بالمائة من الشعب. كل هذا يمكن أن يُفسِّر لماذا هُرعت المنظومة الإخبارية الأشد تنافسية — وعلى رأسها الشبكات التي تُبث عبر تليفزيون الكابل — للقيام بهذه التغطية المحمومة لقصة سميث، وكيف كانت المؤسسات الإخبارية «محقة» بقيامها بهذا، من وجهة نظر تجارية واستنادًا

> إلى نسب المشاهدة. إلا أن هذه المعادلة، استنادًا إلى المنظور التجاري ونسب المشاهدة، لا تفسر الواقع بصورته الأشمل؛ وهو أن أغلبية الجمهور الوطني، حسب استطلاعات الرأي، لم يكن مهتمًّا بتلك التغطية أو لم يكن راضيًا عنها. (روبنسون ٢٠٠٧: ٩–١٠)

دعني أعيد الفكرة الرئيسية للدراسة على سبيل التأكيد: لقد أفضت الدراسة إلى أن قصة إخبارية صفراء لم تزد نسب المشاهدة إلا بمقدار مليون مشاهد فقط — في بلد يبلغ تعداده ٣٠٠ مليون مواطن — شغلت حوالي ربع البرامج الإخبارية المعروضة على الشبكات الأمريكية التي تُبَث عبر تليفزيون الكابل خلال تلك الفترة.

السؤال الآن: لصالح من تُتَّخذ هذه القرارات التحريرية؟ هل من غرابة، إذًا، في أن الدراسات الاستطلاعية الأمريكية تُشير إلى أن المصداقية الحالية للصحفيين والمؤسسات الإخبارية لدى الجمهور أقل مما كانت من قبلُ؟[٤]

إن مثل هذه النتيجة لم تكن لتُعَد مفاجأة في الغالب بالنسبة إلى الراحل نيل بوستمان، الناقد الإعلامي والثقافي الأمريكي، الذي كتب في ١٩٨٦ تحليلًا مثيرًا عن التليفزيون في كتاب بعنوان «تسلية أنفسنا حتى الموت». ذهب السيد بوستمان، في ذلك الكتاب، إلى أن التليفزيون، لا سيما الأخبار التليفزيونية، يتعامل مع القضايا الجادة باعتبارها مادة للتسلية ويبتذل الخطاب السياسي بتركيز اهتمامه على الصور أكثر من الأفكار. كتب في هذا الشأن يقول: «عندما تتلهى الجماهير بسفاسف الأمور، ويُعاد تشكيل الحياة الثقافية لتصير حلقة لا نهائية من التسلية، وتصبح المناقشات العامة ذات الطابع الجاد ضربًا من ضروب الأحاديث الطفولية؛ باختصار، عندما يُضحِي الشعب جمهورًا وتصير قضاياه وشئونه العامة مسرحية هزلية، تجد الأمة نفسها في خطر: تصبح وفاة الثقافة احتمالية واضحة للعيان» (١٩٨٦: ١٦١).

حين يتأمل المؤرخون هذا العقد، بعد عدة سنوات من الآن، أعتقد أن تقييمهم للأداء الإعلامي خلال هذه السنوات سيكون قاسيًا؛ فبالنظر إلى الحالة الراهنة التي يعيشها العالم، يصعب علينا ألا نرى أن الزعماء السياسيين اتخذوا قرارات كارثية في بيئة من الجهل والغطرسة، وأن مثل هذه الكوارث تغاضى عنها جمهور اختار، في أغلبه، أن يغضَّ الطرف، وإعلام إخباري كان في حالاتٍ شتَّى إما متواطئًا أو قاصرًا.

لا ريب أن هذا لم يكن الوضع المفترض لهذا العقد. ومع ازدياد خطورة هذا العالم كمكان نعيش فيه، ينبغي أن يمنحنا ذلك كل دافع ممكن لنحاول تصحيح مساره.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) هل توني بورمان محقٌّ فيما ذهب إليه بأن دراسة بيو المعنية ب «التفضيلات الإخبارية» (روبنسون ٢٠٠٧)، والتي أظهرت قصورًا في فهم الأخبار الدولية البارزة، تثبت أن القنوات الإخبارية العاملة على مدار الساعة أخفقت في استغلال فترات البث خاصتها بطريقة مسئولة؟

(٢) حين تكثف القنوات الإخبارية تغطيتها لأخبار من شاكلة محاكمة أوه جيه سيمبسون واختفاء مادلين ماكان، الطفلة البريطانية ذات الثلاث سنوات، في البرتغال عام ٢٠٠٧، هل تقدِّم بذلك ما يطلبه المشاهدون أم أن ميزان التغطية الإخبارية مالت كفَّته بشدة نحو الأخبار الصفراء؟

(٣) ما الفارق الذي أحدثته الجزيرة فيما يتعلق بتغيير أجندة الأخبار الدولية؟ وهل بإمكان قناة إخبارية أفريقية متخصصة أن تُحقق الفارق ذاته؟

(٤) اختر خبرًا جاريًا وحلِّل كيفية اختلاف تغطيته باختلاف البلدان.

هوامش

(١) مع الانتشار الهائل لشبكة الإنترنت، توجد الآن مئات، بل ربما آلاف، من مصادر الأخبار المتاحة على مستوى العالم. بالنسبة إلى الشبكات التليفزيونية المتخصصة المكرسة ل «الأخبار»، توجد حوالي ٢٠ قناة عامة و٧٥ قناة خاصة في العالم. إلا أن عددًا متزايدًا من الجمهور يعتمدون حاليًّا في استقاء أخبارهم على المواقع الإلكترونية الإخبارية. تتضمن هذه المواقع مواقع إخبارية ضخمة مثل جوجل وياهو وماي سبيس، بالإضافة إلى عدد لا يُحصى من المواقع التابعة للصحف ومؤسسات البث — والتي تقدِّم غالبًا محتوًى مسموعًا، ومرئيًّا، ومقروءًا — ناهيك عن آلاف المدونات المتفاوتة النوعية والتي تركز على الأخبار.

(٢) أحد التحديات الرئيسية التي تواجه وسائل الإعلام الإخبارية الأمريكية هو سلسلة عمليات خفض الميزانيات التي تجتاح الصناعة والمؤدية لإلغاء آلاف الوظائف الصحفية. تَعزو المؤسسات الإعلامية هذا التوجه إلى وجود ضغوط مالية غير مسبوقة عليها لتحقيق أرباح، غير أن أغلب هذه المؤسسات لا تزال تُحقِّق هوامش ربح تقدَّر بحوالي ٢٠ بالمائة، وهو يمثِّل مستوًى ربحيًّا ممتازًا مقارنةً بأيِّ قطاع أعمال آخر. ما المشكلة إذًا؟ يلقي كثير من المراقبين باللائمة على «استبداد رأس المال»؛ أي التوقعات المُبالغ فيها لدى المساهمين والمستثمرين (انظر مشروع التميز الصحفي ٢٠٠٧). في فبراير ٢٠٠٧،

ألقى مذيع الأخبار السابق في سي بي إس، والتر كرونكايت، الكلمة الرئيسية في مؤتمر إعلامي أقيم في كلية الدراسات العليا للصحافة التابعة لجامعة كولومبيا. وحذَّر في تلك الكلمة من أن الضغوط التي تمارسها المؤسسات الإعلامية لتحقيق أرباح لا تتوقف عن التزايد تهدد مبادئ الحرية ذاتها التي أقيمت عليها الأمة. وأضاف أن الصحفيين اليوم يواجهون تحديات أكبر من تلك التي واجهها جيله، مشيرًا إلى أنه لم يعد بإمكانهم الاعتماد على مؤسساتهم لتزويدهم بالموارد الضرورية «لإزاحة النقاب عن الحقائق التي غالبًا لم يُرِد الساسة ومجموعات المصالح الخاصة من أصحاب النفوذ الكشف عنها»، بل «إنهم يواجهون سلسلة متتابعة من تقليص عدد الوظائف وتكاليف التغطية، وهو ما يوجب عليهم أن ينجزوا المزيد بإمكانيات أقل» (كرونكايت ٢٠٠٧).

(٣) إن مؤسسة محمد أمين هي مركز تدريبي في البث التليفزيوني أنشئ عام ١٩٩٨ لتدريب مقدمي البرامج التليفزيونية الشباب في كينيا وشرق أفريقيا (http://www.moforce.com).

(٤) إن الدراسة الاستطلاعية الأمريكية التي أجراها مركز بيو للأبحاث في الفترة من ٩ إلى ٢٥ يوليو ٢٠٠٧ «أكدت على التغير الجوهري الحاصل في المواقف الأساسية تجاه الإعلام الإخباري، وهو التغير الذي بدأ منذ منتصف الثمانينيات. أظهر استطلاع الرأي المبدئي الذي أجرته مؤسسة تايمز ميرور بشأن الصحافة عام ١٩٨٥ أن الجمهور عاب على المؤسسات الإخبارية كثيرًا من ممارساتها؛ فقد أعرب أغلبهم عن اعتقاده بأن المؤسسات الإخبارية «تحاول إخفاء أخطائها»، بينما ذهبت الأغلبية العظمى إلى أن هذه المؤسسات «لا تكترث بأولئك الذين تنقل أخبارهم» وتتسم بالتحيز السياسي. لكن هذه الانتقادات شملت خلال العقد الماضي طائفة أوسع من الاتهامات التي تتعلق بدقة التغطية الإخبارية، وتأثير المؤسسات الإخبارية على الديمقراطية، بالإضافة إلى أخلاقيات هذه المؤسسات، إلى حد ما. رأى أغلب الأمريكيين (٥٥ بالمائة) عام ١٩٨٥ أن المؤسسات الإخبارية تعرِض الحقائق كما هي. لكن منذ نهاية التسعينيات، دأبت الأغلبية — ومن بينها ٥٣ بالمائة في الدراسة الحالية — على التعبير عن إيمانها بأن القصص الإخبارية كثيرًا ما تفتقر إلى الدقة؛ ومِن ثَمَّ فإن معدلات المصداقية التي تحظى بها المؤسسات الإخبارية الفردية أقل حاليًّا مما كانت عليه خلال عقدَي الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي» (مركز بيو لأبحاث الشعب والصحافة ٢٠٠٧).

الفصل التاسع

أبطال محليون

أنتوني بوردن

تمهيد
جون أوين

ليست الأجواء بتلك القتامة والإحباط في عالم الصحافة الدولية. فخلافًا لما يُقال كثيرًا لطلاب الصحافة بشأن الوضع الإعلامي، فإن ثمة إمكانيات مثيرة لتغطية الجوانب الأخرى لهذا العالم بخلاف الأزمات والصراعات، وذلك بفضل الإنترنت والتكنولوجيا الحديثة. لكن لو صح زعم أنتوني بوردن، المدير التنفيذي لمعهد صحافة الحرب والسلام، فإن المفتاح الحقيقي لإنجاز تغطية متميزة للعالم هو الصحفي المحلي، جيد التدريب، الذي يتلقى الدعم اللائق والتمكين كي يروي الأخبار.

إن أكثر من يصيبهم التشاؤم بشأن حالة تغطية الأخبار الدولية هم المراسلون والمنتجون السابقون الذين كانوا يحظون بميزة العمل لحساب شبكات تليفزيونية وصحف ذات ميزانيات ضخمة. لقد سافر هؤلاء حول العالم دون حساب، وعاشوا حياة مترفة، وكانوا يعملون، في حال انتدابهم إلى الخارج، في مكاتب خارجية مجهزة بكل ما يحتاجون إليه. (كنت واحدًا من هؤلاء؛ إذ أدرت مكتب سي بي سي في لندن لمدة ست سنوات خلال تسعينيات القرن الماضي. ورغم أن ميزانيتنا لم تكن تُمثِّل سوى نسبة ضئيلة من ميزانيات الشبكات الأمريكية وبي بي سي/آي تي إن، فقد كنا من اللاعبين الرئيسيين في المشهد الدولي.) حين كان يَبرز خبر مهم، كانوا ينفقون كل ما يحتاجون إليه من أموال للذهاب حيثما أرادوا وذلك كي يكونوا أول من يصل إلى موقع الخبر. وكانوا كثيرًا ما يستعينون بأفضل الصحفيين المحليين المتاحين ليعملوا ك «معاونين» ومترجمين لهم. كان بإمكان الصحفيين المحليين أن يجنوا قدرًا من المال في أسابيع عملهم لحساب الشبكات الدولية يفوق ما

كانوا يتقاضونه خلال عام كامل من الصحف المحلية أو شبكات البث الحكومية التي كانوا يعملون بها.

لقد سطع نجم الصحفيين المحليين في ظل إغلاق الشبكات والصحف الكبرى لمكاتبها الخارجية وتقليص تغطيتها الدولية (وذلك في الولايات المتحدة الأمريكية) باستثناء تغطية الأخبار المتعلقة بحربَي العراق وأفغانستان وأي شيء مرتبط بالحرب على الإرهاب. أما في لندن، فأي خبر ذي صلة بالعائلة المالكة أو الأميرة الشهيدة فيحظى باهتمام بالغ لا يتناسب مع ما يستحقه في واقع الأمر.

بالنسبة إلى بعض المراسلين الحربيين السابقين؛ كمراسِلة صحيفة ذا جارديان ماجي أوكين، جاء التحول إلى الاعتماد على الصحفيين المحليين متأخرًا للغاية: «إن النموذج التقليدي للمراسل الأجنبي يمثل توجهًا استعماريًّا نوعًا ما. إن أداءنا عادةً لا يفوق أداء «معاونينا» المحليين» (مقتبس من كوكبرن ٢٠٠٧). ترأَّس أوكين حاليًّا وحدة الأفلام التابعة لصحيفة ذا جارديان، وهي الوحدة المسئولة عن تدريب الصحفيين المحليين على إنتاج وثائقيات عن الأخبار والقضايا الجارية في بلدانهم. كما أن جزءًا من دعواها يرتكز على عجز المراسلين الغربيين، ذوي البشرة البيضاء والأصول الإنجليزية أو الأمريكية أو الكندية عادةً، عن أداء عملهم الصحفي في البلدان الإسلامية أو في العالم النامي دون أن يخشوا تعرُّضهم للاختطاف كرهائن، أو الاعتداء، أو حتى القتل. (تعرَّض مارتن أدلر، المصور الصحفي وصحفي الفيديو السويدي المستقل، للقتل في العاصمة الصومالية، مقديشو، عام ٢٠٠٦ خلال حشد جماهيري كان في ظاهره يحتفل بالتوصل إلى اتفاق سلام.) عمل أدلر في قارة أفريقيا على نطاق واسع. شهدت مقديشو كذلك عام ٢٠٠٥ مقتل منتجة الأخبار الأفريقية المحنكة، كيت بيتون، التي لم تلبث أن وصلت إلى الصومال لتغطية أخبار لحساب بي بي سي. وفي أواخر أبريل عام ٢٠٠٨، شن الأمريكيون هجومًا بالقذائف أسفر عن مقتل رجل زعمت السلطات الأمريكية مسئوليته عن إصدار أمر بقتل بيتون؛ فبحسب تقارير إخبارية، استهدفت القوات الأمريكية عدن هاشي آيرو، الموصوف بأنه أحد قياديي تنظيم القاعدة، فأردته قتيلًا مع آخرين يصل عددهم إلى ٣٠ (جيتلمان وشميت ٢٠٠٨). لقد صار الأمر كابوسًا بالنسبة إلى الصحفيين المحليين في الصومال أيضًا؛ إذ يكافحون لنقل الأخبار دون أن يفقدوا حياتهم؛ فقد قُتِل تسعة صحفيين صوماليين خلال عام ٢٠٠٧.

لم تكن الوكالات الإخبارية وغيرها من وسائل الإعلام هي وحدها من أقبلت على الاستعانة بالصحفيين المحليين إقبالًا متزايدًا، بل لجأت إليهم أيضًا المجموعات غير الهادفة للربح مثل معهد صحافة الحرب والسلام (بمراكزه المنتشرة في لندن، وواشنطن، وجوهانسبرج؛ www.iwpr.net)، وترانزيشنز أون لاين، ومقرها في براغ (www.tol.cz)، وهيومان رايتس ووتش (ومقرها في نيويورك؛ www.hrw.org)، ومجموعة الأزمات الدولية، ومقرها في بروكسل (www.crisisgroup.org)، وذلك ليزودوا المواقع الإخبارية الدولية التابعة لها بالتحقيقات الصحفية والتحليلات المتعمقة. ورغم أن مثل هذه المجموعات تقع في منطقة وسط بين المؤسسات الإخبارية الاحترافية والمؤسسات

الخيرية الدعائية، فيحق لها أن تدعي قيامها بتغطية عالمية أكثر منهجية من تغطيات أغلب شبكات البث والصحف.

في هذا المقام، يجب أن ننصح الصحفيين الطموحين بأن يفكروا في العمل لصالح مثل هذه المجموعات بدلًا من العمل في المؤسسات الإخبارية التقليدية. إن كثيرًا من الصحفيين أصحاب المُثل العليا، ممن يريدون لعملهم أن يمثِّل وزنًا ويشكل فارقًا في العالم، ربما يختارون، لو أتيحت لهم فرصة الاختيار، العمل في «التغطية الإخبارية» لصالح هذه المؤسسات بدلًا من إمضاء حياتهم مرهونين بكمبيوتر في غرف أخبار رتيبة ومدركين أنه لن يصل من الأخبار الدولية المهمة إلى صفحات الجرائد أو فقرات البث سوى النزر اليسير.

أفاد الأكاديميان هاملتون وجينر بما يلي، وذلك في مقالهما المنشور في مجلة فورين أفيرز الذي كان بعنوان «المراسَلة الأجنبية الجديدة»:

إن التدفقات المعاصرة للأخبار الدولية تفوق تعقيدًا نظائرها في أي مرحلة من التاريخ. لا يمكننا تقييم حالة المراسَلة الأجنبية على النحو الذي اعتدناه لوقت طويل، وذلك بمجرد إحصاء عدد المراسلين الذين تنتدبهم وسائل الإعلام الكبرى إلى الخارج أو بإجراء تحليل بسيط للأخبار التي تغطيها كلٌّ من صحيفة ذا نيويورك تايمز، ومجلة نيوزويك، والقسم الإخباري بشبكة إيه بي سي. إن التفكير بطريقة مغايرة يعني إبداء أعراض ما أطلق عليه العلماء «متلازمة الصحافة المتمركزة حول الذات». (هاملتون وجينر ٢٠٠٣)

مراجع

Cockburn, P. (2007) War reporting Iraq: Only locals need apply. *Independent,* 26 February.

Gettleman, J. and Schmitt, E. (2008) Airstrike kills key militant in Somalia. *International Herald Tribune,* 1 May.

Hamilton, J. M. and Jenner, E. (2003) The new foreign correspondence. *Foreign Affairs,* September/October, http://www.foreignaffairs.org/20030901faessay82510/john-maxwell-hamilton-eric-jenner/the-new-foreign-correspondence.html.

جرِّب أن تتحدث هذه الأيام إلى كبار المسئولين التنفيذيين في مجال الإعلام — الإعلام المطبوع على وجه الخصوص لا الحصر — وسوف تسمع القصة الحزينة نفسها: إعراض الجماهير، وانهيار في مستويات الدخل، وهيمنة الإنترنت. يُردِّد المراسلون والمحررون

الشكوى ذاتها؛ إذ يتحسرون على التراجع الحاد في الموارد المخصصة للتغطيات الإخبارية الجادة وانكماش المساحة المتاحة للأخبار، وذلك لصالح أخبار المشاهير والإعلانات والمواد البراقة التي تُحشى بها صفحات الجرائد. وعندما يصرح ناشر جريدة ذا نيويورك تايمز بأنه لا يمكن ضمان استمرارية الطبعة الورقية من جريدته — رغم أنه لم يكن جادًّا تمامًا فيما يقوله — فمن الواضح تمامًا أن الإعلام يعيش أزمة حقيقية.

كتب راسل بيكر مقالًا مؤخرًا في مجلة ذا نيويورك ريفيو أوف بوكس، قال فيه: «إن الصحافة الأمريكية تشهد مرحلة قاتمة. لقد دُمِّر عدد كبير جدًّا من الصحف الجيدة ... لقد مُنِيَ أصحاب الصحف فيما يبدو بإخفاق في الإبداع المتعلق بريادة الأعمال، وهو الإبداع المطلوب للازدهار في تلك الحقبة الإلكترونية ... ثمة شعور كئيب بأن الصحافة أصبحت شيئًا من الماضي، فهي تشبه عربة تجرها الخيول على طريق سريع عريض يربط بين الولايات» (بيكر ٢٠٠٧).

لكن أي إعلام، وأي أزمة؟ فبينما تتدافع المؤسسات الإعلامية الراسخة في الغرب، لا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية، مُحاوِلة ترميم صحفها أو شبكات بثها، وتواصل تخفيض ميزانياتها وتسريح موظفيها؛ تشهد بقية العالم تحولًا بارزًا.

هناك طفرة صحفية، «هناك»، في الأسواق الناشئة وفي المناطق النامية، وحتى في تلك الدول التي تشهد أشد الأزمات وأقوى موجات العنف.

إن المشهد الإعلامي في أفريقيا وآسيا وغيرهما يشهد تحولًا بفضل الكوادر الجديدة والمؤسسات الجديدة والعقليات الجديدة كليةً المعنية بكيفية التواصل الداخلي والخارجي بشأن البلدان التي تمر بمرحلة انتقالية. بل إن هذه العناصر الجديدة بدأت تتدارك القصور الواقع في أداء المؤسسات الإعلامية الغربية الراسخة فيما يتعلق بالتغطية الدولية — وإن لم يسمح لها هذا بعدُ بأن تحل محل تلك المؤسسات بالفعل.

لا تُمثل الجزيرة سوى قمة الجبل الجليدي، والجدل الذي أثارته ربما يشتت الانتباه عن توجُّه أعمق ليست تلك المحطة في واقع الأمر سوى نموذج له؛ فبدايةً من المحطات الإذاعية المحلية وانتهاءً بمزودي الخدمات الإخبارية عبر الإنترنت على مستوى القارات، ومن شبكات البث التليفزيونية المتنافسة إلى الصحافة الاستقصائية المتعمقة، ترسخ الصحافة المحلية أقدامها باعتبارها قوة جديدة تتمتع حقًّا بقدر متزايد من الموثوقية والمسئولية والإبداع. وحتى مع ما يواجهه الإعلام المحلي من ظروف بالغة السوء بدءًا من اقتصادات سيئة ووصولًا إلى ديكتاتوريات — أو مع كفاحه بكد أكثر بسببها في بعض

الأحيان — فإنه يظل يصنع فارقًا. وربما يُعَد العراق بالفعل أول صراع رئيسي تُروى تفاصيله إلى حدٍّ كبير عن طريق تغطية أبنائه — والتي قد تحمِل أحيانًا أسماءهم — وهو ما يُعزى إلى العنف البدني الذي يمنع المؤسسات الإعلامية الغربية من نشر مراسليها هناك كما ينبغي.

إن «الإعلام الدولي» إذًا، بمفهومه الأوسع، أبعد من أن يكون في أزمة؛ فهو في طريقه إلى حقبة جديدة مثيرة. وربما يُعتبر بروز الإعلام المحلي كلاعب مؤثر في البيئة المعلوماتية العالمية أحد أهم التطورات في مجال وسائل التواصل وأكثرها إيجابية بالفعل في وقتنا الحالي.

(١) أصوات مستقلة في البلقان

يمكننا تتبُّع أصول الصحافة المحلية الناشئة حول العالم، وتتعدد أسباب ظهورها ما بين سياسية واجتماعية، ومهنية وتكنولوجية، واستراتيجية وغير استراتيجية.

لكن لكل قصة بداية، وعند تناول اتجاه واسع ومتعدد الأوجه كهذا، يكون اختيار نقطة البداية خاضعًا لا محالة للتقديرات الشخصية. عادةً ما يكون للصحافة، تمامًا كعلم الآثار، طابع زمني تاريخي، تُمثِّل الصراعات والأزمات فيه طبقات جيولوجية من التجارب والخبرات التي تشكل دوافعنا وصلاتنا، نجاحاتنا وإخفاقاتنا، ومِن ثَمَّ استنباطاتنا عن السياسة والحياة المهنية.

ككثير من الصحفيين المتوسطي الرتب، كانت البلقان هي التجربة التي أسهمت في تكويني الصحفي. لا يعني ذلك الانتقاص من عمل الصحفيين المحليين الآخرين ووسائل الإعلام الناشئة في أماكن أخرى، سواءٌ في بلدان أخرى تخلصت من النظام الشيوعي بأوروبا الشرقية أم خارجها. لكن يوغوسلافيا هي المكان الذي أدركت فيه القدرة والطاقة الاستثنائيتين للصحفيين المحليين، وهناك أيضًا أوجد الصحفيون المحليون لأنفسهم مكانًا على الخريطة للإسهام في الدفع قُدُمًا بحركة عالمية.

كان اتحاد تيتو الفيدرالي المنهار هو المكان الأمثل لتجربة استغلال الإعلام وسوء استغلاله، وكان صاحب هذه التجربة، للأسف، رجلًا تحوَّل من الشيوعية إلى الشعبوية، يُدعى سلوبودان ميلوسوفيتش، وما لبث أن سار على خُطاه غيرُه من غلاة القوميين في جميع أنحاء المنطقة دون أدنى تردد.

إن القصة، التي ترددت كثيرًا، بشأن زيارته المشئومة لإقليم كوسوفو الجنوبي الذي يحكمه الصرب كانت قصة إعلامية في المقام الأول. وقد أجريت عمليات مكثفة من البحث

والتغطية تُشير إلى أن الحدث المفصلي — حين قدَّم ميلوسوفيتش دعمه للصرب المقيمين في الإقليم ذي الأغلبية الألبانية، صانعًا بذلك الأسطورة السياسية المحورية التي ستدفعه وبلاده لخوض ثلاث حروب ضروس — كان مخططًا له. ولم يتطلب الأمر سوى بضعة ترتيبات لتدبير مشاجرة في الشارع بين الشرطة الألبانية والصرب المحليين ليتمكن مسئول بارز طموح في الحزب الشيوعي في بلجراد، خلال جولة بدت في ظاهر الأمر مفاجئة، من التعهد قائلًا: «لن يجرؤ أحد على ضرب الصرب!» ليصير بين ليلة وضحاها مادةً سياسية مثيرة (كما اقتُبِس في كتاب ليتل ٢٠٠٦).

لكن ما لم يتوقعه ميلوسوفيتش على الإطلاق، فيما يبدو، هو الطريقة التي سيحظى بها الحدث بهذا القدر من التأثير عبر وسائل الإعلام؛ فبمجرد تصويره وبثه في بلجراد، نال أهمية سياسية هائلة.

كان الدرس واضحًا، وقد تعلَّمه على الفور. لم يكتفِ ميلوسوفيتش بضمان بث مقطع الفيديو باستمرار، ومِن ثَمَّ إرساء دعائم تفوُّقه، بل أدرك أيضًا حتمية السيطرة على شبكة البث الحكومية واستغلالها لتشكيلِ عقليةٍ قوامُها الكراهيةُ والعنف تجاه القوميات الأخرى. إن الإعلام الصربي، من خلال الدعاية والأكاذيب الفاضحة والاستغلال الماهر لأيقونة الخوف والوقوع ضحية لإيذاء الآخرين ذات الأهمية التاريخية لدى الصرب، نجح في تمهيد الطريق أمام جرائم حرب مستقبلية في كرواتيا والبوسنة وكوسوفو؛ وهو ما أشار إليه مارك طومسون، مدير برنامج البلقان التابع لمجموعة الأزمات الدولية، في مرحلة مبكرة من الصراع باعتباره «صناعة الحرب» (طومسون ١٩٩٤).

تفجرت، ردًّا على ذلك، قوة أخرى — واهنة، ومشوشة، ومتعارضة مع ذاتها في كثير من الأحيان، لكنها في نهاية المطاف كانت تتطور، وتتقوى شوكتها، وتترك أثرًا هائلًا داخل المنطقة وخارجها. هنالك في البلقان، كما هو الحال في أيِّ مكان آخر، تبلورت القوة الإيجابية للإعلام المحلي وبدت واضحة.

إن نظرة إلى الماضي ستخبرنا أن حقبة ميلوسوفيتش، مقارنةً بالوحشية التي تشهدها اليوم أجزاء كثيرة من العالم، كانت عصرًا ذهبيًّا للمنشقين والأصوات المعارضة. كانت هناك ممارسات قمعية وإغلاقات، وفرض لضرائب باهظة ومُصادرات جائرة واعتقالات، بل وبضع حوادث قتل. وبالرغم من كل ذلك، كان النظام يدير ما سمَّاه المعلقون الصرب «دكتاتورية ما بعد الحداثة»؛ فقد كان يُسمح بوجود بضع محطات إذاعية ومطبوعات معارضة، ما دامت شبكة البث الرئيسية في قبضة الدولة؛ أي كان يتيح بعض المظاهر

الديمقراطية، شريطة ألا يكون له أي تأثير على قلب الدولة الذي يستمد منه ميلوسوفيتش الدعم الحقيقي.

«دكتاتورية، أنا؟» أتخيله وهو يسأل، بجاذبيته المخيفة الثملة، الدبلوماسيين الذين يزورون دولته، مشيرًا إلى صحف بلجراد متعجبًا: «هل تلاحظون كيف يعارضونني؟»

كان عددٌ قليل من الوسائل إعلامية والجماعات الحقوقية يعارضه بقوة حقًّا. نالت إذاعة بي-٩٢، تحت القيادة المتبصرة والمتواضعة في الوقت نفسه لفيران ماتيتش، النصيب الأكبر من الشهرة في هذا الإطار؛ إذ برزت كوسيلة إعلامية وحركة واستطاعت بعد سنوات طويلة أن تُنشِئ شبكة من المحطات الإذاعية المستقلة على امتداد صربيا، وهي التي ساهمت على نحوٍ مباشر في تدشين عمل مدني عُزِل من خلاله ميلوسوفيتش من منصبه في النهاية. وشكَّلت المحطة الإذاعية (بالاشتراك مع الحركة الطلابية)، على ذلك النحو، نموذجًا تحتذي به «الثورات الملونة» العديدة التي ستندلع في جميع أنحاء الدول الشيوعية السابقة خلال العقد التالي، كما نبهت الطغاة حول العالم إلى قوة المجتمع المدني.

لكن في أسوأ الأيام، بالنسبة إليَّ على الأقل، لم يكن هناك ما يعادل عمق وألمعية فريم، المجلة الإخبارية الأسبوعية الصادرة في بلجراد، وطاقمها الذي كان يضم ستايان تسيروفيتش كمحلل سياسي، وبيتر لوكوفيتش، ذلك «الديمقراطي الراديكالي» الذي يصعب كبح جماحه، وديان أناستاسييفيتش، المراسل الحربي الجسور، و«تشوفاكس»، الرسام الذي كانت الأغلفة التي يرسمها تعكس، أو تشكل على الأرجح، مزاج القلة المعارضة في بلجراد. كانت فريم تُمثِّل توجهًا مهنيًّا وملتزمًا حقيقيًّا، وقدرًا مقبولًا من الاعتداد بالذات، وكثيرًا من الموهبة.

كان أقرب زملائي خلال أغلب تلك الفترة هو ميلوس فاسيتش، الذي أطلق على نفسه المحلل العسكري لمجلة فريم، والذي شاركنا عملنا بمعهد صحافة الحرب والسلام مشاركة وثيقة. كان ميلوس ضابطًا سابقًا ذا صوت هادئ وقدرة لا تُصدَّق على تحمُّل الخمر، وكان صحفيًّا متمتعًا بأكبر قدر ممكن من الفطنة والتفاني؛ فقد اعتاد أن يختتم كل ليلة — مهما تأخر الوقت أو اشتدت به الثمالة — بتسجيل التقارير العديدة الحديثة على قاعدة معلومات إلكترونية، وحالما يجيء الصباح (بأحداثه العاصفة عادةً) يتحول كل شيء إلى مادة إخبارية.

لكن دور إذاعة بي-٩٢ ومفكري مجلة فريم لم يكن يقتصر على إبقاء جذوة الديمقراطية الصربية مُتَّقدة، وهي مهمة ليست بالهينة. فخلال صراع غاية في التعقيد،

أسهمت مجلتا بي-إتش داني وسلوبودنا بوسنة في البوسنة وفيرال تريبيون في كرواتيا، والمشهد الإعلامي الحر المحدود، لكن الفَعَّال، في بلجراد إسهامًا لا يُقدر بثمن في تنمية التفاهم الدولي، وذلك بما كانت تتمتع به من جودة عالية، ووضوح في الرؤية، وإصرار عام.

رغم أن تلك الأصوات المستقلة لم تكن قادرة على الوصول إلى جماهير عريضة في مواطنهم والتأثير عليهم، فقد استطاع أصحابها أن يُحدِثوا فارقًا بفضل مطبوعاتهم، وجهودهم الشخصية في تقديم الإحاطات الإخبارية والتقارير، وفي بعض الأحيان أماكن لإيواء الأجانب، ومساعدة الإعلام الغربي مساعدة هائلة بكل طريقة ممكنة. وفي ظل قدر هائل من المعلومات المغلوطة والالتباسات — التي أسهمت الحكومات الغربية أيضًا بنصيب كبير في نشرها — لعبت وسائل الإعلام المحلية المستقلة في البلقان دورًا حيويًّا على نحو مباشر وغير مباشر في تفسير الصراع لبقية دول العالم. يمكن الزعم بأن دورها أسهم في تحوُّل كبير وناجح على نحو ما في السياسات المتبعة، وذلك بالانتقال الفعال من مهادنة ميلوسوفيتش مرورًا بالمواجهة وانتهاءً بإسقاطه، رغم أن مثل هذا الزعم سيعارضه البعض بالتأكيد (وبالطبع سيعارضه في بلجراد القليل ممن ينتمون إلى أي فصيل داعم للقصف الغربي لصربيا).

(٢) المنشورات الإلكترونية

تطورت ثلاثة عوامل رئيسية على الأقل، خلال هذه الفترة، للانتقال بـ «الحركة الإعلامية المحلية» إلى نطاق العالمية. لكن من المهم، مجددًا، التأكيد على اختلاف التجارب واللاعبين الفاعلين في المناطق المختلفة، وأن جميعها قدَّمت إسهامات، كثير منها تحقَّق بالتوازي بلا شك، غير أن أبرز الاتجاهات والدروس التي استفدتها أنا وغيري من البلقان كانت كما يلي:

أولها، بلا ريب، هو التكنولوجيا. شهدت بداية حروب البلقان ظهورًا متقطعًا لتكنولوجيا الإنترنت، لكن سنواتها الأولى اعتمدت في أغلبها على التليفونات، والفاكسات، وتكنولوجيا الأقمار الصناعية الباهظة، متى كان ذلك ممكنًا ومُيسر التكاليف. لقد كان من المستحيل تتبُّع الصحفيين المستقلين في سراييفو، وحتى لو استطاعوا بأعجوبة أن يكتبوا بالفعل منشوراتهم، فقد كانت محاولة الحصول عليها أشبه بكابوس. لكن بنهاية عقد كامل من الصراع، صار الجميع مرتبطين ارتباطًا وثيقًا ببريدهم الإلكتروني وهواتفهم

المحمولة، وانتشرت المواقع الإلكترونية انتشارًا واسعًا، وأتاحت الوسائل التكنولوجية الحديثة الفرصة على نحوٍ متزايدٍ لتخطي الحدود والتحايل على الطغاة.

من العلامات البارزة في تلك المرحلة إغلاق النظام في بلجراد لمحطة بي-٩٢ الإذاعية وذلك في مرحلة معينة من التوتر السياسي. فسارعت المحطة الإذاعية ببث محتواها على موقعها الإلكتروني، وهو استغلال مبكر للغاية للبث الإلكتروني المسموع وبرهان على أنهم لن تُكمم أفواههم. قدمت الحكومة عذرًا واهيًا — يتعلق بانقطاع الإرسال بسبب الأحوال الجوية — ثم بعد فترة قصيرة عاودت الإذاعة بثها المباشر.

حقق معهد صحافة الحرب والسلام إنجازه الخاص: الاستغناء عن منشوره المطبوع (والذي لم يفلح قَطُّ في توزيعه كما ينبغي) واستبدال موقع إلكتروني به وأداء دور رئيسي خلال حملة كوسوفو التي اعتُبِرت أول «حرب إنترنت». بل واستحدثنا أيضًا قسمًا للتعليقات والآراء، غير أننا سرعان ما اضطُررنا إلى إغلاقه نتيجة لحجم الانتقادات المسيئة ذات الطابع القومي من كل الأطراف.

كتبت الصحفية الألبانية الشجاعة، ييركينا توهينا، خلال أول أسبوعين من القصف، عن تجاربها الشخصية وانفعالاتها وهي تنتظر مصيرها المحتوم على يد القوات الصربية بالنفي من بلدها أو ما هو أسوأ. ونظرًا للاهتمام البالغ بها، نشرنا كتابات توهينا على الموقع الإلكتروني وعبر قائمة بريدية إلكترونية، واشترتها منا على نطاق واسع صحف في بريطانيا وأوروبا وأمريكا الشمالية وغيرها. كنا نراها كتابات جيدة صادرة عن شاهدة عيان، لكن يمكن القول بأنها كانت، من عدة أوجه، أول مدونة حربية على مستوى العالم.

إن كل هذه التحولات سمحت لأي وسيلة إعلامية بجمع الأخبار وإنتاجها ونشرها على نطاق واسع إقليميًّا ودوليًّا (وبعدة لغات) بسهولة أكبر وتكلفة أقل. غير أن هذا لا يعني أن جميع هذه التجارب كانت جيدة للغاية: فقد اشتُهرت مقدونيا، في مرحلة ما، بوجود محطة تليفزيونية خاصة بكل قرية. لكن الصعوبات التي كانت تواجه دخول مجال الأخبار وآليات نشر الأخبار، وربما الأهم على الإطلاق، كما اكتشف معهد صحافة الحرب والسلام، التكلفة المستمرة وصعوبة جمع المعلومات، وهي المهمة التي كانت في غاية المشقة، كل ذلك تراجع تراجعًا هائلًا؛ فقد صار بإمكان وسائل الإعلام المحلية والمعارضة الانتشار، والازدهار بالفعل في كثير من الحالات، داخل البلقان وعلى مستوى العالم بالطبع.

ثاني العناصر الرئيسية هو «تطوير الإعلام». حتى حين أشرح عمل مؤسستي الآن (وهو تدعيم وسائل الإعلام المحلية في مناطق الصراعات)، يبادرني أغلب الناس

بنظرة غريبة للغاية، وكأنني قلت أعجب الأشياء وأبعدها عن الفهم، وكأنه عملية غامضة تستعصي على التصور.

يُعتبر قطاع تطوير الإعلام نفسه، في الحقيقة، حركة في طَوْر النضج حاليًّا، وحين عُقِد اللقاء التأسيسي لرابطتنا التي تشمل القطاع كله — والتي تحمِل اسم المنتدى العالمي لتطوير الإعلام — في العاصمة الأردنية عمان عام ٢٠٠٥، اجتذب ممثلين من ٤٠٠ مجموعة ومؤسسة إعلامية مختلفة من جميع القارات.

ومما يُحسب لقليل من المؤسسات، كالمركز الدولي للصحفيين، أنها بدأت في دعم الإعلام الحر حتى قبل انهيار حائط برلين. بينما انطلقت مؤسسات أخرى، مثل إنترنيوز، لممارسة أنشطتها في روسيا. غير أن الاختبار الحقيقي للقطاع كان بلا شك في البلقان؛ فعلى مدار عقد من الزمان، أنفقت هناك (ولا تزال تنفق ولكن بمقدار أقل بكثير) المجموعة الكاملة من المؤسسات المانحة الدولية، حكومية وخاصة، الملايين والملايين من الدولارات في محاولة لتحقيق السلام، والديمقراطية، والتنمية عن طريق الإعلام.

بدا، في بادئ الأمر، أن هناك شيئًا مثيرًا للشكوك حول الأمر كله؛ فما الغرض من إرسال ٥ آلاف دولار إلى مجلة في سراييفو، مهما كانت ممتازة، بينما القضية الحقيقية هي إخفاق الغرب في مواجهة المسلحين الصرب الكامنين فوق التلال والذين حولوا المدينة إلى حقل رماية؟

وُجِدت أخطاء أيضًا، لا سيما في المشروعات العملاقة «قليلة الجدوى» التي استهلكت مبالغ طائلة: «قارب السلام» في البحر الأدرياتيكي الذي لم ينجح في بث إرساله فوق مرتفعات الهرسك؛ وسلسلة وحدات الإرسال التي كان من المزمع نشرها حول صربيا والتي أصبحت قديمة من قبل أن يكتمل المشروع؛ وربما أشهر هذه المشروعات هو شبكة البث التليفزيونية «بيلتوفا» التي أُسِّست بعد انتهاء الصراع في البوسنة (ولذلك سُميت بهذا الاسم تيمنًا بالمندوب السامي الأول، السياسي السويدي كارل بيلت)، وتكلفت الكثير دون مردود كبير.

لكن هناك دروسًا مستفادة، على غرار أي تجربة تطويرية، وهي: تحرَّكْ تدريجيًّا وحافِظْ على تعاون واسع النطاق، وابدأ من أسفل إلى أعلى مرورًا بالتعاون مع الشركاء المحليين، وتجنُّب الإصلاحات السريعة للمسائل طويلة المدى.

إلى جانب ذلك، جرى تمويل قدر كبير من التدريبات الصحفية وغيرها من مبادرات بناء القدرات المهنية في جميع أنحاء المنطقة. وقد شملت الأنشطة التدريبية جميع

الجوانب، بدءًا من المهارات الأساسية وانتهاءً بالأساليب المتخصصة، ومن الصحافة الحقوقية والاقتصادية وحتى الصحافة الاستقصائية وأبحاث الإنترنت. آثر عدد لا يُحصى من الصحفيين الغربيين التوجه إلى البلقان في مهام قصيرة وطويلة المدى للعمل كمدربين ومرشدين، وقد أعربوا عن سعادتهم بنيل فرصة لـ «رد الجميل» لزملائهم في البلقان ممن ساعدوهم كثيرًا. وربما كان بعض هؤلاء الصحفيين الغربيين أفضل من غيرهم، لكن النوايا كانت مخلصة. إلى جانب ما سبق، شملت هذه المبادرات أيضًا تقديم برامج تبادلية لصحفيي البلقان، يسافرون بموجبها إلى البلاد الغربية ويزورون شبكات البث والصحف، والجامعات، والمنظمات الحقوقية غير الحكومية.

يركز المنهج الذي يتبعه معهد صحافة الحرب والسلام على الخبرة العملية، والتوفيق بين التدريب والتوجيه، والتعلم أثناء التلمذة أو أثناء العمل؛ وذلك في سبيل إنتاج تقارير صحفية في ظلِّ دعمٍ مكثف وإرشاد فَعَّال. كانت واحدة من أبرز تجاربنا التي لا تُنسى هي تجربة ذلك الصحفي البوسني النحيل والمتوتر بعض الشيء، القادم من مدينة موستار. تلقَّى هذا الصحفي تدريبه معنا في لندن لمدة أربعة أشهر خلال أسوأ مرحلة من القتال المُروِّع الدائر في تلك المدينة المكلومة، ثم جمع (كما كان من المفترض) مهاراته وعلاقاته المكتسبة حديثًا و«رجع إلى مدينته». ما حدث كان عصيًّا على الاستيعاب؛ فقد نجح في القيام بعمله الصحفي طوال فترة الحرب ولوقت طويل بعدها.

لقد ضاق المانحون والمشاركون ذرعًا إلى حد ما بـ «الحلقات التدريبية» المتواصلة التي تُفضي إلى نتائج هزيلة؛ لذلك تحوَّل الاهتمام إلى أنشطة أخرى. هناك جهود متواصلة، في الواقع، لمراجعة فترة الاستثمارات هذه التي شهدها القطاع الإعلامي في البلقان وتقييمها. فهناك شعور، رغم الإنجازات الكثيرة التي تحققت، بأنه لم تتحقق بالفعل تحسينات مهنية مستدامة، والأهم من ذلك الشعور بأن الإعلام قد أخفق في حل المشكلات السياسية الجوهرية.

لكن الإعلام في البلقان، بوجه عام، يتمتع بطاقات عالية وقدرات أساسية، كما أن «خريجي» البرامج والمشروعات الكثيرة المعنية بتطوير الإعلام مضوا يقودون وسائل الإعلام ومؤسسات تطوير الإعلام وغيرها من المؤسسات والمبادرات التي يجب أن تستمر في البلقان لمساعدة المنطقة في المضي قدمًا خلال العقد المقبل. وحتى لو ظلت نتائج هذه المبادرات منقوصة وغير متسقة، فيبقى هناك تفهُّم تام لوظيفة الإعلام الأساسية — وهي المساهمة في المحاسبة والحكم الرشيد — داخل نطاق المنطقة ومن جانب المانحين الغربيين.



شكل ٩-١: صحفي أفغاني تابع لمعهد صحافة الحرب والسلام أثناء مهمة صحفية (نُشرت الصورة بإذن من معهد صحافة الحرب والسلام).

نشأت، في الوقت نفسه، عدة منظمات لتطوير الإعلام أو قويت من خلال أنشطتها في البلقان وغيره من المناطق التي تخلصت من الأنظمة الشيوعية، وذلك قبل توسيع نطاق عملها ليشمل البلدان التي تشهد تحولًا عن الشيوعية ثم التوسع دوليًّا لاحقًا، ابتداءً من آسيا وأفريقيا إلى منطقة الشرق الأوسط التي تحظى بالاهتمام الراهن. كما انتشرت الدروس المستفادة من تجربة البلقان، وجرى تنقيحها ومضاعفتها، نتيجة لتحدياتٍ مختلفةٍ وطاقات إبداعية جديدة في مناطق أخرى. يعني هذا أن هناك زخمًا ملموسًا.

ربما يتمثل العامل الثالث في انتشار أهمية الإعلام المحلي — ولعله أهم العوامل — في العلاقات وتقدير قيمة المعرفة والفهم المحليين.

يجلب أي صحفي محلي وجهات نظره وتحيزاته الخاصة، لا محالة، إلى عمله. لكن الصحفيين المحليين، في المقابل، يعيشون واقع مجتمعاتهم قلبًا وقالبًا، ويفهمونها أفضل من غيرهم بطبيعة الحال. لقد أثبتت فئة، على الأقل، من صحفيي البلقان أن المهنية تغلبت على «المشاعر القومية»، مما أسهم مِن ثَمَّ في بناء ثقة متزايدة عبر الخط الفاصل





شكل ٩-٢: صحفيون أفارقة تابعون لمعهد صحافة الحرب والسلام أثناء أداء عملهم (نُشرت الصورتان بإذن من معهد صحافة الحرب والسلام).

بين المنظور المحلي والمنظور الدولي، وذلك بفضل المهارات والخبرة المتنامية، التي اكتسبوا أكثرها خلال ما قد يُعتبر أفضل نشاط تدريبي على الإطلاق: العمل ﻛ «معاونين» لوسائل الإعلام الدولية. على أيٍّ حال، مَن غير الصحفيين المحليين كان سيكرس كل ذلك الوقت في جميع هذه المناطق من أجل تغطيتها ونقل أخبارها كما ينبغي؟!

لا تزال وسائل الإعلام الغربية تستعين بمراسليها المتفرغين وغير المتفرغين في نقل الأخبار وتحليلها، ويبقى أغلب صحافة البلقان محل إشكال. غير أن المستويات المهنية تقاربت في بعض المجالات، ومن المؤكَّد بلا شك أن مقالات الرأي القوية المقدمة من مصادر محلية ستكون مُرحَّبًا بها بالفعل حاليًّا أكثر من أيِّ وقت مضى.

(٣) التدوين للجميع

إن جميع ما سبق من تطورات من شأنها أن تترك المسئولين التنفيذيين في وسائل الإعلام الأمريكية الجالسين لتناول غدائهم في ميدان التايمز أو غرب شارع ٥٩ في حالة قلق وضيق. لقد أظهرت عدة دراسات أجراها معهد بوينتر وغيره من المعاهد تراجعًا في الموارد المتاحة للمراسلين الأجانب وتقلصًا في المساحة المخصصة للأخبار الجادة؛ فمدير مكتب أخبار واحد مخصص لـ «أفريقيا» لن يتمكن بمفرده من أداء المهام على الوجه الأوفى. ومن الأمور التي لاقت تعليقات كثيرة هو ما تقتضيه الأخبار المذاعة على مدار الساعة من بث مباشر دائمًا أمام الكاميرات، وهو ما يعني عدم وجود وقت في الحقيقة للقيام بالأنشطة الصحفية. لقد أتاحت مثل هذه التطورات المجال أكثر أمام الإعلام المحلي، بالإضافة إلى المنظمات غير الحكومية، التي تؤدي مهامَّ أقرب إلى مهام وسائل الإعلام هذه الأيام، مع تمتُّعها بموارد مرصودة لجهود البحث الجاد.

هناك ثلاثة تطورات أخرى أسهمت في خلق تلك الفرصة السانحة للصحفيين المحليين؛ فما شهده الغرب من انتشار هائل في الإعلام وأشكاله المختلفة قد قوَّض المفهوم القديم للشبكات الإخبارية باعتبارها الملاذ الذي يجتمع حوله الجميع؛ فالأمريكيون لم يعودوا يلتفُّون حول التليفزيون لتلقِّي جرعتهم الإخبارية اليومية من رموز إعلامية محل ثقة من أمثال والتر كرونكايت. لقد ولَّت تلك الأيام وحل محلها موجات من التحزب والآراء الشخصية؛ تحوَّل تأثير سي بي إس إلى تأثير سي إن إن، الذي تفوَّق عليه تأثير فوكس.

مع تحوُّل التليفزيون إلى منبر أكثر تحزبًا وتشبثًا بالآراء الشخصية — وهو بالمناسبة تطور سلبي غالبًا، لا كليَّةً — يشهد الإنترنت التحول نفسه، من خلال الفضاء التدويني. فقد صار الجميع الآن معلقين، وصار الإنترنت بمنزلة صفحة الرسائل الموجهة إلى المحرر (لكنها غير محررة). ولا شك أن بعضًا من هذا المحتوى الإلكتروني قد يرقى ليكون إسهامات مدنية لا تُقدَّر بثمن، بينما البعض الآخر (كما كان الحال في قسم الآراء

والتعليقات الخاص بقضية كوسوفو الذي أسسناه منذ عشر سنوات) لا يتعدى كونه هراءً مثيرًا للاستهجان.

لكن في ظل مثل تلك الظروف، من له الآن أن يُشكِّك في مهنية أحد الصحفيين المحليين أو «موضوعيته» المزعومة، لا سيما لو نقل معلومات انفرد بها دون غيره أو أورد رؤية أو تجربة شخصية خاصة به؛ ففي مضمار المعلومات العالمي المتاح للجميع، يتمتع هؤلاء بحق الإدلاء بدلوهم، تمامًا كغيرهم.

لعب جيسون بلير دورًا أيضًا؛ فقد اضطرت صحيفة ذا نيويورك تايمز بسبب الأزمة الأخلاقية — التي تسبب فيها صحفيها جيسون بلير — الذي لم يكتفِ بتزييف الحقائق فقط، بل وكذب بشأن الموقع الذي زعم أنه أجرى فيه تقريره الصحفي — إلى وضع سياسة جديدة تتعلق بشفافية استقاء المعلومات (باري وآخرون ٢٠٠٣). وطالما عرف جميع العاملين في الوسط الصحفي أهمية المعاون و«الباحث» المحلي، الذي يؤدي أغلب مهام جمع المعلومات لأجل مدير المكتب أو المذيع أو المراسل المرموق، الذي يُنسب إليه العمل الصحفي في نهاية المطاف.

أما في ذلك العهد الجديد، فلا بد أن يتغير ذلك الوضع (ولو قليلًا على الأقل). أذكر التوجيهات التي تلقَّيتها من محرر مقالات الرأي لمنطقة الساحل الشرقي بأنه لا يفضل ظهور أكثر من اسم على المقالات (كنت أقدم مقالًا مشتركًا مع أستاذ جامعي بوسني) لأن هذا يشغل مساحة أكبر. أما الآن، فمن المعتاد أن تُذيَّل المقالات، حتى الإخبارية منها، بقائمة مطولة بأسماء الصحفيين الذين «أسهموا في إعدادها». ولم يعد الخط الفاصل بين مهام المعاون والصحفي واضحًا كما كان من قبلُ، وصارت أسماء «الكوادر المحلية» تجد طريقها، بطريقة أو بأخرى، إلى صفحات الجرائد، وذلك على نحو متزايد.

(٤) فوضى في بلاد الرافدين

انصهرت كل تلك التطورات في بوتقة العراق. مهما كانت وجهة نظرك حيال التدخل الغربي نفسه في العراق، فلا مراء في أنه يجب مساعدة هذا البلد على المضي قدمًا. يبدو أن الإعلام العراقي مهيَّأ لكي يشهد طفرة حقيقية، وذلك بالنظر إلى التجارب التي شهدها العقد الماضي في قطاع تطوير الإعلام ووجود طبقة مهنية عراقية يملؤها النشاط والحماس مستعدة للمشاركة الإعلامية.

في الأيام الأولى المثيرة التي أعقبت سقوط صدام حسين، انتشرت المطبوعات انتشار النار في الهشيم، وانطلقت المحطات الإذاعية في جميع أنحاء البلاد، وسجلت أطباق الأقمار

الصناعية مبيعات ضخمة في محال بيع الأجهزة الإلكترونية في بغداد وغيرها من المدن العراقية؛ فبعد عقود حُرِم خلالها العراق من المعلومات الحقيقية في ظل حكمٍ واحدٍ من أعتى الأنظمة الدكتاتورية في العالم، كانت البلاد على أهبة الاستعداد لتلقِّي الأخبار، وكانت المفاجأة.

إن استعراض المشهد الإعلامي العراقي على نحو مفصل يمكن أن يكون محل نقاش في موضع آخر. لكن من الغني عن البيان أن الانتشار الهائل في المنافذ الإعلامية لم تقابله طفرة مكافئة في الجودة المهنية، وذلك بالرغم من التطور الإيجابي للغاية الذي شهده الإعلام العراقي بوجه عام. إن الخطأ الأفدح على الإطلاق في هذا الشأن هو ذلك الذي ارتكبته الإدارة الأمريكية التي استثمرت ما يقارب ٢٠٠ مليون دولار في إنشاء شبكة بث عامة أطلقت عليها شبكة الإعلام العراقي، وهو أمر لا يدعو إلى العجب. لكن المفارقة الحقيقية هي أن واشنطن اختارت لتنفيذ تلك الشبكة التعاقد مع متعهد دفاعي من فرجينيا معروف بنشاطه في نشر الأسلحة لا الأخبار، وكانت النتائج متوقَّعة بلا شك. لا يدري أحد أين انتهى المطاف حقًّا بنسبة كبيرة من تلك الأموال.

على الرغم من وجود كل هذه المهن الداعمة للإعلام الحر والديمقراطية، فلم يكن هناك بالفعل أي استثمار استراتيجي يُذكَر في الإعلام العراقي المستقل، مع إنفاق ٨٧ بالمائة من كل الدعم الإعلامي الدولي (حسبما أورد بحث صادر عن معهد صحافة الحرب والسلام) و٩٦ بالمائة من الدعم الممنوح من الإدارة الأمريكية على شبكة الإعلام العراقي، أما باقي الدعم فموزَّع على مشروعات متفرقة قصيرة المدى، هذا إلى جانب مقدار غير معلن من الدعم المخصص للعلاقات العامة والدعاية التي يوجهها الجيش الأمريكي. لقد كانت هذه فرصة مهدرة على نطاق هائل، لا سيما أنها جاءت بعد دروس كان من المفترض أن تتعلمها الإدارة الأمريكية من تجربة البلقان.

لكن كل شيء في العراق اختُزِل في الجانب الأمني في نهاية الأمر؛ فبحلول أغسطس ٢٠٠٧، لقي ما يزيد عن ٢٢٠ صحفيًّا وإعلاميًّا حتفهم في العراق؛ على سبيل المقارنة، فقدَ ٦٨ صحفيًّا حياتهم في الحرب العالمية الثانية و٦٦ خلال حرب فيتنام. إن هذه الأرقام مستمَدَّة من لجنة حماية الصحفيين (٢٠٠٤)؛ بينما تذكر مجموعات أخرى أعدادًا أكبر، اعتمادًا على إحصائيات مختلفة أو تعريفات مختلفة لكلمة «إعلاميين».

أضف إلى كل الأزمات التي يعانيها الإعلام الدولي تلك الحقيقة المجردة بأن هناك حاليًّا أماكن يستحيل على الصحفيين الغربيين العمل فيها؛ فقد أصبحت مسائل السلامة

والأمن أولويات كبرى (ويرجع الفضل في جزءٍ كبيرٍ من هذا التحول إلى جهود أحد محرري هذا الكتاب، وهو جون أوين)، كما بددت (أو هكذا يجب) حوادث كإعدام دانييل بيرل أي شعور باقٍ بالمجد الطائش في مغامرات في دول أجنبية.[١]

نتيجة لذلك، اضطرت وسائل الإعلام الغربية إلى الاعتماد على الصحفيين المحليين في العراق كما لم تفعل من قبلُ (تلقَّى كثير منهم تدريبهم من خلال برامج معهد صحافة الحرب والسلام)، وقد استجاب العراقيون لتلك الحاجة. إن مما يدعو للأسى أن هؤلاء يضحُّون بحياتهم في سبيل هذه المهمة؛ إذ يمثل الصحفيون العراقيون ٨٠ بالمائة من مجموع الصحفيين الذين فقدوا حياتهم في العراق حسب إحصائية لجنة حماية الصحفيين.

لكن العراقيين نجحوا في تمييز أنفسهم أيضًا؛ فقد وقعت الأغلبية الساحقة من وسائل الإعلام العراقية في شرَك الحزبية أو الطائفية؛ إذ أطلق كل حزب، ورجل أعمال، وزعيم ديني منصاته الإعلامية الخاصة وصار الفضاء العام يعكس فوضى من الجدل والحروب الكلامية.

غير أن ثمة استثناءات جديرة بالملاحظة؛ ففي داخل العراق، أطلق راديو دجلة ظاهرة إعلامية — تذكِّرنا بفيران ماتيتش — قوامها برامج حوارية أطلقت العنان لسيل جارف من الحوارات والمناقشات العامة (وحالة عامة من التذمر الشامل) التي كُبِتت لعقود. كما أن عددًا من المطبوعات في بغداد وأربيل، بل وبعض المشروعات المشتركة من لندن، وجدت طواقم العمل، والموارد، والنواة الأساسية لتقديم منتجات احترافية ذاتَ مصداقية. فاستعانت صحيفة ذا جارديان في لندن بصحفي عراقي غير متفرغ، وهو غيث عبد الأحد، الذي برز بوصفه مراسلًا استثنائيًّا ونال جائزة جيمس كاميرون المرموقة للصحافة الأجنبية عام ٢٠٠٧، ليكون أول مراسل محلي يفوز بها. كما جرى التعاقد مع «سلام باكس»، الذي يُعرف بمدون بغداد، للعمل في أحد أهم البرامج الإخبارية البريطانية. من الجدير بالذكر أن أولى مدوناته برزت إلى النور مع اللحظات الأولى للحرب على العراق وأثارت ذهول القُرَّاء، كما أصبح مُعدًّا متميزًا لليوميات والوثائقيات المرئية، قدَّم من خلالها رؤًى ثاقبة ومؤثرة لمحنة عراق اليوم ودينامياته.[٢]

اتضحت لمنظمتي أهمية ذلك المزيج المكون من التفاني والمهارة في شهر يونيو، وذلك عند اغتيال زميلتنا سحر حسين الحيدري خارج منزلها في أحد شوارع الموصل. كانت سحر مراسِلة صحفية وإذاعية، وقد عملت لعدة مطبوعات محلية، ووكالة أخبار عراقية، ومعهد صحافة الحرب والسلام، كما أنها كانت العائل الرئيسي لأسرتها. كانت سحر أيضًا

تعاني صراعًا عميقًا؛ إذ كانت تشعر في بعض الأحيان بحاجة ماسة إلى مغادرة البلاد، وذلك حين أُدرج اسمها على قائمة المطلوبين لتنظيم القاعدة، لكن في أحيان أخرى كانت تنتابها رغبة جارفة لمواصلة عملها الصحفي إلى حدٍّ أنها عادت إلى العراق دون أن تخبر أحدًا من محرريها القلقين عليها.

قالت سحر، قبل بضعة أشهر من اغتيالها: «إن حالتنا النفسية غير مستقرة نظرًا لأننا نعيش ونفكر في خوف وقلق، ودائمًا ما نفكر في مصيرنا ومصير ذوينا. لكنني لم أفكر قَطُّ في الاعتزال، فالصحافة هي حياتي، وأنا أحبها حقًّا.»

(٥) فكِّر عالميًّا وتصرف محليًّا

لقد سيطر الإطار العام للحرب الباردة، فيما قبل عام ١٩٨٩، على الإعلام والسياسة على حد سواء، كما خلق شعورًا ما، ولو كان غير منصف، بالهيمنة الشديدة للأجندات الإخبارية الغربية، والأمريكية بالأحرى. فلو لم تُشر صحيفة ذا نيويورك تايمز إلى الحدث، فإن هذا يعني أنه لم يحدث بعدُ، كما أن القيم الإخبارية المزعومة — ١٠٠ فلاح يساوون ١٠ قساوسة وهو ما يساوي أمريكيًّا واحدًا — كشَّرت عن أنيابها. لقد بُذِلت جهود مشرفة لتعزيز التغطية الإخبارية من دول العالم النامي — مجلة ساوث ووكالة إنتر برس سيرفيس — وكان هناك مبرر منطقي للبيئة الإعلامية العامة، وذلك في سياق الصراع ثنائي القطب بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، رغم أن الكثيرين منا كان يبغضها.

لقد اختلف العالم الآن اختلافًا كاملًا، لا سيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. تُمثل الولايات المتحدة الأمريكية الآن «القوة العظمى» الوحيدة، لكن القوة الحقيقية تمتد على نطاق أوسع ولم يعد هناك وجود لرواية سياسية غالبة. وصارت الأخبار المحلية أكثر تعقيدًا عن ذي قبلُ، وربما أكثر أهمية، كما أثبت أسامة بن لادن. وفي الوقت الذي يتغير فيه هيكل البيئة الإخبارية الغالبة تغيرًا جذريًّا، صارت الحاجة إلى المعلومات المفصلة من جميع أنحاء العالم أكثر إلحاحًا من أيِّ وقت مضى.

لذلك فإن الانتشار الهائل في الإعلام المحلي جدير بأن يلقى الترحيب، لا الخوف. وسوف تجد شبكات البث ووسائل الإعلام الغربية طريقًا للبقاء على الساحة والمحافظة على هيمنتها، رغم كل التغيرات. وستبقى جودة رويترز، على سبيل المثال، وأهميتها أفضل إمكانياتها، وستكون مطلوبة دائمًا.



شكل ٩-٣: سحر حسين الحيدري، مراسِلة معهد صحافة الحرب والسلام، التي قُتِلت في الموصل بالعراق خارج منزلها عام ٢٠٠٧ (نُشرت الصورة بإذن من معهد صحافة الحرب والسلام).

كما أن الإعلام المحلي لا يزال يعاني مشكلات جسيمة؛ فالصحافة في زيمبابوي تكاد تكون محظورةً قانونيًّا على أي شخص يسعى للعمل بمهنية والتغريد خارج سرب الحزب الحاكم، أما في إيران، فإن ممارسة الصحافة النقدية تنطوي على مخاطر تتراوح بين السجن، والضرب، والشنق علنًا.

يخالف معهد صحافة الحرب والسلام أسلوب «المبالغة في التدريب النظري الممل»، حيث نعمل مع آلاف من الصحفيين المحليين وأعمالهم الصحفية، ونرى كلًّا من قدراتهم ونقاط ضعفهم. إن هناك حاجة دائمة لتعزيز المهارات الأساسية وتحديثها، كما تبرز

دائمًا أهمية الموضوعات المتخصصة. ولا شك أن المخاوف المالية لوسائل الإعلام الرئيسية غالبًا ما تتضاءل إذا ما قورنت باستحالة خلق إعلام محلى «مستدام» في بلدان لا تملك اقتصادًا فاعلًا.

إلا أنه، ورغم كل هذه المعوقات، هناك تنامٍ في مشهد إعلامي محلي نابض بالحياة. ربما تتفاوت الأساليب بين الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وباقي الدول الأوروبية، كما ستوجد مناهج مختلفة حول العالم لعرض المادة الإخبارية. فليس على الجميع الاقتناع بضرورة ألا تتجاوز الفقرات الافتتاحية في المقالات الصحفية ٢٥ كلمة، لكن يمكن الإجماع على مفهوم المعايير الدولية والأعراف الأخلاقية والصحفية الأساسية، كما أن ثمة تزايدًا سريعًا في عدد الجهات الموثوق فيها والمحترمة التي تضطلع بجمع الأخبار والمعلومات ونشرها.

لعل أهم ما أسفرت عنه كل هذه التطورات هو ببساطة ما تحقَّق من تغيُّر في التفكير: تراجع مفهوم الفصل بين «الصحفي الدولي» (أي الأمريكي أو البريطاني) مقابل «الصحفي المحلي»؛ فالمهم هو المعلومات، وما ينبغي الاحتفاء به حقًّا هو من يصل إلى تلك المعلومات وما يوظفه من أساليب متعددة لجمعها، وإنتاجها، ونشرها. إن الجودة والالتزام هما كلمة السر، لا جنسيتك أو جنسية من تعمل في مؤسسته.

كانت آنا بوليتكوفسكايا أكثر مؤرخي المأساة الشيشانية الطويلة اطلاعًا وتفانيًا. إن جودة عملها، والطبيعة النقدية اللاذعة التي اتسمت بها رؤاها، والالتزام الذي أبدته في أسفارها مُعرِّضةً نفسها للخطر وذلك في سبيل التحدث إلى الناس العاديين القاطنين في ذلك الإقليم المتنازع عليه؛ كل هذه الأمور تتحدث عن نفسها. لم يكن أحد ليقدر — أو، بالنظر إلى المخاطر المحدقة، ليُقدم — على مواصلة نقل الحقيقة من هناك كما فعلت آنا، ولولا ما قامت به، لكانت الشيشان بالفعل لغزًا غامضًا. لقد انهالت على آنا الجوائز الصحفية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، غير أن المكان الوحيد الذي لم تحظَ فيه بالتقدير كان موسكو، حيث اغتيلت في النهاية في خريف عام ٢٠٠٦.

في خضم السخط والأسى الذي أعقب وفاتها، حظيت آنا بإشادة واسعة حول العالم، ليس باعتبارها مراسِلة «محلية»، أو ناشطة، أو شخصية انخرطت «أكثر من اللازم» في الشأن الشيشاني، بل لِما كانت عليه في الواقع؛ فقد كانت واحدة من أعظم صحفيي جيلها على الإطلاق. لا توجد شهادة أفضل من تلك.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) هل ماجي أوكين محقة فيما قالت؟ هل حان الوقت للمؤسسات الإخبارية «الغربية» أن تكف عن إرسال مراسليها الدوليين لتغطية الأخبار في مناطق الصراع الخطرة، حيث من الأفضل، لدواعي السلامة أو لأسباب ثقافية، الاستعانة بمراسلين محليين ملمين باللغة ولديهم إمكانية الوصول إلى المعلومات بخلاف «الأجانب»؟ أم هناك حاجة دائمة للمنظور الخارجي المستقل الذي يقدمه المراسلون الأجانب المدربون ممن يُضْفون على القصة الإخبارية من الخبرة، والسياق، والرؤى الجديدة ما قد لا يتمتع بها المراسلون المحليون لأسباب عديدة؟

(٢) كيف زادت التكنولوجيا والإنترنت من خطورة عمل الصحفيين المحليين لحساب المجموعات الإعلامية الدولية؟

(٣) ما المسئوليات التي تتحملها المؤسسات الإخبارية الدولية تجاه المراسلين المحليين غير المتفرغين أو المستقلين في حال لحق بهم مكروه؟

(٤) ما الصعوبات التي يواجهها الصحفيون المحليون في مهامهم الصحفية اليومية، لا سيما في مسعاهم لنقل الأخبار التي تكشف قضايا الفساد أو انتهاكات حقوق الإنسان؟

(٥) أيمكن حقًّا للمنظمات غير الحكومية/الصحفية مثل معهد صحافة الحرب والسلام، أو هيومن رايتس ووتش، أو مجموعة الأزمات الدولية أن تتمتع بالاستقلالية الحقة بينما تعتمد على تبرعات المانحين وتميل إلى التحيز متى كان ذلك ضروريًّا؟

هوامش

(١) كان دانييل بيرل مراسلًا لصحيفة ذا وول ستريت جورنال، وقد تعرَّض للاختطاف والقتل في باكستان عام ٢٠٠٢.

(٢) كان سلام باكس طالبًا في برنامج ماجستير الصحافة الدولية التابع لجامعة سيتي خلال الفصل الدراسي ٢٠٠٧–٢٠٠٨.

الفصل العاشر

خوض المخاطر الصحيحة

كريس كرامر

تمهيد
جون أوين

حين قضى المصور العراقي ذو الاثنين وعشرين ربيعًا، نمير نور الدين، نَحبه إثر قصف جوي أمريكي في يوليو عام ٢٠٠٧ في شرق بغداد، صار خامس صحفي لدى رويترز يفقد حياته أثناء تغطية حرب العراق. كما أن سائقه ومساعده العراقي سعيد شماغ، وهو أب لأربعة أطفال، قُتِل أيضًا في ظروف قد لا تُفسَّر أبدًا تفسيرًا كاملًا لعائلته أو لعائلة نمير أو لوكالة أنباء رويترز.

تعرَّض بعدها بيوم في العراق صحفي عراقي آخر للقتل وهو خالد حسان، ذو الثلاثة وعشرين ربيعًا، وكان يعمل مراسلًا ومترجمًا لدي صحيفة ذا نيويورك تايمز؛ إذ قُتِل رميًا بالرصاص وهو في طريقه إلى عمله. أفادت لجنة حماية الصحفيين أن طريقه المعتاد إلى مكتبه أُغلق يوم مقتله لأسباب أمنية وأنه أُجبر على سلك طريق بديل.

ولقي صحفيان ومساعد إعلامي مصرعهم في غضون أسبوع واحد بالعراق خلال حرب أودت، حتى أغسطس ٢٠٠٧، بحياة أكثر من ٢٢٠ صحفيًّا وإعلاميًّا، أكثر من ٨٠ بالمائة منهم عراقيون.

إن مصرع هؤلاء العراقيين الثلاثة يُبرز واحدة من الإحصائيات والنتائج القاتمة التي توصَّل إليها المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين إثر تحقيقاته في حوادث موت الصحفيين خلال عشر سنوات: لقد تعرَّض صحفيان للقتل كل أسبوع في مكان ما بالعالم خلال تلك الفترة. أصدر المعهد تقريرًا عام ٢٠٠٧ بعنوان «قتل الرسل»، تناول فيه ما أسماه بأشد العقود دموية في تاريخ الصحفيين، وهو العقد الذي يمتد من عام ١٩٩٦ وحتى ٢٠٠٦؛ إذ فقد ألف صحفي وإعلامي حياتهم خلال تلك الفترة، وتعرَّض ثلثهم تقريبًا للقتل.



شكل ١٠-١: صار المصور العراقي نمير نور الدين، ٢٢ عامًا، خامس صحفي تابع لرويترز يتعرض للقتل خلال تغطية حرب العراق، يوليو ٢٠٠٧ (نُشرت الصورة بإذن من أسوشيتد برس، بعدسة المصور خالد محمد).

قيل إن قتل صحفي هو أقصى أشكال الرقابة. تؤكد الدراسة الصادرة عن المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين الحقيقة المروعة التي تقول إنه في عدد كبير جدًّا من البلدان، يتمكن المسلحون أو القتلة المأجورون من قتل الصحفيين مع الإفلات من العقوبة، وهو المصطلح الذي تستعمله المجموعات المعنية بحُرية الصحافة للدلالة على شبه اليقين لدى القتلة بأنهم لن يتعرضوا أبدًا للاعتقال أو لن تنجح مساعي محاكمتهم ومعاقبتهم.

إن ما تُذكِّرنا به تلك الدراسة هو أن من يدفعون الثمن الأكبر هم الصحفيون المحليون الذين يُستَهدَفون بالقتل لتقصِّيهم انتهاكات حقوق الإنسان، ووقائع الفساد الحكومي، والجريمة المنظمة.

نادرًا ما يُسلط الإعلام الدولي الضوء على مقتل الصحفيين المحليين، لكن اغتيال الصحفية الروسية آنا بوليتكوفسكايا في موسكو في أكتوبر ٢٠٠٦، كما ذكرنا في الفصل السابق، كان استثناءً لتلك القاعدة. كانت آنا ممن يُجاهرون بانتقاد الرئيس بوتين في الصحف والمؤتمرات الدولية. كما رفضت

التوقف عن تغطية الانتهاكات التي تمارسها القوات الروسية لحقوق الإنسان في حرب الشيشان المنسية؛ لذلك لقيت آنا مصرعها جرَّاء إطلاق النار عليها أثناء دخولها المصعد في البناية التي تقطن بها بموسكو.

ما تعيره وسائل الإعلام الدولية اهتمامًا أكبر هو مقتل الصحفيين وطواقم التصوير العاملين لدى كبرى الشبكات أو الصحف الغربية أثناء أداء عملهم. كان أشهر مثال على ذلك هو مراسل صحيفة ذا وول ستريت جورنال، دانييل بيرل، الذي نُشِر مقطع إعدامه البشع على المواقع الإلكترونية.[١] وحين احتجزت جماعة إسلامية مسلحة مراسل الشرق الأوسط التابع لبي بي سي، آلان جونستون، في غزة لمدة تزيد عن ثلاثة أشهر عام ٢٠٠٧، حرصت شبكة البي بي سي على ألا تُنسى محنة جونستون التي انتهت بإطلاق سراحه دون أن يمسه أذًى.



شكل ١٠-٢: رجل يمر بجانب زهور موضوعة أمام منزل الصحفية الروسية آنا بوليتكوفسكايا بوسط موسكو، في أكتوبر ٢٠٠٦ (نُشرت الصورة بإذن من تومسون رويترز، بعدسة المصور سيرجي كارباكين).

بالنسبة إلى رويترز وبي بي سي، وهما من أحرص المؤسسات الإخبارية فيما يخص تدريب طواقمها الإخبارية وحمايتهم، يعد ذلك تذكيرًا صارخًا لهما بأن صحفييهما عُرضة دائمًا للمخاطر في عالم ما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

رغم أن الجهود المبذولة لحماية الصحفيين في أماكن كالعراق تبدو بلا طائل، فإن هناك ما يُبرر بقوةٍ الحرص على منح تدريبات خاصة بالبيئات العدائية ودورات الإسعافات الأوَّلِيَّة لكلِّ عضو من أعضاء الطواقم الإخبارية، سواءٌ أكان صحفيًّا دوليًّا، أم مراسلًا محليًّا، أم مستقلًّا، أم مساعدًا إعلاميًّا.

بدأت حركة تدريبات السلامة تخطو أولى خطواتها الجادة في منتصف التسعينيات حين اتضح أن الصحفيين الدوليين المنخرطين في تغطية الحروب والصراعات المندلعة في البلقان عقب انهيار الاتحاد السوفيتي وجدار برلين يواجهون أخطارًا لم يشهدوها مِن قبلُ. وبدلًا من أن يعتري الصحفيين القلق من التعرض للقتل نتيجة وجودهم في المكان الخطأ والتوقيت الخطأ، صاروا الآن محل استهداف من المتمردين والميليشيات الذين لا يُبدون أي احترام أو تفهُّم للقانون الدولي وحقوق الصحفيين في تغطية أخبارهم. كما أن الصحفيين الذين اعتادوا على التجول حيث أرادوا دون حماية خاصة صاروا يفقدون حياتهم بأعداد متزايدة. فحسب إحصائيات لجنة حماية الصحفيين (التي أخفقت في إدراج أعداد الصحفيين المحليين الذين يعملون على نحو قانوني كمساعدين إعلاميين (معاونين محليين و/أو مترجمين) ضمن إحصاءاتها)، لقي ٤٢ صحفيًّا مصرعهم خلال عام ١٩٩٢، وازداد العدد عام ١٩٩٣ ليصل إلى ٥٧ صحفيًّا، أما عام ١٩٩٤ فقد بلغ عددهم ٦٦ صحفيًّا (لجنة حماية الصحفيين ٢٠٠٧).

وكما هو الحال في أيِّ أمر يتعلق بالأخبار، لم يجذب انتباهنا سوى الاستثنائي والخارق للعادة. شهدت مقديشو في أكتوبر ١٩٩٣ تعرُّض ثلاثة صحفيين ومهندس صوت تابع لوكالة إخبارية للضرب حتى الموت على يد حشد من الصوماليين الحانقين بسبب هجوم جوي أمريكي أوقع أعدادًا كبيرة من الضحايا في غارة فاشلة على ما كان يُعتقد أنه مقر الجنرال الصومالي محمد عيديد. كان من بين من قتلتهم الجموع الصومالية دان إلدون، الصحفي الفوتوغرافي الموهوب الذي كان يعمل لحساب رويترز ولم يتجاوز الثانية والعشرين من عمره. أقدمت والدته، كاثي، وأخته، إيمي، لاحقًا على إنتاج فيلم وثائقي مؤثر بعنوان «الموت في سبيل إيصال الخبر»، يحكي قصته والتضحيات التي بذلها غيره من الصحفيين ممن فقدوا حياتهم.

غير أن الصحفيين المحليين ووسائل الإعلام المحلية ممن يعملون تحت وطأة الحروب الأهلية والانقلابات العسكرية الوحشية هم الذين عانوا مخاطر أشد، لكن مصابهم لم يسترعِ، كالعادة، اهتمامًا دوليًّا كبيرًا. عُقِد في المركز الأوروبي التابع لمنتدى الحرية بلندن في سبتمبر ١٩٩٧ ما قد يُعد واحدًا من أوائل المؤتمرات المعنية بقضية تدريبات السلامة. أعرب خلال هذا المؤتمر روبير مينار،

الأمين العام لمنظمة «مراسلون بلا حدود» الكائنة في باريس، عن إدانته لمقتل ٥٩ صحفيًّا في الجزائر في الفترة بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٦، مشيرًا إلى أن ٥٨ منهم كانوا جزائريين.

بعد مرور عشر سنوات من انعقاد هذا المؤتمر المهم حول سلامة الصحفيين في لندن، يبقى أبرز الداعين إلى تدريبات السلامة هو كريس كرامر، الذي كان يتولَّى حتى وقت قريب منصب نائب الرئيس التنفيذي لقناة سي إن إن إنترناشونال ومدير تحريرها. فحين تحدَّث كرامر في منتدى الحرية، كان مديرًا لعملية جمع الأخبار في بي بي سي، وهو المنصب الذي منحه سمعة بوصفه مديرًا مثيرًا للخوف والإعجاب في آنٍ واحدٍ. كانت القصص تنهال تَترى حول «كرامر» (كما يُعرَف على نطاق واسع في عالم الأخبار التليفزيونية) وإشرافه الصارم الذي لا يقبل الهزل على المراسلين والمنتجين.

كان لتأييد كرامر، القائد الصارم، لمبادرات تدريبات السلامة واستشارات الصدمات النفسية دوره في إضفاء الشرعية عليها داخل شبكة بي بي سي كما منحها مصداقية داخل غيرها من المؤسسات الإخبارية التي ما لبثت أن انتبهت لمسئولياتها تجاه حماية كوادرها وتدريبهم. كنت مديرًا لمكاتب سي بي سي الخارجية في ذلك الوقت، ونتيجة لأن كرامر وشبكة بي بي سي أقدما على شراء سيارات مصفحة وتزويد طواقمهما الميدانية في البوسنة بالمعدَّات اللازمة، استطعت أن أقدم مبررات أكثر إقناعًا لزملائي في تورونتو بضرورة بذل المال لتقليدهما.

بالإضافة إلى ما سبق، أسهم كرامر بدور فعال في التأسيس لعمل المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين وتعزيزه، كما يواصل عمله رئيسًا شرفيًّا له.

مراجع

Committee to Protect Journalists (2007) Journalists killed in 2007. http://www.cpj.org/killed/killed07.html.

International News Safety Institute (2007) *Killing the Messenger: Report of the Global Inquiry by the International News Safety Institute into the Protection of Journalists.* INSI.

إن من أكثر جوانب إدارة السلامة إثارةً للإحباط هو وقوع حدث يقوض كل ما ظننا أننا أنجزناه وحققناه خلال العشرين عامًا الماضية بصدد إبراز أهمية السلامة والتوعية بها في مجال الإعلام.

كان آخر تلك الأحداث بالنسبة إليَّ هو الصراع الإسرائيلي-اللبناني في أغسطس ٢٠٠٦. نشرت شبكة سي إن إن حينها في هذه المنطقة كوكبة من كوادرها هي الأكبر

منذ عدة سنوات؛ ما يقرب من ١٢٠ موظفًا، بما فيهم الموظفون المُوفَدون إلى هناك بالفعل والمراسلون والمنتجون والمعاونون وطواقم تصوير، إلخ. كان الصراع أخطر نشوب لأعمال قتالية منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضي، وكان بلا شك يستحق ذلك النوع من التغطيات التي تُشتهر بها تلك الشبكة الكبيرة.



شكل ١٠-٣: أدريان أرسينو، مُراسلة القسم الإخباري بشبكة سي بي سي، وهي ترتدي سترة واقية من الرصاص في عام ٢٠٠٦ (نُشرت الصورة بإذن من القسم الإخباري بشبكة سي بي سي).

كان من الواضح أن سلامة موظفينا تحتل صدارة اهتماماتنا بينما نبعث بكوادرنا من أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا والولايات المتحدة الأمريكية. هل تلقَّوا تدريبات

للتعامل مع المعارك؟ أمزودون هم بالمعدَّات الملائمة؟ ألديهم مركبات النقل المناسبة وبصحبتهم أفراد أمن؟

يُعد طرح هذه التساؤلات، وتقديم إجابات مناسبة لها، من الممارسات المعتادة حاليًّا عند تكليف المحررين والمنتجين بمهام صحفية في شبكة سي إن إن، وفي واقع الأمر، في أغلب المؤسسات الإخبارية المعتبَرة، وذلك في سعيها للتغلب على المخاطر التي تكتنف تغطية عالمنا المضطرب. لقد لقي المزيد من الإعلاميين وداعميهم مصرعهم خلال السنوات القليلة الماضية أكثر من أيِّ وقتٍ مضى؛ ففي عام ٢٠٠٧، وحتى تاريخ تأليف هذا الفصل (٢٨ نوفمبر)، بلغ عدد الصحفيين والإعلاميين الذين قضوا نحبهم ١٧١ (المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين ٢٠٠٧ج).

ربما تبدو الانتكاسة التي أشير إليها تافهة لكنها تُمثِّل أساسًا لإنجازين وتراجعًا في مجال حماية الكوادر الصحفية.

إن المحادثة التي أصابتني بالاكتئاب هي تلك التي أجريتُها مع مكتب الإرساليات الصحفية حول مراسل ينقل الأخبار من منطقة حربية دون ارتداء سترة واقية من الرصاص، وقد بدا لي أنه يُعرِّض نفسه لمخاطر لا مبرر لها، لا سيما وأنه كان يُقدِّم تغطية متواصلة من أحد طرفَي الصراع.

أخبرني العاملون بالمكتب بما يلي: «إنه لا يرغب حقًّا في ارتداء السترة. إنه يشعر أن إجباره على ارتداء سترة واقية من الرصاص لا يختلف عن إجبار تلميذ جديد في المدرسة على ارتداء سترته، إلا أنه سوف يرتديها لو صممنا.»

وهو ما فعلناه بالتأكيد.

ما يجعل هذه المحادثة باعثة على الاكتئاب بالنسبة إليَّ هو أنها ذكَّرتني بحوار شهدته حين كنت مديرًا لعملية جمع الأخبار في شبكة بي بي سي أوائل التسعينيات، وكان يتسم بالنوع نفسه من استعراض العضلات. كان هناك مراسلون وطواقم دعم رافضون لمحاولات الإدارة الرئيسية فرض رؤاهم حول السلامة على الطواقم الإخبارية العاملة على خطوط المواجهة الأمامية؛ أولئك العاملون المعاندون الذين رأوا ذلك، في أفضل الأحوال، نوعًا من التدخل «الأبوي»، وفي أسوئها، كإجراءات وُضعت لتقليص مسئوليات الشركة القانونية حيال من يعملون في بؤر القتال.

ولا شك أن الحقيقة ليست هذه ولا تلك.

بالرغم من ذكائهم البادي، يعتقد الإعلاميون، بوجه عام، أنهم في مَنَعة مما يتولون تغطيته؛ إذ ينطلقون بالآلاف كل عام لنقل الصراعات والاضطرابات في جميع أنحاء

العالم، محتمين بقناعتهم أنه لا يمكن للعنف المحيط بهم أن يصيبهم بأيٍّ أذًى، معنويٍّ أو ماديٍّ. ثم يعودون إلى كنف منازلهم وعائلاتهم ويواصلون ما انقطع من نشاطاتهم. قد يبدو الأمر بالنسبة إلى كثير منهم، كما وصفه أنتوني لويد في كتابه «كم أشتاق إلى حربي التي انقضت»، كالقفز من قطار مسرع: سرياليًّا ومخيفًا وكثيرًا ما يُفضي إلى اكتئاب حاد (لويد ١٩٩٩).

لا تعترف صناعة الإعلام في أغلبها بتأثير اضطراب ما بعد الصدمة على المراسلين والمصورين وغيرهم ممن يعملون في مجال الأخبار. بل إن كثيرًا من المؤسسات الإخبارية لم تقبل إلا مؤخرًا مجرد التفكير في مدى جاهزيتها لما يقوم به كثير منها بصفة منتظمة.

لنتناول أولًا تدريبات السلامة البدنية.

إلى وقت قريب جدًّا، ربما منذ عشر سنوات فقط، كانت المؤسسات الإعلامية في أغلبها تعتقد أن الصحفيين لا يفعلون سوى واجبهم: التوجه إلى ساحات الحروب أو البيئات العدائية، وتغطية كل ما يجري، ونقله، ثم الخروج مرة أخرى. كان تنفيذ ذلك دون الإصابة بأذى غالبًا ما يعد مسألة حظ لا تقدير. فقط اروِ الخبر، وعُد إلى بيتك واحسب نفقاتك المالية، ثم استجم حتى تحين مهمتك التالية.

لم تكن تتلقى تدريبًا قبل بدء عملك، بل كنت تتعلم أثناء أداء وظيفتك، محتفظًا بمشاعرك وتجاربك لنفسك، وإذا كنت محظوظًا، فسوف تُكلَّف بمهمة جديدة بعد إخفاقك في مهمة ما.

بدأت الأمور تتغير مؤخرًا.

تزامن التغيير في شبكة بي بي سي مع تشريع شاقٍّ للغاية صدر في أوائل التسعينيات نص على أن أصحاب الأعمال مسئولون عن الجهات التي يرسلون إليها موظفيهم، وعن المهام التي يكلفونهم بها، وعن الكيفية التي يطالبونهم باتباعها في تنفيذ مهامهم.

كانت تغطية صحفيي شبكة بي بي سي لحصار مدينة دوبروفنيك في أكتوبر ١٩٩١ بمنزلة ناقوس الخطر بالنسبة إليَّ. لقد قرر الفريق الذي كلفته بتغطية الحدث أن الوضع من الخطورة بحيث لا يمكنهم البقاء هناك؛ فالمدينة تحت قصف متواصل مما يُعرِّض حياتهم للخطر، ولذا أبلغوني أنهم راحلون.

استشطت غضبًا لعلمي أن منافسينا سوف يبقَون ويقدمون، كما تبيَّن لاحقًا، تغطية متميزة حظيت بعدة جوائز للبث.

كيف أمكن لفريقي أن يصنعوا ذلك بي؟ كيف استطاعوا أن يتركوا خبرًا على هذا القدر من الأهمية والضخامة والعالم في حاجة إلى معرفة ما يحدث، وكيف كان شعور من يعيشون هناك؟

ثم كانت صحوتي. كيف استجبت للموقف بتلك الطريقة؟ لم يكن ذلك الانفعال الخاطئ فقط؛ بل كان، ولا يزال، الإدارة الخاطئة في الأساس. فنظرًا لأني أرسلت طاقم عمل إلى منطقة حرب أو بيئة عدائية، فإنني كنت أتحمل إذًا المسئولية القانونية، فضلًا عن المسئولية الأخلاقية، عن سلامتهم، وكل ما عدا ذلك يأتي في المرتبة الثانية.

ورغم ذلك، كنت شخصيًّا لا أزال منزعجًا. كنت أفكر أن الإعلاميين كانوا يؤدون عملهم، ولطالما أدَّوه. كانت مهنتنا خطرة بحُكم طبيعتها.

لقد انطلق الصحفيون لسنوات في تغطية العالم بوجه عام وليس في حوزتهم سوى ورقة وقلم، وأحيانًا جهاز تسجيل أو كاميرا فوتوغرافية، ومؤخرًا، كاميرا فيديو. ربما ارتدوا في بعض الحالات خوذة فولاذية، وسترة واقية من الرصاص في حالات أخرى، لكن لم يكن لديهم، في الغالب الأعم، ما يحميهم سوى مهنتِهم، وقليل من الأشياء الأساسية الأخرى.

نجح بيتر هانتر، مسئول السلامة في قسم الأخبار في بي بي سي، في إقناعي وإقناع غيري من المديرين بأن تقديم تدريبات وتوعية ملائمة بشأن السلامة شرط أساسي لبلوغ نموذج الشركة الإعلامية المسئولة. حاجَجَ هانتر قائلًا: «أتظنون لوهلة أن رجال الإطفاء وأفراد القوات المسلحة يذهبون لأداء مهامهم دون توعية بقضايا السلامة وتدريبات الإسعافات الأوَّلِيَّة؟ لِمَ ينبغي أن يختلف الأمر بالنسبة إلى الإعلاميين؟!» لقد كان محقًّا. إن صناعة الإعلام حول العالم مَدِينةٌ له بالكثير لإثارته هذه القضية ومنحها التقدير الذي كانت تستحقه.

لقد اعتنق الصحفيون من جميع أنحاء المجال وعلى مدار سنوات مبدأ عدم رفض أيِّ مهمة صحفية على الإطلاق، مهما بدت خطورتها؛ إذ قد يكلفهم ذلك فقدان بعض التقدير المهني. كان الأمر برمَّته بالنسبة إلى الصحفيين، رجالًا ونساءً، مسألة «شجاعة وإقدام»، وكان هناك الخطر الإضافي الذي شعر به كثير منا بأنك لو أبديت أمام مديرك نقصًا في الشجاعة، فقد وضعت نفسك أمام مخاطرة حقيقية بفقدان المهمة الصحفية الموكلة إليك.

غير أن رؤية بيتر هانتر دفعت مديري شبكة بي بي سي، ومن بينهم كاتب هذا الفصل، إلى الرغبة في تغيير المنظومة. لقد أردنا أن نبعث برسالة صارخة مفادها أنه

من المقبول تمامًا الحديث عن السلامة وتدريباتها، وأن ذلك ليس «جبنًا» بأي حال من الأحوال.

وقد حققنا التغيير المطلوب، رغم أنها كانت تجربة شاقة وباعثة على الاكتئاب في كثير من الأحيان.

خلال عامي ١٩٩١ و١٩٩٢، اشتركت مع راي جاودريدج، نائب رئيس عملية جمع الأخبار في شبكة بي بي سي، في صياغة مبدأ توجيهي للمراسلين والمنتجين والفنيين، ثم أبلغنا به جميع العاملين في الشبكة، سواء متفرغين أو مستقلين. وكان هذا المبدأ كالتالي:

> ما من خبر يستحق التضحية بالحياة. وما من صورة تستحق الإصابة بجرح.
> وما من مقطع صوتي يستحق تعريض كوادرنا للخطر.

لقد مضينا إلى ما هو أبعد من ذلك؛ إذ تعهَّدنا ببذل أقصى ما في وسعنا لتقديم أفضل المعدَّات والتدريبات والمركبات وأنظمة التأمين لكوادرنا المعرَّضين للأخطار، بما فيهم المستقلون منهم. وحصلنا في نهاية المطاف على دعم مجلسَي الإدارة والمحافظين بالشبكة.

كما أعلنَّا كذلك أنه لن يجري إرسال أيٍّ من كوادرنا إلى منطقة حرب دون تدريبه على الإسعافات الأوَّلِيَّة الميدانية ودون تزويده بالمعرفة الميدانية المتعلقة بكيفية التعامل مع المعارك. كانت تلك السياسة مؤلمة، وكانت تعني أن بعض المراسلين لم يسافروا لمناطق الصراع.

لكننا كنا صارمين: لم يكن يُسمح سوى لأكثر المراسلين والطواقم خبرةً بتخطي هذه السياسة، ولكن فقط بعد أن يتلقوا دورات تنشيطية. وقد فتحنا الباب أمام الشركات المتخصصة لتقديم هذه الدورات.

تقدَّم العديد من الشركات، وقد عمدنا إلى تعديل برامجها بحيث تلائم احتياجاتنا. كما خضعت الإدارة العليا للبرامج التدريبية وأدخلت بعض الأقسام فيها وأقرت تطبيق الدورات في شكلها النهائي. وذهب المراسلون المخضرمون، واستمعوا، وأعربوا عن تقديرهم لما تعلَّموه.

غير أن بعض العاملين في بي بي سي لم يبرحوا مرحلة الإنكار وراعتهم تلك التطورات. فاتهمونا باستخدام تلك السياسة المعنية بالسلامة كحيلةٍ تأمينية تُجنِّبنا تحمُّل مسئولياتنا. وما كان منهم إلا أن رفضوا ارتداء ستراتهم الواقية، وسخروا منا، معتبرين إيَّانا مديرين نحاول استغلالهم. لكننا ثبتنا على مواقفنا.

لقد استمعت إلى جميع الأعذار التي احتجَّ بها المراسلون وطواقم الدعم لعدم ارتداء السترات الواقية:

«تلك السترات ثقيلة للغاية. كما أنها تتعرض للسرقة.»
«تلك السترات تتعرض للاستهداف.»
«إنها تُميزنا عن السكان المحليين ومِن ثَمَّ تعوقنا عن أداء وظيفتنا.»

لكن ما كانوا يقولونه لي على وجه الحقيقة هو كالتالي: «دعني أؤدي وظيفتي. دعني أُقتل أثناء تأدية عملي. دعني أصير شهيد قضيتي.»

كثيرًا ما سمعنا حجةً أخرى من المديرين وأصحاب الأعمال وهي: «تختلف الصحافة المطبوعة عن الصحافة المرئية والمسموعة.» كانت نظريتهم تقوم على فكرة أن الصحفيين العاملين في الصحافة المطبوعة يتمتعون بقدر أكبر من الأمان في السفر منفردين، وأنهم يتحلَّون بمزيد من الخبرة، ولا حاجة بهم لدورات تدريبية للتوعية بمسائل السلامة.

هذا هراء. كان ذلك، ولا يزال، أسوأ شكل من أشكال غطرسة أصحاب الأعمال. لطالما رأيت أن الصحفيين العاملين في الصحافة المطبوعة قد يواجهون مخاطر أكبر من زملائهم العاملين في الصحافة المرئية والمسموعة نظرًا لأنهم يعملون غالبًا بعيدًا عن «القافلة» الإعلامية. كما أنهم عادةً ما يكونون غير مجهَّزين بما يكفي من المعدَّات وتقلُّ فرص تزويدهم بالمركبات المُصفَّحة أو المحصَّنة تحصينًا جيدًا، بالإضافة إلى أنهم أكثر عرضة للاستهداف.

كانت هناك ذرائع أخرى تذرَّع بها بعض القيادات الإعلامية: «نحن نرسل صحفيين مستقلين لا متفرغين، ومِن ثَمَّ لا يمكننا مطلقًا تحمُّل تكاليف تأمينهم.»

أرى أن ذلك كلام خطير وغير مسئول للغاية من جانب أصحاب الأعمال. لقد وجدت، حسب خبرتي، أن بعض قيادات الصحف يتسمون بقدر أكبر من انعدام المسئولية مقارنةً بنظرائهم في مجال الصحافة المرئية والمسموعة حين يتعلق الأمر باستغلال كوادرهم دون مراعاة لسلامتهم.

كثيرًا ما تكون بعض المؤسسات الإخبارية في الولايات المتحدة الأمريكية، رغم كل ما تتمتع به من حنكة، هي الأكثر إحجامًا عن مواجهة القضايا التي أتحدث عنها. وفيما عدا بعض الاستثناءات الملحوظة — بما فيها مؤسستي، وسي إن إن، وإيه بي سي، وإن بي سي، وذا نيويورك تايمز — لا تمتلك سوى بضع مؤسسات إخبارية أمريكية خططًا رسمية متعلقة بتدريبات السلامة للصحفيين الذين يسافرون إلى مناطق خطرة.

من يتولَّى إذًا زمام المبادرة؟ وأين المبادئ التوجيهية؟ وأين أفضل الممارسات؟

لو تحدثنا عن بريطانيا، فسنجد أن مجموعة جديدة من المبادئ التوجيهية المعنية بالسلامة جرى اعتمادها والاتفاق عليها في مؤتمر نيوز وورلد الذي انعقد في برشلونة عام ٢٠٠٠، وذلك برعاية شبكتَي بي بي سي وسي إن إن، وغيرهما من بعض المؤسسات الأخرى مثل آي تي إن، ورويترز، ووكالة أسوشيتد برس للأخبار التليفزيونية.

نصَّت تلك المبادئ التوجيهية على التالي:

(١) إن صيانة النفس البشرية وسلامتها تأتي في المقام الأول. يجب توعية العاملين المتفرغين والمستقلين بأن المخاطر غير المبرَّرة سعيًا وراء خبرٍ ما أمرٌ غير مقبول ويجب ثنيهم بقوة عن خوضها. ويجب أن تكون المهام الصحفية إلى مناطق الحروب أو البيئات العدائية اختيارية وألا تضم سوى الكوادر الإخبارية المحنكة.

(٢) يجب منح جميع العاملين المتفرغين والمستقلين المكلَّفين بالعمل في بيئات عدائية الفرصة لتلقِّي تدريبات تنشيطية ملائمة فيما يخص السلامة. وأصحاب الأعمال مدعوون لجعل ذلك إلزاميًّا.

(٣) على أصحاب الأعمال أن يُقدِّموا لجميع العاملين المتفرغين والمستقلين المكلَّفين بالعمل في مواقع خطرة معدَّات السلامة الفعالة، التي تضم صدرية/سترة كيفلار شخصية واقية من الرصاص، وخوذة واقية، ومركبات محصنة تحصينًا ملائمًا، إذا لزم الأمر.

(٤) يجب منح جميع العاملين المتفرغين والمستقلين تأمينًا شخصيًّا أثناء عملهم في المناطق العدائية، بما في ذلك التأمين ضد الوفاة والإصابات الشخصية.

(٥) على أصحاب الأعمال تقديم الإرشاد النفسي الطوعي والسري للعاملين المتفرغين والمستقلين العائدين من المناطق العدائية أو عقب تغطية الأحداث المؤلمة وتشجيعهم على اللجوء إلى هذا. (قد يتطلَّب ذلك تقديم بعض التدريبات للقيادات الإعلامية للتعرف على أعراض اضطراب ما بعد الصدمة.)

(٦) تُعتبر المؤسسات الإعلامية وممثلوها مراقبين محايدين؛ لذا، يُحظر على أي إعلامي حمل سلاح ناري أثناء تأدية عمله.

(٧) يجب أن تتعاون المؤسسات الإعلامية معًا في سبيل إنشاء بنك بيانات يضم المعلومات الخاصة بالسلامة، مع تبادل أحدث تقييمات السلامة للمناطق العدائية والخطرة.

كانت هذه المبادئ التوجيهية مجرد نقطة البداية، لكن الدافع من ورائها كان تصعيد قضية السلامة إلى مستوى جديد. إن ما لم تتناوله هذه المبادئ التوجيهية هو ذلك العدد الكبير من الصحفيين المحليين حول العالم الذين يتعين عليهم نقل الأعمال العدائية الجارية في بلدانهم دون الحصول على تدريبات مناسبة أو معدَّات خاصة بالسلامة. كانت هذه الفئة وما زالت الأكثر عرضة للمخاطر.

إن زيادة توعية الإعلاميين بقضايا السلامة لن تمنع استهدافهم أو تعرُّضهم للقتل أو الإصابة عن طريق الخطأ. لكن المبادئ التوجيهية الخاصة بالسلامة التي أرساها مؤتمر برشلونة كانت انطلاقة هامة.

(١) اضطراب ما بعد الصدمة

دعوني ألتفت الآن إلى قضية أخرى هامة وأكثر إثارة للجدل، وهي ما أصفه بأنه «تدريب سلامة العقل». إنه اضطراب ما بعد الصدمة. سوف نناقش تلك القضية بمزيد من الاستفاضة والإيضاح في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب، لكنني أذكرها هنا لأن مسائل سلامة العقل ومسائل سلامة البدن لم ترتبطا معًا في تفكيرنا إلا في السنوات الأخيرة. إنني أذكرها أيضًا لأنني أتحدث من واقع تجربة مريرة ومن وجهة نظر الضحية.

كنت في أبريل ١٩٨٠ أحد الرهائن الذين احتُجِزوا لفترة وجيزة داخل السفارة الإيرانية في لندن. ذهبت إلى السفارة لاستلام تأشيرة لزيارة طهران لأداء مهمة صحفية لشبكة بي بي سي؛ إذ كان عليَّ تغطية حادث احتجاز عدد كبير من الرهائن الآخرين داخل السفارة الأمريكية على يد داعمين للثورة الإيرانية. كان الأمر بالنسبة إليَّ نموذجًا فريدًا لسوء التوقيت؛ ففي غضون دقائق من دخولي المبنى في كنسنجتون بلندن، اقتحمه ستة إرهابيين، مدعومين من العراق بهدف الترويج لمنطقة إيرانية متنازع عليها. وقبل أن تتمكن قوات الخدمات الجوية البريطانية الخاصة من تحريرنا بعد ستة أيام من الاحتجاز، كان المسلحون قد قتلوا رهينة ودأبوا على التهديد بقتل رهينة كل ساعة قبل تفجير المبنى بمن فيه.

أقدمت في اليوم الثاني للاحتجاز، وبعد تعرُّضي للتهديد الشخصي والضرب بأعقاب المسدسات، على التظاهر بإصابتي بأزمة قلبية للتخلص من الأسر.

عند عودتي إلى مقر عملي بشبكة البي بي سي، عرض رؤسائي عليَّ الخضوع لإرشاد نفسي. لكن شخصًا ما نصحني بأن أقضي الليلة خارج المنزل وأن أثمل ثم أعود إلى العمل

في اليوم التالي. أخذت بنصيحته، والسبب الرئيسي في ذلك هو أنني كنت أنتمي آنذاك إلى المدرسة الصحفية التي تؤمن بأن الرجل الحق هو الذي يعود ببساطة إلى عمله، طارحًا ذكرياته ومخاوفه عند الباب؛ لذلك رفضت أي شكل من أشكال الإرشاد النفسي، ورفضت عرضين مماثلين تلقَّيتهما خلال السنوات القليلة التي أعقبت تلك الحادثة.

أعلم الآن أنني كنت مخطئًا تمامًا. لقد عانيت شخصيًّا من سنوات عذاب طويلة، ساعيًا في الغالب لإخفاء كل ذلك عمن حولي. فلم أكن أقوى على استقلال الطائرات والمصاعد والسلالم الكهربائية، ولا على الذهاب إلى المطاعم أو دور السينما أو المسارح. أفرطت في احتساء الخمر، وظللت أتنقل من علاقة غير مُرضية إلى أخرى، ولم أتجنب المخدرات سوى لإدراكي أنني قد أستمتع بها أكثر من اللازم! لقد عانيت لسنوات من عذاب نفسي شديد. واعتدت لفترة أن أنظر أسفل سيارتي كل يوم بحثًا عن قنبلة، وبالطبع لم أجد.

كانت مشكلتي نمطية. كنت خائفًا من الاعتراف بأنني قد فقدت رباطة جأشي.

أما الآن فقد صرت أكثر حكمةً واستيعابًا لحقيقة أن الصحفيين لا يمكن أن يكونوا بمنأًى عن الأخبار التي ينقلونها أو ينخرطوا فيها، وأن السترات الواقية التي يرتدونها والمركبات المُصفَّحة التي قد يستقلونها ليست أدوات فعَّالة لحمايتهم من التوتر العقلي والعاطفي.

قدَّمنا في أوائل التسعينيات في شبكة بي بي سي بعض الإرشاد النفسي السري للعاملين والدورات التدريبية للمديرين في سبيل رصد آثار اضطراب ما بعد الصدمة. كانت تلك الممارسة مثار جدل كبير، غير أن من حسن الحظ أن السنوات الأخيرة شهدت تبنِّي الكثير من المؤسسات الإخبارية المعتَبَرة لها. لكن صناعة الإعلام استغرقت وقتًا طويلًا للغاية حتى تدرك أنه من الطبيعي تمامًا أن يشعر الصحفيون، كغيرهم من البشر، بآثار الصدمات النفسية، وأن عملهم لا يتميز بشيء يحميهم مما يشهدونه؛ إن محاولة إنكار تلك الحقيقة والتفكير خلافًا لها أمر غير طبيعي في أفضل الأحوال، وخطير في أسوئها.

أمتلك حاليًّا تصورًا للسمات الشخصية للإعلامي الذي ربما يعاني من اضطراب ما بعد الصدمة. سوف يبدأ ذلك الإعلامي الحوارات بعبارات على شاكلة «تلك حربي الثلاثون، كما تعلم»؛ «حين أعود إلى المنزل أخرج وأثمل وأدخل في علاقة جديدة أو ما شابه، ثم أصير بخير.»

علاوةً على ما سبق، أجد أنه من العجيب حقًّا أن أغلب الإعلاميين في الولايات المتحدة الأمريكية دون غيرها، حيث ابتُكِر مفهوم استشاري التكيف مع الحزن، لم يعيروا

قضية اضطراب ما بعد الصدمة أي اهتمام يُذكَر إلا في الآونة الأخيرة. وفيما خلا بعض الاستثناءات البارزة، لم يصدر تقريبًا أي اعتراف من داخل صناعة الإعلام بوجود مثل هذا الاضطراب النفسي بين صفوف الإعلاميين.

لو تحدثنا عن المخاطر التي يعمل في ظلها الإعلاميون، فسوف نجد أن صناعة الإعلام أمضت فترة طويلة للغاية قبل أن تدركها إدراكًا تامًّا. إن تغطية أخبار العالم عملية خطرة بطبيعتها، ومن يواصلون السفر إلى مناطق محفوفة بالمصاعب هم عرضة الآن لخطر أكبر من أي وقت مضى؛ فالمخاطر التي يواجهونها على يد الفصائل، والحكومات أحيانًا، تفوق تلك التي واجهها أسلافهم على مدار تاريخهم.

أول ما علينا فعله هو دراسة الحقائق.

حسبما أفادت لجنة حماية الصحفيين، قُتِل أكثر من ٦٠٠ إعلامي حول العالم في الفترة بين ١٩٩٢ و٢٠٠٦. لم يسقط أغلب هؤلاء الإعلاميين في خضم القتال، بل استُهدِفوا بالقتل. ومن الحقائق المروعة التي كشفتها الإحصائيات أن المسئولين الحكوميين والعسكريين يقفون خلف كثير من عمليات القتل هذه. ولم يَمْثُل أمام العدالة سوى القليل من الجناة.

حين أصدرت لجنة حماية الصحفيين إحصائياتها في سبتمبر عام ٢٠٠٦ (لجنة حماية الصحفيين ٢٠٠٦)، أظهرت أن ثلاثة صحفيين في المتوسط يتعرضون للقتل كل شهر، ولم تتضمن تلك الأرقام الحوادث أو حالات الوفاة لأسباب صحية إلا في مناطق الحروب. وقد وقع ٨٥ بالمائة من تلك الوفيات بين صفوف المراسلين والمحررين والصحفيين الفوتوغرافيين المحليين.

إن النتائج المشابهة التي كشف عنها المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين في استقصائه العالمي للسلامة عام ٢٠٠٧، والتي تُظهر مقتل ألف صحفي في الفترة بين ١٩٩٦ و٢٠٠٦، من شأنها أن تكشف أكثر عن المأساة المتواصلة التي تواجه الإعلاميين (المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين ٢٠٠٧أ). يتَّبع هذا المعهد سياسةً تقضي بعدم الاقتصار في إحصائياته على الصحفيين والإعلاميين، بل يضم أيضًا من يعملون معهم، كالسائقين والمترجمين والمعاونين وطواقم الأمن.

ورغم كل تلك الإحصائيات الصارخة، فإن أجزاءً كثيرة من الإعلام تعتقد أنها محصنة نوعًا ما من جميع ما تتولَّى تغطيته وتُحجم عن مواجهة الحقيقة الجلية. وقد دأب بعضنا على ترديد ذلك لما يقرب من عشرين عامًا حتى الآن. إن الحقيقة الواضحة هي أن أغلب

قطاع الإعلام يعيش حالة من الإنكار حين يتعلق الأمر بالوعي بقضايا السلامة، وإدراك أننا قد نتأثر نفسيًّا وبدنيًّا بما ننخرط في تغطيته.

لقد كان لإنشاء المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين دوره في الانتقال بكامل قضية سلامة الإعلاميين ومنحهم التدريبات المناسبة إلى مستوى جديد من التطور، وهو ما حققه أيضًا نشاط مؤسسة روري بيك (www.rorypecktrust.org)، التي أُنشئت عقب وفاة المصور المستقل المرموق، روري بيك، خلال تبادل لإطلاق النار في موسكو عام ١٩٩٣. تعتمد المؤسسة على التبرعات العامة لتحقيق أهدافها المتمثلة في الاحتفاء بأعمال الإعلاميين المستقلين حول العالم، بالإضافة إلى رعاية الدورات التدريبية المعنية بالتعامل مع البيئات العدائية والتي يجري تقديمها إلى إعلاميين مستقلين مختارين.

تلعب المؤسستان السالف ذكرهما كذلك دورًا كجماعتَي ضغط لجذب انتباه الرأي العام إلى الأخطار التي يعمل الإعلاميون في ظلِّها، وهذا العمل مُضنٍ ومُحبِط في كثير من الأحيان.

قاد المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين الجهود التي يبذلها كثير من شبكات البث ومؤسسات الصحافة المطبوعة في سبيل المراجعة والتحديث المتواصلَين لبعض من المبادئ التوجيهية الخاصة بالسلامة التي صاغتها شبكة بي بي سي في تسعينيات القرن الماضي، ثم جرى تنقيحها على يد المؤسسات الإخبارية البريطانية في مؤتمر نيوز وورلد عام ٢٠٠٠.

تنص المبادئ التوجيهية الحالية للمعهد الدولي لسلامة الإعلاميين على التالي:

(١) إن صيانة النفس البشرية وسلامتها تأتي في المقام الأول. يجب توعية العاملين المتفرغين والمستقلين بأن المخاطر غير المبرَّرة سعيًا وراء خبرٍ ما أمرٌ غير مقبول ويجب ثنيهم بقوة عن خوضها. وعلى المؤسسات الإخبارية أن تضع في اعتبارها السلامة أولًا، قبل المزايا التنافسية.

(٢) يجب أن تكون المهام الصحفية إلى مناطق الحروب أو المناطق الخطرة الأخرى اختيارية وألا تضم سوى الكوادر الإخبارية المحنكة ومَن هم تحت إشرافهم المباشر. وفي حال امتنع أيٌّ صحفي عن أداء مهمة صحفية خطرة، يجب ألا يضر ذلك بمسيرته المهنية. ويحق للمحررين الموجودين في المقرات الصحفية أو الصحفيين الميدانيين أن يُقرِّروا إنهاء مهمة صحفية خطرة بعد إجراء المشاورات اللازمة فيما بينهم.

(٣) يجب منح جميع الصحفيين والإعلاميين دورات تدريبية مناسبة لتوعيتهم بكيفية التعامل مع البيئات العدائية، وكذلك بالمخاطر الموجودة هناك وذلك قبل إرسالهم إلى المناطق الخطرة. وأصحاب الأعمال مدعوون لجعل ذلك إلزاميًّا.

(٤) قبل تكليف الصحفيين بمهامهم، يجب على أصحاب الأعمال أن يتأكَّدوا من اطلاع الصحفيين على آخر التطورات في الأوضاع السياسية والمادية والاجتماعية السائدة في المناطق المقرر أن يعملوا فيها، ويتأكدوا كذلك من إدراكهم للقواعد الدولية المُنظِّمة للصراعات المسلحة على نحو ما هو محدد في اتفاقيات جنيف وغيرها من الوثائق الرئيسية المعنية بالقانون الإنساني.

(٥) يجب على أصحاب الأعمال تزويد جميع العاملين المتفرغين والمستقلين المكلَّفين بالعمل في مواقع خطرة بمعدَّات السلامة الفعالة ووسائل الوقاية الطبية والصحية المناسبة للأخطار التي قد يواجهونها.

(٦) يجب أن يحظى جميع الصحفيين بتأمين شخصي أثناء عملهم في المناطق العدائية، بما في ذلك التأمين ضد الإصابات الشخصية والوفاة. ويجب ألا يقع أي تمييز بين العاملين المتفرغين ونظرائهم المستقلين.

(٧) يجب على أصحاب الأعمال تقديم الإرشاد النفسي السري المجاني للصحفيين المنخرطين في تغطية الأحداث المؤلمة. وعليهم أن يُدرِّبوا المديرين على التعرف على اضطراب ما بعد الصدمة، وأن يُسْدوا المَشُورة وقت الحاجة لذوي الصحفيين العاملين في مناطق خطرة بشأن سلامة أحبائهم.

(٨) إن الصحفيين مراقِبون حياديون؛ لذلك يُحظَر على أيِّ إعلامي حمل سلاح ناري أثناء تأدية عمله.

(٩) إن الحكومات وجميع القوات العسكرية والأمنية مدعوة لاحترام سلامة الصحفيين الموجودين في مناطق عملياتهم، سواءٌ أكانوا برفقة قواتهم الخاصة أم لا. ويجب ألا يقيِّدوا حرية الصحفيين في التحرك بلا مبرر أو يمسُّوا حق وسائل الإعلام الإخبارية في جمع المعلومات ونشرها.

(١٠) يجب على القوات الأمنية عدم التعرض مطلقًا للصحفيين المزاولين لأنشطتهم المشروعة بالمضايقة أو التخويف أو الاعتداء البدني (المعهد الدولي لسلامة الإعلاميين ٢٠٠٧ب).

دار، في الوقت نفسه، نقاش بين أعضاء المعهد بشأن قيمة ارتداء أو إبداء الإعلاميين للشارات المعترَف بها دوليًّا المكتوب عليها كلمات مثل «صحافة»، أو «إعلام»، أو

«تليفزيون/راديو»، قبل استقرارهم على أن مثل هذه الشارات ربما تكون سببًا أدعى لتعرض حامليها لأعمال العنف بدلًا من حمايتهم منها. لا تزال تلك المناقشة المثيرة للجدل مستمرة.

(٢) الإعلام في العراق

قد يكون الصراع الدائر في العراق هو أصعب ما نقلت وسائل الإعلام على مدار تاريخها، وهو لا شك الأخطر منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ فقد لقي ١٦٣ إعلاميًّا ومساعدًا لهم مصرعهم منذ الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وحتى أكتوبر ٢٠٠٧. لقد حسبت في الأشهر الأولى القليلة من الصراع، احتمالية وفاة الإعلاميين الدوليين، ووجدتها واحدًا بين كل ١٠٠ إعلامي، مُقارنةً بواحد بين كلِّ ألف لو كنت جنديًّا في القوات الأمريكية أو قوات التحالف؛ أي إن احتمالية مواجهتك للموت كإعلامي تفوق نفس الاحتمالية لو كنت جنديًّا بمقدار عشر مرات!

بالنسبة إلى تلك المؤسسات الإعلامية الدولية التي اختارت البقاء وتغطية الأحداث، فإن سلامة كوادرها تأتي في المقام الأول قبل أيِّ اعتبار آخر. ولقد تسببت التكاليف المتمثلة في تناقص أعداد العاملين وارتفاع أسعار متطلبات الأمن والسلامة في انسحاب كثير من تلك المؤسسات من العراق.

أما وسائل الإعلام العراقية المحلية فلا تتمتع، بالطبع، بتلك الرفاهية، وتُمثل أعداد الضحايا الذين سقطوا بين صفوف المراسلين والمصورين وطواقم التصوير المحليين دليلًا مُحبِطًا على تلك الحقيقة.

يقتصر الآن أكثر المؤسسات الإخبارية مراعاةً لقضايا السلامة، مثل بي بي سي ورويترز وأسوشيتد برس وسي إن إن وغيرها من شبكات البث الأمريكية، على إرسال أكثر كوادرها خبرة إلى العراق. ومنعت بعض المؤسسات الإعلامية، مثل السي إن إن، الصحفيين المبتدئين من دخول العراق دون تلقِّيهم أشد التدريبات صرامةً فيما يتعلق بالتعامل مع البيئات العدائية أو إرسال طواقم أمن إضافية لمرافقتهم.

من المقولات المفضلة لدى المسئولين التنفيذيين الإخباريين أمثالي هي:

> إن العمل في العراق أشبه بجلوس ضفدع في إناء يُغلى الماء الموجود فيه على نحو تدريجي؛ إذ تتصاعد درجة حرارة الماء طوال الوقت، والمعضلة التي تواجهنا

> هي معرفة متى يتعيَّن علينا بالضبط أن نأمر الضفدع بالقفز منه؛ أي تحديد الوقت المناسب للتخلي عن الخبر. إن الكابوس الذي يهددنا هو أن نصدر ذلك الأمر بعد فوات الأوان؛ أي، بعد أن يكون الضفدع قد استمر في الغليان حتى الموت.

ما يعنيه التنفيذيون بتلك التعليقات هو أن المخاطر المحدقة بالإعلاميين في العراق تجاوزت أي تجربة سابقة شهدها تاريخ التغطية الإخبارية. ولا تتوفر لدى مديري أقسام الأخبار مراجع خاصة بالسلامة ولا مبادئ توجيهية بشأن «أفضل الممارسات» تمكِّنهم من تحديد كيفية أداء العمل. نحن، باختصار، نضع القواعد بينما نمضي في عملنا.

من كان بوسعه أن يتنبأ بالمستوى الذي وصلت إليه احتياطات السلامة التي تُعَد حاليًّا إجراءات اعتيادية لمن يرغبون في بقاء كوادرهم داخل العراق: عشرات من الحراس المسلحين، وتحصينات خرسانية للمدافع، ومركبات مصفحة للتنقل ولو عبر أقصر المسافات، والحاجة الحقيقية لمستشارين أمنيين حاملين لأسلحة ثقيلة بينما ينجز الصحفيون والطواقم الإخبارية مهامهم الصحفية الأساسية؟

تؤدي أغلب المؤسسات الإخبارية أعمالها من «حصون» داخل بغداد وحولها وفي مناطق أخرى، قد أُنشئت خصيصًا لهذا الغرض، وهي مزودة بحراسة على مدار اليوم، ونقاط تفتيشية للمركبات، وعدة متاريس. لقد تصاعدت التكاليف التي تكبدها أغلب المؤسسات الإخبارية لتصل إلى ملايين الدولارات سنويًّا. وكل ذلك قبل أن تنقل تلك المؤسسات خبرًا واحدًا.

لا ريب أن تلك المهمة الصحفية ليست للإعلاميين أصحاب القلوب الضعيفة.

إن مجرد الدخول إلى العراق يتطلب أعصابًا فولاذية وشغفًا بتغطية أخطر قصة إخبارية في العالم.

لقد وَصف لي توني مادوكس، النائب الأول لرئيس جمع الأخبار والعمليات في شبكة سي إن إن، والذي خلفني في قيادة قناة سي إن إن إنترناشونال، زيارته إلى العراق عام ٢٠٠٥ على النحو التالي:

> تحدَّثْ إلى من عملوا في مجال الأخبار لوقت طويل وسوف يُجمعون على أنه ما من مهمة صحفية تشبه تغطية الصراع في العراق.
>
> يُعَد الصحفيون في العراق في ذلك الحين أهدافًا رئيسية، وذلك على نحو دءوب ومركَّز لم نعهده من قبلُ.

أضف إلى الأهوال المعتادة للوقوع في شَرك حربٍ ذلك الشعور بأنك تُعتَبر هدفًا ثمينًا أهم من العدو نفسه.

وينبغي أن نعيد صياغة المقصود بأهوال الحرب المعتادة؛ فالهجمات على السكان المدنيين تقع بانتظام مثير للاشمئزاز، والمجازر تُعَد أمرًا مألوفًا، وكل أسبوع ترد تفاصيل عمل وحشي جديد أحقر من سابقه.

وعلى طواقم الأخبار أن تعيش وسط ذلك كله. يعيش مراسلونا وطواقمنا ومنتجونا ومهندسونا بدعم من كوادر محلية على قَدرٍ هائل من الشجاعة، داخل مجمعات تضم مكتب الأخبار ووحداتهم السكنية وقوات أمن لا تغادر مطلقًا.

إن المبنى المخصص لشبكة سي إن إن في بغداد كان في السابق منزلًا فخمًا في حيٍّ راقٍ. أما الآن فهو يُشبه الحصن.

وكان من المقرر أن أزور هذا المبنى.

يُعَد موظفو سي إن إن من بين أشجع الكوادر الإخبارية في المجال. ولا شك أن مثل هذا الوصف لا ينطبق عليَّ، لكنني أترأَّس كثيرًا منهم بالفعل، وقد حان الوقت لأرى كيف كانت الحياة تبدو في تلك المهمة التي تبتلع الكثير من ميزانيتنا والكثير من وقتي.

لدى علمهم بخططي لزيارة مقر سي إن إن في العراق، تطوَّع الزملاء بإسداء الكثير من النصائح والإرشادات إليَّ، وكلها تُفيد بأن الرحلة، ذهابًا وعودةً، هي على الأرجح أشد أجزاء المهمة إثارة للفزع. إنني أدرك أن تغطية الأخبار الدولية ليس خيارًا مهنيًّا محتملًا لراكب عصبي المزاج، لكن صدقوني، لم أكن الوحيد. كان ذلك يعني أن الرحلة الباهظة التي لا تنطلق سوى مرة واحدة في اليوم من عمَّان إلى بغداد ستختبر حماسة أشد الطيارين حماسة. أظنكم سمعتم عن الهبوط اللولبي، حيث تتجه الطائرة إلى الأرض في مسار لولبي لتجنب أي هجوم موجه إليها من الأرض؟ الحسنة الوحيدة التي يمكن أن أذكرها لرحلة الذهاب أنها كانت أقل رعبًا من رحلة العودة؛ إذ كانت طائرة الركاب النفاثة التي كنت على متنها تحاول أن ترتفع عن سطح الأرض وهي بكامل حمولتها بينما تتحرك في دوائر متصاعدة، بينما يشير أحد جناحيها نحو الأرض.

كانت الرحلة بالطائرة أفضل ما كان بالإمكان؛ إذ أعقبتها رحلة بالسيارة إلى مكتب الأخبار.

اتخذت الرحلة طريقًا طوله ١٢كم يُعرف باسم مطار بغداد الدولي. يُطلِق العسكريون على ذلك الطريق اسم الطريق الأيرلندي، أما الآخرون فيسمونه طريق الموت، نظرًا للعدد الهائل من الهجمات التي تقع بطوله. حين زُرت العراق، في سبتمبر عام ٢٠٠٥، كانت الفوضى على أَشُدِّها، مع وجود قنابل مزروعة على جوانب الطرق وألغام وكمائن مسلحة، وأشكال أخرى لا تُحصى من الدمار.

كان السير على هذا الطريق في قافلة مُكوَّنة من سيارتين هو أقل الخيارات سوءًا. واستعنَّا كأغلب المؤسسات الإعلامية بمركبتَين مُصفَّحتين قادهما مستشارونا الأمنيون الذين كانوا على اتصال دائم بعضهم ببعض وبعامل اتصال في مقرِّ مكتب الأخبار.

ارتديت سترة كيفلار وخوذة واحتللت مكاني في مُؤخِّرة سيارة من سيارات الدفع الرباعي، المعروفة بـ «جاذبة القنابل»، وكنت في حالة انتباه وترقُّب شديدين بحثًا عن أيِّ علامة دالة على وجود هجوم. نصحني السائق بالبقاء متيقظًا وألَّا أغفو بعد رحلتي الطويلة قادمًا من أتلانتا. لست أدري حتى ما إذا كان يمزح أم لا.

بالنسبة إلى أشد الطرق السريعة رعبًا على مستوى العالم، تبدو المنطقة قاحلة، إذ لم نرَ أيَّ شيء على الإطلاق أغلب الطريق، سوى الحشائش الطويلة المثيرة للقلق على كلا جانبيه.

قال أحد أفراد الأمن: «إنها تُقدِّم ساترًا مثاليًّا للمهاجمين. أعتقد أن على الأمريكيين إحضار من يشذب تلك الحشائش اللعينة.» رأيت أنها فكرة جيدة للغاية، رغم أنها قد تكون أقل مهام البستنة جاذبية في العالم.

لقد كان الوصول إلى وسط بغداد، حيث الفوضى العارمة، أمرًا يبعث على الراحة، أما مكتب الأخبار فكان يبدو ملاذًا آمنًا، وهو ما يَشي بما كانت عليه رحلتنا على طريق الموت.

غريبة هي قدرتنا على تعديل توقعاتنا. لو كنت في أتلانتا، فلن أزعم أن العمل في مكتب بغداد يُمثل بيئة باعثة على الراحة، لكنه نسبيًّا، إذا قورن بباقي المدينة، بمنزلة واحة قد تجد فيها الهدوء وتُسيطر في ظلها على الأوضاع.

يقوم موظفو سي إن إن المغتربون بجولات تتفاوت في مدتها، لكن أغلبهم يوجد هناك لبضعة أسابيع على الأقل. نحرص دائمًا، قبل إرسال أيِّ موظفٍ إلى العراق لأول مرة، على أن نصده عن تلك الخطوة. فنحن في حاجة إلى التحقق من أنهم قد فكروا فيها مليًّا؛ لأن الأمر لا يقتصر على مجرد المخاطرة الواضحة — كثير من كوادرنا أكثر إقدامًا وجسارة مني — بل يشمل أيضًا طبيعة العمل الطاحنة.

لا شك أن جميع رحلات العمل خارج المكتب تُمثل تحدِّيًا يتطلَّب كثيرًا من التحضير والتخطيط. كما أنه لا توجد حياة اجتماعية خارج حدود المكتب؛ فلا يمكنك حتى الخروج لنزهة بسيطة.

كانت مرافقنا وأطعمتنا مقبولة، لكنها بالنسبة إلى كثير من العراقيين كانت تُعَد رفاهيةً حقيقية، غير أن الحقيقة هي أنك حبيس في نفس المكان مع نفس الأشخاص وتتناول نفس الطعام لفترة طويلة.

ليس هناك الكثير لتفعله سوى العمل، وهو ما ستجد منه الكثير؛ وذلك في كل يوم، وكأنك تدور في طاحونة.

ورغم كل ما سبق، فالغريب أنه لم يصدر منا سوى القليل جدًّا من الشكاوى، وكأن طبيعة الأخبار وملابسات تغطيتها تفرض منظورها الخاص. إن الأمور التي تزعج أغلبنا أو تصيبه بالإحباط خلال أعمالنا المعتادة يجب أن تحتلَّ مكانها على الهامش مقارنة بأمور تفوقها أهمية بكثير.

قد تكون هذه الرحلة، بالنسبة إلى كثيرٍ من موظفينا، لا سيما أولئك الذين يستهلُّون حياتهم المهنية، تجربة تُغيِّر مَجرى حياتهم.

رحت أتأمل تلك الفكرة في أثناء جلوسي في حانة بلندن، قبل الانطلاق إلى الجزء الأخير من رحلة عودتي إلى أتلانتا.

بالنسبة إلى من يُشرف منا على تلك النوعية من المهام الصحفية، هناك حاجة ماسة للتحلي بوعيٍ عالٍ بالضرر الذي قد تعانيه كوادرنا جرَّاء تغطيتهم لخبر تلو الآخر من الأخبار المُثقلة بالمعاناة والوحشية. نحن نستعين بخبراء مدربين لمساعدة كوادرنا على حل تلك المسائل، كما أن مديرينا مكلفون برصد أيِّ أعراض دالة على أنهم يعانون اضطرابًا ما.

إلى جانب التركيز على مسائل السلامة، أعتبر أن رغبتنا في معالجة قضايا مثل اضطراب ما بعد الصدمة بمنزلة أحد أهم التطورات في مجال الأخبار خلال السنوات العشر السابقة.

غير أننا في حاجة أيضًا إلى أن نُقرَّ بأن الإعلاميين دائمًا سيرغبون في أداء مهام كتغطية الحرب في العراق، وأن تلك التجارب، لو أديرت كما ينبغي، فيمكن أن تكون عظيمة النفع لتقدُّمهم وتنميتهم.

أعلم أن زيارتي القصيرة للعراق كان لها بالتأكيد تأثير إيجابي عليَّ.

فقد اكتسبت فهمًا أفضل للضغوط التي تشهدها مهامنا وكوادرنا، ورؤيةً أعمق بكثير للعملية الإخبارية.

ولم أكن عصبيًّا خلال رحلتي على الخطوط الجوية البريطانية عائدًا من لندن إلى أتلانتا. حسنًا، لم أكن عصبيًّا بقدر ما اعتدت في السابق.

إن وصف مادوكس لرحلة العراق، ذهابًا وعودة، وتجربته القصيرة للحياة هناك، والتي كانت أشبه بالسجن، يُفسر بدقة لِمَ تُعَد تغطية الأحداث في العراق مهمة في غاية الصعوبة، ولِمَ لا يُعَد غريبًا أن أغلب الإعلاميين يفكرون مرتين قبل أن يخطوا خطوة خارج مجمعاتهم السكنية إلى داخل بغداد.

فمن يفعلون ذلك لا يقدِمون على تلك الخطوة إلا بعد تقييم مُفصَّل للمخاطر في ضوء غرض تلك الخطوة والأخبار أو المعلومات المزمع الحصول عليها.

يُسمَّى ذلك بـ «المخاطر مقابل العائد».

في كثير من المؤسسات الإخبارية؛ تلك المؤسسات المعتَبَرة بالتأكيد التي تقدِّم مصلحة كوادرها على الخَبر، تطغى اعتبارات السلامة تمامًا على آليات تغطية الحرب في العراق. تتبنَّى سي إن إن سلسلة من القواعد الصارمة التي تحدد حتى ما إذا كان الفريق سينفذ المهمة من الأساس أم لا. فيجب على مدير مكتب بغداد، أو نائبه، أن يُقدِّم تقييمًا مُفصَّلًا لمخاطر المهمة المقررة، ثم تجري مناقشة ذلك التقييم مع أحد المستشارين الأمنيين المقيمين على الدوام في المكتب، والذين هم في حاجة إلى معرفة تفاصيل الجولة التي سيقوم بها الطاقم، وخط السير الذي وقع عليه الاختيار ليسلكه الطاقم من المكتب، والوقت الذي يُمضونه ميدانيًّا، والموعد الذي يُتوقَّع أن يعودوا فيه إلى المكتب. ويجب على طاقم سي إن إن أن يبقوا على اتصالٍ دائمٍ مع المكتب، بما في ذلك مكالمات المتابعة، وأن يكونوا على دراية مستمرة بخطوط السير الواجب اتباعها في حالة الطوارئ.

ثم يُعرض تقييم المخاطر للمناقشة مع كبار المديرين في مقر سي إن إن بأتلانتا، ويكون عليهم التوقيع بالموافقة على تنفيذ المهمة. في كل مرة، يُطرح السؤال: «ما المخاطر، وما العائد؟»

لم تسمع أي مؤسسة إعلامية عن تلك الإجراءات البيروقراطية إلا في السنوات الأخيرة، لكنها فُرِضت على الصحفيين نتيجةً لواقع تغطية ذلك الصراع الذي يتميز بالوحشية. لقد عانت سي إن إن، كغيرها الكثير من المؤسسات الإعلامية الأخرى، من تعرُّض طواقمها للقتل والإصابة والاختطاف كرهائن في العراق؛ لذلك فهي تتخذ كل إجراء ممكن، باستثناء مغادرة العراق، لحماية كوادرها الصحفية.

(٣) التأمين المسلح

لم يَعُد من المستغرب الآن أن يسير العاملون في مؤسسات البث والصحف داخل العراق وغيرها في صحبة أفراد أمن، بل ويُسمح لهم أحيانًا بحيازة الأسلحة، رغم أن ذلك قد يبدو غير معقول بالنسبة إلى الصحفيين والإعلاميين المخضرمين الذين اعتادوا العمل في ظلِّ ظروف أكثر أمانًا.

هناك فرق شاسع هنا بين الصحفيين الحاملين للأسلحة وأولئك المكلَّفين بحمايتهم، رغم أن ذلك الفرق لا يتفهمه بعض من يتبنَّون نهجًا متشددًا في المحافظة على التقاليد الصحفية.

لم تسمح الإدارة العليا لشركات مثل بي بي سي وسي إن إن لكوادرها بحيازة السلاح تحت أي ظرف؛ لأن ذلك من شأنه أن يُدمِّر العرف والمبدأ السائد بأن الصحفيين يجب ألَّا يُنظَر إليهم كمقاتلين. وهو ما يُفسر ما يسببه القلائل الذين يعلنون حملهم للسلاح أثناء عملهم الصحفي — مثل مراسل فوكس نيوز الأمريكية جيرالدو ريفيرا — من إساءة إلى المهنة بأكملها. إن فكرة حمل الصحفيين للسلاح ليست جديدة تمامًا؛ فربما كان أشهر من طبقها هو وينستون تشرتشل؛ وذلك حين سافر لحساب صحيفة ذا تايمز كجندي وصحفي في آنٍ واحد. ثم حذا الكثيرون حذوَه بمرور السنوات.

غير أن الأمر مختلف في العراق وأفغانستان والصومال.

إن المخاطر المحدقة بالإعلاميين في تلك البلدان تبلغ من الحدَّة بحيث لا يتجاهلها سوى المديرين عديمي المسئولية. يرغب البعض في إلحاق الأذى بنا أو قتلنا، ولن نستفيد شيئًا لو مُتنا شهداء.

برزت على الساحة تلك القضية المثيرة للجدل — والتي كانت مادة للحوار المتعصب في حلقات النقاش الإعلامية المتتابعة حول العالم — في الأسابيع القليلة الأولى من حرب العراق عام ٢٠٠٣، حين وَجد أفراد طاقم تابع لشبكة سي إن إن أنفسهم يجتازون بسيارتهم تكريت، مسقط رأس صدام حسين في العراق.

كان برينت سادلر، أحد مراسلي سي إن إن الأكثر خبرةً ومهارةً، موضع اهتمام بالفعل من المتشددين الذين بدا أنهم مُصمِّمون على مهاجمة فريق إعلامي غربي بارز؛ ولذلك كان يتجول في أنحاء العراق برفقة أفراد أمن مسلحين، وأفراد معينين محليًّا، وأفراد مدربين من الجيش البريطاني حين تعرضت سيارتهم لهجوم.

هذا ما حدث، كما وصفته كلمات برينت:

> نجحنا، خلال ساعات النهار في الوصول إلى قلب تكريت، مسقط رأس صدام حسين، لكن ذلك لم يحدث حتى اخترقنا مشارفها.
>
> وصل فريق سي إن إن إلى هناك بينما كانت تتجه قوات التحالف وقوات المارينز الأمريكية شمالًا نحو تكريت لبدء معركة لدكِّ آخر معاقل صدام حسين.
>
> استطعنا أن نصل إلى اثنين من المجمعات العسكرية العراقية الكبرى. كان أحدهما وحدة مدرعات تابعة للجيش العراقي النظامي، وكانت تشغل مساحة شاسعة، وفيها عثرنا على مستودعات لناقلات جنود مُصفَّحة ومهجورة ودبابات مهجورة. وكانت أبواب بعض هذه المركبات القتالية مفتوحة؛ لذا يبدو أن الجنود قد فروا على عجل.
>
> كما كان هناك الكثير من الدمار؛ من الواضح تمامًا أنه ناجم عن ضربات جوية شنها التحالف على مدار الأيام السابقة. سمعنا بالتأكيد المزيد من النشاط الجوي عندما كنا على مشارف تكريت.
>
> توجهنا أيضًا إلى كتيبة مدرعات تابعة للحرس الجمهوري. لم تكن مركباتهم القتالية في أماكنها، مما يدل على أنهم ربما قد توجهوا إلى قلب تكريت للدفاع عنه.
>
> يتفق ذلك الافتراض مع ما عرفناه من آخر التقارير الصادرة عن قوات المارينز الأمريكية، والتي أفادت أن المروحيات المقاتلة دمرت خمس دبابات تابعة للحرس الجمهوري العراقي خلال الساعات القليلة الماضية.

> الآن وقد وصلنا إلى قلب تكريت، أشار إلينا شخص في نقطة تفتيش سامحًا لنا بالمرور. لم يكن أسلوبه شديد العداء، ولا شديد المودة.
>
> سِرنا متقدمين وبدأنا نتحدث إلى بعض الأشخاص، ولم يمر سوى بضع لحظات حتى تعرَّضنا لإطلاق نار، واضطُررنا إلى الخروج مسرعين بسيارتنا من تكريت تحت وابل من الطلقات المنطلقة من الكثير والكثير من الرشاشات. (سي إن إن ٢٠٠٣)

لم يمر سوى بضعة أشهر حتى تعرَّض فريق آخر تابع لسي إن إن لهجوم آخر في يناير ٢٠٠٤، لكن عواقبه كانت أكثر مأساوية.

> كان الموظفون عائدين إلى بغداد في قافلة مُكوَّنة من سيارتين بعد أدائهم لمهمة صحفية في مدينة الحِلَّة الجنوبية حين تعَرَّضوا لكمين على مشارف بغداد.
>
> لقي كلٌّ من دريد عيسى محمد، وهو مترجم ومنتج يبلغ من العمر ٢٧ عامًا، وياسر خطاب، وهو سائق يبلغ من العمر ٢٥ عامًا، مصرعهما متأثرَين بإصابتهما بعدة طلقات نارية. أما المصور سكوت ماكويني الذي كان يستقل سيارة أخرى، فقد أُصيب بخدش في رأسه جَرَّاء رصاصة.
>
> كانت سيارتا السي إن إن متجهتين جنوبًا نحو بغداد حين اقتربت من الخلف سيارة أوبل ذات لون بني مائل إلى الحمرة، تُقِل مسلحًا واحدًا حاملًا رشاش كلاشينكوف وقد خرج من فتحة سقف السيارة وفتح النيران على إحدى السيارتين.
>
> نجحت السيارة التي تتقدم القافلة في الهروب من المُسلح، بعد تعرُّضها لإطلاق النار خمس مرات على الأقل، وذلك بعد أن أطلق مستشار سي إن إن الأمني النار في المقابل.
>
> عبَّر المراسل مايكل هولمز عن الأمر قائلًا: «أعتقد بلا شك أن جميع من كانوا في سيارتنا كانوا سيُقتَلون عن آخرهم لو لم يَرُد المستشار الأمني بإطلاق النار. لم تكن الحادثة محاولة سرقة؛ بل كان من الواضح أنها محاولة قتل.»
>
> كان هولمز، والمنتجة شيرلي هنج، والمستشار الأمني وسائق يرافقون ماكويني ولم يُصَب أحدهم بسوء.

> دارت السيارة الأوبل في منتصف الطريق بينما غادرت السيارة الثانية، التي تُقل محمدًا وخطابًا، الطريق السريع، حسبما أفاد أحد أفراد طاقم سي إن إن.
>
> توجَّه طاقم سي إن إن الموجود في سيارة ماكويني إلى قسم للشرطة العراقية، وطلبوا من الضباط العودة إلى موقع الحادثة لمساعدة محمد وخطاب.
>
> ثم توجَّه الطاقم بعدها إلى قاعدة عمليات أمريكية أمامية تابعة للفرقة ٨٢ المحمولة جوًّا، حيث تلقَّى ماكويني العلاج، ثم أرسل الجيش الأمريكي فريقًا للعثور على موظفَي سي إن إن المفقودَين. (سي إن إن ٢٠٠٤)

إذًا، نجح مُجددًا أفراد الأمن المسلحون والمحترفون في حماية بعض كوادر سي إن إن على الأقل، بينما أدرك آخرون في مجال الإعلام أنه لا مجال للعودة إلى الوراء فيما يخص مستوى الرعاية والحماية المطلوب في مناطق الحروب.

خاتمة

إذًا، ماذا يحتاج الإعلاميون وهم يواصلون تغطيتهم لهذا العالم المليء بالتحديات؟

لا شك أنهم يحتاجون إلى وعيٍ كامل بأنهم لم يعودوا أشخاصًا يتمتعون بالحصانة، حتى لو كانوا كذلك في السابق.

ويجب أن يُدركوا أن هناك من يرغبون في إيذائهم ويتمنون عرقلة مهمتهم.

أرى أن أفضل حماية نُقدِّمها للإعلاميين هي أن نضمن أن كل صحفي وإعلامي لديه تفهُّم كامل بالمخاطر المتأصلة التي نواجهها.

ويجب على من يرغبون في الدخول إلى مجالنا أن يدركوا أن تقييم المخاطر ضرورة تُعادِل في أهميتها مهارات الكتابة السريعة (الاختزال) أو استيعاب القوانين ذا الصلة بالعمل أو القدرة على إجراء مقابلة صحفية وتصوير حدث بكاميرات الفيديو أو الكاميرات الفوتوغرافية. إن طلاب الإعلام في حاجة إلى تعلُّم القضايا المتعلقة بسلامتهم البدنية والنفسية في كلياتهم أو جامعاتهم.

كما أنهم يحتاجون إلى أن يفهموا على نحوٍ علميٍّ أن ممارسة الصحافة في صورتها النموذجية قد تكون في الواقع وسيلة للوقاية من العنف والإرهاب. فلو أدينا وظيفتنا بعناية ودقة مع التحلي بروح الإنصاف، فربما يُقلص ذلك من الأسباب الداعية إلى مهاجمتنا أثناء عملنا.

ملحق: النجاة والسلامة في ظل عالم عدائي

على مدى تاريخ شبكة سي إن إن الممتد لستة وعشرين عامًا في تغطية أخبار العالم، واجه المئات من كوادرها الأخطار. وقد تمكَّن أغلبهم، لحسن الحظ، من إنجاز مهامهم الخطيرة دون أن يمسهم سوء، لكن من المفجع أن بعضهم لم يتمكن من ذلك. فطوال تاريخ الشبكة، واجه موظفوها الميدانيون أمراضًا وإصابات خطيرة، وحوادث اعتقال واختطاف، بل وحتى الموت. وأسهمت كل واقعة من تلك الوقائع المؤلمة في إبراز حقيقة مفادها أن التدريبات والتحضيرات المناسبة الخاصة بالنجاة ضرورية لأيِّ مُهمةٍ صحفية تجري في منطقة عدائية.

تُحتم سياسة شبكة سي إن إن على الموظفين المُوفَدين إلى مناطق الحروب النشطة إتمام دورة تدريبية خاصة بكيفية التعامل مع «المناطق العدائية» مدتها خمسة أيام، وذلك قبل سفرهم. وتُقدِّم مجموعة إيه كيه إي المحدودة — وهي شركة متخصصة في مجال السلامة الميدانية للصحفيين تتخذ من المملكة المتحدة مقرًّا لها — هذه الدورة المعروفة رسميًّا باسم «النجاة في المناطق العدائية»، والتي تُغطي طائفة واسعة من مهارات إنقاذ الحياة التي تشمل الإسعافات الأوَّلِيَّة المكثفة والوعي الموقفي. وقد أتمَّ أكثر من ٦٠٠ موظف في الشبكة تلك الدورة منذ إطلاقها.

تُقدِّم الدورة إطارًا عامًّا لكيفية التعامل مع المخاطر الكامنة لا في مناطق القتال فحسب، بل وفي البلدان التي لا تُعَد القنابل والرصاص فيها مصدر الخطر، بل البيئة نفسها. في واقع الأمر، إن الحوادث أو الأمراض اليومية المعتادة في العالم المتقدم تعني زيارة سريعة إلى غرفة الطوارئ لإجراء جراحة أو تلقِّي العلاج، لكن خذ الملابسات ذاتها وضعها في مكان تقع فيه أقرب مستشفًى على بعد ١٠٠ كيلومتر تقطعها عبر طرق خالية من أيِّ علامات إرشادية وستكون النتيجة أن المصاب سيلقى حتفه لانعدام الرعاية الفورية. يُقدِّم التدريب المتضمن في الدورة أساليب تمكِّنك من النجاة معتمدًا على نفسك أو بمساعدة زميل حاصل على نفس التدريب.

ليست شبكة سي إن إن وحيدة في المنهج الذي تتَّبعه حيال الالتزام بقضية السلامة أو التدريبات الخاصة بها؛ إذ يتبنى الكثير من الشبكات الأخرى الأمريكية والدولية برامج مشابهة، كما أن إيه كيه إي هي واحدة من ثلاث شركات على الأقل في العالم تُقدِّم مثل هذه الدورات المَعْنية بالنجاة والتي تستهدف الصحفيين خصوصًا.

بدأت إيه كيه إي في تقديم هذه الدورة عام ١٩٩٣، والتي كانت الأولى من نوعها. وقد دشن هذا التدريب العضو السابق في قوات الكوماندوز التابعة للخدمات الجوية الخاصة

البريطانية، أندرو كين (يحمل اسمُ الشركة أول حرفين من اسمه)، والذي يعتمد على المعرفة العسكرية المُوظَّفة في البيئات عالية الخطورة، لكنه يُكيِّف تلك المعرفة بما يلائم متطلبات جمع الأخبار ميدانيًّا، سواءٌ أكان ذلك للصحف أم شبكات البث.

ينقسم هذا التدريب إلى أربعة أقسام: التوعية، والجوانب الطبية، والاكتفاء الذاتي، والتخطيط (مجموعة إيه كيه إي ٢٠٠٨).

يُقدَّم التدريب في شكل مزيج من المحاضرات داخل القاعات والسيناريوهات العملية الخارجية، وهي الأكثر إثارة، وذلك لتأكيد ما تعلَّمه المشاركون في الدورة داخل المحاضرات من خلال تفاعلهم مع تدريبات غاية في الواقعية، ولم يسبق لهم ممارستها عمليًّا في ساحة التدريب. تجري الاستعانة بممثلين لأداء دور المقاتلين مما يضع الصحفيين في ظروف ربما لم يتخيلوا قَطُّ المرور بها لكن ربما يعلمون أنها يمكن أن تقع خلال مهامهم الصحفية.

لنُلقِ نظرة على أحد أمثلة تدريبات النجاة الذي يُدعى «حواجز الطرق». خلال هذا التدريب، يمارس المشاركون «ممارسة عملية» ما تلقَّوه من محاضرات على مدى يومين على الأقل في ساحة التدريب (المجاورة لواحدٍ من المرافق التدريبية الإقليمية الثلاثة التابعة لمجموعة إيه كيه إي). يُبلِغ قائد فريق التدريب الصحفيين أنهم على وشك الشروع في تغطية خبر ما، وأن أحد زملائهم من الصحفيين قد استعان بمعاون من أجل قيادتهم إلى حيث من المُقرر أن يلقوا الشخص الذي يرغبون في عقد المقابلة معه. وهذا الأمر لا غرابة فيه؛ فأغلب الصحفيين معتادون على ذلك الإجراء الروتيني.

يُسمح للطلاب بإجراء مناقشات فيما بينهم يتناولون فيها ما يتوجب عليهم فعله قبل الانطلاق في رحلتهم. ثم تغادر المجموعة وبعد سلسلة من المنعطفات المربكة تُفاجأ بوصولها إلى منطقة مغطاة بالأشجار. ويُوضَع حاجز أمام السيارة التي تُحاط بغتةً برجال مُلثَّمين شاهرين أسلحتهم.

يواجه المشاركون في الدورة خلال الثلاثين دقيقة التالية واقعة صادمة جرت فعليًّا بكل تفاصيلها لكثير من الزملاء: مسلحون مُدججون بالرشاشات يُوقِفون سيارتك. ماذا عساك أن تفعل؟ يصيح أحد المسلحين قائلًا: «اخرجوا! ترجَّلوا من السيارة حالًا!» يتوجه المقاتلون المُرعِبون والمتخفُّون نحو السيارة جاذبين الأبواب بشدة ومُصوبين أسلحة الكلاشينكوف نحو وجوه الركاب. فتُفتح الأبواب ويُدفع بالصحفيين إلى جانب الطريق.

يُطلب من الصحفيين تسليم محافظهم وجوازات سفرهم، بينما يصيح بهم المقاتلون بعدائية لا رحمة فيها: «اخفضوا رءوسكم! ولا تلتفتوا حولكم. إن لم تطيعوا الأوامر، فسنطلق عليكم النار!»

ليس لدى المشاركين الآن متسع من الوقت للتفكير. يبلغ الموقف حدًّا من الواقعية يدفع كثيرًا منهم إلى الارتجاف بوضوح؛ فالأمر مثير جدًّا لأعصاب الجميع. ثم يسير «قائد المقاتلين» خلف الصحفيين الذين اصطُّفوا الآن وهم منبطحون أرضًا.

«إلى أين تذهبون؟ نحن «نسيطر» على هذا الطريق! لا بد أنكم جواسيس للسي آي إيه!»

يبرز إلى السطح في تلك المرحلة ما تعلَّمه الصحفيون خلال الدورة من إطار عمل. يحتج البعض على الاستجواب، بينما يبقى آخرون صامتين. وربما يفكر أحدهم في الهرب، أما الباقي فلا يدري ماذا يفعل. إن هذا أقرب ما يكون إلى ما يجري في الواقع.

يتواصل المشهد، بل ويتصاعد، بما في ذلك تلك اللحظة التي يسحب فيها مسلحان إحدى الصحفيات بعيدًا. في بعض السيناريوهات التي تتضمنها الدورة، تنطلق صرخة مكتومة ثم طلقة بندقية، لكن ذلك يجري بعيدًا عن مرأى المحتجزين عند السيارة، والذين يتساءل كلٌّ منهم حينها، بلا شك: «هل أنا التالي؟»

قد تُنهي كل مجموعة تلك التمثيلية المثيرة على نحو مختلف. قد تكون بعض النهايات سعيدة؛ إذ يتولَّى شخص ما زمام المبادرة وينجح في تحرير الجميع ببراعةٍ ودهاءٍ. لكن في أحيان أخرى قد تكون النهاية عنيفة، نتيجة لتصرُّف غير مدروس يأتي به طالبٌ حسَن النية لكنه متشبث بفكرة خاطئة. ما يقال في تلك التدريبات وما يُفعل يُثبت شيئًا واحدًا، وهو أنه لا يوجد شيء مؤكد. تعيد كل مجموعة استعراض سيناريو حواجز الطرق خاصتها ويناقش المدربون الكيفية التي تعامل بها الأفراد مع الموقف والجوانب الإيجابية الموجودة فيها. وتُظهر هذه الواقعة الميدانية أنه ليس هناك «صواب» مطلق ولا «خطأ» مطلق. فأنت لا يسعك بوصفك صحفيًّا فعل الكثير، لكن ما يمكنك فعله هو أن تكون متأهبًا قدر الإمكان. وتمنح الدورة التدريبية هذه المشاركين فيها مجموعة من المهارات المتعلقة بكيفية «النجاة على أفضل وجه ممكن» لو وقعوا في مواجهة حقيقية تهدد حياتهم.

يُعَد تدريب حواجز الطرق واحدًا من ثلاثة تدريبات ميدانية على الأقل تُمارَس خلال الدورة التي تدوم لخمسة أيام. كما تضم الدورة مواد إضافية تُغطي كيفية التعرف على أنواع الأسلحة، بما فيها المدفعية والألغام والفخاخ المتفجرة. لو شكَّك أحدهم في الحاجة إلى معرفة أنواع الأسلحة، فلينظر في أهمية معرفة ما إذا كان «زناد الأمان» الخاص ببندقية الكلاشينكوف المصوَّبة نحو رأسك منزوعًا أم لا. فإذا واجهت إعدامًا محتملًا ولم يكن

لديك فرصة للهرب سوى جزء من الثانية، فلا شك أن التعرف على هذا القدر الضئيل من أبجديات الأسلحة القتالية سيصير ذا أهمية جلية.

يضم التدريب عناصر أخرى، تتراوح بين الإثارة والبساطة، وتمنح المشارك مزيدًا من الثقة. من بين هذه الأنشطة تقييم الأفراد المسلحين الذين قد يواجههم وتحديد ما إذا كانوا ينتمون لجيوش تقليدية أم غير تقليدية. وإذا كانوا ينتمون لجيشٍ تقليديٍّ، فكيف تعرف مستوى احترافيتهم وقدراتهم؟ ومَن قائدهم؟ وكيف لا تجذب الانتباه إليك بحيث لا تبدو مصدرًا للخطر؟ ومتى ترتدي سترة واقية من الرصاص ومتى لا ترتديها؟

إن النجاة في المناطق العدائية، كما ذكرنا سلفًا، لا تقتصر بأيِّ حالٍ على تجنُّب طلقات الرصاص أو الألغام أو الاختطاف؛ فالبقاء بصحة جيدة داخل البيئات التي كثيرًا ما يعمل فيها الصحفيون لا يقل أهمية؛ فالأمراض والإصابات يمكن أن تحصد الأرواح تمامًا كالرصاص والقنابل، وعليه فإن دورة «النجاة في المناطق العدائية» التي تقدمها مجموعة إيه كيه إي تركِّز على الجوانب الطبية تركيزًا كبيرًا. وهذا القسم يُغطي ما هو أبعد من أساسيات «الإسعافات الأوَّلِيَّة» النمطية التي يُقدمها الصليب الأحمر في دوراته، فيتناول:

- تقييم الإصابات والتعامل مع المجاري الهوائية لإبقائها مفتوحة.
- السيطرة على حالات النزيف الحاد والجروح.
- التعامل مع الكسور.
- إنعاش القلب والرئتين.
- التعامل مع الظروف المناخية: الحرارة/البرودة، داء المرتفعات.
- الحيوانات السامة.
- الأمراض الشائعة، وكيفية الوقاية منها.
- طب السفر.

كما يلعب الاكتفاء الذاتي دورًا كبيرًا في الحد من المخاطر الميدانية؛ ولذلك تقدِّم الدورة لمحة عامة وافية عن كيفية زيادة المرونة والقدرة على التكيف إلى أقصى حدٍّ أثناء أداء المهام العسيرة. من أبرز ما يتضمنه هذا القسم:

- استهلاك الغذاء، وأداء التدريبات البدنية، وارتداء الملابس الملائمة.
- الحفاظ على الاتزان العقلي والقوة النفسية.

- مهارات الملاحة.
- مهارات تجنب الوقوع كرهينة.

من أهم الجوانب التي تتناولها الدورة التركيز على التخطيط؛ أي ببساطةٍ، استشراف المستقبل. تركز الدورة على النقاط التالية في هذا الصدد:

- تحديد الغاية والمخاطر.
- أداء العمل التحضيري: تحديد المشاركين في المهمة، ودراسة المناخ والطبيعة الجغرافية.
- المعدَّات والمتعلقات الضرورية: تحديد الأشياء المطلوبة.
- حالات الطوارئ: سيناريوهات ماذا لو؟
- العمل الجماعي والمسئولية: اتخاذ إجراءات استباقية.
- الأمور الواجب تنفيذها عند الوصول: تعديل الخطط.

من الأهمية بمكان أن نوضح أن العمل الصحفي في «منطقة عدائية» يُمثل خطورة مهما كان التدريب الذي يتلقاه الصحفي. فرغم أن دورة «النجاة من المخاطر»، التي مُدتها خمسة أيام، تمنح المراسل أو المنتج أو المصور إحساسًا جديدًا بالثقة إلى جانب مجموعة من مهارات إنقاذ الحياة، فإنها لا تجعلهم بمأمن من طلقات الرصاص. إن المعرفة المكتسبة من الدورة، لو التزم بها الصحفيون بدقة ميدانيًّا، تُعنى في المقام الأول بخلق ظروف في صالحك. وحتى لو كانت تلك المكاسب الإيجابية ضئيلة، فإن المحصلة النهائية يمكن أن تكون حاسمة: إذ قد تفصل بين المرض والصحة، وبين التعرض لإصابة والنجاة منها، وبالطبع بين الحياة والموت.

شكر وتقدير

أود أن أشكر الأفراد والجهات التالية أسماؤهم لإسهاماتهم في هذا الفصل: ويل كينج، وقناة سي إن إن إنترناشونال، وشبكة بي بي سي، وتوني مادوكس، وبرينت سادلر.

سبق أن نُشِر جزء من هذا الفصل في كتاب (كرامر ٢٠٠٢). يَودُّ المحرِّرون التقدم بالشكر للناشرين لسماحهم بإعادة نشره.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) هل أصاب كريس كرامر (وغيره ممن يُشاركونه هذا الرأي) في قوله إنه «ما من خبر يستحق التضحية بحياة صحفي»؟

(٢) هل الاستعانة بحراس مسلحين لحماية الصحفيين في مناطق الحروب كالعراق وغيره من شأنها أن تُقوِّض دور الصحفيين كمراقبين محايدين؟

(٣) هل من الصحيح أخلاقيًّا أن يُجري الصحفيون المرتدُون سترات واقية من الرصاص وخوذات مقابلات مع المدنيين الموجودين في مناطق الحروب ممن لا يتمتعون بحماية مشابهة؟

(٤) ناقِش الأسئلة التالية مع مؤسسة إخبارية تختارها:

(أ) ما هي سياستهم فيما يتعلق بتقديم دورات تدريبية معنية بالتعامل مع البيئات المعادية لكوادرها الذين قد يُكلَّفون بتنفيذ مهام صحفية في بؤر الصراع أو أي مهامَّ ذات خطورة مُحتملة؟
(ب) ما هي سياستهم فيما يتعلق بتقديم دورات تدريبية وتوفير معدَّات سلامة للصحفيين المحليين والمستقلين الذين قد يستعين كوادرهم بخدماتهم؟
(جـ) ألديهم أي برنامج مُتَّبع يُرشدهم إلى ما عليهم فعله لو تعرَّض أحد صحفييهم للاختطاف كرهينة؟ هل سيدفعون فدية؟ وما مدى تعاونهم الوثيق مع حكومتهم؟ وهل سيبذلون جهدًا مشابهًا لو تعرَّض أي معاونين محليين للاختطاف كرهائن؟

هوامش

(١) تعرَّض دانييل بيرل للاختطاف والقتل في باكستان عام ٢٠٠٢.

الفصل الحادي عشر

العواطف والصدمات النفسية والصحافة الرشيدة

مارك براين

تمهيد
جون أوين

كان مصورًا فوتوغرافيًّا جيدًا، لكن كان من السهل على تشارلي إقناعه بالتحول، على حدِّ تعبيره، إلى تصوير الفيديو. ومنذ ذلك الحين صارا متلازمين؛ في سلوفينيا، صيف ١٩٩١؛ ونوفسكا وباكراتش، أكتوبر ١٩٩١؛ وسراييفو، كريسماس ١٩٩٢، وموستار، صيف ١٩٩٣، والقائمة تطول: مقديشو، ولواندا وهوامبو، وكابول، اصطفَّت جميع تلك المهام في خاطره كشريط سينمائي. كانت كل واحدة من تلك العطلات وكأنها قطعة من الجحيم، وبدا أن ياتزيك قادر على النجاة من لهيبها باحتواء كل شيء داخل الإطار الأسود لعدسة الكاميرا خاصته. (مايكل إجناتييف، «تشارلي جونسون وسط لهيب النيران»)

يُرتَكب القتل بسرعة كافية ويمكن أن يقترفه أغلب البشر حين تزول تأثيرات معينة أو تُمارَس. لكن ما أثقل قلبي هو مشهد أولئك المكلُومين. رأيتهم في كلِّ حربٍ شهدتها، الآلاف الذين اضطروا إلى التعامل مع قذيفة أو قنبلة، أو رصاصة قناص باغتتهم فانتزعتهم في لمح البصر من واحد أو أكثر من أعز أحبائهم. ثم تمكَّنوا من استيعاب ذلك الألم ومواصلة حياتهم. كيف فعلوا ذلك؟ (أنتوني لويد، «رسالة غرام أخرى مُلطَّخة بالدم»)

من بين الأفكار الأساسية الواردة في الخطب التي كان يُلقيها كريس كرامر أمام مجموعات الصحفيين أن طواقم الصحفيين، عند عودتهم من تغطية أخبار خطرة ومزعجة، يكونون في حاجة إلى إجراء غسيل لعقولهم كما يغسلون ملابسهم القذرة. كان من المُعتاد في السابق، كما أشار كرامر، أن يجد الصحفيون العائدون، بعد أن شاهدوا وشَهِدوا فظائع، صعوبةً في عملية الانخراط في مجتمعاتهم مرة أخرى. عجز أغلب هؤلاء الصحفيين عن حمل أنفسهم على إخبار ذويهم وأصدقائهم بما رأوه من أهوال في البوسنة أو رواندا أو الشيشان. وكانوا يطلبون المساعدة عادةً من صحفيين آخرين يتفهمون ما مروا به ويتقبلونه، غالبًا عن طريق السُّكْر حتى الثمالة.

وجد بعض هؤلاء المراسلين الحربيين العائدين أنفسَهم مُنخرطين في سلوكيات غريبة أثارت قلق أحبائهم، بل وخوفتهم. يذكر مراسل بي بي سي المخضرم، آلان ليتل، تلك الواقعة التي جرت أحداثها أثناء حفل عشاء شهده وكان من بين الحاضرين أطفال مضيفه، وذلك بعد عودته مباشرةً من مهمة صحفية تعرَّض خلالها لمشاهد أطفال صغار يموتون ويعانون. يذكر ليتل أنه قال في لحظةٍ ما كم أنه لطيف أن يُحاط بأطفال ليسوا موتى ولا يحتضرون. أخرس هذا التعليق الثرثرة البريئة حوله وأثار تساؤلات كثيرة بشأن حالته المزاجية، مما دفعه في النهاية إلى طلب المساعدة النفسية.

قلَّما أقرت المؤسسات الإخبارية فيما مضى بمدى خطورة المشكلة التي يعانيها أولئك الذين أوفدوا إلى أماكن خطيرة وكُلِّفوا بمهام مزعجة. صحيح أنه كان لدى الكثير من المؤسسات الإخبارية برامج رسمية للإرشاد النفسي للتعامل مع جميع أنواع مشكلات الصحة النفسية، لكن لم يكن أيٌّ منها موجهًا خصيصًا لدعم صحفييها الذين وجدوا أنفسهم فاقدين لاستقرارهم الانفعالي نتيجة لما كانوا يشهدونه في تلك المناطق النائية.

كما تغلغلت في جميع المؤسسات الإخبارية ثقافة ذكورية مُتسلطة. فنادرًا ما كانت تلك المؤسسات في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات تعيِّن مُراسلات ومُنتجات، فضلًا عن تعيين صحفيات فيديو. كان الأسلوب الذكوري في التعامل مع أيِّ شيء يمس الأمور النفسية أو العاطفية يتمثل في تبنِّي موقف الفتى القوي الشكيمة والتعامل مع ما يزعجك، أيًّا كان، بأي أسلوبٍ يبدو ناجحًا خارج نطاق العمل.

ذات مرة، اضطررت للتعامل مع مشكلة لم يكن لديَّ أي فكرة عن كيفية حلها وذلك في أثناء أدائي لمهمة صحفية كمنتج ميداني للقسم الإخباري بشبكة سي بي سي في السلفادور خلال أوائل الثمانينيات. حينها، كانت فِرَق الإعدام، المدعومة من الجيش السلفادوري الذي يسانده الأمريكيون، تعدم المتمردين أو مَن يُعتقد أنه متعاطف معهم. قادنا معاوننا السلفادوري الشاب إلى موقع مجزرة: أسرة مكوَّنة من أب وأم وأبناء في عقد العشرينيات، وقد قُتِلوا جميعًا رميًا بالرصاص وتُرِكت جثثهم طافية في حمام من الدم. وبعد أن التقطنا صورًا لهذا المشهد المُروِّع وجمعنا ما استطعنا من معلومات من جيرانهم، أوينا إلى مقهى. أدركت أن عامل الصوت خاصتنا لم ينبس

ببنت شفة. لقد أصيب، في الواقع، بداء الجامود؛ فقد صُدِم بما رآه إلى حد أعجزه عن النطق. كل ما كان بوسعنا هو أن أعدناه إلى تورونتو على متن طائرة وكلنا أمل في شفائه العاجل بعيدًا عن أهوال ذلك المكان، الذي أفزعنا جميعًا وحرم أغلبنا النوم.

لو كنت منتجًا ميدانيًّا الآن لشبكة سي بي سي أو غيرها من المؤسسات الإخبارية الكبرى المستنيرة وحدثت نفس الواقعة، فسأكون جاهزًا للتعامل مع أغلب مشكلات السلامة والصدمات النفسية، وأعلم يقينًا الشخص الذي كنت سأتصل به فورًا طلبًا للمساعدة.

كنت سألجأ إلى دكتور أنتوني فاينستاين، أستاذ الطب النفسي بجامعة تورونتو وأهم مرجعية على مستوى العالم في «المخاطر النفسية» لتغطية الحروب والصراعات.

تعرفت إلى أنتوني في سياق تعاونِنا فيما أصبح دراسة رائدة لتوثيق المدى الكامل لحساسية الصحفيين الحربيين لما يُعرف باسم اضطراب ما بعد الصدمة (فاينستاين وآخرون ٢٠٠٢).

كشفت دراسة أنتوني أن ما يقرب من ثلث المشاركين في الدراسة (أكثر من ٨٠ بالمائة من أشهر الأسماء العالمية شاركت في الدراسة) عانوا أعراضًا مرتبطة باضطراب ما بعد الصدمة، وهو ما أذهل صناعة الأخبار ودفع كثيرين، منهم بي بي سي وسي إن إن، وغيرهما من شبكات البث الكبيرة، إلى التحرك.

لجأ كريس كرامر وسي إن إن إلى أنتوني طلبًا لمساعدته في تقديم الإرشاد النفسي للصحفيين الذين عانوا من صراعات نفسية عقب رجوعهم من مهام مزعجة وخطيرة.

لم يمضِ وقت طويل بعد أن صارت دراسة أنتوني مرجعًا حول الصدمات النفسية والصحافة حتى صار مارك براين، المراسل والمحرر المخضرم، في رويترز أولًا ثم في الخدمة العالمية التابعة لبي بي سي، صوتًا صادحًا بحاجة المؤسسات الإخبارية إلى بذل قدر أكبر من واجب الرعاية لكوادرها.

خاض براين نفسه رحلة شخصية من الصحافة إلى دراسة الطب النفسي. رأى براين أن ثمة صلة مباشرة بين حالة الشخص المزاجية وجودة أدائه الصحفي. لقد اعتبر نفسَه ورقةً محروقة بعد تغطيته الخطيرة والمضنية للأحداث العاصفة في عام ١٩٨٩، والتي من بينها مجزرة ميدان تيانانمن في بكين والثورة الرومانية الدامية في بوخارست. أحسَّ براين أنه فقد قدرته على عزل نفسه عن الأحداث والحفاظ على حياديته بعد ذلك القدر الهائل من العنف والمعاناة الذي شهده، واعتقد أن الوقت قد حان للتنحي وممارسة عمله الصحفي من خلال دور المحرر المكتبي الأكثر أمانًا.

وجد مارك براين الصحفي ومارك براين المعالج النفسي المؤسسة المثالية لهويته الثنائية: مركز دارت للصحافة والصدمات النفسية. أُسِّس المركز على يد الدكتور فرانك أوكبرج، الطبيب النفسي الأمريكي صاحب الأبحاث الرائدة في مجال اضطراب ما بعد الصدمة. بدأت برامج مركز دارت تدفع الصحفيين ووسائل الإعلام إلى تحسين تغطيتهم لحوادث العنف التي تقع في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم توسع المركز إلى خارجها وصار مارك براين المدير المؤسس لفرعها في أوروبا.

تمامًا كالتدريبات المعنية بالسلامة، عانت فكرة دعم الصحفيين المصابين بالصدمات النفسية مما يكفي من المعارضين في صناعة الأخبار. فكثير من الصحفيين العاملين يمقتون فكرة قلق المراسلين الزائد حيال حالتهم النفسية مقارنةً باهتمامهم الضئيل بصقل مهاراتهم المهنية. غير أن المؤسسات الإخبارية المستنيرة أدركت العلاقة التي أشار إليها مارك براين بين «العواطف، والصدمات النفسية، والصحافة الرشيدة». إن هذه العلاقة هي محل تناول براين في هذا الفصل.

مراجع

Feinstein, A., Owen. J. and Blair, N. (2002) A hazardous profession: War, journalists and psychopathology. *American Journal of Psychiatry* 159: 1570–5.

Ignatieff, M. (2003) *Charlie Johnson in the Flames.* Grove Press.

Loyd, A. (2007) *Another Bloody Love Letter.* Headline Review.

تخيَّل أنك حصلت لتوِّك على شهادتك الجامعية في الصحافة وأنك تستعد لمقابلتك الأولى للحصول على وظيفة.

الوظيفة المُعلَن عنها هي مراسل اقتصادي ومالي يعمل في نيويورك، لكنك لست متخصصًا في علم الاقتصاد؛ لقد درست التاريخ بالجامعة قبل التسجيل بتخصص الصحافة، لكنك متحمس للتعلم.

كيف عساك أن تستعد للمقابلة؟

هل سترغب في التعرف، مثلًا، على أسواق العقود الآجلة وكيفية عملها؟ هل ستود معرفة المزيد عن مؤشرات داو جونز، أو فوتسي، أو ناسداك، أو داكس؟ ربما تريد أن تتعلم الأساسيات المتعلقة بكيفية قراءة التقارير السنوية للشركات.

أو هَبْ أنك متقدم لوظيفة مراسل رياضي. إنك محبٌّ للرياضة لكنك لست واثقًا تمامًا من معرفتك بعض المجالات التي قد تُكلَّف بتغطيتها.

هل ستفكر، قبل المثول أمام لجنة الاختيار، على سبيل المثال، في مراجعة الألعاب التي تتكون منها رياضة الخماسي؟ هل تثق بقدرتك في شرح قواعد لعبة البيسبول؟ هل سترغب على الأقل في معرفة الفرق بين كرة القدم الأمريكية والبريطانية؟

إليك سؤالًا آخر يُدنينا أكثر من موضوع هذا الفصل.

ما مقدار الحصة التي تشغلها مسألة الصدمات النفسية في أجندة الأخبار الغربية النموذجية، كما تنعكس في النشرات التليفزيونية أو صفحات الجرائد الأمامية أو عناوين الأخبار الإذاعية أو على الإنترنت؟ ونعني بالصدمات النفسية هنا الشعور بالكرب الإنساني الشديد، سواءٌ أكان ذلك الشعور بدأ عقب محنة ما، أم في أثنائها أم تحسُّبًا لها.

الجواب المعتاد الذي نتلقاه أثناء التدريب، بصرف النظر عن الجنسية أو الثقافة، هو الثلثان تقريبًا.

إذًا، بالنظر إلى مثال الرياضة — الذي يفيد أن فهم اللعبة شرط أساسي لتغطيتها بذكاء — واعتبار أن الصدمات النفسية، في الوقت نفسه، هي عماد أجندة الأخبار اليومية في أغلب الثقافات الإخبارية، ما مقدار التدريب الذي تعتقد أن الصحفيين يتلقونه، أو ينبغي أن يتلقوه، ليفهموا قواعد الصدمات النفسية (فللصدمات النفسية قواعد، وهي قضية من السهل تمامًا استيعابها)؟

إن جواب السؤال الأول — ما مقدار التدريب الذي يتلقونه؟ — ليس باعثًا على السرور؛ فلم يحصل الصحفيون قديمًا، وحتى وقت قريب جدًّا، على أي تدريب معنيٍّ بالصدمات النفسية، لا في كليات الصحافة، ولا خلال التدريبات التي تُقدَّم للمبتدئين في الوظائف، ولا خلال ما يطلق عليه في ميادين الحياة المهنية الأخرى، التنميةَ المهنيةَ المستمرة.

لقد عملت صحفيًّا لرويترز وبي بي سي لثلاثين عامًا والمقدِّمة الوحيدة عن الوعي العاطفي تلقيتها حين تنحَّيت جانبًا في تسعينيات القرن الماضي وسعيت لمداواة نفسي وتدرَّبت لأصير معالجًا نفسيًّا، ثم عدت إلى الصحافة حاملًا تلك الأفكار لتنفيذ حملة أدعو فيها لمنهج جديد في التعامل مع الصدمات النفسية.

لنكن مُنصفين. ينبغي ألا ننكر على الصحفيين ومؤسساتهم عدم أدائهم لأمر لم يعلموا ضرورة القيام به.

على كل حال، لم يُحدَّد اضطراب ما بعد الصدمة رسميًّا لأول مرة إلَّا مؤخرًا نسبيًّا، في عام ١٩٨٠، كما أن المهن الأخرى التي تتعامل مع الكوارث والمآسي، كالشرطة والطوارئ والمطافئ، استغرقت وقتًا للإقرار بأن الصدمات النفسية جانب رئيسي في عملهم.

ورغم ذلك فإن قضية هذا الفصل هي أن الجهل بمسألة الصدمات النفسية ونقص التدريب المَعْنِي بالتعامل معها في مجال الصحافة لم يعودا أمرين مبرَّرين.

إذًا فالجواب عن السؤال الثاني — ما مقدار التدريب الذي يحتاجه الصحفيون؟ — هو بالتأكيد: «أكثر بكثير من المقدار شبه المعدوم الذي تلقَّوه حتى الآن.»

ورغم أنه ليس من الممكن أن تتحول إلى خبير بالصدمات النفسية بعد قراءة هذا الفصل القصير فقط، فإنني أرجو بنهاية قراءتك له أن تقتنع بأهمية هذه الأجندة.

(١) لماذا أحتاج إلى التعرف على الصدمات النفسية؟

لا يعني فهم مسألة الصدمات النفسية أن تصير مرهف العواطف، أو تذرف الدموع وأنت تنقل الأحداث على نحوٍ مباشر أو تطَّلع على الصور التي التقطتها أو الأخبار التي كتبتها، أو أن تكتفي بنقل الأخبار السارة فقط، كما لا يعني إرسال الصحفيين إلى طبيب نفسي حين يضطرون لنقل الصدمة التي تُعانيها قطة عالقة أعلى شجرة.

إن التعرف على الصدمات النفسية في مجال الصحافة مهم نظرًا لأن الصدمات والعواطف هما، إلى حد بعيد، أهم عاملين محركين للسلوك البشري.

وسواءٌ أكان البشر يختارون شريك حياتهم، أو حزبًا سياسيًّا يؤيدونه، أو نوع معجون أسنان ليستخدموه، فهم يعتمدون في قراراتهم على حدسهم أكثر من اعتمادهم على المنطق والعقل. والفرق بين البشر والحيوانات هو أن البشر يتوهمون أنهم يتخذون قرارات منطقية.

لذا فالحصول على المعرفة الأساسية بالعواطف والصدمات النفسية واحد من أهم الأدوات التي نحتاجها لتحسين أدائنا بوصفنا صحفيين.

تساعدنا تلك المعرفة على وجه الخصوص على:

- أن نفهم كيف يتصرف البشر ولماذا، لا سيما في حال وقوعهم تحت تأثير كرب شديد (وهو غالبًا ما نجدهم يعانونه عند تغطيتهم للأخبار الكبرى).
- أن نُجريَ أفضل مقابلات ممكنة ونقدم أفضل أداء صحفي.
- أن نجيد رواية أخبار المآسي والكوارث — بمصداقية، ودقة، واحترام.
- أن نكتسب، كأفراد وبشر ضعفاء، الأدوات اللازمة لإبقائنا على المسار الصحيح وأداء عملنا على أفضل وجه ممكن، مهنيًّا وعاطفيًّا (وهو أمر يجدر بك أن تضعه نصب عينيك إذا وجدت نفسك تنقل أحداثًا مثيرة للصدمات الشديدة).

إن هذا الفصل باختصار يتناول العواطف والصدمات النفسية والصحافة الرشيدة، وكيفية ارتباط كلٍّ منها بالآخر.

(٢) ما هي الصدمات النفسية؟

باعتبارنا نتاجًا لعملية التطور، فقد جرت برمجتنا على الانجذاب إلى العنف والمآسي والتأثر بهما. إن استجابتنا كبشر للتجارب المثيرة للصدمات، قبل ظهور الأخبار والصحافة بوقت طويل، ساعدت في تحديد كيفية بقائنا وازدهارنا كنوع بيولوجي.

إن تجربة الصدمات النفسية قديمة قِدَم الجنس البشري، وقد وصِفت كثيرًا في الأدبيات بدءًا من الكتاب المقدس وكتابات الإغريق القدماء (والحق أن كلمة صدمة بالإنجليزية هي في الواقع كلمة إغريقية تعني الثَّقب أو الجرح) وانتهاءً بشكسبير وشعراء الإنجليزية المعاصرين للحرب العالمية الأولى.

غير أن علم الصدمات النفسية أحدث عهدًا بكثير؛ إذ نشأ منذ أواخر القرن التاسع عشر وتطور خلال الحربين العالميتين وصولًا إلى عام ١٩٨٠ الذي شهد وضع تشخيص لاضطراب ما بعد الصدمة.

وقبل الخوض في الآثار المترتبة على الصدمات النفسية في مجال الصحافة والعناية بالذات، دعونا نلقِ نظرة على ما قد يُعَد مثيرًا للصدمات النفسية في مقابل ما قد يُعتبر مثيرًا للتوتر لا أكثر.

قدمت عالمة النفس الأمريكية الرائدة، جوديث لويس هيرمان، في كتابها الرائع «الصدمات النفسية والتعافي منها»، تناولًا مهمًّا لمسألة الصدمة النفسية باعتبارها محنة العجزة. وكتبت فيه قائلة: «في لحظة الصدمة، تصبح الضحية لا حول لها ولا قوة تحت وطأة قوة ساحقة. حين تكون الطبيعة صاحبة هذه القوة، فنحن نتحدث عن الكوارث الطبيعية، وحين يكون البشر مصدر هذه القوة، فإننا نتحدث عن أعمال وحشية. تقهر الأحداث المسببة للصدمات أنظمة الرعاية العادية التي تمنح البشر شعورًا بالسيطرة والترابط والأهمية» (هيرمان ٢٠٠١: ٣٣).

ليس بالضرورة أن يكون الحدث المسبب للصدمة حدثًا هائلًا، كحرب أو كارثة طبيعية. فربما يكون أمرًا مؤسفًا جرى لصديق. وقد يكون شيئًا يحسبه الناظر هينًا، لكنه عظيم في حياة المرء. كما أن الفرد الذي يُعاني من صدمة ليس بالضرورة في الحقيقة أن يكون قد وُجد في محل الحدث، بل ربما يكون ذا صلة به فقط.

المهم في الأمر هو كيفية تأثُّر الفرد شخصيًّا بالأمر؛ لذلك فليس للآخرين أن يقولوا لشخص ما يشعر بصدمة نفسية إن الأمر ذا الصلة لم يكن في الواقع بذلك السوء وأن عليه أن يتمالك مشاعره ويستعيد رباطة جأشه.

قد يساعدك هذا خلال تغطية خبر ما في أن تُفسِّر التأثر الشديد للغاية لبعض الأشخاص بالمصائب التي تحل بهم والذي يفوق في حدَّته تأثُّر غيرهم.

لو أدركت ذلك بوصفك صحفيًّا، فستكون أمامك فرصة أفضل بكثير لاستيعاب مشاعرهم وإعادة سرد قصتهم بمصداقية وتعاطف.

لو تناولنا القضية من منظور أكثر تحديدًا، فإن «التشخيص الإكلينيكي» لاضطراب ما بعد الصدمة طبقًا لتعريفه الحالي الذي وضعته الجمعية الأمريكية للأطباء النفسيين يُقصد به الكرب الذي قد ينتج عن:

> المعايشة الشخصية المباشرة لحدثٍ يتضمن وفاةً فعلية أو محتملة أو إصابة خطيرة أو أي تهديد آخر للسلامة الجسدية لشخص ما، أو معاينة ذلك الحدث؛ أو العلم بتعرض أحد أفراد الأسرة أو غيرهم من الأشخاص المقربين للوفاة غير المتوقعة أو العنيفة، أو الأذى الشديد، أو خطر الموت أو الإصابة. (الجمعية الأمريكية للأطباء النفسيين ٢٠٠٠: ٤٦٣)

سيشهد الشخص، بناءً على هذا التعريف، شعورًا حادًّا بالخوف أو العجز أو الرعب. وإيجازًا للمعايير التشخيصية التي حدَّدتها الجمعية الأمريكية للأطباء النفسيين (٢٠٠٠)، فإن الأعراض التي قد يستند إليها تشخيص حالات اضطراب ما بعد الصدمة، لو دامت لأكثر من شهر، يمكن أن تتضمن:

- تكرار تذكُّر الحدث وتسلُّطه، بما في ذلك، على سبيل المثال، الاستحضار اللاشعوري له أو الكوابيس.
- التبلد العاطفي وتجنُّب الأشخاص والأماكن التي تُذكِّر الفرد بالحدث.
- الاستثارة الفسيولوجية المستمرة، والتي قد تشمل سرعة الانفعال وضعف التركيز واضطرابات النوم وأعراضًا جسدية كتقلصات المعدة أو التعرق، والاستجابة الإجفالية المفرطة.

يُعَد ذلك تعريفًا أضيق للصدمات النفسية، لكن ينبغي ألا يُفهَم منه أن الشخص الذي لا يُعاني من جميع تلك الأعراض مجتمعة أو غالبيتها بخير تمامًا ولا يعاني من أيِّ مشكلة.

في الواقع، يعمل الأطباء النفسيون حول العالم في وقتنا الراهن (وقت كتابة الفصل) على تشخيص جديد من المتوقع أن يضمه المرجع القادم للاضطرابات النفسية والمُقرر

نشره عام ٢٠١٢ تقريبًا، ومن المرجح أن يُطلق عليه «اضطراب ما بعد الصدمة المعقد» أو ما شابه. وسوف يُبرز هذا التشخيص تجارب المعاناة النفسية المنهِكة التي تمتد جذورها في حالات الصدمة بتعريفها الأوسع مثل التعرض للعنف أثناء الطفولة أو الطلاق أو التنمر.

بناء على ما سبق، حين تنقل حالات الصدمة والمعاناة النفسية الحادة أو تتعامل معها، فعليك أن تعي (وسوف أعود إلى تلك النقطة لاحقًا) أن معظم البشر يتعافون تمامًا في الغالب منها لا سيما لو حصلوا على الدعم الاجتماعي المناسب من الأصدقاء، والأسرة، وزملاء العمل.

ثبتت صحة ذلك الأمر بالنسبة إلى سكان نيويورك عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر على مركز التجارة العالمي في ٢٠٠١، وكذلك بالنسبة إلى سكان لندن وسكان برلين أثناء تعرُّضهم للقصف خلال الحربين العالميتين. وربما الأكثر غرابة أنه يَصْدُق على الناجيات من تجارب الاغتصاب، والتي أثبتت الأبحاث أنها أكثر التجارب إيلامًا وإثارة للصدمات النفسية التي قد يمر بها أيُّ إنسان.

يتغير البشر إثر إصابتهم بالصدمات النفسية، والتجارب الأليمة لا تُنسى، لكن البشر، من جميع الثقافات وعلى مدار حقب التاريخ، قادرون على التكيف على نحو يُثير الدهشة.

ولذلك فمن الضروري عدم النظر إلى الصدمات باعتبارها مرضًا نفسيًّا أو معضلة إكلينيكية هائلة. تذكَّر أيضًا حين تنقل الصدمات أو تعاني منها بنفسك أن حتى اضطراب ما بعد الصدمة في أشد أشكاله يُعتبر نتيجة أقل وقوعًا بين أولئك الذين يجدون أنفسهم يتألمون على المدى الأبعد، مقارنةً بالاكتئاب والقلق، أو انهيار العلاقات، أو إدمان الكحوليات، أو تعاطي المخدرات.

وإذا بالغنا في ذلك التقييم الإيجابي إلى حد التطرف، فسنجد من يحتج بأن اضطراب ما بعد الصدمة ليس سوى مفهوم سياسي غربي ابتدعه في سبعينيات القرن الماضي دُعاة حقوق المرأة في الولايات المتحدة الأمريكية ممن ينتمون إلى التيار اليساري ويُناهضون حرب فيتنام.

لكنني بوصفي صحفيًّا ومعالجًا نفسيًّا عمل مع أفراد من أغلب ثقافات العالم، لا أتفق مع هذا الرأي.

صحيح أن غالبية من يعانون من الصدمات النفسية لن يصل بهم الأمر إلى الإصابة باضطراب ما بعد الصدمة، لكن أقلية لا يُستهان بها سوف تُصاب به. لماذا عليهم أن يستمروا في معاناتهم، لعقود في بعض الأحيان، في حين أن القليل من التنوير والدعم والإقرار والعلاج، في بعض الحالات، قد يُحدِث تحولًا في حياتهم؟

تفيد البيانات المستمدة من عقد التسعينيات والموضحة في جدول ١١-١ أنه يمكن توقُّع الإصابة باضطراب ما بعد الصدمة في أي مجتمع إحصائي أمريكي أو أوروبي بعد هذه الحوادث.

لاحظ أن ثمة اختلافات بين الرجال والنساء في استجابتهم للصدمات النفسية.

دأبت الدراسات البحثية على الإشارة إلى أن احتمال إصابة النساء باضطراب ما بعد الصدمة يقارب ضعف احتمال إصابة الرجال بها بوجه عام.

لاحظ أيضًا أن احتمال الإصابة باضطراب ما بعد الصدمة جرَّاء الكوارث الطبيعية أقل من نظيره جرَّاء التعرض للعنف أو الاعتداء على يد البشر. إذًا النتيجة المستنبطة من هذه الحقيقة، رغم قسوتها، هي أن تقبُّل المصائب يبدو أسهل لو لم يكن للبشر دخل فيها.

صحيح أن الثقافات المختلفة تتعامل مع الصدمات النفسية بأساليب مختلفة وأن محاولة تطبيق التحليل النفسي الفرويدي على سبيل المثال على راعي ماشية من التبت، أو لاجئ من السودان، أو ناجية بوسنية من حادثة اغتصاب ستكون فكرة في غاية السوء. وربما يحتج الكثيرون الآن بأن ذلك النمط من العلاج لا يمثل أفضل إجراء يمكن اتخاذه للتعامل مع المصابين بالصدمة في العالم الغربي أيضًا.

جدول ١١-١: الإصابة المتوقعة باضطراب ما بعد الصدمة في مجتمع إحصائي أمريكي أو أوروبي.*

الحادثة	الإصابة المتوقعة باضطراب ما بعد الصدمة (بالنسبة المئوية)	
	ذكر	أنثى
معاينة وفاة/إصابة	٦	٨
حادث مُهدِّد للحياة	٦	٩
اعتداء جسدي	٢	٢١
قتال	٣٨	—
كارثة طبيعية	٤	٥
اغتصاب	٦٥	٤٦

* ملحوظة: لا توجد بيانات متاحة لحالات الإصابة بين النساء الناتجة عن القتال (المصدر: كيسلر (١٩٩٥)).

لكن أغلب اختصاصيي الصدمات النفسية في معظم البلدان يُدركون بالفعل الآن أن أوجه التشابه بين الاستجابات العاطفية التي يُبديها البشر حيال الصدمات أكثر بكثير من أوجه الاختلاف بينها وأن المساندة والروابط والعلاقات الاجتماعية يمكن أن تُحدث فارقًا عميقًا في كيفية تقبُّل البشر لمآسيهم ومصائبهم.

(٣) تغطية الصدمات النفسية: الصحافة

إن الصدمات النفسية، في أقصى مستوياتها الآنية، والاستجابات الفسيولوجية العميقة التي تُثيرها معاينة الإصابات أو الوفيات أو الخوف منها يمكن أن تؤثر على نحو كبير في إدراك الفرد وتكوينه للأحكام، سواءٌ أكان ضحيةً أم ناجيًا أم شاهد عيان أم مراسلًا.

يسهم مثال مقتبس من جريدة ذا جارديان اللندنية في توضيح هذه المسألة: لقد وجد مراسل الجريدة الشاب، المقيم في شنغهاي، نفسه في أكتوبر ٢٠٠٥ ينقل تعرُّض ناشط مَعْني بالحقوق المدنية لما بدا أنه ضرب مُفْضٍ للموت على يد لجان حراسة شعبية قروية في إحدى قرى الصين الجنوبية. قاد المراسل والناشط سيارتهما إلى القرية معًا، على خلاف ما ارتآه المراسل، إذ كان معروفًا أن القرية مكان يسوده العنف وخشي أن يتعرضا لهجوم. وهو ما حدث بالفعل للناشط؛ إذ تعرَّض لاعتداء عنيف؛ فما كان من المراسل إلَّا أنْ دفعه خوفه على حياته أن حبس نفسَه في السيارة وراح يراقب من نوافذها في هلع مشهد صديقه وهو يتعرض للضرب المبرح، حسبما اعتقد، وقد فارقت إحدى عينيه محجرها وتكشَّفت أربطة عنقه، والتوى جسده وتكسر: باختصار، لقد أردَوه صريعًا. هُرع المراسل عائدًا إلى الفندق ودوَّن ما رأى في سرد طويل مفعم بالانفعالات، وقد وجد طريقه إلى صدارة الصفحة الأولى من عدد الصحيفة الصادر في اليوم التالي. لقد نقل المراسل في الواقع التفسير الذي أضفاه عقله المصدوم على المشهد الذي رآه، لكن المشكلة الوحيدة هي أن الناشط لم يلقَ مصرعه، بل ظهر بعد بضعة أيام مصابًا بعدة كدمات جرَّاء الضرب لكنه كان لا يزال على قيد الحياة.

بمجرد أن اتضحت معالم الأمر، أجاد فريق الجريدة التحريري التعامل مع تَبِعاته، وقد أدركوا، وإن كان متأخرًا بعض الشيء، أن المراسل مرَّ بتجربة كبرى خلَّفت لديه صدمة نفسية وأنه بالغ، لا شعوريًّا، في تفسير ما رأته عيناه.

تقدمت الصحيفة بالاعتذار للسلطات في بكين ونشرت استدراكًا على الخبر،[1] وحظي المُراسل بقدرٍ كبيرٍ من التعاطف والتفهم لحالته، لكن كل هذا كان يمكن تجنبه بمزيد من التدريبات التي تستهدف الوعي بحالات الصدمات النفسية، ميدانيًّا وفي مقر الجريدة.

إذًا، ماذا حدث؟

من منظور صحفي، كانت تجربة المراسل مؤسفة، لكنها منطقية تمامًا لو نظرنا إليها من وجهة نظر العلوم المعرفية.

إن وظيفة المخ هي تنقيح الكم الهائل من المعلومات التي يتلقاها من الحواس الخمس، وتفسيرها، واستيعابها من وجهة نظر شخصية. وهي وظيفة يؤديها حتى في أكثر الظروف هدوءًا واستقرارًا.

لكن حين يواجه المخ توترًا ناجمًا عن صدمة نفسية — واعتمادًا على مجموعة من العوامل الأخرى — فإنه يميز الإشارات التي يتلقاها ويفسرها بطرق معينة؛ إذ سرعان ما يتحول إلى وضع الإنذار والبقاء على قيد الحياة ويمكن أن يعتري البشر فجأة مشاعر وتصرفات تختلف تمامًا عن ذواتهم الطبيعية.

إن ما سبق يُفسِّر لماذا لا يمكن التعويل على رواية شهود العيان على الأحداث المسببة للصدمات النفسية ولماذا قد يرتكب الصحفيون، حتى المخضرمون منهم، أخطاء في اللحظات المفعمة بالانفعالات الشديدة، كما حدث مع مراسل جريدة ذا جارديان (وربما حدث أيضًا مع كثير من الصحفيين، ذوي الخبرة العالية أحيانًا، والذين قد لا تُكتَشف أخطاؤهم ألبتة).

(٤) الحصول على الخبر بطريقة ملائمة

> لقد تصرَّف حوالي نصف الصحفيين الذين أجرَوا هذه المقابلات بمهنية مُبْدين قدرًا هائلًا من المشاركة الوجدانية والتفهم. ولأنها عملية متبادلة، فقد منحتهم في المقابل قصة إخبارية أفضل كثيرًا … أجريت أيضًا كثيرًا من المقابلات السيئة. أثارت التجربة السيئة في كل مرة إصابة جديدة بصدمة نفسية وتمكنت من تمييز قاسمين مشتركين. أعتقد أن أهم عاملين في تحفيز إصابة جديدة بالصدمة النفسية خلال المقابلات مع ضحايا الصدمات النفسية أو الناجين منها هما فقدان الثقة وانعدام الإحساس بالسيطرة. (دكتورة ماري سيلف، التي تصدَّرت قصة تعافيها بعد إصابتها بالسرطان الصفحات الأولى في الصحف الدولية عام ١٩٩٩)

إن الصحافة الرشيدة — والاتسام بالدقة والإنصاف قبل كلِّ شيء — ذات أهمية بصرف النظر عن محتوى الخبر، وحين يتعلق الأمر بصحافة الصدمات والمعاناة البشرية الشديدة، تتضاعف أهمية تلك القيم.

إن مراعاة تلك القيم سوف تمنحك قصة إخبارية أفضل وسوف تضْمن أن تغطيتك لن تزيد الأمر سوءًا دون داعٍ بالنسبة إلى أولئك الذين تروي قصتهم.

غالبًا ما تأتي الحوادث المسببة للصدمات النفسية مصحوبةً بمواعيد نهائية ضيقة للغاية وبضغوط تنافسية شديدة جدًّا؛ لذا، حين تسعى لإجراء مقابلات مع ناجين أو ضحايا للتعرف على قصصهم، فلا تنسَ أنك تتعامل مع بشر ضِعاف ربما يمرون بأسوأ تجارب حياتهم.

إليك بعض الاقتراحات التي تصلُح لتغطية الجرائم أو المآسي المحلية كما تصلُح لنقل الحروب أو الكوارث العالمية:

- إن الضحايا والناجين، ومن فُجِعوا في عزيز، وغالبًا أيضًا من عاينوا «فقط» مثل تلك الأحداث أو تعاملوا مع تبعاتها، قد يشعرون أحيانًا بفقدان مفاجئ لإحساسهم بالأمان في هذا العالم. ولا يقتصر الأمر على ما تعرَّضوا له جسديًّا. تذكَّر التعريف الافتتاحي في هذا الفصل الذي يتناول ما يمكن أن يُشكل صدمة نفسية: فالمهم هو ما يعنيه الحدث بالنسبة إلى الشخص المتأثر.
- تختلف ردود الأفعال، وقد تُدهِش بل وتُصدِم؛ فربما يبدو الأشخاص فائقي الهدوء وعقلاء ورزناء، وقد يُظهرون وقارًا وأحيانًا رباطة جأش مثيرة للعجب، لكن من ناحية أخرى، قد يتسم آخرون بالانفعال الحاد، وربما يستحوذ عليهم الأسى واليأس، وقد يتصرَّفون بغضب وسخط، وربما يُعانون من الحيرة والارتباك والتشتت، وقد يُصيبهم الجمود والعجز عن الكلام. كل ما سبق يُعَد جزءًا من ردود الأفعال الطبيعية والمتوقعة الناجمة عن الصدمات النفسية.
- غالبًا ما سيكافح الضحايا والناجون والعائلات والأصدقاء لاستعادة قدرتهم على التحكم في عالمهم الذي انقلب رأسًا على عقب. إن إجراء مقابلة مع مثل هؤلاء الأشخاص يختلف كليةً عن مقابلة سياسي أو خبير؛ لذلك لا تألُ جهدًا في منحهم شعورًا بالتحكم والسيطرة خلال الحوار.
- اسمح لهم بتحديد مكان المقابلة، والحصول على استراحات، وإنهاء المقابلة. وإذا شعرت أنهم قلقون إزاء ما روَوه وكان هناك متسع من الوقت، فربما يجدر بك

أن تُعِيد عليهم قراءة بعض المقتطفات التي سجلتها أو دونتها وتحقَّقْ منهم أنك قد استوعبت قصتهم كما ينبغي.

- مهما كان موعد تسليم العمل عاجلًا أو أبدى المحررون في مقر عملك ضجرًا، تعامل مع الأمر بتأنٍّ. كن واثقًا وواضحًا ومحترمًا ودمثًا. اعلم أن الأشخاص الذين تتحدث إليهم ربما لا يستطيعون أن يتذكروا لاحقًا أسئلتك أو إجاباتهم.
- ليس لك أي عذر، بوصفك صحفيًّا، في تعقيد الوضع بلا داعٍ بالنسبة إلى من تنقل قصصهم. وربما يشعر الضحايا والناجون أن تعرُّضهم لمعاملة أو تغطية سيئة على يد الإعلاميين صدمة أكبر من مصابهم الأصلي.

ثمة خاطرة هامة في هذا الشأن: ربما تكون اللحظة التي يتلقى فيها المرء خبر وفاة عزيز له هي أشد لحظات حياته إثارة للصدمة؛ لذا قبل التوجه إلى إجراء مقابلة، حاول أن تعرف، لو أمكن، ما إذا كان من ستُجري معه المقابلة قد تلقَّى خبر ما حدث من السلطات المختصة أم لا. وتجنَّب، إن استطعت، أن تكون أول من يُبلغ الأهل والمقربين بمثل تلك الأخبار غير السارة.

(٥) إجراء المقابلات

يُعَد إجراء مقابلات جيدة تراعي مشاعر الآخرين ركيزة أساسية لجميع أنشطة الصحافة الرشيدة، لكنك حين تتعامل مع ضحايا الصدمات النفسية والناجين منها، تكتسب هذه المهارات أهمية خاصة.

لا يقتصر الأمر على مجرد إلقاء أسئلة جيدة، بل يتجاوزها إلى خلق تآلف ورابطة، ولو لفترة قصيرة، بما يُمكِّن كلًّا منكما من بذل أفضل ما لديه.

- قبل التوجه إلى الشخص الذي ستحاوره أو بدء المقابلة معه، ينبغي أن يكون لديك فكرة واضحة بشأن ما تريده من تلك المقابلة. ما المعلومات التي تحتاجها؟ وكيف يمكن أن تُلائم تجربة ذلك الشخص القصة الإخبارية الأكبر التي تتحرَّى عنها؟ فمن المهم أن تجري تحضيراتك وبحثك، لكن تذكَّر أن المعرفة ستأتي من الشخص الذي تُجري معه المقابلة.

- ربما تشعر شخصيًّا بالعصبية والخوف، بل والغضب، حيال الخبر الذي تنقله؛ لذا، من الضروري أن تُقِر بمشاعرك وتعيها، لكن حاول أن تدفع عواطفك إلى إيضاح فهمك لا تضليله. تمهل وحاول أن تتمالك أعصابك.
- تأكد ما إذا كان مقبولًا أن تطرح سؤالًا صعبًا. ثم أنصت! فإن أسوأ خطأ قد يرتكبه مراسل هو أن يتحدث أكثر من اللازم.
- استعن بمهارات الإنصات الإيجابي، كالتواصل البصري المناسب، والإشارات غير الشفوية الدالة على الاهتمام والمشاركة، والتصرف على نحو يعكس حركات مَن تجري معه المقابلة. وتذكَّر أن قدر التواصل الذي تُحققه لغة الجسد ونبرة الصوت أكبر كثيرًا من القدر الذي تحققه الكلمات الفعلية التي تتلفظ بها.
- أفضل أسئلة هي الأسئلة البسيطة المفتوحة. وتجنَّب (تقريبًا) دائمًا الأسئلة التي يمكن أن يُجاب عنها بمجرد الإيجاب أو النفي. ولا تسأل أكثر من سؤالٍ واحدٍ في المرة الواحدة.
- ألقِ نظرة على ما حصلت عليه من معلومات. أعد صياغتها ولخِّصها وتحقَّقْ من فهمك لها. حاول أن تقدِّم لأسئلتك بقولك: «أتساءل ...» أعطِ فرصة للحظات توقُّف وصمت.
- لا تطرح أبدًا ذلك السؤال الأكثر استعمالًا والأقل فاعلية: «بِمَ تشعر؟» فربما يُجيبك الشخص بالدموع، لكن من غير المُرجح أن تتلقى جوابًا مترابطًا ومفيدًا وهادفًا. في الواقع، هذا هو السؤال الذي يصفه الناجون والضحايا دائمًا بأنه أشد الأسئلة إيلامًا وأبعدها عن التوفيق. لكن ماذا عن طرح أسئلة بديلة على شاكلة: «كيف خبرت هذه التجربة؟» أو «كيف حالك الآن؟»

تناول المهمة كما ينبغي، وغالبًا ما ستحظى ممن تقابلهم بروايات واضحة وقوية لقصصهم، وهو أمر في صالحك، وصالحهم، وصالح الصحافة.

(٦) إذًا، ما الخبر؟

في الفترة التي تلي مباشرةً الحادثة أو التجربة المثيرة للصدمة، سوف يشهد كثيرون ممن لهم صلة بالأمر أعراضًا تُشبه أعراض اضطراب ما بعد الصدمة، كاستحضار الذكريات المتسلط والتبلد واجتناب الآخرين وفرط الاستثارة.

وتمامًا كما ننزف عقب الإصابة أو نتألم جرَّاء كدمة أو كسر، تُعتبر أعراض المعاناة النفسية كما هو الحال مع الجسدية طبيعية تمامًا وتمهيدًا لما يعده الجسد عملية تعافٍ.

ومثلما يستغرق الجرح بضعة أسابيع ليلتئم والكسر بضعة أشهر حتى يُجبَر، تمر النفس بدورة طبيعية لتتعافى من الصدمة العاطفية، وبوجه عام، سيشعر أغلب البشر بتحسن كبير في غضون أربعة إلى ستة أسابيع.

ما يحتاجه الإنسان في المقام الأول هو الدعم العملي والدفء الإنساني والطمأنة والتعرف على الاستجابات الطبيعية للصدمات النفسية.

إن القصص الإخبارية التقليدية المتعلقة بالكوارث تمر، بالمثل، عبر دورة محددة، ومن المفيد لك بوصفك صحفيًّا أن تعرف المرحلة التي وصلت إليها القصة؛ إذ يمكن أن يساعدك ذلك في الحصول على تصوُّر حقيقي للموقف في وقت مفعم بالانفعالات الشديدة:

- خلال استيعاب وقع ما حدث، سيمر الفرد غالبًا في البداية بمزيج من الصدمة المبدئية والحيرة والذهول. وستمر عليه أوقات يعجز فيها عن التعبير عما يشعر به.
- يمكن أن يواكب ذلك الشائعات الكثيرة التي تظهر مبكرًا: حصيلة قتلى كبيرة، أو خوف من التلوث والإصابة بالمرض، أو أنباء عن انهيار اجتماعي. ربما يكون بعضها صحيحًا، لكن غالبًا ما يتضح أن تلك الشائعات والأقاويل المبكرة مُبالَغ فيها.
- مع بدء عمليات الإنقاذ على قدم وساق وتغطية الآلة الإخبارية، سرعان ما يتبع ذلك فترة من البطولة واللامبالاة: شجاعة الناجين؛ بطولة عُمَّال الإنقاذ؛ قدرة المدينة على تجاوز الكارثة، إلخ. تُمثِّل هذه مرحلة أيضًا ربما تكون مفيدة وملائمة أحيانًا، لكنها قد ترتبط بقدر من الإنكار لفظاعة ما جرى.
- بعد تلك المرحلة المبدئية، التي قد تكون مفعمة بالخوف (ولا تتجاوز عادةً بضعة أيام)، يمكن أن ينتقل الناجون/الضحايا ووسائل الإعلام إلى مرحلة إلقاء اللوم. وتوجَّه الانتقادات إلى عمليات الإنقاذ البطيئة؛ الاستجابة الحكومية المرتبكة؛ سوء إنشاء المباني المتهدمة أثناء زلزال؛ تحمُّل المهندسين المعماريين لمسئولية الحادثة، إلخ.



مراسل شبكة بي بي سي، جيريمي بوين، بعد لحظات من مصرع معاونه عابد طاقوش في جنوب لبنان عام ٢٠٠٠ حين أصابت قذيفة أطلقتها دبابة إسرائيلية سيارته.



... وهو يستوعب وقع ما حدث ...

شكل ١١-١: نُشرت لقطتا الفيديو الثابتان بإذن من القسم الإخباري لهيئة بي بي سي.

- بعد مضي بضعة أيام أو أسابيع، حسب أبعاد الحادثة، تستأنف القافلة سيرها. وتجد وسائل الإعلام عناوين جديدة. ويُترَك الناس لاستئناف حياتهم، وتذهب القصة طي النسيان، بالنسبة إلى عامة الجماهير على الأقل.
- بالنسبة إلى الأفراد الذين يمرون باستجاباتهم العاطفية الخاصة حيال ما حدث، سيعود أغلبهم إلى ذواتهم الطبيعية خلال بضعة أسابيع، لكن البعض ستظل جراحهم غير مندملة ومؤلمة أمدًا طويلًا، لسنوات أحيانًا، بعد أن يكون الركب الإعلامي قد تجاوز الحدث وانتقل إلى غيره. الجميع يتعافون — أو لا يتعافون — بطريقتهم الخاصة.

تذكَّر هذه الدورة وأنت تنقل القصة الإخبارية.

(٧) كتابة القصة الإخبارية

> لديَّ قناعة بأنه ينبغي علينا بذل جهد مساوٍ للتعرف على ما يجري بعد مغادرة الكاميرات. إن تقديم هذه الوجبة من العواطف المتأججة لا يُمثِّل سوى نصف القصة؛ فنحن ننقل الأسى والغضب والدموع، لكن هناك المزيد من العواطف الإنسانية ومجموعة متنوعة من المشاعر المستبعَدة من هوسنا بما هو آنيٌّ. إننا نحتاج، لكي ننقل صورة حقيقية لعالمنا، إلى نقل تلك الاستجابات الإنسانية الأكثر رصانة، حيث يسعى الناس إلى إعادة بناء حياتهم وحمل أنفسهم على تقبُّل ما حلَّ بهم. (بوردن ٢٠٠٦)

لو كانت مهمة الصحافة الأولى هي التغطية الفورية للحدث وكيفية تأثُّر الأفراد به — الدم والألم والعنف واليأس — فالمهمة الثانية هي سرد ما حدث لاحقًا، والذي لا يُنقَل غالبًا.

ينطوي ذلك أحيانًا على التئام الجراح، والتعافي، ومواجهة الماضي، بما يسمح للمجتمعات والعائلات، والأفراد باجتياز صدماتهم النفسية والوصول إلى معنًى جديد للحياة. وقد لا يحدث ذلك في أحيان أخرى، وتبقى مرارة ما حدث عالقة في الوجدان.

مهما كان الأمر، فالصحفيون ملزمون أمام قُرَّائهم ومستمعيهم ومشاهديهم بتنفيذ المهمتين الأولى والثانية.

فعقب كارثة أو مأساة كبرى، لا توجد حاجة إلى عرض القصص الإخبارية على نحو مثير أو تنميقها. اعتمدْ على الممارسة الصحفية الرشيدة القائمة على الوقائع الراسخة واستعن بقدر كبير من مراعاة مشاعر الآخرين.

- احرص على عدم تحريف الحقائق أو الاقتباسات أو التفاصيل في هذا النوع من الصحافة أكثر من غيره؛ فهذه قصة إخبارية عليك أن ترويها أو تكتبها بأسلوب يتسم بالدقة وعمق الرؤية ورقة الشعور ودماثة الخلق.
- إن من يعانون من صدمات نفسية قد تُسبب لهم أبسط الأخطاء ألمًا نفسيًّا عميقًا؛ لذلك عليك أن تتحقق بعناية من الوقائع والأسماء والأزمنة والأماكن أكثر من مرة.
- تعامل بحرص واحترام مع ما أخبرك به الناس. وإن كنت تعمل في مجال الصحافة المطبوعة، فحاول أن تستخدم الصيغة الحرفية لكلمات من حاورتهم، مع قليل من التعديل حسبما تقتضي الضرورة اللغوية.
- حين تنقل الصدمات النفسية، تأمَّل بعناية خاصة ما تستخدم من عبارات وكلمات. هل اللغة التي تستعملها تضيف شيئًا إلى فهم المستمع/المشاهد/القارئ؟ هل تتسم صياغة العبارات بالاحترام دون محاولة التباكي والتظاهر بالأسى المفرط؟ تجنب مثلا الأساليب التالية:

– «يندب هذا المجتمع المصدوم وفاة …» إن مثل هذا التعبير سطحي وساذج. وعليك أن تكتفي بوصف ما جرى وكيف استجاب الناس له.

– «لا يزال أهل القرية يحاولون استيعاب المأساة …» لا شك أنهم كذلك. ركز، مجددًا، على نقل ما يفعله الأشخاص وما يقولونه.

– «لا يزال هذا المجتمع يعيش حدادًا حتى يومنا هذا …» أو «لم يزل الوالدان/الأشقاء يفتقدون ابنهما/أخاهم …» ربما يعني ذلك أن الحزن له مدة محددة، بحيث يبدأ في وقتٍ معين وينبغي أن ينتهي بسرعة، وإذا تجاوز هذه المدة، فسوف يكون الأمر غريبًا أو غير طبيعي.

– «المستشارون المدرَّبون مستعدون لتقديم المساعدة …» ربما كان الأمر جديرًا بالذكر لو لم يكونوا مدرَّبين. على أيِّ حال، إن الذين يُكلَّفون بدعم الناجين والضحايا لا يُقدمون في الواقع إرشادًا نفسيًّا، بل مزيدًا من المساعدة العملية أو مجرد الاستماع لهم.

– «يتلقى فلان إرشادًا نفسيًّا ...» راجع الخبراء لمعرفة نوع الدعم العاطفي المقدَّم. من المستبعد أن يكون إرشادًا رسميًّا؛ إذ لا يُوصى به إلَّا لغير القادرين على التعافي طبيعيًّا من التجربة الصادمة، وهو ما لا يتضح عادةً إلَّا بعد مُضي بضعة أسابيع.

– «هذا المجتمع/المدرسة/العائلة لن تتعافى مطلقًا من هذا ...» كلا، بل يتعافى بالفعل أغلب الأفراد والمجتمعات، بل وأحيانًا بسرعة مثيرة للدهشة. الأهم هو أنهم سوف يتغيرون نتيجةً لتلك التجربة، وهذا هو مربط الفرس ومحور القصة الإخبارية.

– بالنظر إلى كل ما سبق، لو كُتِب هذا عنك وعن تجربتك الخاصة، فهل ستعتبره تصويرًا منصفًا لك؟ لو أجابتك غريزتُك بوصفك صحفيًّا بـ «لا»، ولو إلى حد ضئيل، فهذا يعني أن قصتك الإخبارية تحتاج إلى إعادة صياغة.

(٨) تغطية الصدمات النفسية: الصحفي

لو كانت تلك هي الآثار المترتبة على صحافة الصدمات النفسية، فما الذي تعنيه تلك المعرفة لك بوصفك صحفيًّا؟ قد تعني أكثر مما تعتقد، أو ربما ترغب في الاعتراف به لنفسك. إذا كنت طالبًا في إحدى كليات الصحافة وتتساءل حول كيفية الحصول على وظيفة وتحقيق الشهرة، فعليك أن تعيَ جيدًا حقيقة المهنة التي تختارها.

أجريت تغييرًا في تفاصيل القصص التالية والأسماء المذكورة فيها:

- كان جون محررًا بقسم الصور في محطة تليفزيونية حين بدأت تتدفق عليه صور هجمات الحادي عشر من سبتمبر التي وقعت في نيويورك عام ٢٠٠١. ظل جون على مدار ٢٤ ساعة يستقبل دفعات متلاحقة من صور الدمار والموت والأجساد المتساقطة. بعد بضعة أسابيع، انهار جون عاطفيًّا، مصابًا بألم نفسي لم يفهمه. ما حدث له هو أن طوفانًا من الذكريات القديمة التي اجترها من حرب شهدها منذ عقد مضى ولم يعالجها عقله في حينها قد انفجر مغرقًا إياه بآلام ما بعد الصدمة.
- كانت كارولين تغطي أخبار القضايا المنظورة أمام المحاكم المحلية ووجدت نفسها تُغطي محاكمة أجريت لثلاثة رجال اعتدوا على شاب آخر بالضرب حتى

الموت مستخدمين مطارق ثقيلة. كانت تفاصيل الحادثة غاية في البشاعة لدرجة أن الشبكات الإخبارية قرَّرت عدم نقل المحاكمة إطلاقًا. تُرِكَت كارولين بمفردها أمام المعلومات التي اضطرت إلى سماعها، وبدأت تُعاني الكوابيس والأرق. لم تبدأ كارولين في التحسن إلا حين أوضح صديق لها الصلة بين ما تُعانيه وما أُجبِرَت على الاستماع له.

- كانت مهمة يفجينيا الصحفية هي رصد البرامج الإذاعية التي تُبَث بالروسية. نشأت يفجينيا في الشيشان لكنها كانت تعيش في إنجلترا حين نشبت الحرب في بلادها. أمضت سنوات تستمع إلى قصص الفظائع والموت القادمة من جروزني وتنقلها، وبدأت تعاني تدريجيًّا من حالة اضطراب ما بعد الصدمة مكتملة الأعراض دون أن تستوعب ما يجري لها. وحين أدركت هي ورؤساؤها في العمل المشكلة، كان عليها أن تتوقف عن العمل لمدة سنة تقريبًا حتى تتعافى.
- لم يلبث أندرو أن التحق بالعمل في صحيفة محلية عقب تخرُّجه مباشرة في كلية الصحافة حتى كُلِّف بتغطية حادث تحطم سيارة بشع للغاية على مشارف مدينته. انحرفت سيارة تقل شابين ليلة السبت عن الطريق بسرعة شديدة واصطدمت بشجرة. لم يسبق لأندرو أن رأى جثة قَطُّ، وأصيب بصدمة عميقة عند رؤية حالة الرجلين؛ إذ تشوهت جثتاهما إلى حد يصعب معه التعرف على ملامحهما. وظل لعدة سنوات يستيقظ ليلًا غارقًا في عرقه فزعًا من مشاهد الحادث الراسخة في عقله، وكان يخشى من أن يبث شكواه إلى أي أحد لئلَّا يُتَّهم بالعجز عن التكيف واجتياز الصعاب.
- بالنسبة إلى ديفيد، تَمثَّل الأمر في رحلة صحفية لتغطية مجاعة في أفريقيا. سبق أن سافر إلى المنطقة من قبلُ وظن أنه قادر على التكيف جيدًا مع الأوضاع، غير أن العذاب النفسي الذي عانته إحدى الأمهات وهي ترى طفلها يموت أمام ناظريها، وعجز ديفيد عن مساعدتها، أصاباه بأزمة نفسية حادة لفترة عند عودته إلى مقرِّ عمله.

يمر الجميع بصدمات نفسية، كلٌّ بطريقته الشخصية الخاصة، والأمر نفسه يسري على الصحفيين أيضًا. يتوقف الأمر على نوعية شخصيتك، والأحداث التي مررت بها في الماضي، وكيفية استيعابك الشخصي للأحداث التي نقلتها وشهدتها.

إن الصحفيين الذين يتعاملون مع المعاناة الإنسانية الحادة غالبًا ما يجدون عملهم مجزيًا بشدة على المستويين الشخصي والمهني. وفي سبيل إنجاز مهامهم، يحتاج هؤلاء،

تمامًا كالأطباء أو الشرطة في تعاملهم مع الأمراض أو الجرائم، إلى حد ما إلى بناء جدار مهني يفصل ذواتهم عن الناجين والشهود الذي يروون قصصهم.

لكن حتى أكثر الصحفيين حنكةً ومهنيةً يمكن أن يتأثروا بما يُشهدونه من مآسٍ وربما يعانون نفسيًّا بسببها.

إننا، في نهاية المطاف وتأكيدًا على تلك النقطة مجددًا، بشرٌ في المقام الأول وصحفيون في المقام الثاني. وهو ما يعني أننا أيضًا يمكن أن نتألم، مهما كان إيماننا بـ «الموضوعية» الصحفية وأهمية النأي بمشاعرنا عما ننقله.

تذكَّر أن المصورين يبدون عرضة بصفة خاصة للإصابة بالصدمات المتراكمة.

قد يكون ذلك لأنهم لا يجلسون يوميًّا، كالصحفيين الذين يكتبون القصص الإخبارية، ليسردوا ما شهدوه في قطع صحفية لها مقدمة ووسط ونهاية، مما يساعد العقل على استيعاب ما حدث بعض الشيء؛ إذ إن مهنتهم تقتضي منهم الانفصال عما حولهم أثناء معاينتهم للأحداث من خلال عدساتهم؛ فهم موجودون بلا شك بأجسادهم في موقع الحدث، لكن تركيزهم العقلي مُنصب على ما يلتقطونه من صور.

إن للدعم المُقدَّم من الفريق والزملاء دورًا رئيسيًّا في المحافظة على التوازن العاطفي والصحة النفسية. لكن لو أخفق أحد أفراد الفريق في التغلب على مشكلاته كما ينبغي أو إذا حدث وتسبَّبت تجربة صادمة جديدة في عودة ذكريات مؤلمة قديمة إلى السطح مرة أخرى، أو إذا وجد فرد صعوبة في التعامل مع حياته اليومية، فمن المهم ألا يخشى أيٌّ منهم اللجوء في سرِّية إلى استشاريين متخصصين أو أن يقترح على زملائه النظر في الخيار نفسه.

تذكَّر، بينما تُفكِّر في كلِّ ما ذكرناه، أن الانفتاح على التجارب العاطفية يمكن أن يجعل منك مراسلًا أفضل. فإن لم تستطع، في النهاية، أن تتعاطف مع من تنقل قصصهم، فلن تنجح حقًّا في نقل تجاربهم.

(٩) نصائح للتعامل مع الأحداث التي قد تسبب صدمات نفسية

إن أهم الطرق التي ينبغي عليك اتباعها للمحافظة على توازنك العاطفي هي ذاتها الخطوات التي عليك، بديهيًّا، تنفيذها من أجل حماية صحتك الجسدية.

- إن من يتعاملون بحكم مِهَنِهم مع الصدمات النفسية يحتاجون أحيانًا، بلا شك، إلى التصرف بحزم وإنجاز المهام. تبرز الحاجة إلى تمالك النفس، غير أن هذا لا

يعني أن إقرارك بمشاعرك وقرارك بالحديث عن عواطفك علامة ضعف. بل على النقيض، فإن المناقشة الملائمة والمستنيرة عقب الأحداث أو المهام الصحفية مع الزملاء ومع المديرين والمحررين المهتمين — لو وجِدت الثقة الكافية — إنما هي تعبير على حسن التكيف.

- ضع لنفسك روتينًا معتادًا من العادات الصحية. يوجد عدد كبير من الأبحاث التي تُظهر أهمية التدريبات الخفيفة، ولو بقدر صغير، باعتبارها أكثر مضادات الاكتئاب فاعلية؛ فالمشي لمدة ثلاثين دقيقة يفيدك تمامًا كالركض ثلاثين دقيقة، لذا فليس من الضروري أن يكون التدريب شاقًّا. كما أن للعادات الغذائية السيئة وقلة شرب المياه تأثيرًا فوريًّا على حالتك المزاجية. لذلك، عليك أن تتناول طعامًا صحيًّا وأن تشرب كميات كبيرة من الماء.
- يستخدم الجيش البريطاني عبارة للدلالة على عنصر رئيسي من عناصر العناية بالذات، وهي: «ثلاث وجبات طازجة ونوم هادئ». أي، حاول أن تتناول طعامًا جيدًا وصحيًّا ثلاث مرات يوميًّا. وخذ كفايتك من النوم، وهو أمر له أهمية خاصة؛ فمواصلة الحياة دون الحصول على ما يكفي من النوم ليس مدعاة للفخر؛ لأنه يؤثر على سلامتك البدنية والعاطفية وتقديرك الصحفي.
- امنح نفسك فترات للراحة وشجع الآخرين على ذلك؛ فالابتعاد عن الخبر أو المادة الإخبارية لدقائق أو ساعات معدودة — أو ليوم أو يومين خلال مهمة طويلة — يساعد جسدك وعقلك على معالجة واستيعاب ما يشهدانه على نحوٍ صحيٍّ أكثر.
- احترم قدراتك. لو طُلِب منك إنجاز مهمة صعبة أو خطرة تفضِّل عدم القيام بها، فلا تخشَ أن تصرِّح بذلك.
- أوجد لنفسك هواية ما، أو رياضة ما، أو خَصِّص وقتًا للتأمل، أو اقضِ بعض الوقت مع أسرتك أو أصدقائك المقربين — أو افعل جميع ما سبق.
- جرِّب التنفس بعمق. خذ نفسًا طويلًا وعميقًا ببطء بينما تعد إلى خمسة، ثم أطلقه ببطء وعد إلى خمسة مرة أخرى. تخيَّل هذا التدريب وكأنه حركة دائرية، تستنشق خلالها السكِينة وتُطلق التوتر.
- يمكنك أيضًا الاستعانة بخيالك للتوجه إلى ما يُسمى أحيانًا في علاج الصدمات بـ «الملاذ الآمن» الداخلي: وهو مكان ما دافئ وداعم وهادئ، كشاطئ أو سفح جبل جميل، أو مكان طبيعي آخر.

- حاول أن تتذكر الأشياء التي تثير ضحكك. احترس عند تناولك للكحوليات؛ فلا بأس من تناولها باعتدال، أما لو وجدت نفسك تستخدمها كوسيلة لحجب الذكريات أو الإخلاد إلى النوم، فعليك حينها أن تنظر مليًّا في وضعك وأن تُفكر في طلب المساعدة.
- احترس من الانفعالات المتأخرة. إن الصحفيين الذين يشعرون أنهم نجحوا لسنوات في التعامل جيدًا مع تغطية الأخبار الصعبة ربما يجدون أن شيئًا بسيطًا نسبيًّا قد أصابهم فجأة بمعاناة نفسية حادة. لو حدث ذلك، فلا تكتمه، بل تحدَّث إلى زملائك عنه وقد تحتاج إلى طلب الدعم من المتخصصين.
- لو وجدت نفسك بدأت تحس بمشاعر سلبية تجاه وظيفتك أو ذاتك بعد تغطية الأحداث المثيرة للصدمات، فعليك أن تقاوم الخواطر الداخلية من قبيل «أنا عديم الفائدة» أو «كم أنا جبان» وأن تزرع مكانها تقديرًا أكثر إيجابيةً وملاءمةً لذاتك. وإذا شقَّ عليك ذلك، فتحدَّث إذًا إلى شخصٍ ما يساعدك على تغيير تفكيرك.

إن النظر إلى الأحداث المسببة للصدمات النفسية باعتبارها تحديًا وفرصةً لإنجاز شيء إيجابي في وجه المأساة يمكن أن يقويَ من عزمك ويُبقي انتباهك مركَّزًا على قيمة عملك وجدواه.

(١٠) إدارة الصدمات النفسية: قبل المهام الصحفية، وفي أثنائها، وبعدها

يجب ألا يُنظَر إلى التعامل مع الصدمات النفسية باعتباره مشكلة كبيرة بصورة مُبالَغ فيها أو مثيرة جدًّا للخوف؛ فهي جزء من ماهية الصحافة. والإدارة الجيدة للصدمات تندرج، في جوهرها، تحت الإدارة الرشيدة للعمل. وقد حان الوقت لوضع حدٍّ للحرج والجهل الذي طالما تعاملت به الصحافة مع تلك القضية.

من المهم لك التعرف على الصدمات النفسية قبل الشروع في تغطية الأخبار التي تتناول معاناة إنسانية حادة. فستحتاج إلى دعم مناسب أثناء تغطيتك لها كما ستحتاج لدعم مناسب أيضًا بعدها من الناحيتين العملية والاجتماعية.

يجب على الصحفيين المُقبلين على الانخراط في العمل الصحفي أو الالتحاق بفريق عمل جديد أن يعلموا في أقرب وقت ممكن أن الصدمات النفسية يجب النظر إليها بجدِّيَّة.

ولا بد أن تعلم كيف يجري التعامل معها في إطار ثقافة المؤسسة التي تعمل بها، سواءٌ أكنت متفرغًا أم مستقلًّا.

لا شك أن النشرات والكُتيبات الخاصة بالصدمات والمعلومات المتوفرة عنها على الإنترنت ضرورية، لكن الأهم أن يتحدث عنها مَن هم في مراكز القيادة والإدارة بصراحة ودون تكلف، باثِّين الثقة في أن المؤسسة وطواقمها قادرون على معالجة المشكلات، مهما كانت.

وإذا كانت المؤسسة تتبنَّى ثقافة يسودها الوعي بالصدمات النفسية، فلا شك أنه سيكون أكثر سهولة واعتيادية بالنسبة إلى المديرين والمحررين أن يجلسوا مع شخص مقبل على مهمة تنطوي على صعوبات محتملة، ويراجعوا معه ما سبقت مناقشته أثناء الدورات التدريبية والجلسات التوجيهية العامة.

فيما يلي بعض الأمور العملية والبسيطة الواجب وضعها في الاعتبار في هذا الإطار.

(١٠-١) قبل أداء المهام الصحفية

- أبدِ شكرك وتقديرك للصحفي، حتى قبل بدء المهمة الصحفية. فإشعارُ الآخرين أنهم موضع تقدير يساعدهم في المحافظة على اتزانهم وسلامتهم عاطفيًّا. ومن المهم أن يشعروا أنهم لم يوفدوا لإنجاز المهمة لعدم وجود شخص آخر يؤديها، بل لأن رؤساءهم يدركون أنهم أهل لها.
- اذكر صراحةً ما قد تتضمنه المهمة الصحفية من تحديات عاطفية وكذلك التحديات البدنية المتمثلة في المحافظة على السلامة الجسدية. لا تشعر بالحرج أو الخوف حيال الحديث عن التأثيرات المحتملة للصدمات التي قد يتعرضون لها هناك؛ ففي تلك المحادثات العادية يمكن أن يكمن أهم الجهود الرامية إلى تغيير الثقافة المؤسسية.
- يساعد التواصل مع الآخرين في تحقيق الاتزان وزيادة المواد الكيميائية والهرمونات التي يُفرزها الدماغ وتمكِّننا من معالجة المعاناة العاطفية وتحمُّلها. اتخذ ترتيبات موثوقًا فيها للتواصل بصفة منتظمة والتزم بما جرى الاتفاق عليه.
- شجع على العناية بالذات، وذكِّر المقبلين على المهام الصحفية بأن الاهتمام باحتياجات الجسد إلى النوم والماء والطعام والتدريبات يمكن أن يُحدِث فارقًا كبيرًا بالنسبة إليهم.

- عليك أن تُطَمئن المقبلين على المهام الصحفية مرة أخرى أن المعاناة النفسية أمر معتاد عند التعامل مع الصدمات، لكنها ليست حتميةً في نفس الوقت. المهم في الأمر هو كيفية التعامل معها وأن التحدث عنها أمر إيجابي.

(١٠-٢) أثناء أداء المهام الصحفية

- ابقَ على تواصل منتظم مع المكلَّفين بالمهام الصحفية؛ فإن ذلك من شأنه أن يُخفف من قلقهم.
- يجب على القيادات — الموجودة ميدانيًّا وفي مقر المؤسسة على السواء — أن تكون نموذجًا يُحتذى به، في عادات النوم على سبيل المثال. إننا ندرك من الخبرة العسكرية أن الجنود لن يخلدوا إلى النوم ما لم يروا قائد الوحدة يأوي إلى فراشه. فينبغي ألا يُسمَح في الصحافة بالتباري بين الزملاء حول قدر النوم الضئيل الذي يحصل عليه كلٌّ منهم.
- انتبه إلى التوقيت الذي توجِّه فيه النقد إليهم وإلى لهجته. فحين يتعامل الإنسان مع أحداث مثيرة للمعاناة العاطفية الحادة، فإن دفاعاته النفسية ستضعف بينما ستقوى حساسيته.
- احرص على أن تُقدِّم الطواقم العاملة في مقر المؤسسة الدعم اللازم. فعندما يكون الإنسان واقعًا بالفعل تحت أقصى درجات الضغط العاطفي — سواء أثناء تغطيته لمحاكمات في قضايا قتل أو نقله للحروب — ثم يطلب منه أحد برامج المؤسسة أو أقسامها (بما فيها قسم الحسابات!) شيئًا دون مراعاة لمشاعره أو تَحيُّن الوقت المناسب أو اختيار الكلمات المناسبة، فإن ذلك قد يحبطه أو يُغضبه أو حتى يُعرِّضه لصدمة نفسية، مخلِّفًا جراحًا قد لا تلتئم لسنوات.
- ربما يكون من الجدير بك تشجيع الأفراد، قبل عودتهم من مهام مرهقة، متى كان ذلك مناسبًا، على قضاء يوم أو يومين في فندق فاخر في طريق عودتهم، مما يساعدهم على «تفريغ ضغوطهم» قبل الرجوع إلى بيئاتهم المعتادة. لقد انهار الكثير من زيجات الصحفيين نتيجة للانتقالات الصعبة بين المهام التي تتعامل مع مشاهد الحياة والموت والمسئوليات المعتادة المتعلقة بإدارة البيت والأسرة.

(١٠-٣) بعد أداء المهام الصحفية

- تذكَّر أن الدعم الاجتماعي والعملي هو أفضل منهج نفسي وأن الأشياء البسيطة تُحدث فارقًا كبيرًا: إبداء التقدير، وإرسال برقيات الشكر والرسائل الإلكترونية، والاستقبال في المطار، وإقامة الحفلات، والعرفان العلني بالنجاح، إلى غير ذلك من أشكال الدعم.
- تُمثل المعلومات مصدر طمأنينة؛ لذلك احرص على التوسع في تبادلها مع الآخرين. إذا وقع أمر خطير لصحفيين أو مصورين أو أصيبوا بأذًى، فمن المهم أن توافي الجميع أولًا بأول بأكبر قدر ممكن من التفاصيل حول الإجراءات التي تُتخذ وحالة الأفراد أطراف الحدث؛ إذ لو لم توافيهم بالمعلومات وتُطلعهم على التطورات، فسوف تنتشر الشائعات المدمرة.
- عند التخطيط لكيفية الاستجابة للأحداث المثيرة للصدمة التي ربما قد وقعت، ينبغي عدم قصر الاهتمام على الصحفيين المرموقين والأسماء اللامعة فقط، بل عليك أن تتذكر أيضًا المعاونين والمترجمين والفنيين ومحرري الصور ومديري المكاتب الإخبارية، وأنت نفسك، مهما كان دورك.
- احرص على أن يكون لدى الأفراد الذين مروا بظروف مسببة للصدمات الفرصة للحديث عنها. إنهم يحتاجون إلى الوقت والتشجيع برفق كي يَقُصُّوا تجاربهم، وهو ما يتطلب ما هو أكثر من مجرد استفسار عرضي مقتضب مثل: «كيف حالك يا صديقي؟» والذي عادةً ما يُجاب عنه بـ: «بخير»، ثم ينطلقون إلى مهمتهم التالية.

يوجد أسلوب مفيد لتنظيم مثل هذه الأحاديث غير الرسمية، والذي ستجده على نحو يثير الدهشة مجديًا في الصحافة اليومية العادية. ويتضمن هذا الأسلوب النقاط التالية:

- «الوقائع»: اسألهم عما حدث. اطرح عليهم الأسئلة الصحفية المعتادة: متى، وأين، ومَن، وما، وكيف. لا تحاول أن تقفز مباشرةً إلى استكشاف مشاعرهم حيال ما حدث، بل حافظ على هدوء الحوار وتركيزه على الوقائع، لكن لا تجعله كالاستجواب.
- «التأثير»: من هنا يبدأ التركيز على تجربة الفرد الشخصية. كيف عايشت ذلك «حينها»؟ كيف أثَّر ذلك عليك «آنذاك»؟ فيمَ كنت تفكر وكيف كان شعورك «وقتها»؟

- «الوضع الحالي»: كيف حالك «الآن»؟ كيف أصبح حالك منذ تلك الواقعة؟ ناقِش مع الشخص قوائم التحقق البسيطة المذكورة أدناه وقيِّما معًا كيفية رؤيتكما لحالته.
- «التوعية»: يمكن الاستفادة من تلك المحادثة لطمأنة الشخص بأن أعراض المعاناة ليست أمرًا غريبًا، رغم اختلاف الأفراد في استجاباتهم لها؛ فمن المقبول تمامًا أن تكون إنسانًا وصحفيًّا أو مُعدًّا للبرامج في نفس الوقت، ورغم أن معظم الأشخاص غالبًا ما يشعرون بتحسن عند تعرُّضهم لهذه المعاناة بعد أسابيع قليلة، فإنه ليس بمستغرب أن تستغرق مرحلة التعافي بالنسبة إليك وقتًا أطول.

لا تنسَ أن تُرتب لإجراء محادثة للمتابعة في غضون ما يقارب الشهر؛ وذلك لترى ما إذا كانت الأمور تسير نحو الاستقرار. أما لو لم تكن كذلك، أو كانت تسير نحو الأسوأ، فمن الضروري أن تُقدم سريعًا المشورة والدعم المناسبين لحالات الصدمات النفسية وأن تخلو النظرة إليهما من أيِّ حرج.

(١١) إذًا، ما الأمور التي يجب أن أنتبه إليها؟

إن الساعات والأيام الأولى التي تعقب واقعة، أو مهمة، أو مشروعًا هامًّا يتضمن صدمات نفسية قد تشهد جيشانًا شديدًا في العواطف وإفراز الأدرينالين؛ لذا فليس من الغريب مطلقًا أن يشعر المرء منا بأحاسيس غريبة: البؤس، والإثارة، والحيرة، والتبلُّد، وشيء من «الاستثارة المُفرطة»، كما أنه ليس غريبًا أن نشعر بالبرود متى توقف ضخ الأدرينالين داخل أجسادنا.

كيف عساك أن تكتشف أن شخصًا يُعاني صعوبات وهو يُصر على أن كلَّ شيء على ما يرام؟ إليك بعض الأمور التي يمكنك أن تنتبه إليها:

- يعلن اضطراب ما بعد الصدمة عن نفسه، قبل كل شيء، من خلال تغيُّر في السلوك، بل وحتى في الشخصية. فربما يبدو أن الشخص ليس على طبيعته المعتادة، أو يشعر هو بذلك. ويشعر هو وأفراد فريقه أن شيئًا ما مختلًّا فيه، غير أنه ليس من اليسير دائمًا أن يُربط هذا الخلل فورًا بحادثة معينة، لا سيما أن تلك التغيرات عادةً ما ستتكشف على نحوٍ واضح بعد أسابيع أو حتى شهور.

- من يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة قد ينغلقون على أنفسهم أو ربما، على النقيض، لا يَكفُّون عن الحديث عما جرى باستمرار إلى حدٍّ يبلغ الهوس.
- قد يصيرون سريعي الغضب أو الانفعال على غير عادتهم.
- ربما يعبرون عن شعورهم بالذنب أو الحيرة. ويمكن أن تتسبب أيضًا الصدمات النفسية في جعل المصابين بها أكثر عرضةً لوقوع الحوادث، أو قد يفقدون قدرتهم على التركيز أو شغفهم بعملهم أو هواياتهم أو علاقاتهم.
- ربما تبدأ صحتهم في الاعتلال كثيرًا؛ فالمعاناة العاطفية المكبوتة كثيرًا ما تُفصِح عن نفسها على هيئة أعراض جسدية كآلام الظهر أو المعدة.
- ربما يخالف المصابون عاداتهم؛ فيبدءون بالحضور إلى العمل متأخرين أو عدم الالتزام بمواعيدهم النهائية، أو على العكس؛ فقد يعجزون عن مغادرة العمل مساءً خوفًا من البقاء بمفردهم.
- ربما تظهر علامات على زيادة استهلاكهم للكحوليات أكثر من المعتاد.

سينجح أغلب الأفراد في اجتياز الصدمات النفسية، لا سيما لو نالوا دعمًا كافيًا من زملائهم وأصدقائهم وأسرهم. ويُستحسن إيجاد وقت لإجراء مناقشة مدروسة ومتأملة بعد بضعة أيام، مع المتابعة خلال الأسابيع التالية أيضًا.

تتَّبع البحرية الملكية البريطانية أسلوبًا بسيطًا للتحقق من مدى تكيُّف أفراد فرقها عقب تعرُّضهم للصدمات، مستخدمين في ذلك قائمة تحقُّق من عشر نقاط، يُطلق عليها استبيان التحري عن الصدمات النفسية، والتي تهدف إلى رصد أعراض المعاناة المرتبطة بالصدمات النفسية (بريوين وآخرون ٢٠٠٢).

(١) تمر بك كرهًا خواطر أو ذكريات مزعجة تتعلق بحدثٍ صادم.

(٢) ترى أحلامًا مزعجة تتعلق بما حدث.

(٣) تتصرف أو تشعر أحيانًا وكأن الحدث المؤلم يتكرر مرة أخرى.

(٤) تشعر بالانزعاج مما يذكرك بما حدث.

(٥) يُبدي جسدك استجابات (كتسارع في نبضات القلب، أو اضطرابات بالمعدة، أو التعرق، أو الغثيان) حين يجري تذكيرك بما حدث.

(٦) تجد صعوبة في الإخلاد إلى النوم أو الاستغراق فيه.
(٧) تصبح سريع الانفعال أو الغضب على غير العادة.
(٨) تجد صعوبة في التركيز.
(٩) تحذر المخاطر المحتملة التي قد تصيبك وتصيب غيرك على نحو مُبالَغ فيه.
(١٠) تتسم ردود فعلك بالحدَّة أو تجفل بسهولة عند وقوع أمر غير متوقع.

غالبًا ما سيعاني الأفراد من كثير من تلك الأعراض خلال الأيام التي تعقُب الحدث مباشرة، لكن غالبًا أيضًا ما ستتلاشى المعاناة خلال الأيام والأسابيع التالية.

لكن لو ظل شخص ما يعاني كثيرًا من تلك الأعراض بعد شهر أو نحو ذلك — وتذكَّر مدى أهمية الفحص — فربما يعني ذلك أن بعض المعاناة لا تزال قائمة، وأنَّ تُلقي النصائح أو الاستشارات المتعلقة بالصدمات من المتخصصين قد تُجدي نفعًا.

بالإضافة إلى ذلك، توجد عوامل خطورة واضحة تتعلق باحتمال ظهور استجابات مؤلمة للتجارب الصادمة، وهي تتعلق بالتعامل مع الناجين من الصدمات النفسية وضحاياها، وليس دعم الصحفيين فقط. ويمكن أن تضم هذه العوامل ما يلي:

- خشيَ الشخص على حياته.
- أحسَّ الشخص أنه فقد السيطرة على عواطفه في لحظة هلع أو أن التجربة قد قهرته.
- يشعر الشخص بالخزي الدائم حيال سلوكه أو استجابته أو يعمد إلى لوم الآخرين على نحو غير ملائم.
- مرَّ الشخص بصدمات نفسية خطيرة سابقة وتعاوده ذكرى المعاناة.
- لا يحظى الشخص بدعم اجتماعي كافٍ متمثل في الأصدقاء، و/أو الزملاء، و/أو العائلة، أو يتعذر عليه الحصول عليه.
- يتناول الشخص الكحوليات أو أدوية دون وصفة طبية لكبت أعراض المعاناة.

قد تتسبب المشكلات الشخصية خارج نطاق العمل في مضاعفة ردود أفعال الشخص؛ فالشخص الذي يمر بتجربة طلاق، مثلًا، أو لديه أطفال صغار، قد تسبب له الأحداث معاناة أكثر من غيره.

(١٢) ماذا لو كان هناك من يُعاني؟

شاع خلال تسعينيات القرن الماضي في كلٍّ من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا زعمٌ يقول بأن أغلب من يتعرضون لأمر مؤلم نفسيًّا على نحو خطير يمكن أن يتوقعوا إصابتهم بأعراض التوتر الناتج عن الصدمات النفسية ويحتاجون مِن ثَمَّ إلى تلقِّي المشورة.

كان المتوقع، لفترة من الوقت، أنه ينبغي على الناجين من حدث ما، وضحاياه، والشهود عليه، والمعنيين مهنيًّا بالتعامل مع تَبِعاته الجلوس معًا كمجموعة في أسرع وقت ممكن للحديث عن أسوأ جوانب هذا الحدث واستخراج كل مكنوناتهم في جلسة تنفيسية تستغرق ساعتين أو ثلاث ساعات، وبذلك يتجنبون الإصابة باضطراب ما بعد الصدمة.

بدا ذلك الأسلوب معقولًا، لكنه تجاهل الحقيقة الأساسية القائلة بأن أغلب الناس يتعافون من تلقاء أنفسهم، وأن الإرغام على الإفصاح الجماعي بتلك الطريقة — رغم أن المشاركين فيه قد يُقدِّرونه للغاية — قد يؤدي في الواقع إلى ترسيخ الذكريات، واعتراض مسيرة التعافي الطبيعي، والتسبب في صدمة نفسية بلا داعٍ لمن تمكَّنوا من اجتياز التجربة الحقيقية.

أما الآن، فيُنصَح بعدم اللجوء الروتيني إلى أسلوب جلسات المرة الواحدة التي اصطُلِح على تسميتها بالتفريغ النفسي مع الأفراد الذين تعرَّضوا لصدمات نفسية. كما لا يُوصى باستخدام العقاقير والأدوية كأول خيار علاجي لاضطراب ما بعد الصدمة، رغم أن لها بالتأكيد استخدامها في علاج حالات أخرى.

لا يُعَد ذلك مبررًا للوقوف مكتوفي الأيدي، لكنها نصيحة واضحة بألا نسارع بردود أفعال غير فعالة، أو غير مؤكدة النتائج، أو ربما حتى قد تأتي بنتائج عكسية. ومن الضروري أن يستوعب الصحفيون ذلك الأمر، أثناء تغطيتهم للتأثير النفسي الذي تُخلِّفه الكوارث والمآسي ونقلهم لاستجابات الناس لها وكذلك وهم يُحددون ما يجديهم وما لا يجديهم نفعًا.

إن الأسلوب الذي يوصي به المعهد الوطني للتميز الإكلينيكي في بريطانيا هو ما يسمى «الانتظار اليقظ»، أي، سؤال الأفراد الذين تعرَّضوا لصدمات نفسية عن حالهم خلال الأيام والأسابيع والأشهر التالية لهذا التعرض، ومساعدتهم على فهم تأثير ما مروا به، مع الانتباه لظهور أعراض المعاناة الناتجة عن الصدمات ومد يد العون لهم، إذا لزم الأمر، لتلقِّي دعم متخصص قد يكون مُجديًا لو عجزوا عن تجاوز التجربة (المعهد الوطني للتميز الإكلينيكي ٢٠٠٧).

وذلك هو الهدف المرجو من المنهج الذي ندعو إليه هنا.

فبدلًا من إحالة مسئولية التعامل مع الصدمات إلى الأغراب عن المؤسسة واختصاصيي الصدمات النفسية، يجب على المديرين والمحررين والزملاء تحمُّل مسئولياتهم المؤسسية في إدارة تأثيرات الصدمات النفسية.

وختامًا، فالصحفيون والمديرون أو الزملاء الراغبون في طبيب نفسي ليتعامل مع تأثيرات الصدمات النفسية مدعوون للتأكد من أن الطبيب الذي يختارونه، أيًّا كان، يتمتع بخبرة خاصة في التعامل مع الصدمات النفسية علاوة على خبرة في التعامل مع الصحفيين والإعلام، إن أمكن.

وفي الختام

يمكن أن تكون تغطية الصدمات النفسية واحدة من أنفع التجارب المتاحة للصحفيين؛ إذ تضع حياتك خلالها على المحك، وتجعلك تتعامل مع القضايا الوجودية المرتبطة بالحياة والموت.

من المهم — بالنسبة إلى من تنقل قصصهم، وإلى من يتلقونها، وإليك شخصيًّا — أن تؤدي مهمتك على أفضل وجه.

لقد حان الوقت لتغيير الثقافة السائدة في صحافة القرن الحادي والعشرين فيما يتعلق بتغطية المعاناة الإنسانية والصدمات النفسية الحادة.

إن ذلك التغيير يجري الآن — وأنت جزء منه. حظ سعيد.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) ما هي السمات المميزة لاضطراب ما بعد الصدمة؟

(٢) ناقِش لماذا يمكن أن تؤثر حالتك العاطفية على حياديتك بوصفك صحفيًّا.

(٣) من واقع قراءتك، ما أبرز الحجج المؤيِّدة والمعارضة للاضطلاع بما قد يكون مهمة عالية الخطورة؟

(٤) توجَّه بالسؤال إلى مؤسسة إخبارية من اختيارك حول السياسة التي يتبعونها في تقديم استشارات الصدمات النفسية للصحفيين العائدين من مهام صحفية ويواجهون مشكلات في حياتهم الشخصية والعملية.

هوامش

(١) نُشِرَ الخبر الأصلي في صحيفة ذا جارديان في العاشر من أكتوبر عام ٢٠٠٥. ثم نشرت الصحيفة استدراكًا على الخبر يوم الثاني عشر من أكتوبر، وتحدَّث محرر بريد القُرَّاء عن ذلك في عموده في السابع عشر من الشهر نفسه.

الفصل الثاني عشر

صحافة المواطن

ريتشارد سامبروك

تمهيد
جون أوين

تشهد الصحافة جدلًا مُحتدمًا حول شرعية من يُطلَق عليهم حاليًّا الصحفيون المواطنون، ممن ينشرون مدوناتهم وما التقطوه من صور ومقاطع فيديو بهواتفهم المحمولة على المواقع الإلكترونية ومحطات البث والصحف.

ربما يكون لوسائل الإعلام التقليدية مآخذ على جودة صحافة المواطن غير أن هذا لم يمنعها من استخدام مواقعها الإلكترونية، ومساحاتها الإخبارية، ومحطاتها لعرض ذلك الفيض الغامر من المحتوى الذي ينتجه المستخدمون. كما أن أحدث مقاطع الفيديو أو الصور الملتقَطة بكاميرات الهواتف المحمولة للفيضانات والزوابع والأعاصير وحرائق الغابات التي التقطها أشخاص عاديون هي ما يُهيمن عادةً على مواقع مثل آي ريبورت التابع لشبكة سي إن إن، والذي يقول لك: «أرسل قصصك الإخبارية، وشاركها، وشاهدها.» لكن حسب ما يرى ريتشارد سامبروك، مدير قسم الأخبار العالمية في شبكة بي بي سي، في هذا الفصل الذي يتناول صحافة المواطن فإنه «لا يوجد ما هو جديد في نقل أفراد من العامة ما رأوه إلى مواطنيهم.»

يروي سامبروك، بالطبع، تاريخ بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية الزاخر بالنماذج اللامعة لصحفيين غير تقليديين كافحوا لشق طريقهم إلى الساحة العامة إلى جانب مجموعة من الهواة الذين تمتعوا بسرعة البديهة وأحدث المعدَّات لتسجيل اللحظات والوقائع التاريخية.

تمتد جذور حركة صحافة المواطن المعاصرة إلى الحياة السياسية في أحد البلدان الآسيوية، ألَا وهي كوريا الجنوبية؛ إذ عاش هناك صحفي محبَط بإحدى المجلات يُدعى «أوه يوان هو» والذي لم يكن على استعداد لتقبُّل القبضة الخانقة التي تفرضها الصحافة المؤسسية، التي يغلب عليها التيار المحافظ، على السياسة الكورية. وحانت اللحظة الفارقة بالنسبة إليه أثناء اللحظات الأخيرة للحملة الرئاسية عام ٢٠٠٢؛ إذ كانت مؤسسته الناشئة التي تبلغ من العمر عامين، أوه ماي نيوز، والتي كانت عبارة عن موقع إلكتروني إخباري، تحشد، كما يروي أوه، دعم الكوريين الجنوبيين للمرشح الإصلاحي روه مو هيون حين تلقَّى في اليوم الأخير ضربة سياسية صادمة: انسحاب نائب مرشحه لمنصب رئيس الجمهورية. أدركت مؤسسة أوه أن الإعلام المحافظ المتحالف مع مرشح المحافظين يتأهب لانتزاع الفوز من روه، فشنَّت هجومًا إلكترونيًّا حصد متابعة أكثر من ٧٢٠ ألف شخص، واستطاع روه أن يكتسح الانتخابات. فكتب أوه قائلًا: «لقد انتقلت قوة الإعلام من الصحف التقليدية المحافظة إلى مستخدمي الإنترنت والإعلام الإلكتروني» (أوه ٢٠٠٢).

كانت هذه الحادثة نقطة اللاعودة بالنسبة إلى موقع أوه ماي نيوز، وصارت هذه الانتخابات المفصلية منصة انطلاق لتحفيز قُرَّائه ومُستخدِميه على نقل أخبار جميع وجوه الحياة في كوريا الجنوبية. بدأ أوه موقعه معتمدًا على ٧٢٧ مساهمًا، وواصل بناءه حتى صار كيانًا عملاقًا يضم ٣٥ ألفًا من الصحفيين المواطنين الذين يتراوحون، كما قال، بين تلاميذ في التعليم الابتدائي وأساتذة جامعيين. يتلقى هؤلاء الصحفيون المواطنون اليوم ما يُعادل حوالي ٢٠ دولارًا مقابل القصة الإخبارية الواحدة، وتُمثل إسهاماتهم ما يقرب من ٧٠ بالمائة من المحتوى الذي يُقدمه الموقع.

يرى أوه أنه لم «يبتدع المفهوم القائل بأن كل مواطن مراسل» وإنما «أعدت إلى الأذهان مفهومًا طال نسيانه. ليس عليك سوى أن ترجع بذاكرتك إلى ذلك العصر الذي ساد خلاله التواصل المباشر وجهًا لوجه باعتباره الوسيلة الوحيدة لنقل الأخبار. وقبل نشأة الصحف وظهور الصحفيين المحترفين، كان كل مواطن مراسلًا، وكان هناك تفاعل حقيقي. أحيا موقع أوه ماي نيوز كل ذلك» (أوه ٢٠٠٤).

إن التحول من موقع هزَّ السياسة والصحافة الكورية الجنوبية إلى كيان يُشاد به كقوة دافعة إلى إضفاء الطابع الديمقراطي على عملية جمع الأخبار على مستوى العالم إنما هو إنجاز مُذهل يحسب لصحافة المواطن ومن يُمارسونها.

إلَّا أن علينا استيعاب مدى قوة هذه الحركة من ناحية آثارها طويلة المدى على الحكومات والسياسة داخل المجتمعات المنغلقة. تأمَّل تجربة مات درادج الذي ينشر معلومات مثيرة ومحرجة عن المشاهير وأصحاب النفوذ في الولايات المتحدة الأمريكية، أو «جيمي جاستس» الذي يجول شوارع مدينة نيويورك لتسجيل حالات سوء استغلال رجال شرطة نيويورك لمزاياهم في رَكْن سياراتهم. يُطلق جيف جارفيز، المُدوِّن غزير الإنتاج والمدافع عن الإعلام الجديد، على عمله «الصحافة الرقابية».

يعلم كلٌّ من درادج وجاستس أن بإمكانهما ممارسة أنشطتهما الصحفية غير التقليدية في بلد يحميه التعديل الأول للدستور وسيادة القانون. لكن جرِّب هذا الأسلوب في الصين، أو بورما (ميانمار)، أو زيمبابوي، أو إيران، وغالبًا ما سينتهي بك المطاف في السجن أو ما هو أسوأ. قُتِل صحفي أوكراني ممارس للصحافة الجديدة، وهو جيورجي جونجادزه، عام ٢٠٠٥ بسبب نشره انتقادات لاذعة على موقعه الإلكتروني لما وصفه بممارسات الفساد التي ارتكبتها حكومة كوتشما. (يعتقد الاتحاد الدولي للصحفيين — كغيره من الجماعات المعنية بحقوق الصحفيين — أن أكبر قيادات في حكومة كوتشما أمرت بقتله.)

أما في الفضاء التدويني الحالي الذي يفوق أعضاؤه الخمسين مليونًا، فقليلون جدًّا هم من يُعرِّضون حياتهم للخطر ويُشكلون تهديدًا خطيرًا على حكوماتهم. غير أن ثمة أعدادًا متزايدةً من الناشطين المنخرطين الذين «يمارسون أنشطة صحفية بين حين وآخر»، بحسب تعبير إيثان زوكيرمان (٢٠٠٧) مؤسس مشروع جلوبال فويسيز. يواجه هؤلاء الناشطون تهديدات ورقابة. يشير زوكيرمان إلى أن السلطات في عدد من الدول قد وضعت المُدوِّنين المشاغبين تحت المراقبة بقصد إرهابهم، بينما يواجه آخرون مشكلات فنية تختلقها مؤسسات الخدمة التي تُديرها الحكومات والتي تستهدف بها المدونين الذين تراهم «أعداءً» لها.

ثم إن هناك مشكلة جديدة تواجه الصحافة التقليدية، وهي: شرعية المُدوَّنات الخاصة بالمواطنين العاديين كمصدر للمعلومات خلال تغطية الأخبار العاجلة كالمذبحة التي وقعت داخل حرم الجامعة والمعهد التقني لولاية فيرجينيا في السادس عشر من أبريل عام ٢٠٠٧. أكان يحق لوسائل الإعلام أن تعرِض ما نشره الطلاب على مواقع تدوينية، مثل ماي سبيس ولايف جورنال، من كتابات متفرقة/تدوينات مفعمة بالعواطف أثناء الأزمة وبعدها؟ أكان ذلك أول مثال حقيقي لما أسماه النقاد «طرق الأبواب الرقمي»، والذي يُقصد به أن تجد ببساطة وسائل الإعلام ما تحتاج إليه من معلومات على شبكة الإنترنت بدلًا من جمعها بالطريقة التقليدية بالطَّرْق على الأبواب والحديث مع شهود العيان؟ ذهب كيفين مارش، محرر كلية بي بي سي للصحافة، إلى أن هذا طرح تساؤلات خطيرة بشأن «الذوق واللياقة». ألم يكن ذلك تمامًا كقراءة اليوميات الشخصية لأحد ما دون إذنه؟ هكذا تساءل مارش خلال مناقشة أجريت في نادي فرونتلاين بلندن (٢٠٠٧).

ما يجعل آراء ريتشارد سامبروك بشأن الإعلام الجديد وصحافة المواطن وتبادل المعلومات بين الأقران غاية في الأهمية هو أنه يكتب من منظور صحفي كبير يعمل في أكبر مؤسسة إخبارية وأكثرها تأثيرًا على مستوى العالم. لقد آمن سامبروك بحماس شديد بالإعلام الجديد والتدوين بعد سنوات من إدارته لجميع عمليات جمع الأخبار وبثها في شبكة بي بي سي.

لكن كما يُبيِّن سامبروك في هذا الفصل، «يمر الإعلام والصحافة بتحول جذري، ولا تبدو جميع الإجابات واضحة».

مراجع

Marsh, K. (2007) Blogging: Self-exposure or self-expression? Media talk marking World Press Freedom Day, 3 May, http://www.frontlineclub.com/club_videoevents.php.

Oh, Y. (2002) OhmyNews. 19 December, http://translate.google.com/translate?hl=en&sl=ko&u=http://www.ohmynews.com/NWS_Web/View/old_pg.aspx%3Fcntn_gb%3DA%26at_code%3D226016%26no%3D%26rel_no%3D&sa=X&oi=translate&resnum=2&ct=result&prev=/search%3Fq%3DOhmynews%2BThe%2Bpower%2Bof%2Bmedia%2Bhas%2Bshifted%2Bfrom%2Bconservative%2Bnewspapers%2Bto%2B%25E2%2580%2598netizens%25E2%2580%2599%2Band%2BInternet%2Bmedia%26hl%3Den.

Oh, Y (2004) Speech at the Berkman Center for Internet and Society conference ‘Votes, Bits and Bytes’, Harvard University, 11 December.

Zuckerman, E. (2007) Speech at the Al-Jazeera media conference, Doha.

(١) السياق

حين توجَّه أبراهام زابرودر إلى ديلي بلازا في دالاس، بولاية تكساس، يوم ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٣ مصطحبًا معه كاميرا التصوير السينمائي خاصته التي من طراز بيل آند هاويل، لم تكن لديه أدنى فكرة عن أنه سيلتقط بها أشهر أمثلة لصحافة المواطن. نجح زابرودر، بينما كان يحاول الوقوف مُتَّزنًا فوق قاعدة خرسانية بمساعدة سكرتيره ليتمكن من التصوير فوق الحشود، في تصوير فيلم تَقِل مدته عن ٣٠ ثانية: كان ذلك الفيلم هو اغتيال الرئيس كينيدي. طُبِع من الفيلم ثلاث نسخ في ذلك اليوم، سلَّم زابرودر نسختين إلى سلطات التحقيق وباع الثالثة بعد ثلاثة أيام إلى مجلة لايف مقابل ١٥٠ ألف دولار. ولم يساور زابرودر أيُّ شكٍّ في أهمية ما صوَّره وقيمته.

دائمًا ما سعى الشهود الذين عاينوا أهم الأحداث إلى مشاركة تجربتهم مع الآخرين.

كان إدوارد جريم، أحد رجال الدين من كامبردج، في زيارة إلى كاتدرائية كانتربري في ديسمبر عام ١١٧٠ حين شهد مقتل رئيس الأساقفة، توماس بيكيت. وتظل روايته

الشخصية للواقعة — التي سجلها في ١٥٠٠ كلمة — أوثق رواية لما حدث (جريم ١٨٧٥–١٨٨٥).

وعلى صعيد أقل خطورة، حين بدأتُ عملي مراسلًا في صحيفة أسبوعية صغيرة في ساوث ويلز، كنا نتلقَّى كثيرًا من التغطيات الخاصة بالفعاليات الرياضية والمجتمعية من القراء، كإنجازات فريق الرجبي المحلي أو تفاصيل حفلات مدرسية أو أمسيات خيرية.

إذًا فإن نقْل أفراد من العامة ما رأوه إلى مواطنيهم إما عن طريق القنوات المعتمدة أو بطريق مباشر، إن أمكن، ليس أمرًا جديدًا، وكذلك الحال عندما يُعبِّر مواطنون عن آرائهم حيال الأحداث خارج إطار ما يُنظَر إليه في حينه باعتباره «إعلامًا تقليديًّا»، أيًّا كان. وكثيرًا ما يُقال إنه لو كان توماس بين حيًّا بيننا الآن لكان مدوِّنًا مدافعًا عن استقلال أمريكا عن المملكة المتحدة، لا مؤلف كُتيبات. لا شك أن اختراع آلة الطباعة وأسلوب الطباعة المتحركة يسَّرَا الانتشار الهائل لوجهات النظر والمناقشات، والتي تشبه المدونات في يومنا هذا، مما أثرى عصر التنوير في القرن الثامن عشر.

يتجلى وجه التشابه في تلك الفقرة التي أوردها جورج أورويل في مقدمة كتابه «مؤلفو الكتيبات البريطانيون» (١٩٤٨: ١٥):

> يُعَد الكتيب بمنزلة استعراض منفرد؛ فللمرء الحرية الكاملة في التعبير، بما في ذلك، لو أراد، حرية البذاءة وتوجيه الإساءات والتحريض؛ أو، على النقيض، حرية الإسهاب والجدية وإبداء «سعة الثقافة وسموِّها»، وهو ممكن في الكُتيبات أكثر من الصحف أو المطبوعات الدورية بأغلب أنواعها. كما أنه نظرًا لأن الكتيب، في الوقت نفسه، دائمًا ما يكون قصيرًا وغير مجلد، فإنه يمكن أن يُنتَج أسرع كثيرًا من الكتب، كما أنه، من حيث المبدأ، أوسع انتشارًا بأيِّ حال. فوق كل ما سبق، ليس بالضرورة أن يَتْبع الكُتيب أي أنماط محددة. فيمكن أن يكون شعرًا أو نثرًا؛ أن يتكون في أغلبه من الخرائط أو الإحصائيات أو الاقتباسات؛ أن يتخذ شكل قصة أو حكاية رمزية أو رسالة أو مقال أو حوار أو «تحقيق صحفي». كل ما هو مطلوب هو أن يتناول قضايا جارية وأن يكون جدليًّا وقصيرًا.

يمكن أن يكون ذلك دليلًا تسترشد به حركة التدوين الحديثة.

لو نظرنا إلى حقب أحدث عهدًا، فيمكن أن نرى روح المدونات المعاصرة متجسدةً في صحفيين مستقلين من أمثال آي إف ستون،[١] الذي قامت كتاباته الجدلية على الفحص الدقيق لوثائق عامة لولاه لظلت محل تجاهل. كما يمكن أن نرى تلك الروح في مجلة برايفت آي التي تنشر ما لن تنشره المؤسسات الإخبارية الأخرى، اعتمادًا في الغالب على ما تتلقاه من تسريبات ومعلومات. ولا توجد سوى خطوة صغيرة تفصل هذين النموذجين عن مات درادج — وهو من أوائل المدونين أصحاب التأثير على الأجندة الإخبارية وذلك بكشفه للعلاقة التي ربطت الرئيس كلينتون بإحدى المُتدرِّبات — وتفصل ذلك الأخير عن هذا الفيض الهائل من المدونات وشبكات التواصل الاجتماعي الذي نشهده حاليًّا.

لماذا نشهد الآن إذًا تلك المناقشات الكثيرة بشأن صحافة المواطن؟ إنه ببساطة ذلك التأثير الذي يُحدِثه الإنترنت والفرص التي يقدمها لخلق أشكال واسعة الانتشار من التواصل لم تكن لتخطر على بال أحد منذ عشر سنوات مضت فقط. تخلق تلك الفرص تغيرات اجتماعية عميقة تُعادل في أهميتها اختراع آلة الطباعة منذ ما يقرب من ٣٠٠ عام.

ظلت الخدمة العالمية التابعة لبي بي سي طوال أكثر من ٧٥ عامًا تبثُّ برامجها الإذاعية حول العالم مستخدِمةً استوديوهات وخطوطًا ومحطات إرسال وأبراج بث إذاعي، كلها عالية التقنية وتساوي ملايين الجنيهات. أما اليوم، فأي شخص لديه كمبيوتر محمول واتصال بالإنترنت يمكنه أن يبث ما يريد بفاعلية وبنفس الانتشار.

لقد قامت الأخبار — الصحافة — على مدار أكثر من قرن على نموذج من محدودية الوصول؛ فقلَّة فقط من المؤسسات هي القادرة على تحمُّل تكاليف إرسال مراسلين لها إلى حيث تجري الأحداث الهامة أو تكاليف إيجاد المعلومات التي تهم الآخرين، بل وعددٌ أقل من المؤسسات كان يمتلك الموارد اللازمة لنشر تلك المعلومات، إما عن طريق صفحات الجرائد أو الحصول على سعة نطاق ترددي إذاعية أو تليفزيونية محدودة، عادةً ما تخضع للتنظيم. كان النموذج تغلب عليه مركزية التحكم، وانتقال المعلومات من أعلى إلى أسفل، ومن مصدر واحد إلى عدة مُتلقِّين.

أما اليوم، فقد زالت تلك القيود، وصارت المعلومات تُعامَل كسلعة على نحو متزايد وأصبحت متاحة على نطاق واسع على الإنترنت، ويمكن نشرها بتكلفة تكاد تكون منعدمة باستخدام مدونة نصية أو صوتية (بودكاست). إن النموذج السائد اليوم المعتمد على

الإنترنت هو نموذج شبكي تنتقل فيه المعلومات من أسفل إلى أعلى (أو من الأطراف إلى الوسط)، ويتبادلها الأفراد فيما بينهم، سواء على نحو فردي أو جماعي.

وصارت المعلومات الآن تتسم بالطابع الديمقراطي.

حين استحدث تيم بيرنرز-لي تكنولوجيا النص التشعبي عام ١٩٩١، والتي صارت لاحقًا شبكة الويب، كان المقصود منها التمكن من مشاركة المعلومات وتحريرها. بعبارة أخرى، كانت الوظيفة الاجتماعية لهذه الشبكة من صميم أهدافها عند استحداثها، وتلك الوظيفة — التي نسميها الآن التواصل الاجتماعي — هي التي تقود التغيرات الهائلة التي نشهدها حاليًّا في عملية التواصل والاتصال، بما في ذلك صحافة المواطن.

كما ذكر مؤلفو «بيان كلوترين» عام ١٩٩٩ في عملهم: «لقد انطلق حوار عالمي قوي. إن الإنترنت يُمكِّن الأفراد من اكتشاف واستحداث أساليب جديدة لتبادل المعارف الهامة بسرعة خاطفة. وكنتيجة مباشرة لذلك، تزداد الأسواق ذكاء، وهو ما يحدث على نحو أسرع مقارنةً بأغلب الشركات» (ليفين وآخرون ١٩٩٩).

لا شكَّ في صحة ذلك في مجال الإعلام والصحافة على وجه الخصوص. ورغم أن الإنترنت أربك المؤسسات الإخبارية إرباكًا عميقًا وطرح أمامها تحديات بالغة، فإنني أعتقد أنه كان قوة إيجابية أيضًا، فيما يتعلق بالارتقاء بالمعايير والجودة، وتعزيز الشفافية والمساءلة، وتمكين نشر المعلومات الحرة على نطاق واسع، وإعادة ربط الجماهير بأهمية التعبير والنقاش الحر. إن صحافة المواطنة من شأنها تحسين أداء الإعلام وتعزيز الديمقراطية.

يرى دان جيلمور، في كتابه الرائد «نحن الإعلام» (٢٠٠٦: ١٠)، أن سطوع نجم صحافة المواطنة يمكن أن يؤدي إلى إحياء مفهوم المواطنين المستنيرين بحق. ويضيف: «لا يحتاج الحكم الذاتي لأكثر من ذلك، وسوف نستفيد جميعًا لو قمنا به على خير وجه.»

يرصد جيلمور اللحظة التي وطد فيها التدوين قواعده في الولايات المتحدة الأمريكية خلال تلك الساعات التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر قائلًا:

> قدَّم الصحفيون بعضًا من أفضل أعمالهم وجعلوني فخورًا بكوني واحدًا منهم ... لكن شيئًا آخر، شيئًا عميقًا، كان يجري هذه المرة: كانت الأخبار تصدر عن أفراد عاديين لديهم ما يقولونه ويعرضونه، وليس فقط عن المؤسسات الإخبارية «الرسمية» التي جرت العادة على أن تحدد شكل مسودة التاريخ الأولى ... نشأ خلال تلك الساعات والأيام المروعة نوع آخر من التغطيات الإخبارية. لقد تلقَّينا

> سياقًا قيِّمًا عبر الرسائل الإلكترونية والقوائم البريدية ومجموعات الدردشة والمذكرات الشخصية الإلكترونية — وكلها مصادر إخبارية غير تقليدية — وهو سياق لم تكن وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى لتتمكن من تقديمه، ولم تكن لتقدمه. لقد كنا نشهد مستقبل الأخبار، وكنا جزءًا منه في كثير من الأحيان. (المصدر السابق: ٢)

إذًا ما من شكٍّ في أن «صحافة المواطن»، أو الفرص التي يحظى بها الجمهور بفضل الإنترنت والتكنولوجيا للتعبير عن آرائهم ومشاركة تجاربهم، تُحدِث تأثيرًا عميقًا على الصحافة. إن صحافة المواطن تُقوِّض نماذج العمل التجاري للمؤسسات الإخبارية، وتُبرز الافتقار التقليدي إلى الانفتاح والشفافية في أجزاء من الإعلام الإخباري، وتدفع إلى الارتقاء بمستوى الجودة والمعايير نظرًا لأن جيش المدونين «يفضحون أكاذيبكم»، حسبما قيل بعد أن كشفوا سلسلة من إخفاقات وسائل الإعلام التقليدية في الولايات المتحدة الأمريكية خلال الفترة من ٢٠٠٣ إلى ٢٠٠٥.

كما أنها تقدِّم فرصًا هائلة لتدشين «صحافة جديدة» من خلال تبادل المعلومات عبر الشبكات والتوسيم والتعليق والبحث مفتوح المصدر، وغيرها الكثير.

وحسبما ذكرت ريبيكا ماكينون، المنتجة بشبكة سي إن إن سابقًا والمدونة حاليًّا التي تصف نفسها بأنها «صحفية متعافية»: «المهم هو أن تصمد الصحافة، وليست المنصة أو الوسيلة الإعلامية التي توجد من خلالها» (٢٠٠٦).

ثمة بيئة جديدة يجب على الصحافة التكيف معها، ألا وهي شبكات التواصل الاجتماعي، وهي مواقع تسمح بخلق تجربة جماعية، مثل ماي سبيس أو فيسبوك أو فليكر أو يوتيوب. إن مثل هذه الشبكات تُمثِّل مجتمعات إلكترونية حديثة تحمِل كثيرًا من سمات المجتمعات المادية — الثرثرة وتناقل الأنباء والنقاش والجدل — ومِن ثَمَّ فهي تربة خصبة للبحث الصحفي ونشر الأخبار. وكما قال ماريو جارسيا، خبير تصميم الصحف، أمام الجمعية الدولية للصحف (٢٠٠٧): «إن شبكات التواصل الاجتماعي هي المدن الجديدة. وإذا اختار الناس أن يتجمعوا هناك، فلا بد أن نوجد هناك نحن أيضًا.»

حين نتحدث عن صحافة المواطن، فإننا نتحدث حقيقةً عن سلسلة من الأنشطة المختلفة: المختلفة في دوافعها، وأهدافها، وآثارها.

(٢) أربعة أنواع من المشاركة

إن صحافة المواطن يمكن بوجه عام أن تنقسم إلى أربعة أنواع مختلفة من النشاط، أو المشاركة.

أولًا: توجد تغطية شهود العيان، أو مشاركة التجربة. وهي تشمل الصور الملتقطة بالهواتف المحمولة والتي يُرسلها أصحابها إلى المؤسسات الإخبارية، والرسائل الإلكترونية التي تحوي وصفًا لما رآه الناس، وعلى نحوٍ متزايد مقاطع الفيديو. دائمًا ما كانت المؤسسات الإخبارية تَعقِد مقابلات مع الشهود وتستعين بما التقطوه من صور متى توافرت، أما الآن فيمكن لمن شهدوا حدثًا معينًا أن يُرسلوا موادهم الإخبارية مباشرةً إلى قسم جمع الأخبار، وأن يفعلوا ذلك بأعداد هائلة تُقدَّر بالآلاف.

ثانيًا: هناك مشاركة الرأي، وهي تتم عن طريق المدونات عادةً. لجأت محطات البث الإذاعية لعقود إلى المداخلات الهاتفية لنقل وجهات نظر مستمعيهم وتشجيع الحوار. أما اليوم، وعبر الإنترنت، فيمكن تحقيق الهدف نفسه من خلال المواقع الإخبارية التي تضم روابط لمدونات أو المدونات التي تحوي روابط لصفحات أخبار. إن المواقع المَعنية بصحافة المواطن، مثل Digg.com أو Netscape.com، والتي تضم اقتراحات بأفضل الموضوعات وتصويتات لها، من شأنها أن تعكس آراء القُرَّاء علاوةً على نقل الخبر الرئيسي.

النشاط الثالث هو الصحافة الاستقصائية الأصلية على الإنترنت، أو مشاركة الكشف الإخباري. يتحقق أحيانًا مثل هذا النوع من المشاركة من خلال الأساليب التقليدية للتغطية الاستقصائية، حيث يُزيح فردٌ النقاب عن أمر مثير للاهتمام، أو قد يتم في أحيان أخرى كنشاط جماعي — يُسمى أحيانًا الخلية — إذ يَنْقَض عدد من المدونين على موضوع ما ويقتلونه بحثًا حتى تتكشف جميع خباياه.

ويأتي أخيرًا النوع الرابع وهو ما يسميه البعض الصحافة الشبكية، أو مشاركة المعرفة. يقوم هذا النوع على الفكرة القائلة بأنه مهما كان الموضوع الذي تتناوله، هناك شخص ما يعرفه أكثر منك. كيف يمكنك العثور على تلك الخبرة واستخدامها للارتقاء بجودة عملك الصحفي ودقته ورؤيته؟ وكيف يتأتَّى لك الاستفادة من الحكمة، والمعرفة، والخبرة الجمعية للجماهير في نقل ما لم يكن ليُنقَل لولا ذلك؟

وما موقع الصحافة في «المدن الجديدة» الخاصة بشبكات التواصل الاجتماعي، حيث يمكن أن تجتمع الآراء والخبرة الجمعية للجماهير؟

دعونا نتناول كلًّا من تلك الأنشطة بالترتيب.



شكل ١٢-١: التقط الصحفي المواطن مايكل هيوز تلك الصورة في ميدان تافيستوك، في لندن، بعد واحد من أربعة تفجيرات انتحارية أودت بحياة ٥٢ شخصًا في لندن يوم السابع من يوليو عام ٢٠٠٥ (نُشِرت الصورة بإذن من مايكل هيوز).

(٢-١) مشاركة التجربة

شهد عام ٢٠٠٥ عددًا من الوقائع الإخبارية الكبرى، وتزامن هذا مع الانتشار الواسع لتكنولوجيا الهواتف المحمولة. لقد نجحت الهواتف المحمولة المزودة بالكاميرات وأجهزة تسجيل الفيديو الرقمية الصغيرة في تسجيل الآثار التي خلَّفها التسونامي الذي وقع في آسيا في يناير من ذلك العام، وتبعات الزلزال الذي شهدته القارة نفسها، وفي المملكة المتحدة، تفجيرات لندن يوم السابع من يوليو، وانفجار مستودع وقود بانسفيلد، وهو ما حدث على نطاق لم تشهده سوى قلة من الأحداث الإخبارية المصوَّرة من قبلُ.

إليك هذين النموذجين من تفجيرات لندن:

> حوصر آدم ستيسي في تفجير خط مترو أنفاق بيكاديلي بين محطتي كينجز كروس وراسل سكوير، لكنه لم يوجد في العربة التي تفجرت.

بعد أن بقي حبيسًا لما يقرب من أربعين دقيقة في عربة مليئة بالدخان ووسط ذعر متزايد، سُمِح له وغيره من الركاب بمغادرة القطار وأُمِروا بالعودة سيرًا على القضبان.

رأى ستيسي آخرين يُخرجون كاميرات هواتفهم المحمولة، فطلب من صديقه إليوت، دون أن يدري بوقوع هجوم، أن يلتقط صورة للحدث ليُريها لزملائه في العمل.

انتشرت الصورة، قبل أن يدري، في جميع أنحاء العالم وطُلِب منه إجراء مقابلات مع وسائل الإعلام بجميع أنواعها، بما فيها التليفزيون الياباني والإذاعة الأمريكية ...

كان ستيسي قد سمع أن بعض المواقع الإخبارية كانت تستعين بصور التقطها أفراد من العامة، فأرسل في البداية صورته إلى صحيفة صن.

عُرِضت الصورة على مدونة تُسمى موبلوج يو كيه، وبمجرد عرضها اجتذبت عددًا هائلًا من التعليقات من جميع أنحاء العالم.

دفعت تلك التعليقات لاحقًا بصاحب المدونة، ألفي دينين، إلى تدشين موقع «لسنا خائفين»، الذي تلقَّى صورًا ورسائل داعمة من جميع أقطار العالم عقب التفجيرات.

تواصل السيد دينين مع السيد ستيسي يوم السابع من يوليو ليطلب منه موافقته على نشر الصورة بموجب رخصة المشاع الإبداعي، وهي طريقة تكفل حرية نشر المعلومات.

قال ستيسي: «وافقت. لم أنظر إلى الصورة كملكية خاصة لي. كنت سأبدو جشعًا للغاية لو حاولت التربح منها.»

كان الاهتمام الإعلامي الناتج «مثيرًا» لفترة، وذلك باعتراف السيد ستيسي، الذي اختارت مجلة تايم صورته كواحدة من أفضل صور عام ٢٠٠٥. (دير ٢٠٠٦)

كانت ريتشيل نورث موجودةً في العربة التي تفجرت من القطار المسافر من كينجز كروس إلى راسل سكوير. في الأيام التي أعقبت الحادثة، كتبت نورث يومياتها لشبكة بي بي سي، والتي صارت فيما بعدُ قوام مدونتها الخاصة.

كنت في العربة الأولى، خلف مقصورة السائق، واقفةً بجوار الأبواب. وكانت العربة مزدحمة تمامًا.

استقل المزيد من الركاب القطار في محطة كينجز كروس، وبدا كأنه أشد القطارات ازدحامًا. ثم صدر دويٌّ رهيب بينما كنا نغادر محطة كينجز كروس، حوالي الساعة ٨:٥٥ صباحًا.

اكتسى كلُّ شيءٍ بالسواد التام وامتلأت العربة بسحب من الدخان الخانق فظننت أنني أُصبت بالعمى.

كان الظلام حالكًا حتى عجز الجميع عن الرؤية.

خُيِّل إليَّ أنني على وشك الموت، أو أنني متُّ بالفعل. كنت أُعاني من الاختناق بسبب الدخان وشعرت كأنني أغرق.

بدأ الهواء يتسرَّب إلى العربة من خلال النوافذ المتهشمة وساعدتنا إضاءات الطوارئ على الرؤية قليلًا. كنا بخير.

ثم مزقت صرخة مروعة ذلك الصمت. (نورث ٢٠٠٥)

تتنوع دوافع من يشاركون غيرهم تلك الأشكال من التجارب المباشرة، غير أن قليلًا منهم حاليًّا من يرى نفسه صحفيًّا؛ فهم ليسوا سوى أفراد يجدون أنفسهم وسط أحداث استثنائية ويرغبون في مشاركة ما رأوه أو سمعوه مع غيرهم. نشأت بعض الهيئات ونمت قاصدةً تمثيل الأفراد الراغبين من العامة في بيع موادهم إلى المؤسسات الإخبارية، إلا أنها لا تترك سوى تأثير هامشي نظرًا لحجم المواد الإخبارية المتاحة ولكون الدافع الرئيسي لهؤلاء «الصحفيين المواطنين» هو المشاركة أو الإسهام لا المال. لكن ذلك لا يعني، بالطبع، أن أي شخص يسجل لحظة تاريخية أو يلتقط صورة حصرية، مثلما فعل زابرودر، لن يحق له أو لن يتمكَّن من تحقيق ربح معتبر من ورائها، غير أن قوى العرض والطلب المعتادة تسري على العملية، وهناك الكثير من المعروض من الصور المتاحة لأغلب الأحداث، وذلك بفضل تكنولوجيا الهواتف المحمولة.

لكن الأمر لا يخلو من مخاطر؛ فحين انفجر مستودع وقود بانسفيلد عام ٢٠٠٥، توجَّه عدد من الأشخاص، وبينهم أطفال، إلى شبكة بي بي سي عارضين العودة إلى موقع الحادثة لالتقاط «صور أفضل»، وهو ما قد يُعرِّضهم للخطر. تواجه المؤسسات الإخبارية في مثل هذه المواقف مسائل تتعلق بالمسئولية؛ إذ عليها أن تنصح الجماهير بالتصرف

بمسئولية وبما يكفل سلامتهم أثناء تسجيلهم لتجاربهم، كما يجب عليها أن تتجنب الظهور وكأنها تكلِّفهم بأداء مهام قد تنطوي على خطر الإصابة أو ما هو أسوأ.

بدأت مشاركة الأشخاص لتجاربهم بهذه الطريقة منذ ظهور وسائل الإعلام، لكن التكنولوجيا أحدثت تحولاتٍ في حجم المواد الإخبارية المتاحة الآن، ومِن ثَمَّ كان لها تأثير هائل على المؤسسات الإخبارية. وكما كتب جون ويليامز، محرر الأخبار في شبكة بي بي سي، على مدونة محرري الشبكة:

> كنت محرر الأخبار المركزي يوم السابع من يوليو العام الماضي. تلقينا ٢٠ ألف رسالة إلكترونية وأكثر من ألف صورة ملتقطة بالهاتف المحمول وعشرات من مقاطع الفيديو؛ إن مكالماتكم هي التي نبهتنا إلى ما كان يجري، في حين لم تكن السلطات تعلم على وجه الدقة السبب وراء «انقطاع التيار الكهربائي» الذي وقع في مترو الأنفاق. لقد أحدثت مشاركاتكم تحولًا في تغطيتنا، وفي رؤيتنا للدور الذي يمكنكم أداءه في ناتجنا الإخباري.
>
> والآن، متى يقع حدث، يُبادر قراؤنا ومشاهدونا ومستمعونا بإرسال الصور من موقع الحدث، سواءٌ أكان انفجار محطة وقود بانسفيلد أم الهجمات على قطارات في مومباي بالهند. من وجهة نظر إخبارية، باعتباري محررًا للأخبار، يمثل هذا الإسهام مصدرًا هائلًا يُعتمد عليه؛ فكثيرًا ما نُفتَقد في موقع الحدث عند وقوعه؛ إذ عادةً ما تصل كاميراتنا بعدما يقع؛ لذلك فنحن نصور تبعاته. أما أنتم فكثيرًا ما تكونون في خضم الحدث. إن هذا ما يطلق عليه صحافة المواطن، وإن كنت أفضِّل النظر إليه باعتباره جمعًا للأخبار يقوم به المواطنون. (ويليامز ٢٠٠٦)

(٢-٢) مشاركة الرأي

أتاحت التوليفة المُكوَّنة من الراديو والتليفون معًا للجماهير فرصة مشاركة آرائهم عبر وسائل الإعلام، وذلك على مدار عقود حتى الآن. لقد أضحت البرامج التي تسمح باستقبال مداخلات هاتفية من الجماهير من الأنماط الرئيسية للبرامج الحوارية الإذاعية وتحوَّل كثير منها إلى مجتمعات لها متصلون منتظمون، ولها نقاشاتها وموضوعاتها الموسعة، على نحو يشبه كثيرًا المنتديات الإلكترونية وبعض المجتمعات التدوينية.

بالنسبة إلى وسائل الإعلام، فقد مكَّنتهم قدرتهم على الوصول إلى جمهورهم والاستفادة من وجهات نظرهم وآرائهم في إنتاج محتوًى، بتكلفة منخفضة نسبيًّا، ويحظى بطبيعته باهتمامهم ويتسق مع ميولهم اتساقًا وثيقًا. ولهذا السبب تلقى البرامج ذات المداخلات التليفونية رواجًا، رغم وجود نماذج إيجابية منها وأخرى سلبية، كما هو المعتاد دائمًا.

يؤدي المذيع في هذه البرامج دور المضيف ويميز الجمهور بوضوح ما يُعَد رأيًا شخصيًّا للمتصل، وكيف قد يتمايز هذا الرأي عن آراء المذيع أو مواقفه.

لقد تعاظمت في وقتنا الراهن قدرة الجماهير على التعبير العلني عن مواقفهم، من خلال المدونات النصية على وجه الخصوص وعن طريق المدونات الصوتية والمرئية أيضًا. ولم تَعد بهم حاجة إلى أن يحلوا «ضيوفًا» على المذيعين. كان لمثل هذا الازدياد الهائل في التعبير عن الآراء في الفضاء العام عدد من التأثيرات؛ وقد مارس ضغوطًا على الإطار التقليدي للحيادية والموضوعية لدى بعض المؤسسات الإخبارية؛ فمن الواضح أن هناك نهمًا كبيرًا للآراء. وقد أضعف من أهمية كتَّاب الأعمدة الصحفية أو مقالات الرأي؛ فهناك مجموعة من التعليقات الممتازة المتاحة على الإنترنت مجانًا. لكن ذلك طرح أيضًا تحديًا (ومِن ثَمَّ فرصة) أمام المؤسسات الإخبارية لدمج آراء قرائها ومستمعيها ومشاهديها بأساليب جديدة. لقد تزايد كم الآراء، وأساليب التعبير عنها، تزايدًا كبيرًا، وهو ما ينطبق أيضًا على الفوائد المرجوة من الظهور كمؤسسة تؤمن بالنقاش العام وتدعمه.

في حين تباطأ أو عانى كثير من المؤسسات الإعلامية التقليدية في دمج هذا الازدياد الهائل في تعبير الناس عن آرائهم، أسرع بعض المؤسسات الناشئة باقتناص الفرصة السانحة.

كان كالفن تانج ومايك ديفيدسون (العاملان في شبكة إي إس بي إن المملوكة لشركة ديزني) عام ٢٠٠٤ يناقشان عددًا من الأفكار المتعلقة بما كان يجري على شبكة الإنترنت آنذاك. قال تانج بهذا الشأن، في مقابلة معي:

> مع ازدهار النشر الشخصي وبروز الفضاء التدويني في المشهد الإعلامي، تمحورت أفكارنا حول نموذج جمع بين أفضل عناصر الإعلام التقليدي وما رأيناه كمعالم مميزة في الإعلام الجديد. وإذا تحدَّثنا على نحوٍ أكثر تحديدًا، فسنجد أن المؤسسات الإعلامية التقليدية قدَّمت محتوًى عاليَ الجودة يتسم بالنزاهة والدقة، إلا أن المدونين والمتصفحين العابرين للإنترنت استطاعوا، على

نحو متزايد، أن يقدموا روايات ثمينة للأحداث الهامة وما يتعلق بها من آراء قيِّمة، بطريقة معبرة عن قطاعات كبيرة من المجتمع (إن شئت فقل إنهم ينقلون الآراء كما هي دون تنقيح)، وإذا تناولنا الظاهرة بصورة مُجملة، فسنرى أن تأثير هؤلاء المتلقِّين للمحتوى الإخباري والذين تحولوا إلى منتجين له صار يزداد أكثر فأكثر وأن زعماء يولدون من رحم الجماهير.

لم يُسرع كثير من المؤسسات الإعلامية التقليدية، من وجهة نظرهما، بالتكيف مع البيئة الفنية والاجتماعية التي شهدت تغيرات سريعة ولم يبذل أغلبها سوى القليل من أجل الوصول بالفعل إلى إسهامات قرائهم. إنهما يعتقدان أنه «بينما كانت المؤسسات الإعلامية الكبيرة تفتقر إلى المرونة والكفاءة، رأينا المدونين في جملتهم مفتقرين إلى التركيز والهدف والتنظيم.»

لذلك قررا أن ينشئا موقعًا معنيًّا بجمع الكم المتزايد من المحتوى الإلكتروني المتاح على الويب، وتنظيمه، ونشره بأكبر قدر ممكن من الأتمتة. أراد الرجلان أن يدعما مَن لديهم قصص إخبارية جديرة بالنشر لكن لا يملكون وسائل الإنتاج والنشر، وأن يمنحا الناس طرقًا للتواصل الهادف فيما يخص الموضوعات ذات الاهتمام المشترك ومِن ثَمَّ اكتشاف مواد جديدة وكتَّابًا جددًا.

دشن تانج وديفيدسون موقع نيوزفاين، Newsvine.com، ليكون موقعًا للنقاشات، لكنه يرتكز على التغذية الإخبارية التقليدية الواردة من وكالة أسوشيتد برس. يسمح هذا الموقع للمستخدمين أن يُعلِّقوا على التقارير الإخبارية، ويُجروا محادثات حية بشأنها، ويُنتجوا محتواهم الخاص، وينصحوا غيرهم بالاطلاع على محتوى ما، وينشئوا شبكتهم الخاصة من المستخدمين والكتَّاب، ويطرحوا على الموقع موضوعات مثيرة للاهتمام من مصادر أخرى على الإنترنت. وبذلك يجمع هذا الموقع بين التدوين والتوسيم وتقديم الاقتراحات والتفضيلات الاجتماعية والدردشة والأخبار.

يقع التعليق على الأخبار وإنشاء التجمعات استنادًا إلى رأي المستخدم في صميم هذا الموقع. يقول صاحبا الموقع: «نشجع مستخدمينا على تحويل أي شيء وكل شيء إلى محادثة. إن أهم ما في نيوزفاين هو تركيبة مستخدميه؛ فهم بوجه عام يتمتعون بعمق التفكير، ووضوح التعبير، والشغف ليكونوا جزءًا من مجتمعه.»

شهد الموقع تطورًا ملموسًا منذ تدشينه. تصوَّرَ مؤسِّسَا الموقع مبدئيًّا أن التغذية الإخبارية الواردة من وكالة أنباء أسوشيتد برس ستُشكل في البداية المُكون الأكبر من

المحتوى، والتي سيحل محلها محتوى المستخدمين وذلك مع تزايده بمرور الوقت. لكن الواقع أن الموقع يشهد توزيعًا متساويًا بالنسبة إلى المحتوى الوارد من المصدَرين، من حيث الكم، والمتابعة، وتوزيع المناقشات. يعمل المحتوى الإخباري الوارد من وكالة الأنباء كركيزة تُبقي انتباه المستخدمين منصبًّا على الموضوعات المتعلقة بالأخبار.

بعد ذلك استحدثا مجموعات أو سلاسل نقاشية خاصة، بدلًا من عقد جميع المناقشات في مكان واحد، مما يسمح بتكوين مجتمعات أصغر داخل المجتمع الأصلي. كما اكتشفا أن أنظمة تقييم السمعة القائمة على النِّسب المئوية لتصنيف المستخدم كجيد أو سيِّئ، المعمول بها في المواقع الاجتماعية الأخرى مثل إي–باي، لن تُجدي مع مستخدمي موقعهما؛ لذلك استحدثا نظام «فايناسيتي»، وهو مقياس متعدد الجوانب لتقييم إنتاجية المستخدم وموثوقيته، وهو يسمح بوجود شفافية بشأن نوعية المساهمات وموثوقيتها كما قيَّمها المستخدمون.

المثير في نيوزفاين هو طريقة مزجه بين الناتج الإخباري التقليدي وتعليقات المستخدمين وآرائهم والوظائف الاجتماعية العديدة التي يشجعها؛ فلا تستطيع فقط التعرف على ما حدث، بل بإمكانك أيضًا الاطلاع على مجموعة واسعة من الآراء والمناقشات المرتبطة بالأخبار التي تهتم بها اهتمامًا خاصًّا والمشاركة فيها.

يجمع هذا الموقع، تمامًا كالبرامج التي تقوم على المداخلات الهاتفية من الجمهور، بين الإعلام التقليدي والآراء العامة لكن مع منح الطرف الأخير الأهمية الأكبر؛ فالمستخدمون هم من يملكون زمام القيادة.

لا شك أن مشاركة الآراء ووجهات النظر لا تتطلب استخدام موقع كنيوزفاين. فأبسط المنصات التدوينية، والتي بعضها متاح مجانًا مثل Blogger.com، تُمكِّن الأفراد من مشاركة آرائهم وتجاربهم على نطاق واسع.

تُعَد تجربة «سلام باكس» خلال حرب العراق عام ٢٠٠٣ واحدة من أول النماذج وربما من أشهرها على الإطلاق في هذا الشأن. كتب سلام على مدونته dear_raed.blogspot.com واصفًا الحياة ببغداد في الفترة التي سبقت الحرب وخلال القصف. كان سلام يشعر بالازدراء حيال النظام العراقي، لكن بدا واضحًا أن هناك الكثير من القواسم المشتركة التي تجمعه بشباب قُرَّائه في الغرب؛ فقد كان يكتب بإنجليزية متقَنة، ويستشهد بأغنيات ديفيد باوي، ويتحدث عن آخر الأقراص المدمجة الغنائية التي

اشتراها. كان مرِحًا: فحين تحدَّث مراسل شبكة بي بي سي عن أن العراقيين يحافظون على سمت الحياة الطبيعية، علَّق قائلًا: «ماذا يُفترض بنا أن نفعل؟ أن نركض في الطرقات نائحين؟» وما إن بدأت القنابل تنهال على المدينة كتب سلام وصفًا مقتضبًا لما يبدو عليه الأمر حين تجلس في غرفتك وتغلق عليك بابك، آملًا ألَّا تصيبك واحدة من تلك القنابل.

اختارت صحيفتا ذا جارديان وذا نيويورك تايمز، وشبكة بي بي سي نشر منشوراته. لقد نجح سلام بحق في نقل ما كانت تبدو عليه الحياة في مدينة واقعة تحت القصف وفي أواخر أيام النظام البعثي، وهو ما فعله بموثوقية أكبر من أيِّ مراسل غربي.

لذلك لم يكن من المدهش أن ينتقل سلام لاحقًا من التدوين إلى كتابة عمود في صحيفة بانتظام، رغم ما سبق تلك الخطوة من بعض التردد؛ إذ كتب قائلًا: «لقد بعتُ نفسي إلى الشيطان.»

استهل سلام عموده الأول قائلًا:

> اسمي سلام باكس وأنا مدمن مدونات. بعض الناس يشاهدون المسلسلات الدرامية التي تُذاع في فترة النهار، أما أنا، فأتابع المدونات. أتتبع الروابط الموجودة في المدونات التي أقرؤها، وأسافر عبر شبكة الإنترنت مسترشدًا بالمُدوِّنين وأنغمس في القصص التي يروونها. كنت أقرأ عددًا كبيرًا جدًّا من المدونات لدرجة أنني اضطررت إلى تخصيص يوم عمل لكل مجموعة منها، هذا بالإضافة إلى المدونات التي كنت أتابعها يوميًّا. إن الأمر يشبه التلصص قليلًا، لا سيما عند متابعة المدونات ذات الطابع الشخصي حقًّا: الأشياء اليومية العادية التي تأسرك فعلًا؛ ولمحات من حيوات مختلفة تمامًا؛ وطريقة في الكتابة مذهلة للغاية. لا مجال للحديث عن السياسة، بل حياة الأشخاص فقط. كيف يتعاملون مع الألم أو الأسى، كيف يشاركون لحظاتهم السعيدة مع من يهتمون بقراءة مدوناتهم، أيًّا كانوا. (باكس ٢٠٠٣)

هذا ما يمكن أن تجلبه المدونات إلى الساحة العامة: حياة الأشخاص العاديين الحقيقية وهمومهم، وذلك ما عكسته مدونة سلام خلال الحرب على العراق، ونقلته بطريقة عجز عنها الصحفيون التقليديون.

ورغم ذلك، فإن مشاركة التجارب والآراء لا تُمثِّل كلَّ ما يمكن أن تقدمه المدونات.

(٣-٢) مشاركة الكشف الإخباري

مارك كرافت هو مُدوِّن من كاليفورنيا، بدأ رحلته في التدوين من خلال إسهامه في إدارة موقع LiveJournal.com وهو موقع يُقدم منتديات ومجتمعات للنقاش إلى جانب مدونات مساعدة.

أنشأ كرافت عقب غزو العراق مجتمعًا للعاملين في المنظمات غير الحكومية، والمتعهدين الأجانب، وغيرهم من العاملين في العراق، وضم أيضًا بعض الجنود الأمريكيين الذين أقام كرافت معهم علاقة إلكترونية عبر الإنترنت. وكانوا يخبرونه بما كانوا يفعلونه، بما في ذلك، أحيانًا، أشياء لم يكن ينقلها الإعلام.

كتب كرافت يوم ١٢ نوفمبر عام ٢٠٠٤ منشورًا حول القذائف الفسفورية المستخدمة ضد العراقيين يقول فيه:

> الفلوجة: موت الكثير والكثير من العراقيين، قذائف فسفورية مستعملة ضد العراقيين، جثث مجهولة مصابة بحروق مروعة، استخدام محتمل للقنابل العنقودية. قُتِل حتى الآن أكثر من ١٨ جنديًّا أمريكيًّا، وجُرِح المئات، من بينهم أكثر من ٢٢٧ إصاباتهم خطيرة، وأُجْلوا إلى ألمانيا. سيطرة صورية على الطرق، دون سيطرة حقيقية على المدينة. الانتخابات تبدو أبعد ما تكون. عمليات تفتيش متوقَّعة من بيتٍ إلى آخر، بحثًا عن أعداء محتملين وفخاخ متفجرة متوقعة خلف كل باب. مدينة بحجم بيتسبرج تتضور جوعًا. عراقيون غضبى. عراقيون يائسون. عراقيون لم يتبقَّ لهم شيء يفقدونه. مذابح جماعية في أقسام الشرطة العراقية. انشقاقات هائلة في صفوف كلٍّ من الشرطة والجيش العراقيين. انتفاضات في كبرى المدن العراقية. تطورٌ أُحرِزَ في شهور في بعض المناطق يُدمَّر بين عشية وضحاها. مساجد مُدمَّرة. رائحة الموت في كل مكان. الرجال العراقيون ممنوعون من المغادرة. زوارق مشحونة بالبشر الفارِّين تُستَهدف بطلقات النيران فتغرق، وتطفو جثث ركابها على صفحة نهر الفرات. نحن نحقق الانتصار في المعركة، لكننا نخسر الحرب.

مضى كرافت ينقل قصص الجنود الشخصية وينشر منشوراتهم والأخبار الأخرى من داخل العراق التي تلقى تجاهلًا من الإعلام التقليدي. يذكر كرافت قائلًا: «بعض القصص القادمة من الفلوجة كانت بشعة حقًّا. كان حمام دم مروعًا لجميع الأطراف المعنية.»

كما نشر صورًا سرَّبها له الجنود. في النهاية، انتبهت وسائل الإعلام الإخبارية البريطانية والأمريكية إلى استخدام قذائف الفسفور الأبيض في الفلوجة، لكن لولا استعانة كرافت بالمجتمع الإلكتروني وعلاقاته، ربما ما كانت تلك المأساة لترى النور أبدًا. أخبرني كرافت في مقابلة معي قائلًا:

> لا يكفي الصحفيين إنشاء مدونة على أمل أن يأتي الناس إليهم جالبين أهم الأخبار … عليهم بذل المزيد للوصول إلى مدونات المنخرطين مباشرة في الأحداث والتفاعل معهم وإقامة نقاش بين أطراف متكافئة. لا يكفي أن يرصد الصحفيون من حين إلى آخر مقتطفات الأخبار من خدمة آر إس إس مستخدمين قارئ للأخبار؛ لأن ذلك لا يُسهم بأي شيء في خلق التواصل ولا بناء الثقة.
>
> قد لا يُعَد ما جمعت من مصادر رسميًّا، لكنها أفضل بكثير من غيرها، وأقرب إلى الأحداث، وأكثر تفصيلًا ودقة بوجه عام، كما أنها تقدِّم منظورًا أقوى دلالةً وأجدى نفعًا لما يجري.

يبدو كرافت، على هذا النحو، مشابهًا للصحفيين الاستقصائيين التقليديين في بنائهم للثقة ووصولهم إلى المصادر والاستعانة بها. إلا أنه في حالة كرافت، يعتمد الأمر على الإنترنت والبحث الإلكتروني والمدونات والمجتمعات الإلكترونية بدلًا من حانة الحي.

يمكن أن يُقدِّم الإنترنت منصة فعالة لممارسة الصحافة الاستقصائية. استطاع المدون السويدي ماجنوس يونكفيست أن يُنهي الحياة المهنية القصيرة لوزيرة التجارة السويدية ماريا بوريالوس بعد ثمانية أيام فقط من تولِّيها منصبها. استخدم هذا المدون قانون حرية المعلومات للاطلاع على إقراراتها الضريبية وأنشطتها التجارية، وكشف عن تهربها من سداد الضرائب، بما في ذلك تهربها من سداد ضريبة الأجور فيما يتعلق بخادمة عيَّنتها لديها خلال التسعينيات.

عرض يونكفيست، المُتحدث الصحفي للحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي، الخبر على صحيفة أفتونبلاديت، لكنها رفضت نشره؛ لذلك اتجه إلى التدوين، لكن صحيفة أخرى تسمى إكسبريسن نقلت الخبر بعد يوم واحد من نشره على مدونته دون أن تنسبه إلى يونكفيست، فسارعت بوريالوس إلى الاستقالة.

لقد دفعت هذه القضية معهد بوينتر إلى استخلاص خمسة استنتاجات:

(١) لا يُعَد التحيز أمرًا سلبيًّا دائمًا. فكثيرًا ما تعتمد صحافة المواطن الرشيدة على نوع من التحيز باعتباره دافعًا لمواصلة البحث في القصة الإخبارية.

(٢) الجميع يحتاجون إلى الحصول على المعلومات. إن ممارسة العملية الديمقراطية بكفاءة تتطلب إتاحة الفرصة أمام الجميع للحصول على المعلومات، حتى أولئك ممن لهم مصالح أو تحيُّزات شخصية، سواءٌ أكانوا صحفيين أم ناشطين سياسيين أم مواطنين.

(٣) لا يلتزم الصحفيون بالموضوعية على الدوام. إن إعراض وسائل الإعلام التقليدية عن تسليط الضوء على ما اكتشفه يونكفيست قد يدل على انعدام الاهتمام الشخصي بالأمر من جانب الصحفيين أو قلة المصادر المتاحة للتحري والاستقصاء عنه. أو قد يكون ذا صلة بالاعترافات المنشورة في كتاب صدر عام ٢٠٠٠، والتي أشارت إلى أن عدة صحفيين كانوا يدفعون لخدمهم أجورهم في الخفاء وبصورة غير قانونية. يبدو أن تلك مشكلة شائعة في السويد.

(٤) المُدوِّنون: الحض البنَّاء. يحتاج المدون صاحب القضية أحيانًا إلى أن يدفع الصحفيين دفعًا إلى تناول القضايا التي يميلون إلى تجاهلها.

(٥) ذكرُ المصدر: لم يُنسب الخبر إلى يونكفيست إلَّا لاحقًا وذلك من قِبَل بعض المؤسسات الإخبارية. يشير مثل هذا الامتناع عن ذكر المصدر إلى قَدْر من الحرج غير المبرَّر الذي تستشعره وسائل الإعلام التقليدية — الذي ربما ينبع من جنون الشك الذي يُرسِّخه الصحفيون المواطنون والتقليديون، والذي يستند إلى عقلية «نحن ضد الآخرين» (مار ٢٠٠٦).

ربما يُعتبر أشهر نماذج «الكشف الإخباري» على الإنترنت ما صار يُعرَف باسم «راذر جيت» أو فضيحة راذر: اكتشاف وجود أخطاء كبرى في تقرير أذاعه برنامج «٦٠ دقيقة»، الذي يقدمه دان راذر على شاشة شبكة سي بي إس التليفزيونية؛ ففي سبتمبر ٢٠٠٤، عرض البرنامج انتقادات موجَّهة إلى سجل خدمة جورج دبليو بوش في قوات الحرس الوطني الأمريكي، زعمت القناة أنها واردة في وثائق تخص قائد وحدته آنذاك، جيري بي كيليان.

شهدت المنتديات والمدونات على الإنترنت خلال ساعات طعنًا في موثوقية الوثائق. أشار الطاعنون إلى أخطاء تاريخية في طباعة الوثائق، مما يُوحي بزيفها. دافعت الشبكة

في البداية عن صحة الخبر، لكنها اضطرت إلى التراجع بعد أسبوعين من دراسة وتحليل الوثائق على يد المدونين وكذلك، من بعدهم، المؤسسات الإخبارية المنافسة. أقرَّ راذر قائلًا: «لو كنت أعلم حينها ما أعرفه الآن، لما مضيت قدمًا في تناول الخبر كما أُذيع، ولما استخدمت بالتأكيد الوثائق المذكورة» (٢٠٠٥). كما قال أندرو هيويرد، رئيس القسم الإخباري بشبكة سي بي إس: «استنادًا إلى ما ندركه الآن، لا يمكن للقسم الإخباري بسي بي إس إثبات صحة الوثائق، وهو المعيار الصحفي الوحيد المقبول لتبرير استخدامها في التقرير. لم يكن علينا الاستعانة بها. كان ذلك خطئًا، ونحن نُعرب عن ندمنا العميق حياله» (هيويرد ٢٠٠٤).

فُصِلَت منتجة التقرير، ماري ميبس، وأُجبِرَ راذر على إعلان اعتزاله مبكرًا.

من الأمور المثيرة للاهتمام في تلك الواقعة نجاح المُدونين في محاسبة مؤسسة إخبارية كبرى وإثبات أنهم أشد اجتهادًا وأكثر دقةً من الصحفيين المحترفين. لكن الواقعة تُبرز كذلك قوة الحكمة الجمعية؛ فالأخطاء التاريخية برزت إلى بؤرة الضوء بفضل عدد من المدونين المختلفين (من أنصار اليمين)، الذين جمعوا ملاحظاتهم وخبرتهم للطعن في دقة التقرير وموثوقيته. لقد كانت تلك القضية، على نحو ما، من باكورة النماذج الدالة على ما نسميه الآن الصحافة الشبكية.

(٤-٢) مشاركة المعرفة

يصف دان جيلمور في كتابه «نحن الإعلام» كيف أدرك، حين بدأ كتابة عموده المَعْني بتكنولوجيا المعلومات في صحيفة سان خوسيه ميركوري، أن كثيرًا من قُرائه العاملين في وادي السيليكون سيعرفون عن ذلك المجال أكثر مما يعرف هو. وكان من الواضح أن هذا سيجعل من الصعب عليه الكتابة بثقة. ورغم ذلك، كان جيلمور يتمتع برؤية ثاقبة جعلته يدرك أنه لو تمكَّن من التحكم فيما لدى قرائه من معرفة وتوجيهها، فسوف يصير عموده أكثر الأعمدة إلمامًا بمجال تكنولوجيا المعلومات وأثراها بالمعلومات وأوسعها خبرةً. أتاح جيلمور الفرصة أمام قرائه بقيادة عمله الصحفي من خلال مدونته ودعوته إلى طرح التعليقات. وتُعَد الاستعانة بمعرفة الجماهير على هذا النحو ما يُطلَق عليه الآن «الصحافة الشبكية».

كرَّر جيف جارفيز، المدون والأستاذ بجامعة سيتي في نيويورك، المعنى نفسه بعبارة أخرى حين قال:

> يجب أن تصير الصحافة عملًا تشاركيًّا على كثير من المستويات؛ فينبغي أن تتجه المؤسسات الإخبارية إلى الاعتماد على المواطنين في المساعدة على تغطية الأخبار على مستوًى واسع النطاق ... ومستوًى فردي (بإسهام الأفراد في جهود المؤسسات الإخبارية بتقديم تغطياتهم الخاصة)، وكشبكة (بدعم المؤسسات الإخبارية لجهود الأفراد الخاصة من خلال تقديم المحتوى والدعاية والتدريب والدخل).
>
> سوف تصير الصحافة عملًا تشاركيًّا ليس فقط على هذا المستوى الذي يجمع بين المحترفين والهواة، بل وعلى مستوى التعاون فيما بين المحترفين (فنحن لسنا في حاجة إلى إرسال مراسلينا لتغطية بعض الأخبار، ولا نستطيع تحمُّل تكاليف ذلك، فقط لإشباع رغبتنا في أن يُنسب إلينا الخبر، لكن يمكننا التواصل مع قُرَّائنا وجلب أفضل التغطيات الإخبارية من منافذ إخبارية أخرى إليهم، بل والإسهام في دعمها). (جارفيز ٢٠٠٦)

يتنبأ جارفيز بعدد من التبعات المترتبة على هذا النهج؛ فهو يعتقد أن دور الصحفيين، وعلاقتهم بالجمهور، سوف تتحول من كونهم «أصحاب» الخبر إلى وسطاء ومحررين وداعمين. يرى جارفيز اتساعًا في نطاق الصحافة والأخبار وارتقاءً في جودة العمل الصحفي مع وجود مزيد من الوسائل المساعدة على الوصول إلى الأخبار والتحقق من صحتها مع تقديم الجماهير يد المساعدة.

كانت هناك بعض المبادئ الكامنة خلف تدشين موقع NewAssignment.Net، وهو مشروع يديره زميل جارفيز في جامعة نيويورك، الأستاذ جاي روزين. وهو موقع غير هادف للربح حاول ريادة الصحافة «مفتوحة المصدر». يقول روزين:

> يتعاون المحترفون والهواة في موقعنا لإنتاج عمل لا يمكن لأيٍّ منهما تحقيقه منفردًا. يستخدم الموقع أساليب مفتوحة المصدر لبدء مهام صحفية جيدة والعمل على إتمامها. وهو يدفع للصحفيين المحترفين لتولِّي المهام الصحفية وتبنِّي معايير رفيعة المستوى بشأنها، والعمل عن كثب مع المستخدمين الراغبين في تقديم إسهامات بشأنها. ومن المحتمل أن يتبرع (بعض) الأفراد لدعم

> القصص الإخبارية التي قد يَرون أنها ستكون متميزة، وذلك لأن الأساليب المفتوحة المصدر تسمح لهذه المبادرة أن تمضي قُدمًا. (روزين ٢٠٠٦أ)

رغم أن هذا المشروع لم يخضع للاختبار بعدُ، فإنه يقوم على فكرة الوصول إلى خبرات الجماهير ومعرفتهم واستعمالها كشكل من أشكال البحث الموزَّع على نطاق واسع. يرى روزين أنه يكون بعد ذلك على الصحفيين المحترفين ربط المعلومات الخام معًا وتطويرها قبل أن يعيدوا نشر «القصة الإخبارية» مجددًا.

> أعتقد أن استغناء الصحافة عن وسائل الإعلام، في هذه المرحلة، فكرة عملية جديرة بالتجربة ... يُمَكِّن موقعنا «من كان يُطلَق عليهم سابقًا جماهير» ... من خلق عمل متميز. إن تصميم الموقع يقوم على افتراض أنه لا توجد عداوة مطلقًا بين المستخدمين «المواطنين» والصحفيين «المحترفين» وأننا نحتاج إلى كليهما وإلى أساليب تمكِّنهما من العمل جنبًا إلى جنب. إن الصحفي الذي لا يستطيع العمل مع الناس «و» إخبارهم بالحقيقة لا يناسب موقعنا. (روزين ٢٠٠٦ب)

لا تقتصر فكرة الاستعانة بمعرفة الجماهير على الصحافة الإلكترونية فحسب؛ فقد دشنت إذاعة مينيسوتا العامة ما أطلقت عليه «صحافة الرؤى الجماهيرية»؛ إذ تستعين بقاعدة بيانات من المساهمين المتخصصين لمنح المراسلين رؤية أكثر استنارةً واطلاعًا للموضوعات التي يُغَطونها.

تسمح تلك الشبكة الإذاعية للمنتجين والمراسلين باستقاء المعلومات من الأشخاص أصحاب الخبرة المباشرة بالموضوعات التي يتولَّون تغطيتها. وتدعو صفحتها على الإنترنت الجمهور إلى الانضمام إليها:

> شارك غيرك ما تعرف: كن مصدرًا من مصادر إذاعة مينيسوتا العامة.
>
> التعليم. الرعاية الصحية. المجتمع. الحروب. أيًّا كان الموضوع، تحتاج إذاعة مينيسوتا العامة إلى معرفتك وخبرتك لنجعل تغطيتنا الإخبارية خدمة عامة ذات أداء وجودة أقوى. (إذاعة مينيسوتا العامة ٢٠٠٧)

يُفسِّر مايكل سكولير، المدير الإداري للأخبار بالشبكة، الدافع وراء المشروع:

> إذا استطاعت المؤسسات الإعلامية «التقليدية» الوصول إلى طاقة العقل الجمعي للجماهير وحكمته، فسوف ننجح في أخذ مصادر قوة الصحافة التقليدية

> — التقدير التحريري، والتحري عن الحقائق، والسعي وراء الحقيقة — إلى عصر جديد من التغطية الإخبارية الأفضل أداءً والأكثر موثوقية. وإذا لم نفعل ذلك، فإنني أرى أن النموذج التدويني غير المنقح للعمل الصحفي سوف يتخطَّى بطاقته المطلقة الإعلام التقليدي، ومِن ثَمَّ سوف نخسر واحدًا من الأساليب الفعالة لإطلاع الجمهور على القضايا الحيوية في دولتنا الديمقراطية. (سكولير ٢٠٠٤)

بعبارة أخرى، ما يهم هو بقاء الصحافة الرشيدة، لا الوسيلة الإعلامية ولا المنصة التي تقوم عليها.

إذًا ما دور الصحافة في مواقع التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك أو فليكر أو تويتر؟ تجمع بين تلك المنصات والصحافة التقليدية ثلاثة أنواع من العلاقات على الأقل.

أولًا: تقدِّم تلك المنصات مصدرًا للمعلومات. توجد في كثير من تلك المواقع مجموعات متخصصة ينشر من خلالها أصحاب الاهتمامات أو الخبرات المعينة أفكارهم، وينخرطون في مناقشات حول التطورات الجديدة. فلو كنت مهتمًّا بالتكنولوجيا، على سبيل المثال، فستجد أن المناقشات المعنية بأحدث التطورات البرمجية غالبًا ما تتصدر المعلومات المتوافرة في المجموعات المتخصصة في مثل هذا المجال. وقد تركز مجموعات أخرى على الشائعات التي تدور حول المشاهير، أو ربما لا تعدو كونها مكانًا لنشر الصور ومقاطع الفيديو، لكن مهما كان النمط الصحفي الذي يحظى باهتمامك، فإن شبكات التواصل الاجتماعي تُقدم قدرًا من المعلومات أو الأسرار لا يقل عن أيِّ تجمع آخر. من أمثلة ذلك تلك المجموعة التي أنشأها برنامج نيوزنايت، المُذاع على قناة بي بي سي، على موقع فيسبوك والتي أطلق عليها اسم «إذًا أنت تريد أن تكون جزءًا من نيوزنايت»، وذلك كوسيلة لتشجيع متابعي البرنامج على المساهمة بالأفكار والنماذج وأسماء الشخصيات التي يريدون إجراء المقابلات معها، وذلك من أجل دمجها في التقارير التي يعدها القائمون على البرنامج.

ثانيًا: تمنح شبكات التواصل الاجتماعي المؤسسات الإخبارية طريقًا للوصول إلى جماهير جديدة. فأغلب من يشتركون في تلك المواقع ليسوا من متابعي الأخبار التقليدية. نحن ندرك، من واقع عدة دراسات أكاديمية، أن من هم دون الثلاثين يعتمدون على الإنترنت أكثر من التليفزيون أو الإذاعة أو الصحف في استقاء المعلومات (مركز بيو للأبحاث ٢٠٠٠؛ أليرس ٢٠٠٦؛ أوفكوم ٢٠٠٧). ويمكن للمؤسسات الإخبارية توسيع

نطاق خدماتها عن طريق نشر الأخبار في المجتمعات الإلكترونية التي يختار الشباب متابعتها. نقلت شبكة بي بي سي الوضع في تركيا أوائل عام ٢٠٠٧ من خلال مقاطع فيديو على موقع يوتيوب وصور فوتوغرافية على فليكر أُعِدَّت خصيصًا لهذا الغرض.

ثالثًا وأخيرًا، تُقدم تلك المواقع فرصًا تسويقيةً جديدة لنفس السبب السابق، ألا وهو أنها أماكن اختار الأفراد التجمع بها؛ لذلك أنشأت وكالة رويترز مكتبًا لها في عالم سكند لايف الافتراضي وتقدم شبكة سكاي نيوز عناوين إخبارية على تويتر. إن مثل هذه الخطوات إنما تهدف إلى تنمية الوعي باسم المؤسسة الإخبارية أكثر من مجرد تقديم خدمة إخبارية.

وهكذا تتعرف المؤسسات الإخبارية على كيفية استخدام التكنولوجيا والمواقع الإلكترونية التي تُشجع صحافة المواطن على مساندة الأهداف التقليدية لتلك المؤسسات والمُتمثلة في تقديم عمل صحفي محترف على أوسع نطاقٍ ممكن. وإذا كانت الصحافة الرشيدة تسعى إلى الصمود والبقاء، فمن الضروري أن تتكيف على هذا النحو.

خلال الجزء الأول من القرن الحادي والعشرين، ومع تحويل الإنترنت لمسار العمليات الإخبارية التقليدية، هناك قدر كبير من القلق بشأن نماذج العمل التجاري القابلة للتطبيق في مجال الأخبار. فمع ما نشهده من قدر هائل من المعلومات المتاحة بوضوح مجانًا على شبكة الإنترنت، هل الجمهور في طريقه إلى التخلي عن عادةِ الحصول على الأخبار والمعلومات نظير مقابل مادي؟ ماذا قد يعني ذلك بالنسبة إلى بعض من المؤسسات الإخبارية العظيمة والعريقة والتي امتدَّ وجودها طوال القرن الماضي؟

يمر الإعلام، والصحافة، بتحول جذري ولم تتضح بعدُ جميع الإجابات. ولكن لا مجال للشك في أن صحافة المواطن، وما تنطوي عليه من قدرة الجماهير على المُساهمة في الأخبار والمعلومات العامة وتوجيهها، ستكون إحدى السمات المميزة للصحافة في المستقبل. يأتي هذا تزامنًا مع مواصلة المؤسسات الإخبارية جهودها في التكيف مع علاقة جديدة تجمعها بالجمهور ومع أساليب جديدة لنشر عملها الصحفي. أعتقد أن الناس في السنوات القادمة سوف يلتفتون إلى الوراء ناظرين ببعض الذهول إلى تلك المناقشات بشأن صحافة المواطن، وما إذا كانت صحافة حقيقية أم لا وما إذا كانت تقف على طرف نقيض مع الإعلام التقليدي. إن الإنترنت لم يُغير من الأهداف، والمبادئ، والقيم الأساسية للصحافة الرشيدة، غير أن هناك زيادة هائلة في الفرص المتاحة لمشاركة التجارب والآراء والكشوف الإخبارية والمعرفة، ويمكن لتلك الفرص أن تُثري الصحافة وترتقي بها في قابل الأيام.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) ناقِش كيفية تأثُّر الصحافة التقليدية بصحافة المواطن. أحقًّا تُغيِّر وسائل الإعلام الإخبارية التقليدية من أسلوب جمعها للأخبار ونشرها؟

(٢) هل يوجد احتمال أن عملية جمع الأخبار التقليدية سوف تعاني في ظل لجوء الصحف وشبكات البث إلى الصحفيين المواطنين للحصول على مقاطع الفيديو والمواد الإخبارية بتكلفة أقل؟

(٣) ناقِش الأثر الذي خلَّفه المدونون والصحفيون المواطنون على تغطية الأخبار الدولية الحديثة، مثل الصدام بين رهبان بوذيين والحكومة العسكرية في بورما (ميانمار).

(٤) هل من الضروري أن يُكافح الصحفيون المواطنون والمدونون لتحقيق الإنصاف، والدقة، والحيادية؟

(٥) ما التأثير طويل المدى الذي تعتقد أن تُحدثه هذه الموجة الجديدة من صحافة المواطن على السياسة؟

هوامش

(١) بدأ الصحفي الأمريكي ستون رسالة إخبارية بعنوان «رسالة آي إف ستون الأسبوعية» عام ١٩٥٣.

الفصل الثالث عشر

العمل في ظل الإعلام الجديد

بين هامرزلي

تمهيد

جون أوين

إنَّ تبنِّي قيادات المؤسسات والوكالات الإخبارية بحماسة متأججة لصحافة المواطن، والمحتوى الذي يُنتجه المستخدمون، وتبادل المعلومات بين الأقران قد يعني شيئًا. لكنه يعني شيئًا آخر بالنسبة إلى الصحفيين الذين يعانون بالفعل من الضغوط الناتجة عن ضرورة التزامهم بالمواعيد النهائية المتواصلة لإعداد الفترات الإخبارية وتغذية المواقع الإلكترونية بالأخبار على مدار الساعة لينتقلوا بعد ذلك إلى كتابة المُدونات ودمج المحتوى الذي ينتجه المستخدمون في تغطياتهم الإخبارية.

لكن المؤسسات الإخبارية قد لا تملك خيارًا سوى التحرك سريعًا لاستغلال تلك الاتجاهات ذات الرواج الهائل، وإلا فإنها تُخاطر بفقدان اهتمام قرائها ومستمعيها ومشاهديها بها.

لم تسارع المؤسسات الإخبارية فيما مضى إلى تغيير ممارساتها الإخبارية. فلم يستعن سوى القليل من شبكات البث الإخباري بصحفيي الفيديو «متعددي المهام»؛ أي الذين يتولَّون تسجيل مقاطعهم بالإضافة إلى تغطية القصص الإخبارية وكتابتها. إلا أن التطور المُطرد في تصغير حجم معدَّات التصوير جعل هذه الممارسة ممكنة لعقود، وبادر قليل من الشبكات، كشبكتي القديمة سي بي سي، بإيفاد مثل هؤلاء الصحفيين لإعداد التحقيقات الرئيسية والفرعية. غير أن الشبكات الأكثر ثراءً، لكثير من الأسباب، لم يكن لديها حتمية مالية تجبرها على تقليص حجم طواقمها المعنية بجمع الأخبار، ومعارضة النقابات العمالية، كما أنها لم تكن راغبة في مواجهة ثقافة المقاومة ضد التغيير الموجودة في أغلب غرف الأخبار، والالتزام بتدريب صحفيي الفيديو المحتملين، ولذلك لم

تحظَ صحافة الفيديو والطواقم الأصغر لجمع الأخبار بدعم واسع النطاق، لا سيما في الشبكات الأمريكية.

لكن القسم الإخباري بشبكة إيه بي سي في الولايات المتحدة الأمريكية أعلن مؤخرًا عن عزمه افتتاح سبعة مكاتب مصغرة، وهو ما يُمثل تحولًا كبيرًا عن قراره بالانسحاب من جمع الأخبار على نطاق دولي. صرَّح رئيس هذا القسم، ديفيد ويستن، لمجلة «هوليوود ريبورتر» قائلًا:

«تُمكِّننا التكنولوجيا الآن من افتتاح مكاتب لنا دون الحاجة إلى موظف استقبال، وثلاث قاعات للتحرير، وكاميرات استوديو، إلخ ... إن الصحافة هي جوهر عملنا، لا الإنتاج. إن الإنتاج هو الكيفية التي تنقل بها الأخبار على الهواء مباشرةً إلى الجمهور، أما الصحافة فهي الأساس.»

سوف يعمل المراسلون السبعة من منازلهم وسوف يجولون في مناطقهم حاملين كاميرات فيديو رقمية صغيرة وأجهزة كمبيوتر محمولة مزودة بخاصية التحرير. وسيتولون تغطية القصص الإخبارية، وكتابتها وتصويرها وتحريرها، لكنهم سيحظون أيضًا بدعم آخرين من القسم الإخباري بشبكة إيه بي سي. وسوف يستخدم هؤلاء خدمات النطاق العريض لتحميل أغلب عملهم وإرسالها إلى نيويورك، إلا أنهم سيحملون معهم كذلك أطباق الأقمار الصناعية المحمولة لاستخدامها ميدانيًّا حيث لا يتوفر النطاق العريض. (جوف ٢٠٠٧)

في هذا الفصل، يُحدِّثنا بين هامرزلي، أحد مراسلي الإعلام الجديد البارزين في بريطانيا، الذي عمل في بداياته في مجال الصحافة المطبوعة واتجه مؤخرًا إلى تغطية الأخبار لحساب الخدمة العالمية التابعة لبي بي سي عبر جميع المنصات الإعلامية؛ عن خواطره حول الدروس التي تعلَّمها وهو يحاول إنجاز كل هذه المهام المتنوعة.

مرجع

Gough, P. (2007) One-man show at ABC o'seas bureaus. *Hollywood Reporter*, 3 October, http://www.hollywoodreporter.com/hr/content_display/news/ e3i47e 6403b3602038866ba096cb9fcdc29.

تصفَّح الإنترنت، أو طالِع أيَّ مدونة، أو ألقِ نظرة على أيٍّ من المجلدات التي تتخذ من الصحافة موضوعًا لها، أو احضر أيَّ محاضرة تتناول حال مجالنا، وغالبًا ما ستُصادف نفس الطائفة القليلة من الموضوعات: صحافة المواطن، والمجتمعات الإلكترونية، والاندماج الإعلامي، وإذا كنت حقًّا سيِّئ الحظ، فستُصادف الجيل الثاني من الويب. ليس لديَّ شك في أنك بوصولك لهذا الفصل ستكون مررت بالفعل خلال قراءتك لهذا الكتاب، أيًّا كان

الترتيب الذي قرأت به الفصول، بإشارات إلى التدوين، والتدوين الصوتي، وربما فيسبوك. ولو أن هناك شيئًا واحدًا من شأنه أن يفزع الصحفيين المنخرطين في العمل الصحفي خلال وقت كتابتي لهذا الفصل (نهاية ٢٠٠٧)، فهو تأثير الإنترنت على وظائفنا. ماذا يجري؟



شكل ١٣-١: بين هامرزلي أثناء وجوده في تركيا لتغطية الانتخابات التركية لصالح شبكة بي بي سي، كجزء من تجربته المعنية بوسائل التواصل الاجتماعي في يونيو ٢٠٠٧ (نُشِرت الصورة بإذن من بين هامرزلي).

لا أدري، ولا أحد يدري. لكنني حاولت لسنوات كثيرة أن أستوعب ما يجري وأن أتأقلم معه. سأحاول في هذا الفصل أن أنقل إليكم بعض الأمور المتعلقة بالصحافة الرقمية، والتي تعلمتها أو توصلت إليها. سوف أفعل ذلك من وجهة نظر شخص عمل في مجال الإنترنت لفترة طويلة بحيث نسي متى كان أول عهده به: فرغم أنني كنت مولعًا بالأفكار ومؤيدًا صاخبًا لتجربة أنماط صحفية جديدة، فإنني أعتقد الآن أن بعضًا من أفكاري يتسم بالتشاؤم والتشكك الشديدين، وقد يدفع البعض إلى القول بأنني لا أستوعب الأمر جيدًا. أبلغ من العمر ٣١ عامًا، وهو ما يعني، من منظور عصر الإنترنت، أنني أُعاني

بالفعل من خرف الشيخوخة. ربما يكون ذلك صحيحًا، لكن المعرفة ظلت دائمًا أعظم ما يُقدمه الإنترنت، لا سيما المعرفة الواردة من غير الممارسين، وتلك هي نقطتي الأولى. والصحافة ليست استثناءً من تلك الحقيقة، ورغم أن الكثير من الأمور التي من المفترض بنا الآن أن نقوم بها تبدو جيدة جدًّا، فإن الأمر ليس بهذه السهولة عند التطبيق. إن هذه الخبرة العملية هي ما سأحاول استعراضه بإيجاز.

أولًا: صحافة المواطن: سأتجاهلها. لا شك أن لصحافة المواطن مكانتها، لكن يُفترض وأنت تقرأ هذا الكتاب أنك تريد أن تكون مراسلًا كل يوم، لا فقط حين يتصادف وجودك مع هاتفك المزود بكاميرا في موقع حدث هام. (أو حين تمر مصادفةً برأي تجب مشاركته مع بقية العالم، كما هو الحال أغلب الأحيان.)

كما أن صحافة المواطن لا تشكل تهديدًا لوظيفتك، إلا إذا كان ما تُنتجه يقف على قدم المساواة مع ما ينتجه المشاهدون المجهولون لحدث ما. صحيح أن جميع شبكات البث الكبرى حقَّقت نجاحات باستخدام مقاطع الفيديو التي سجلها الهواة من مواقع الأحداث الكبرى، وأن الأمثلة الكبرى لصحافة المواطن يمكن أن تكون متميزة، لكن حين يكون الشكل الوحيد من صحافة المواطن الذي تشهد استخدامه في وسائل الإعلام التقليدية متميزًا، فإن ذلك يجلي الأمر لك. لم يوجد قَطُّ صحفي مواطن يغطي خبرًا مُملًّا أو يُطلَب منه مجهود صحفي أكثر من مجرد الوجود في موقع الحدث وتوجيه عدسة الكاميرا في الاتجاه العام. ولو أن الصحفيين المواطنين يمثلون أيَّ منافسة تُذكر لنا، فلن تعدو أن تكون دافعًا لنا لتقصٍّ أعمق وتصوير أفضل وتغطية أدق لأسباب الوقائع وكيفياتها، وليس ماهيتها فقط. وأخيرًا، إن قبولنا نفسه لـ «صحافة المواطن» كمصطلح يبدو لي مُهينًا للغاية لمهنتنا: لا أتخيَّل أن يشير المحامون إلى غيرهم ممن شاهدوا ذات مرة حلقة من مسلسل «كوينسي» باعتبارهم محامين مواطنين، كما أن ليس لدينا جراحون مواطنون ولا سباكون مواطنون. فهل يمكننا فضلًا أن نسترد بعضًا من الفخر بمهاراتنا التي كدحنا في اكتسابها؟

ورغم ذلك، فنحن نعيش في عالم يحث على المشاركة. لقد وجِد المحتوى الذي ينتجه المستخدمون ليبقى. إن مثل هذا المحتوى، خارج نطاق العمل الصحفي، يعيد تشكيل الثقافة حتى النخاع: أن يستطيع أي شخص نشر عصارة فكره على الإنترنت دون أيِّ تكلفة تقريبًا لتكون متاحة وقابلة للبحث أمام العالم أجمع، إنما هو، كما أعتقد، تحوُّل ثقافي أوسع نطاقًا وأبعد أثرًا من حركة النهضة الأوروبية.

لكن الأمر ليس على هذا النحو تمامًا عندما نتحدث عن هذا المحتوى في عالم الأخبار؛ فحين يبرز هذا المحتوى مستقلًّا، كما هو الحال في يوتيوب أو فليكر، فإنه لا يعدو كونه شكلًا آخر من أشكال صحافة المواطن: لو شكَّل هذا المحتوى تهديدًا لك، فإما أن تكون قد وجدت زميلًا جديدًا يجدر بك أن تستعينَ بخدماته — كلِّفه بمهمة وافرغ من الأمر — أو ينبغي عليك تجاهل الأمر وحسب.

أما حين يمس هذا المحتوى الصحافة التقليدية، فإن الأمر يختلف: كتابة تعليقات أسفل الأخبار. لقد بدأ المُدوِّنون هذه الظاهرة وبإمكانهم، في شهادتي التي صارت مجروحة الآن، مواصلتها. لكن دعونا نستعرض ماهية تلك الظاهرة في المقام الأول.

يُقدِّم المعسكر المؤيد للتعليق أسبابًا عدة لأهمية وضع تعليقات أسفل الأخبار. إن مثل تلك التعليقات تسمح بمشاركة القُراء، كما أن هناك قارئًا ما، حسب قانون المتوسطات، سيكون على دراية أفضل منك بموضوع الخبر؛ لذلك فالسماح لهذا الشخص بالتعليق أسفل الخبر سوف يمنح القراء الآخرين بعض القيمة المضافة. كما أنها تتيح فرصة لبناء مجتمعات حول الأخبار، وهي خطوة يُرجى منها تعزيز الولاء للاسم التجاري للمؤسسة الإخبارية وزيادة عدد من يرتادون موقعها. بالإضافة إلى ذلك، هي تُبقي الكتَّاب على أهبة استعدادهم، وذلك من خلال تقوية النقاش، وتمحو أي ظهور بغيض لروح النخبوية.

أما المعسكر المناهض للتعليق، فيرون الأمر على نحوٍ مختلف. أولًا: يقول أعضاء هذا المعسكر إن نوعية النقاش ليست بالمستوى الذي قد تأمله. (تجب الإشارة هنا إلى قانون جودوين (١٩٩٠) الذي ينصُّ على أن «كلما طالت المناقشة الإلكترونية، فإن احتمالية خلق مقارنة تتضمن النازيين أو هتلر تقترب من واحد»، ومما يدعو للأسى أن هذا قد ثبتت صحته في جميع الحالات بلا استثناءٍ تقريبًا.) ثانيًا: لا تُجدي المناقشة نفعًا بالفعل إلَّا في قليل من النماذج الصحفية؛ فمقالات الرأي والافتتاحيات تُكتَب لتكون محل جدل ونقاش — من الأمثلة الجيدة على هذا موقع Comment is Free (http://commentisfree.guardian.co.uk/index.html) التابع لصحيفة ذا جارديان، أما مناقشة التغطيات القائمة على الحقائق فليس هناك ما يُبررها، اللهم إلَّا إذا كان من يتصدى لهذه المناقشة يحظى بمكانة تسمح له بالفعل بالجدل بشأن الحقائق.

يبدو ذلك بديهيًّا، غير أن التعليق على تغطيتك القائمة على الحقائق يعني عمليًّا خوض جدل بشأن تحيُّزك المتصوَّر، لا الحقائق الواردة في التغطية. إن استعراضًا سريعًا

للتعليقات التالية للتغطيات القادمة من أيِّ منطقة في الشرق الأوسط يظهر هذا على نحو عملي. إن التفنيد المُفرط لكل صغيرة وكبيرة في التغطيات القائمة على حقائق بحثًا عن دلائل للتحيز له تسمية في عالم الإنترنت، ألا وهي «فيسكنج»، وذلك نسبةً إلى تقارير روبرت فيسك من منطقة الشرق الأوسط.[١]

أرى شخصيًّا الآن أن السماح بالتعليق على تغطياتك الإخبارية لا معنى له في أفضل الأحوال، ويُشكِّل خطورة فعلية على القُراء الآخرين ومصدر تنفير لهم في أسوئها. غير أن هذا بالنسبة لي في الغالب رأي تقديري مبني على قراءة عدد كبير جدًّا من التعليقات التي تبدو غريبة الأطوار ومتشككة. أما بالنسبة إلى آخرين، فإن التعليقات الإلكترونية تنطوي على مخاطر قانونية إلى أبعد الحدود؛ فالسماح للآخرين بنشر تعليقاتهم على موقعك الإلكتروني يُعرضك للتورط في قضايا السب والقذف والتشهير، وما يمكن أن يستتبعها من تكاليف فادحة.

سوف تحتاج إلى إمكانية للتخفيف من حدة التعليقات وتحريرها وإزالتها إن لزم الأمر، وهو ما يتطلب وقتًا ومالًا، وليس مؤكدًا أن العدد الإضافي من زوَّار موقعك ممن يكتبون تعليقات ثم يعودون لقراءة السلسلة النقاشية الناتجة يكفي لتغطية التكلفة المترتبة على وجود التعليقات من البداية. ولا يوجد حتى الآن أي بيانات متاحة لتقييم الجدوى المالية لذلك.

إنني أشكُّ أن المحتوى الذي ينتجه المستخدمون في المدونات الصغيرة شديدة التخصص والقائمة على موضوع واحد يُعَد وسيلة مجدية حقًّا لإدارة موقع إلكتروني وجني المال بما يكفي لمعيشة شخص أو شخصين. طبِّق المفهوم نفسه على الصفحات العامة في مواقع الصحف، مثلًا، وستجد أن العوائد تتناقص تناقصًا كبيرًا.

رغم كل هذا النقد اللاذع الذي وجهتُه لثورة المحتوى الذي ينتجه المستخدمون، فإن مثل هذا المحتوى يُعتبر أيضًا أعظم ما حدث للصحافة منذ اختراع المفكرة. ليس المحتوى هو ما ينبغي أن يثير إعجابنا، بل الأدوات التي يستخدمها المستخدمون لإنتاجه؛ فهذه هي الثورة الحقيقية. إن نظم إدارة المحتوى كانت تكلف مئات الآلاف من الجنيهات منذ عشر سنوات، أما اليوم فهي مجانية؛ كانت مساحة أجهزة الكمبيوتر الخادمة وسعة النطاق الترددي خاصتها مُكلِّفتَين للغاية، أما اليوم فهما شبه مجانيَّين؛ كانت استضافة مقاطع الفيديو أقرب إلى المستحيل، أما اليوم فلدينا موقع يوتيوب؛ وهلم جرًّا. يمكنك اليوم شراء كاميرا عالية الدقة من أحد تجار التجزئة المحليين بأقل من ألف دولار، وتستطيع تحرير أي فيديو تلتقطه بها باستخدام كمبيوتر محمول مُعد للمستخدم العادي.

لقد شاعت الكاميرات الرقمية، ومعدَّات نقل الصوت الرقمية، وحتى اتصالات البيانات المتنقلة ذات سعة النطاق الترددي العالي؛ شيوعًا كبيرًا بحيث يبدو غريبًا أن نعتبرها أدوات غير معتادة أو استثنائية، لكنها قادرة على أداء مهام كانت تتطلب منذ عقد أن يأخذ المرء رهنًا عقاريًّا ثانيًا لسداد تكاليفها وشاحنة لنقل المعدَّات. لم تكن الصحافة هي الدافع المحرك لما تحقَّق من ابتكار في الأدوات التي نستخدمها، وإنما كان الدافع هم أولئك الأشخاص العاديون الراغبون في تصوير حفلات أعياد ميلاد أطفالهم أو التقاط الصور ومشاركتها مع أصدقائهم.

إذًا، لو طرحنا جانبًا ما يُنتجه المستخدمون من محتوى، فلا يزال بإمكاننا الاستفادة من الأدوات التي يستعملونها، ومن هنا يمكننا إحداث الفارق الحقيقي. لن أستفيض في ذكر ما هو مُتاح من مختلف أنواع أدوات التدوين أو مواقع استضافة الصور (أحد أسباب ذلك هو أن ما سأكتبه سيُعَد قديمًا بحلول صباح اليوم التالي)، لكن هناك مبدأ عامًّا جديرًا بالملاحظة في هذا الإطار. كانت البرمجيات قديمًا تنقسم إلى صنفين: البرمجيات المؤسسية، وهي ضخمة وباهظة التكلفة وفعالة، والبرمجيات المعدة للمستخدم العادي، وهي صغيرة ومنخفضة التكلفة وضعيفة الجودة. ومنذ انطلاق عصر الويب، ولا سيما حقبة الجيل الثاني من الويب، لم تزل البرمجيات المؤسسية ضخمة وباهظة، لكنها صارت موصومة بضعف الجودة أيضًا. أما البرمجيات المُعدة للمستخدم العادي فقد انخفضت تكلفتها أكثر، وصارت أقوى، وتحسَّنت جودتها. ما أريد قوله هو أنه مهما كانت الأداة المؤسسية التي تستعملها في مكتبك، فغالبًا ما ستجد نظيرًا مجانيًّا لها معدًّا للمستخدم العادي، أفضل جودة، ويناسب تصميمه استخدام طفل في العاشرة من عمره. يتَّسم ممارسو التدوين المرئي بغزارة الإنتاج بفضل، وليس برغم، ما يستخدمونه من برمجيات تحرير منخفضة التكلفة؛ يمتلك المراهقون مدونات وحسابات على موقع ماي سبيس على درجة عالية من التطور، ويرجع ذلك على وجه التحديد إلى عدم استخدامهم لذلك النوع من نظم إدارة المحتوى التي ربما تستخدمها الصحف، أو كانت تستخدمها خلال عقد التسعينيات.

إذًا ينبغي على مراسلي الإعلام الجديد الجدد الاستعانة بالخدمات المعدة للمستخدم العادي فقط من أجل نشر قصصهم الإخبارية؛ لأنها أفضل جودة وأقل تكلفة وأسرع في إعدادها، كما أن إلغاءها أو تحسينها أثناء العمل أسهل كثيرًا من غيرها.

إن الاستعانة بأدوات الإنترنت الجديدة تُشجع أيضًا على العمل بأسلوب الإنترنت الجديد. ألقِ نظرة على أيِّ شركة من الشركات الناجحة التي يقوم عملها على الإنترنت

وسترى أنها تعمل باستخدام كثير من الأساليب ذاتها: طواقم عمل صغيرة، والإعداد السريع لنماذج أَوَّلِيَّة للمنتجات الجديدة باستخدام أرخص الأدوات الممكنة، وعرضها على الجمهور بأسرع وقت ممكن، ثم تكرارها سريعًا بينما تمضي قدمًا، وإدخال تحسينات على المنتج أثناء الاستخدام وأثناء تلقِّي تقييمات من المستخدمين. قارن هذه العملية بنظيرتها لدى أغلب وسائل الإعلام الرئيسية: طواقم عمل كبيرة تستخدم أدوات باهظة التكلفة، التأخر في عرض منتجاتها، والعزوف عن تغييرها بعد إصدارها. إن هذا أمر مشين لأن الابتكار يتطلب منا تجربة الكثير من الأمور الجديدة، والتي سيفشل كثير منها، وهو أمر جيد وإيجابي، ومن حسن الحظ أن استخدام الأدوات منخفضة التكلفة وأساليب التطوير السريعة يُخففان من وطأة الفشل، ثم لا يسعك إلَّا أن تمضي قُدمًا وتجرب شيئًا آخر: إن هذه عقلية من الصعب أن تجدها في الشبكات التليفزيونية مثلًا.

إن المعدَّات المطلوبة لإنشاء، وتحرير، ونشر مقاطع الفيديو واللقطات الفوتوغرافية الثابتة والمحتويين الصوتي والنصي تتسم بالانخفاض الشديد في التكلفة والسهولة الكبيرة في الاستعمال بحيث يستطيع المراسل المعاصر الآن العمل عبر جميع وسائل الإعلام: لقد تلاشت تمامًا حواجز دخول المجال التي أحدثتها، على سبيل المثال، كاميرات التصوير التليفزيوني التي كانت تفوق تكلفتها ثمن سيارة عائلية. ولقد حان الآن وقت التجربة.

إن محل اهتمامي الشخصي، وما أثار نشاط عمليات جمع الأخبار لسنوات، هو الفكرة القائلة بأن بإمكان مراسل واحد أو اثنين الوصول إلى أماكن بواحدة أو اثنتين فقط من حقائب الظهر لإنتاج محتوى كان من ضروب المستحيل الحصول عليه دون شاحنة محمَّلة بطبق هوائي وطاقم إنتاج كامل، وكل ذلك بفضل صغر حجم المعدَّات وانخفاض تكلفتها. يُعَد هذا التطور مثيرًا للاهتمام بوجه خاص في مجال تغطية الصراعات والشئون الخارجية؛ إذ يتيح أمام المراسلين مساحات شاسعة من العالم كان العمل داخلها في السابق غاية في الصعوبة، أو الخطورة، أو ذا تكلفة عالية للغاية.

إن إعادة إرسال الإشارات التليفزيونية عبر هاتف متصل بالأقمار الصناعية ليس بالأمر الجديد بالطبع، لكن المعدَّات اللازمة الآن لا يتعدَّى حجمها حجم مجلد، بحيث يمكن حملها في أحد الجيوب الجانبية لحقيبة الظهر. أما الكاميرات فقد تكون حتى أصغر حجمًا، ويمكن استخدام كمبيوتر محمول مصغر لتشغيل برنامج تحريري كامل، وإن كان بطيئًا. لقد عملت وحدي على هذا النحو في أفغانستان، وكنت أرسل مقاطع فيديو بصفة يومية باستخدام معدَّات مخصصة للمستخدم العادي، يمكن أن تسعها حقيبة سفر صغيرة ولا يتجاوز ثمنها الإجمالي عشرة آلاف دولار.

إن لهذه الثورة وحدها تأثيرًا جذريًّا، وذلك بتمكينها لعدد أكبر بكثير من المراسلين من الوصول إلى مناطق أكثر وأبعد من العالم.

مع كل تلك الخيارات التي تقدمها لنا تكنولوجيا رواية الأخبار الجديدة، والتي قد تسبب الحيرة لكثرتها، سيكون علينا تجربة المزيد من الأشياء. من بين تجاربي تلك التجربة التي أجريتها لصالح شبكة بي بي سي في يونيو ٢٠٠٧، عندما سافرت إلى تركيا لإعداد برنامج وثائقي حول الانتخابات العامة المقبلة.

إلى جانب نقل هذه التجربة تليفزيونيًّا — التي استعنت في أدائها بكيث موريس، منتج اللقطات/التحرير — خططتُ لمشاركة تجربتي في تغطية هذا الحدث عبر الإنترنت. كنت أكتب في مدونة، وأنشر الصور على فليكر، وأرسل تعليقات متتابعة إلى تويتر، وأتجه إلى يوتيوب لتحميل مقاطع فيديو لما يحدث من وراء الكواليس. فسرت الأمر بالكلمات التالية:

> بدءًا من البث الحي من سفوح أفغانستان ونقل الأخبار لحظة وقوعها تقريبًا وانتهاءً بإيفاد المراسلين والطواقم إلى أبعد المناطق وأخطرها وأهمها على سطح الكوكب، كل ذلك يجري ليتسنَّى إرسال الأخبار إلى الوطن ليشاهدها الجمهور وقت احتسائهم الشاي. لا يبدو الأمر سحريًّا فقط، بل ومُربكًا أيضًا: فلم يسبق قَطُّ أن توفر لنا كل هذا القدر من التغطيات الإخبارية. لم يسبق قَطُّ أن توفر كل هذا القدر من المعلومات للراغبين فيه. فسواءٌ عبر الإنترنت أم التليفزيون أم الإذاعة، تأتيك الأخبار الآن بسرعة وعمق أكبر، وبتنوع أكبر من أي وقت مضى. لكن رغم أن هناك المزيد من الأخبار المتاحة أمامك، فيقل كثيرًا احتمال معرفتك لكيفية إنتاجها. لقد ولَّى ذلك العهد حين كان يتوجه الصحفيون إلى الحانات لمقابلة أشخاص، ويعمدون إلى تدوين بعض الملاحظات على ظهر مفارش الطاولات، ثم يعودون إلى مكاتبهم لكتابتها ونشرها. إن الصحفي المعاصر مخلوق يتعامل مع وسائل الإعلام المتعددة، ويغذي شهية جماهير التليفزيون والإذاعة والإنترنت. لقد تضاعفت متطلبات الجماهير في وقتنا الحالي، وتقلصت احتمالات التوجه إلى إحدى الحانات في منتصف اليوم، كما أن عدد الفاحصين لعملنا أصبح يفوق كثيرًا أي تحليل تعيَّن على أي إعلامي محترف التعامل معه أبدًا. إن ممارسة السحر تحت مرأى الكثيرين، كما سيخبرك بذلك أي ساحر، ستكون صعبة لو كنت ترغب في الحفاظ على سرية أساليبك. أجل، يرغب

الكثيرون في الحفاظ على الهالة المحيطة بالصحافة، لكنني، صدقًا، أعتقد أنه من الأسهل والأكثر فائدة وفاعلية أن أفعل ما كان يرجوني لفعله دائمًا معلم الرياضيات خاصتي: ألا وهو إظهار تفاصيل ما أقوم به. (هامرزلي ٢٠٠٧)

لقد تعلَّمنا كثيرًا من الدروس من واقع تلك التجربة؛ أولًا: إنها مجهدة جسديًّا. إن التغطية الحية عبر وسيلة إعلامية واحدة، وبها أعني أن ترسل التقارير بينما لا تزال في موقع الحدث، هو عمل مضنٍ بما يكفي، فإذا أضفت إليه بضع وسائل إعلامية أخرى — الإذاعة والإنترنت إضافة إلى التليفزيون، مثلًا — فسوف تخور قواك سريعًا إذا كنت بمفردك؛ فلا تخجل من الاستعانة بمن يساعدك في هذا الشأن.

ثانيًا: إن أسلوب التدوين ذا المرجعية الذاتية ينطوي على خطورة، رغم رواجه الشديد على الإنترنت. ربما تكون الكيفية التي نُقِلَت بها الأخبار البارزة أمرًا مثيرًا للاهتمام حقًّا، غير أن تسجيل الأحداث وقت وقوعها يفترض نجاحًا لا يمكنك أن تضمنه. إن التدوين الحي لوصف رحلة صحفية أجنبية، مثلًا، يعرضك لخطر شديد، ألا وهو إحباط الجمهور. لم يكن هذا ما حدث في تجربتي بتركيا، لكنني ارتكبت، كآخرين غيري، في مواقف أخرى خطأ التعهد بالوقوع الوشيك لحدثٍ مثيرٍ لأجد عند وصولي إلى موقع الخبر أن كل شيء يبدو هادئًا. تقل خطورة تعرُّضك لهذه المشكلة عند التعامل مع الموضوعات الوثائقية، كانتخابات عامة، لكن كلما روَّجت لتحقيقك القادم، ازدادت احتمالية وصولك إلى موقع الخبر عقب توصُّل أطراف الحرب لوقف إطلاق النار أو بعدما هدأت رياح الأزمة.

إن إعداد تقاريرك عبر مختلف وسائل الإعلام عقب الحدث ثم نشرها كسلسلة تشبه اليوميات يُعَد أحد الخيارات التي تخلصك من هذا الخطر.

لكن الأضمن والأجدى من الناحية الأسلوبية أن تنشر تغطيتك على أجزاء من مقعدك الوثير في مكتبك الرئيسي متى توصلت إلى الخبر، وذلك بدلًا من تنقلها نقلًا حيًّا ثم تأمُل أن تسير الأمور كما تريد.

يُساهم ذلك أيضًا في تخليصك من الوقوع تحت الضغط الزمني الذي يسببه إعداد أخبار مُجزَّأة بصفة يومية. وناهيك عن احتياجك إلى نقل معدَّات التحرير — حتى لو اقتصرت تلك المعدَّات على كمبيوتر محمول، فالمهمة لا تزال شاقة أيضًا — يقلل ذلك على نحو هائل من وجودك الميداني. لا شك أن إعداد التقارير المحررة من ميدان الحدث هو جوهر نشاط المراسل الذي يعمل عبر وسيلة إعلامية واحدة، أما لو كنت عازمًا على إعداد تقاريرك لجميع وسائل الإعلام ولا يوجد ما يضطرك إلى نقل الخبر من الميدان، فيجب ألا

تفعل. صحيح أن الأدوات الجديدة ستمكِّنك من جمع قدر هائل من المواد الإخبارية الخام في جميع أشكال الوسائل الإعلامية، إلا أن ذلك يستهلك أيضًا وقتًا وتركيزًا وطائفة ضخمة من المهارات: إلى جانب كل ما سبق، اضطرارك إلى تحرير موادك الإخبارية سيزيد كثيرًا من صعوبة المهمة.

الأمر ليس مستحيلًا، على المدى القصير على الأقل، لكن لكي تقوى على إعداد هذا القدر الهائل من التغطية الإخبارية عبر جميع وسائل الإعلام، عليك في النهاية أن تضيف طابعًا جماليًّا إلى تقاريرك، وهو أمر ليست له حاجة في هذا الوقت. بمعنى آخر، كلما كنت أكثر تعبًا وتكلفًا، سيبدو منتجك الإخباري غريب الأطوار، ثم يفقد تأثيره.

تأتي الابتكارات الصحفية في شكلين: ابتكارات أسلوبية وابتكارات تكنولوجية. ومن المهم ألا تخلط النوعين معًا.

قد يتبع أحدهما الآخر، مثلما أتاحت الكاميرات خفيفة الوزن إيجاد أسلوب تصوير البرامج الوثائقية بكاميرات الفيديو المحمولة، لكن كما أنه ليس بإمكانك دائمًا أن تعتبر وجود أحدهما دليلًا على وجود الآخر، فإن امتلاكك للمعدَّات الحديثة لا يقتضي بالضرورة أن تصير تقاريرك الإخبارية جزلة الأسلوب على نحوٍ متفرد.

باستطاعتنا تحقيق إنجازات تكنولوجية ضخمة في الكيفية التي يمكن أن ننتج بها الأخبار وننشرها، لكن مع الحفاظ على أسلوب المنتج النهائي بحيث يبقى مطابقًا لما أنجزناه سابقًا. أو قد نستخدم التكنولوجيا القديمة بطرق جديدة ونعمد إلى اقتحام آفاق أسلوبية جديدة: على سبيل المثال، «الصحافة الجديدة» التي شهدتها أوائل الستينيات أو الابتكار المتواصل في الإذاعة المعاصرة. لكن محاولة السير في الطريقين معًا، لا سيما داخل إطار المؤسسات المتغيرة، قد تكون أحيانًا نوعًا من تجاوز المعقول.

إن التكنولوجيات الجديدة، باختصار، تقدِّم بالفعل الكثير من المزايا: فالمعدَّات أصغر حجمًا وأقل تكلفةً وأسهل استخدامًا، وتقدم إمكانية إجراء التغطية الإخبارية من مناطق كان يصعب الوصول إليها سابقًا وبتكلفة لم تكن ميسورة في الماضي. غير أن الرواية الإخبارية الرقمية لا يمكن أن تُحقِّق كلَّ شيء؛ فإلى جانب كون الصحافة مهارة، فإنها حرفة أيضًا؛ حرفة تتطلب كثيرًا من الوقت في سبيل إخراج أفضل الأعمال، وتلك الحرفة ذاتها هي التي تجعل المراسل المحترف جديرًا بما يتقاضاه أكثر من الصحفي المواطن. إن الصحافة الرقمية تؤكد هذه الحقيقة بما لا يدع مجالًا لشك.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) هل بين هامرزلي محقٌّ في قلقه بشأن ما قد تسببه المتطلبات الهائلة الملقاة على عاتق الصحفيين العاملين عبر جميع المنصات الإعلامية من إضعاف لجودة التغطية؟

(٢) ما الحجج الصحفية والمهنية المؤيِّدة والمعارضة لتكليف الصحفيين بالعمل عبر جميع المنصات الإعلامية؟

(٣) ناقِش مع القائمين على الصحيفة أو شبكة البث المحلية في منطقتك آراءهم بشأن تكليف المراسلين بالعمل عبر جميع المنصات الإعلامية.

هوامش

(١) روبرت فيسك هو مراسل جريدة ذي إندبندنت البريطانية لمنطقة الشرق الأوسط.

الفصل الرابع عشر

تغطية الأزمات الإنسانية

بيتر آبس

تمهيد
جون أوين

لقد كرَّسنا فصلنا الأخير لتغطية الكوارث الإنسانية حول العالم. اسأل المراسلين الأجانب أو طواقم الشبكات الإخبارية حول أفظع الوقائع التي نقلوها على الإطلاق، وغالبًا ما سيتذكرون المشاهد التي لا تُمحى لضحايا الزلازل أو الانهيارات الأرضية. هناك فارق كبير بين التأريخ للحروب والصراعات، حيث تستعصي وحشية الإنسان تجاه أخيه الإنسان على الفهم، وبين معاينة ما يمكن أن تفعله قوى الطبيعة من تدمير مجتمعات على نطاق لا يمكن تخيُّله والتسبب في معاناة لا تُحتمل للمسنين والضعفاء، وهو ما يحدث عادةً في بلدان العالم النامي التي ترزح بالفعل تحت وطأة الفقر والعوز.

بينما أمهِّد لهذا الفصل، تشهد واحدة من أفقر بلدان العالم، ألا وهي بنجلاديش، أحدث أزماتها الإنسانية الناجمة عن الفيضان والإعصار؛ إذ تسبَّب كلاهما في مصرع حوالي ٣٥٠٠ شخص وتشريد الملايين.

توجد تلك المعلومات المروِّعة على صفحة أليرتنت الخاص بمؤسسة رويترز (http://www.alertnet.org)، والتي تعد أشمل الخدمات المعنية بتقصي الأزمات الإنسانية حول العالم.

تعرِض خدمة أليرتنت، إلى جانب آخر الأخبار الواردة عن بنجلاديش، المعلومات الدولية الخاصة بالكوارث الطبيعية وتقدم تلميحات بشأن الأزمات الوشيكة، سواءٌ أكانت على نطاق واسع أم محدود، بل يوجد بها الآن «مرصد للاحتباس الحراري»، وهو يهدف إلى تفسير العلاقة بين التغير

المناخي والكوارث. يذكر هذا المرصد أن عدد الكوارث المُتعلِّقة بالطقس قد ازداد بمعامل قدره ٤ خلال العشرين عامًا الماضية (رويترز أليرتنت ٢٠٠٧).

إذًا المعلومات بشأن الكوارث الطبيعية موجودة، لكن هل ستعير وسائل الإعلام الدولية اهتمامًا لها، وهل ستبدي استعدادًا لإنفاق ميزانياتها الإخبارية المتضائلة على قصص إخبارية ضحاياها ليسوا مواطنين غربيين مترفين يمضون عطلاتهم، كما كان الحال خلال تسونامي عام ٢٠٠٤، بل ضحاياها هم ملايين المطحونين المجهولين ممن يعيشون في فقر مدقع، كما يعيش كثيرون في أفريقيا أو آسيا؟

كما ذُكِر في فصول سابقة، ستوجد وكالات الأنباء، بلا شك، بكاميراتها ومراسليها في موقع الحدث، سواءٌ بالإسراع إلى مواقع الزلازل في أجزاء نائية من العالم أم بمحاولة إيجاد وسيلة للوصول إلى منطقة تضم تقارير، عادةً ما تَرِد من وكالات الإغاثة، حول تفشِّي الجوع واحتمال وقوع مجاعة.

يكتب هذا الفصلَ الأخير حول كيفية تغطية الكوارث الطبيعية مراسلٌ كان جزءًا من فريق رويترز أليرتنت، ومقره لندن، وذلك طوال العام الماضي. لم تكن هذه المهمة ضمن خطط بيتر آبس خلال هذه المرحلة من حياته المهنية.

على أيِّ حال، كان العمل مراسلًا أجنبيًّا خلال صيف عام ٢٠٠٦ هو محور حياته المهنية في رويترز. ثم أوفد إلى سريلانكا لتغطية الحرب الأهلية الشرسة التي اندلعت هناك بين الحكومة وحركة نمور التاميل منذ ١٩٨٣. خلَّفت هذه الحرب أكثر من ٧٠ ألف قتيل وكارثة إنسانية مستمرة جرَّاء تشريد حوالي نصف مليون شخص.

كان بيتر آبس يوم الخامس من سبتمبر عام ٢٠٠٦ يستقل حافلة صغيرة مستأجَرة متجهًا إلى مكان كان المتمردون يُجنِّدون فيه الجنود القُصَّر، حين وقعت كارثته الخاصة: حادث سير مروِّع بعد اصطدام حافلته بجرار. أدرك آبس على الفور أن عنقه قد انكسر؛ إذ فقد الإحساس بكل ما يقع أسفلها.

كانت نجاته معجزة، وربما ما أنقذه هو مرور فريق أمريكي لإزالة الألغام مصادفة بُعيْد وقوع الحادثة.

لكنه أصيب بالشلل من خصره إلى أخمص قدميه، وصار قعيدًا على كرسي متحرك.

ورغم ذلك، أبى التسليم بأن القدَر قد سلبه حياته بوصفه صحفيًّا. فكتب على موقع رويترز بعد الحادثة بخمسة أشهر قائلًا: «تعلَّمت قيادة الكرسي المتحرك مستعينًا برأسي» و«تعلمت الرسم حاملًا الفرشاة بأسناني» (آبس ٢٠٠٧أ).



شكل ١٤-١: بيتر آبس في مطار استوكهولم عام ٢٠٠٧ (نُشِرت الصورة بإذن من تومسون رويترز).

بعد تسعة أشهر من الحادثة، كتب بيتر يقول: «دُفِعت على كرسيِّي المتحرك نحو مكتبي الجديد في لندن لأعود إلى عملي.» لقد نجح في ذلك، لكن رحلة التعافي كانت مؤلمة، حسبما ذكر، وكثيرًا ما كان يشعر بالعزلة:

كنت رهين محبسي العصيب في المستشفى الواقع أقصى غرب لندن، بمنأًى عمن أعرفهم وليس لديَّ الكثير لأفعله، ولا حيلة لديَّ سوى التشبث بالأمل في حياة أجدى — مُدركًا تلك الحقيقة المُرَّة: ربما كنت، في بلدان كثيرة، في عداد الموتى من نقص الرعاية ...

أحتاج إلى رعاية على مدار الساعة، أعجز عن إطعام نفسي أو الاغتسال بمفردي، ولا يمكنني أن أستخدم هاتفي المحمول أو أخط بيدي أيَّ ملاحظات. كان هناك القليل من المراسلين الأجانب

المعاقين والمقعدين في كراسٍ متحركة، لكنهم جميعًا كان لديهم أيدٍ تتحرك إلى حدٍّ كبيرٍ وكانوا يتمتعون بمزيد من الاستقلالية. (آبس ٢٠٠٧ب)

من المذهل أن بيتر آبس، بعد أربعة عشر شهرًا من الحادثة، استقل — بدعم من مساعدَيْن — طائرة متجهًا إلى استوكهولم لتمثيل أليرتنت. ثم عاد ليعمل ما يهوى ويكون مراسلًا، ربما لم يَعُد بعدُ إلى العالم النامي، لكنه يكتب حول ما يهمه. كتب بيتر متنبئًا: «لكن بالنسبة إليَّ، سأعرف أنني قد تعافيت وعدت إلى سابق عهدي حين أجد نفسي مستقلًّا حافلة صغيرة على كرسي المتحرك، متوجهًا إلى مكان ما في العالم النامي لأتحدث إلى أولئك الذين عادةً ما يعانون التجاهل وأحاورهم بشأن المشكلات التي نادرًا ما يهتم بها العالم» (آبس ٢٠٠٧أ).

مراجع

Apps, P (2007a) Witness: Getting used to life with no working limbs. http://www.reuters.com/article/reutersEdge/idUSL0973827520070212?sp=true.

Apps P. (2007b) Witness: Still paralyzed, but back reporting overseas. http://www.reuters.com/article/businessEditorsPick/idUSL2471118920071025?pageNu mber=2&virtualBrandChannel=0.

Reuters AlertNet (2007) http://www.alertnet.org.

نحيب الأطفال، ورائحة الموت، ومبانٍ متهدمة، وناجون مصدومون. قد تبدو تغطية الكوارث الإنسانية مألوفة بالنسبة إلينا لكن تأثيرها علينا طاغٍ في الوقت نفسه.

تجلب تلك التغطية في طياتها تحدياتها المتفردة؛ التكنولوجية واللوجستية والنفسية كذلك. لكن، في الوقت نفسه، ينطبق عليها كثير من القواعد ذاتها التي تنطبق على الأشكال الأخرى من التغطيات، بدءًا من تغطية أخبار المشاهير التافهة وانتهاءً بتغطية الأخبار الجادة المُتعلقة بالسوق والأعمال التجارية.

بالنسبة إلى مراسل في وكالة إخبارية كرويترز — وربما بالنسبة إلى أغلب المراسلين — من المفيد دائمًا إمعان التفكير مقدمًا؛ فكثيرًا ما قد تحل الكوارث دون سابق إنذار، رغم أن مثل هذه الحقيقة تبدو بديهية. فسواءٌ أكنت في دولة نامية أو متقدمة، ربما لا تفصلك سوى دقائق عن الإسراع إلى معرفة تفاصيل زلزال أو انفجار — وأكثر قليلًا عن الاضطرار إلى التنقيب بنفسك بين الركام بحثًا عن تفاصيل القصة الإخبارية.



شكل ١٤-٢: بيتر آبس في عام ٢٠٠٧ (نُشرت الصورة بإذن من تومسون رويترز).

يمكنك أحيانًا أن تستشرف الكارثة الإنسانية قبل حلولها بأشهر. نشرتُ في ٢٠٠٥ أول الأخبار المتعلقة بتناقص الأمطار عبر أغلب المناطق الجنوبية من أفريقيا في فبراير أو بداية مارس، وذلك غالبًا لأنني كنت معنيًّا بتغطية أسواق المعاملات الآجلة للحبوب في جنوب أفريقيا. لكن نتيجةً لأن المزارعين كانوا قد حصدوا بعض المحاصيل على الأقل فإن مشكلة نقص الغذاء لم تشتد وطأتها حقيقةً إلا في وقت لاحق من هذا العام، ولم يبدأ الاهتمام العالمي بالمشكلة إلا في سبتمبر أو أكتوبر.

إن كثيرًا من الأزمات الزاحفة تستغرق وقتًا أطول، وتتطور على مدى سنوات أو عقود، جالبةً معها تحدياتها الصحفية المتفردة، والتي ليس أقلها تحويلها إلى قصة إخبارية من الأساس.

تولد بعض هذه الأزمات فجأة من رحم أزمة قائمة سلفًا؛ فالحروب قد تشعل فجأة فتيل أزمة للاجئين، مما يؤدي إلى إضافة المزيد من الأعباء على الموارد الصحفية التي قد تكون مثقلة بالفعل بالالتزامات.

تنشب بعض الأزمات دون سابق تنبيه أو تحذير، حاملةً الدمار وتاركةً الصحفيين — تمامًا كعمال الإغاثة والمسئولين الحكوميين — يكافحون من أجل مجاراة الأحداث.

وقد تحل الأزمات في جنح الليل — أو وسط يوم عطلة، كما كان الحال في تسونامي عام ٢٠٠٤.

أزعم أن مثل هذا النوع من التغطيات الإخبارية له أهمية متفردة، خاصةً في أفقر مناطق العالم التي لا تحظى بتغطية إعلامية كافية. وإذا فاتتك تغطية أزمة غير ملحوظة، فمن المحتمل تمامًا ألَّا يلحظها أحد. ويعد الاهتمام الإعلامي واحدًا من الطرق — وأحيانًا الطريق الوحيد — لجذب انتباه الدول المانحة أو رجال السياسة لتلك الأزمات. فلو جرت التغطية كما ينبغي، فما من شك أنها قد تنقذ حياة الكثيرين. أما لو لم يحسن الصحفيون إجراءها، فقد تُصعِّد من التوترات السياسية، بل وتعوق عملية الإغاثة.

يأتي في مقدمة كل ما سبق ذلك التحدي الدائم الذي يتمثَّل ببساطة في إنتاج تغطية حديثة ومثيرة للاهتمام تجذب بالفعل انتباه القارئ أو المحرر، في عالم قد يبدو منهكًا ومثقلًا جرَّاء هذا المد الذي لا ينقطع من الأخبار المؤسفة.

(١) التقارير الأوَّلِيَّة

بالنسبة إلى وكالات مثل رويترز أو أسوشيتد برس — علاوة على شبكات البث والصحف اليومية — تُعَد الأخبار العاجلة أساس عملهم. فورود تقارير عن وقوع زلزال أو موجة مدية من شأنه أن يدفع المكاتب الإخبارية إلى حالة من العمل المحموم، تمامًا كما لو كانت تقارير عن انفجار قنبلة أو حدث سياسي مزلزل.

كما هو الحال عند تناول أي خبر عاجل، يأتي على رأس الأولويات اكتشاف ما حدث بالضبط: أين، ومتى، ومدى جسامته، وماذا سيحدث بعد ذلك؟ إن تقدير عدد الضحايا وحجم الضرر اللاحق بالبنية التحتية يقع في صميم عملية الكشف عن مدى جسامة الحدث، غير أن مثل هذه العملية قد تكون غاية في الضخامة.

يتمرن صحفيو رويترز المتدرِّبون على هذه العملية مرارًا وتكرارًا في قاعات التدريب بحيث يكونون مستعدين للتصرف، كما هو مأمول، إذا وقع حدث على مرأى منهم.

يمكن أن يأتي التحذير الأول من مصادر متنوعة: فقد يهز زلزال مكتب الأخبار، كما حدث خلال زلزال باكستان عام ٢٠٠٥، والذي شعر به المراسلون في سلسلة من المدن والعواصم في جنوب آسيا. أو قد تلتقطه أجهزة هيئة المساحة الجيولوجية الأمريكية وربما يصدر التنبيه الإخباري الأول المقتضب من واشنطن، حتى قبل أن يدرك مكتب الأخبار في الدولة المعنية بوقوع الحدث.

قد يصدر أول التقارير الإخبارية من مصادر محلية كالصحافة أو وكالات الأنباء أو محطات التليفزيون أو الإذاعة المحلية، رغم أن وكالات الأنباء الدولية سوف تحاول أن تكون أول من ينقل الخبر ليكون ذلك مصدر فخر لها. وقد يَرد سيل من الرسائل النصية أو المكالمات الهاتفية، لا سيما من الكوادر المحلية ممن لديهم معرفة وعلاقات أوثق بالمجتمع المحلي.

كنت ساهرًا ذات ليلة إلى وقت متأخر في مكتبنا في العاصمة السريلانكية، كولومبو، لأضع اللمسات الأخيرة على إحدى القصص الإخبارية حين تلقيت معلومة عن وقوع حادث انفجار قنبلة، وذلك من خلال مكالمة هاتفية استقبلتها من سمسار أوراق مالية سمع صوت انفجار بالقرب منه وأراد أن يتحرَّى عما جرى. أخجل من الاعتراف بأنني لم أصدقه وصارحته بذلك، لكن تلك المكالمة منحتني مفتاحًا إلى الخبر، وأعدت الاتصال بالسمسار لاحقًا وأقررت أنه كان محقًّا في كل ما قال. الأمر نفسه قد يحدث في حالات الزلازل وموجات التسونامي.

تنهار وسائل التواصل على نحوٍ شبه فوري في مثل هذه الحالات؛ فقد تُعاني شبكات الهاتف المحمول، التي كانت موثوقًا فيها في السابق، من شدة الضغط أو ببساطة ربما تتعرض لضرر بالغ، مما يعني أنه يجدر بك دائمًا الاحتفاظ بقائمة من جهات الاتصال وأن تكون شاملة قدر الإمكان — ومتضمنة لأرقام الهواتف الأرضية. لكن الخطوط الأرضية قد تتعطل أيضًا أو ربما لا يُجيب مَن تتصل بهم على هواتفهم، ربما لأنهم فروا هاربين — أو لأنهم لقوا حتفهم أو أصيبوا.

دائمًا ما يكون المسئولون الملاذ الأول للصحفيين المتلهفين لمعرفة التفاصيل؛ إذ ربما يستطيع المسئولون في أجهزة الشرطة أو الجيش أو الإدارة المدنية على الأقل تقديم تقدير لحجم الضرر الواقع. وربما يكون بإمكان المستشفيات منح الصحفيين فكرة عن أنواع الإصابات التي استقبلتها، وقد تعطي أحيانًا دليلًا يُستَرشد به فيما يتعلق بحصيلة الضحايا.

لكن لو كان الوضع مزريًا حقًّا، فسوف تكون الأولوية بلا شك لإغاثة الأحياء، وربما يُترَك الأموات مكانهم.

حين فر عشرات الآلاف من السكان هاربين من قتال جديد اندلع في شرق سريلانكا في أغسطس عام ٢٠٠٦، كانت الوسيلة الوحيدة المتاحة للتعرف على حصيلة تقريبية للضحايا هي ببساطة سؤال من أقابلهم عن عدد الجثث التي رأوها. لم يكن نقل الجثث

من ميدان القتال أولوية، في ظل هذا العدد الضخم من الأشخاص الساعين باستماتة إلى الفرار من منطقة الصراع والجرحى المصابين جرَّاء قصف القنابل وقذائف الهاون. وهو ما ترتب عليه وجود تقارير عن مذابح لم نفلح قَطُّ في اكتشاف تفاصيلها، وكان أي إحصاء لعدد الضحايا بالضرورة تقريبيًّا وغير مكتمل.

إن لصور الكارثة أهمية أساسية لمن يرغبون في تناول القصة الإخبارية. ربما يبادر بالفعل الضحايا المحليون والسائحون، كما هو الحال في حادثة تسونامي، إلى التقاط صور ثابتة ومقاطع فيديو للحدث، وتلك الصور والمقاطع هي التي ستُشكِّل معالم القصة الإخبارية في نهاية المطاف. لكنهم قد يعجزون ببساطة عن إرسالها في المدى القصير نظرًا لتعطل شبكات الهواتف المحمولة، ولذلك من المحتمل أن تَرِد الصور الأولى للحدث من محطات التليفزيون المحلية وربما المواقع الإلكترونية للصحف. وسوف تلتقط وكالات الأنباء، مثل رويترز، مقطع الفيديو المعروض على التليفزيون المحلي وترسله إلى عملائها حول العالم. عودةً إلى مثال تسونامي، ساعد مقطع الفيديو الذي عرضه التليفزيون السريلانكي المحلي، والذي يصور اندفاع المياه إلى داخل محطة الحافلات في مدينة جالي، في تقديم بعض من أولى الصور الحقيقية عن حجم الكارثة ومدى فداحتها.

ستسرع وكالات الأنباء كذلك بإرسال طواقمها التليفزيونية ومصوريها الفوتوغرافيين إلى موقع الحدث. حين تقع أحداث كبرى، قد ترسل بالفعل الوكالات طواقمها جوًّا من خارج البلاد. وربما تُرسِل هيئات الإغاثة مصورين فوتوغرافيين وطواقم تصوير بالفيديو وتُتيح المواد الإخبارية للجميع في سبيل رفع الوعي بالحدث.

(٢) كتابة الخبر

في بعض الأحيان يكون من الممكن تمامًا كتابة الخبر من موقع الحدث. أمضيت ذات مرة ليلةً أعلى فتحة التهوية الخاصة بمنجم ذهب ضربه زلزال في جنوب أفريقيا، وبحوزتي كمبيوتر محمول يتصل بالإنترنت كل بضع ساعات عبر هاتفي المحمول لأضيف آخر التطورات بينما تُخرج طواقم الإنقاذ عمال المنجم بين قتيل وجريح. وجلستُ ذات يوم في المقعد الأمامي لحافلة صغيرة دُفِعَت إلى جانب الطريق واستخدمت الهاتف المتصل بالأقمار الصناعية المثبت على سقفها لإرسال الأخبار النصية بينما عجَّت الشوارع أمامي بالمواطنين السريلانكيين الفارين.

ثم قد تمر عليك أحيان أخرى تجد فيها أن الخبر يكاد يكتب نفسه ذاتيًّا. وقد تحاول أحيانًا أن تكتب خبرًا من داخل مكتبك المكيف الواقع على بُعد عشرات، أو مئات، بل وحتى الآلاف من الأميال عن موقع الحدث وأن تضفي طابع الآنيَّة عليه وكأنه حدث للتوِّ.

كما هو الحال دائمًا في الصحافة، لا توجد قواعد صارمة وثابتة تحدد العوامل التي تجعل الخبر قصة إخبارية جيدة. والخط الفاصل بين الكتابة الإخبارية النمطية والكتابة البارعة قد يبدو أحيانًا رفيعًا للغاية على نحوٍ مثيرٍ للقلق.

إن الشروط الأساسية لكتابة الخبر، سواءٌ أكنت في موقع الحدث أم بعيدًا عنه، هي في النهاية واحدة لا تختلف؛ إذ تحتاج نطاقًا، وسياقًا، وحيوية، واقتباسات، وتأثيرًا. فأنت تحتاج إلى صياغة قصص إخبارية فردية مؤثرة مع وضع الصورة الأكبر نصب عينيك.

لو لم تستطع الوجود بنفسك في قلب الحدث، كما هو الحال كثيرًا، فأهم ما عليك فعله هو العثور على الأشخاص الموجودين هناك. يرغب العالم في معرفة حصيلة القتلى، لكنه يرغب أيضًا في التعرف على ما يبدو عليه الوضع على أرض الواقع. اسأل شهود العيان عما يرونه. ويمكن أن يكتب المراسلون وصفًا للحدث مستعينين في ذلك بصور فوتوغرافية أو مقاطع تليفزيونية موثوق فيها.

عند محاولة وصف خبر مرئي كهذا، أحاول أحيانًا النظر إلى الخبر وكأنه تقرير تليفزيوني مُجمَّع، أمزج في ثناياه بين الحقائق الثابتة (حصيلة القتلى، الوقت، التاريخ، الأرقام)، ومقتطفات من مقابلات (بصورة رئيسية مع أشخاص وضحايا حقيقيين، وقد تَتْبعها لقاءات مع مسئولين أو عُمَّال إغاثة ليمنحوا المشاهد سياق الحدث)، وصور دالة (كنِساء يجلسن على قارعة الطريق يُجهشن بالبكاء، وجنود يُغطُّون وجوههم بمناديل اتقاءً لرائحة الجثث، وطنين الحشرات، وأطفال مصابون بالسعال داخل فصل دراسي مكتظ).

يمكن أن تُشكِّل القصص الشخصية القوية أقسامًا جانبية كاملة مستقلة، لكن يمكن، بقليل من التفكير والجهد، تنقيحها وتحويلها إلى ما هو أبعد من مجرد كلمات مقتبسة أو فقرة في منتصف القصة الإخبارية الرئيسية، بحيث نقرِّب الصورة العامة الكبيرة إلى المستوى الإنساني، والذي كثيرًا ما يتحقق من خلال عرض نموذج بسيط ومركز للمعاناة الإنسانية، تمامًا مثل لقطة واحدة في تقرير إخباري تليفزيوني.

إليك المثال التالي:

> قال سام كايجوكا، وهو عامل إغاثة أوغندي تابع لسماريتنز بيرس، وهي منظمة دينية أمريكية تتعاون في شراكة مع برنامج الأغذية العالمي (في أقصى جنوب موزمبيق في أغسطس عام ٢٠٠٥): «أذهب إلى منزلٍ ما ويخبرونني أن هناك عشرة أطفال. ولا يكفي المال المقدَّم من برنامج الأغذية العالمي سوى لإطعام ثلاثة فقط؛ لذلك أطلب منهم أن يُحضروا لي الثلاثة الأشد احتياجًا. يجعل ذلك الناس غاية في العدائية. نتعرض للطرد في بعض الأحيان، لكننا دائمًا ما نجد مجموعة أخرى تقبل الطعام.»[١]

يكون الحصول على هذا النوع من المحتوى الإخباري خلال التغطية الميدانية مستحيلًا أحيانًا. وفي بعض الأحيان، كل ما قد يكون عليك الاستعانة به هو عبارات أو اقتباسات قليلة من مراسل غير متفرغ أو مسئول أو تقرير جاف من وكالة إخبارية. يجدر بك دائمًا أن تحاول، إن أمكن، إضفاء بعض الحيوية أو التفاصيل الإنسانية، لكن ذلك لا يكون دائمًا قابلًا للتنفيذ.

ربما يجد سي برايسون هَل، نائب كبير مراسلي وكالة رويترز لمنطقة شرق أفريقيا، نفسه يتعامل مع العديد من أمثال تلك الأزمات الإنسانية يوميًّا من مكتبه في العاصمة الكينية.

> يُعَد خلق القصص الإخبارية المُتعلقة بالأزمات الإنسانية بعيدًا عن موقع حدوثها قوام عمل الوكالات الإخبارية. ولهذا أسباب كثيرة: فموقعها بعيد جدًّا بحيث يصعب الوصول إليه في الوقت المناسب للحصول على الأخبار أو يمثل خطورة شديدة على الأجانب. هذا هو الحال بالنسبة إلينا في أنحاء شرق أفريقيا ووسطها، فحين تضرب الفيضانات المناطق النائية من إثيوبيا أو تندلع أعمال عنف في منطقة البحيرات العظمى أو يصيب الجفاف الأجزاء النائية من كينيا التي تكاد لا تصل إليها الطرق، نضطر إلى الاعتماد على مراسلينا المحليين.
>
> قد يكون هؤلاء المراسلون المحليون أنفسهم بعيدين عن موقع الحدث لكن بإمكانهم تسخير علاقاتهم وخبرتهم المحلية للوصول إلى شهود العيان. نحاول بقدر استطاعتنا التوجه إلى موقع الحدث بحيث تكون لدينا بعض الخبرة العملية عن المكان حين نصوغ الخبر من مكاتبنا، وهو أمر ذو أهمية بالغة لنقل صورة دقيقة عن الحدث. لكننا نعمل، في أغلب الأحيان، عن بُعد.

إن أصعب حالة نواجهها هي الصومال، والتي ننقل أخبارها من نيروبي اعتمادًا على جهود مراسلينا الجسورين في مقديشو وغيرها. إن اللغة والتجرد والقدرة على الاختلاط مع المحليين — وهو ما يستحيل على الأجانب — كلها عوامل تجعل المراسلين الصوماليين الأنسب لتغطية الأحداث بدقة ودون مخاطر.

في أوج الاشتباكات التي اندلعت في مارس وأبريل من عام ٢٠٠٧ بين القوات الصومالية وحلفائها الإثيوبيين من جهة والمتمردين من جهة أخرى، كنا داخل مكتبنا ننصت إلى دوي القصف المدفعي وطلقات النيران عبر خطوط الهاتف، حيث كان زملاؤنا ينقلون الأحداث برباطة جأش واحترافية رغم وجودهم على خط النار وتعرُّضهم لضغط بدني ونفسي هائل.

ربما يكون الجلوس في مكتبك بعيدًا بينما تجري وقائع الحدث على الطرف الآخر من الهاتف باعثًا على الإحباط. إن الأمر يشبه، على نحو ما، العمل معصوب العينين، مفتقرًا إلى المعلومات التي كانت ستمدك بها كل حواسك لو كنت هناك، تلك المعلومات التي تُغذي أفكارك. لكن البراعة هي أن تتصور وجودك هناك وتتخيل كيف ستعمل بما يكفل لك سلامتك، محددًا التفاصيل التي ستبحث عنها وكيف ستصف الحدث لخلق صورة كاملة تقدمها للقارئ. إن أصعب ما علينا اتخاذه من قرارات، من داخل مكاتبنا الآمنة، هي تلك التي تتضمن توصية مراسلينا الميدانيين بتغطية الخبر بينما يقلصون المخاطر التي يتعرَّضون لها إلى أدنى حدٍّ ممكن. وهو ما يتطلب معرفة طواقمك الموجودة في الميدان والبقاء على تواصل دائم معهم، والوثوق بهم وبتقديرهم للأمور في سبيل البقاء سالمين وتغطية الخبر كما يجب.

(٣) كتابة التحقيق الصحفي

تُعتبر كتابة التحقيقات الصحفية، لا سيما فيما يتعلق بالقضايا الإنسانية، فنًّا مختلفًا عن كتابة الأخبار العاجلة؛ ففي حين أن السرعة واحدة من أهم أولويات كتابة الأخبار العاجلة بشأن الكوارث، تحتل الجودة أهمية خاصة عند كتابة التحقيقات الصحفية.

قد يمنحك التحقيق فرصة الوصول بحق إلى القضايا الأساسية، لكن لو لم يُكتَب كما ينبغي فقد لا يتعدى دوره بيان ما هو غني عن البيان، ويخفق مِن ثَمَّ إخفاقًا تامًّا في جذب انتباه القارئ.

وجدت نفسي، بعد بضعة أشهر من عملي الصحفي في جوهانسبرج عام ٢٠٠٤، على مرتفعات مملكة ليسوتو ذات الطبيعة الجبلية والواقعة في المنطقة الجنوبية من أفريقيا، حيث كنت أغطي طائفة من الأخبار التي تتراوح بين التدهور الزراعي والتعدين. قمت برحلة خاطفة إلى قرية أسَّستها إحدى هيئات الإغاثة، وسألت هناك عن عدد سكان القرية الذي توفُّوا العام الماضي إثر إصابتهم بمرض الإيدز، فأجابني أحد مشايخ القرية أن عددهم يقارب ٢٠٠.

فبُهِتُّ؛ إذ لم يكن حولي إلَّا قليل من الأكواخ. فسألته عن عدد سكان القرية أصلًا، فردَّ قائلًا عددهم حوالي ٦٠٠ نسمة.

كتبت تحقيقًا صحفيًّا تناولت فيه تلك السطور بعينها، وملأته بالاقتباسات المثيرة للقلق من عمال الإغاثة والمسئولين الحكوميين. كان زعيم القرية هو الشخص الوحيد في القصة الإخبارية الذي قد يُعتبر فعليًّا غير مريض. لم يُكتَب للتحقيق أن يرى النور؛ إذ أخبرني أحد المحرِّرين أنه ببساطة لم يأتِ بجديد.

حين أسترجع هذه الواقعة أدرك، وربما أدركت ذلك حينها، أنني ببساطة ربما كنت خائفًا إلى حد منعني من مواصلة البحث والحديث مع شخص مصاب بالإيدز والذي ربما كان سيمنحني قصة شخصية مؤثرة ترقى بهذا التحقيق إلى ما هو أبعد وأعمق من مجرد أرقام وإحصائيات. كانت الإحصائيات صادمة، حتى في بلد يقال إن ثلث البالغين فيه مصابون بالإيدز، لكنها لم تكن كافية وحدها. لا يسعني بعد مضي عدة سنوات من هذا التحقيق إلا أن أتساءل عما إذا كانت تلك الإحصائيات مُبالَغ فيها، وهو أمر كان من السهل أيضًا نسبيًّا التحقق منه حينها.

تذكر سارة ليدويث، محررة التحقيقات الصحفية في رويترز، سبع نصائح لكتابة التحقيقات الصحفية من مناطق الأزمات — والتي ينطبق كثير منها كذلك على كتابة القصص الإخبارية الجادة.

> خالف ما يتوقع الناس أن يقرءوه — على سبيل المثال، حاول أن تُركِّز على الأشياء الإيجابية التي يقوم بها الفرد أو الأفراد الذين يتعرضون لظروف بائسة، وذلك عن طريق إيجاد أمر مبتكر فعلوه للنجاة والبقاء على قيد الحياة. حاول أن تُشعِر القارئ كيف أن يوم هؤلاء الأفراد مُجدٍ ومثمر.
>
> الصور المتميزة — لا سيما لهؤلاء الأشخاص الذين تنقل كلماتهم في القصة الإخبارية — تبعث الحياة في التحقيق على نحوٍ تعجز عن تحقيقه الكلمات.

أشر إلى أيِّ انعكاسات للأزمة على البلدان الغنية.
تحدَّث إلى ١٠ أشخاص مع التخطيط لنقل كلمات أربعة منهم على الأقل.
انظر إلى الأمر من أكبر عدد ممكن من الجوانب.
لا تخجل من أن تُلح على الآخرين للإجابة عن الأسئلة التي تطرحها.
تذكَّر أنك تتنافس على جذب اهتمام من يقرءون عناوين إخبارية عن المشاهير مثل باريس هيلتون.

(٤) العمل مع هيئات الإغاثة

في كثير من البلدان النامية، قد يكون لهيئات الإغاثة وجود ميداني بالفعل حين تقع كارثة، كما أنها ستسارع لإجراء ما تصفه بـ «تقدير الاحتياجات». من المفيد، مجددًا، أن تتوفر لديك قائمة معدَّة سلفًا تضم أكبر قدر ممكن من جهات الاتصال الخاصة بتلك الجهات، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فقد تستطيع المقرَّات المركزية لهيئات الإغاثة في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية أن توفر لك على وجه السرعة اتصالًا بالخبراء الميدانيين. وهذا كثيرًا ما يصب في مصلحة تلك الهيئات؛ نظرًا لأن تسليط وسائل الإعلام لأضوائها على مثل هذه الأحداث يمكن أن يجتذب التبرعات.

يقدِّم موقع أليرتنت (www.alertnet.org) التابع لمؤسسة رويترز خدمة تتيح للمستخدمين التعرف على أسماء هيئات الإغاثة والمناطق والبلدان التي تعمل داخلها، بالإضافة إلى تقديم تفاصيل ومعلومات للتواصل مع تلك الهيئات. إن الدخول إلى هذا الموقع مجاني ولا يحتاج إلى كلمة مرور. كما يقدِّم الموقع خدمة «أخبار هيئات الإغاثة»، وهي خدمة تورد أحدث البيانات الصحفية الصادرة من المجموعات ذات الصلة، وقد تضم، في أي حالة طوارئ عاجلة، معلومات للتواصل مع الطواقم الموجودة ميدانيًّا.

من الصين إلى السودان إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا، ستكون الجمعيات المحلية التابعة للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر، في جميع الحالات بلا استثناء تقريبًا، أول من يستجيب للأزمات وأسرع من يُقدِّم معلومات من داخل الميدان. وسيكون متطوعوها المحليون هم أول من ينشئون مراكز إيواء أو يساعدون في تقديم الإسعافات الأوَّلِيَّة للمصابين أو يعاونون في دفن الضحايا في مقابر جماعية، في حال كانت الأوضاع مروعة حقًّا. وعادةً ما تتولَّى اللجنة الدولية للصليب الأحمر تنسيق عمل هؤلاء المتطوعين وقت الحرب، أما في حالة الكوارث التي تقع وقت السلم، فإن عملهم يخضع لتنسيق الاتحاد

الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر. وتستعين هاتان المؤسستان بكوادر دولية لتقديم المساعدة والتنسيق ميدانيًّا كما أن مقرَّيهما الرئيسيَين الواقعَين في جنيف عادةً ما يمكنهما تقديم معلومات جيدة عن جهات الاتصال وغيرها من المعلومات. وغالبًا ما تكون هاتان المؤسستان أول مصدر للتقديرات الموثوق فيها لعدد الضحايا، وذلك في حال انشغال المسئولين المحليين بهول الكارثة، وهو ما حدث في إعصار بنجلاديش عام ٢٠٠٧.

إن الهيئات التابعة للأمم المتحدة قد تكون كذلك مصدرًا جيدًا للتقديرات كتقدير عدد المشردين، أو حجم الاحتياج للمعونات الغذائية، أو حصيلة الضحايا. ويمكن أن يُصدر مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية تقارير حالة، رغم أن موظفي هذا المكتب قد لا يوجدون دائمًا في موقع الأزمة خلال الأيام أو الساعات الأولى من وقوعها. علاوةً على ذلك، عادةً ما ستتولَّى الهيئات الكبيرة الأخرى التابعة للأمم المتحدة، خاصة برنامج الأغذية العالمي، ومنظمة الأمم المتحدة للطفولة (اليونيسف)، والمفوضية السامية للأمم المتحدة لشئون اللاجئين، إصدار البيانات الصحفية والإحاطات الإعلامية وإيفاد مسئوليها الإعلاميين إلى موقع الحدث.

إن هيئات الإغاثة الأخرى مثل أوكسفام، أو منظمة أنقذوا الأطفال، أو هيئة كير الدولية عادةً ما يكون لها انتشار جغرافي أضيق نطاقًا مقارنةً بهيئات الصليب/الهلال الأحمر أو الأمم المتحدة. قد تُشرف مثل هذه الهيئات على مخيم واحد للاجئين أو تغطي احتياجًا واحدًا فقط كالماء أو الصرف الصحي. وقد تساعد هيئات الأمم المتحدة في توزيع الغذاء، رغم أنها قد تحرص على تقديم تلك الأنشطة باعتبارها إنجازات خالصة لها، وهو حرص يمكن استيعاب دوافعه.

ربما يكون العاملون في تلك الهيئات أقل تحفظًا في تصريحاتهم من نظرائهم في هيئات الصليب/الهلال الأحمر أو منظمة الأمم المتحدة. ورغم أن جمعيات الإغاثة قد ازداد انخراطها في الترويج لقضايا معينة خلال السنوات الأخيرة، عادةً ما تبقى عملياتها الميدانية على رأس أولوياتها، وهو ما قد يَحِد من قدر المعلومات الذي تقبل التصريح به، رسميًّا على الأقل. في إقليم دارفور السوداني، على سبيل المثال، أشارت جمعيات الإغاثة إلى إحجامها عن الإدلاء بتصريحات بشأن حوادث الاغتصاب أو العنف خشية أن يُثير ذلك عداء السلطات مما يؤدي إلى حرمانها من العمل على أراضيها.

لو نجحتَ، من ناحية أخرى، في إقامة علاقات شخصية مع عُمال الإغاثة، فقد يبدون أكثر استعدادًا لمنحك معلومات قيِّمة يمكنك نشرها مع عدم ذكر مصدرها، أو

مع الإشارة إلى أن مصدرها هو «عمال الإغاثة». لا شك أن مثل هذه الاقتباسات، كغيرها من الاقتباسات غير المنسوبة إلى أشخاص بعينهم، يجب توخي الحذر عند التعامل معها، لكنها قد تمنحك أيضًا رؤية عميقة قيِّمة لما يجري على أرض الواقع. ويمكن أن يصل عمال الإغاثة أيضًا إلى مناطق لا يُسمَح للصحفيين بدخولها وتقديم صور ومقاطع فيديو من مناطق لا يستطيع الصحفيون والطواقم الإعلامية التقاطها منها.

ذكرت لين هاينيش، مدير الاتصالات التنفيذية والمسئولة الإعلامية السابقة في أفريقيا بهيئة كير الدولية، أن كلًّا من عمال الإغاثة والصحفيين يعتمد بعضهم على بعض بالفعل عند وقوع الكوارث لنشر تفاصيلها.

> إنه موقف عصيب للغاية. غالبًا ما تُمثِّل الاتصالات والجوانب اللوجستية تحديًا. ولا يوجد عادةً إلَّا مجال محدود جدًّا لجذب انتباه العالم وذلك بواسطة قصص إخبارية تساعد في حشد الدعم للاستجابات الفورية والاستجابات على المدى الأبعد؛ لذا توفد هيئات الإغاثة، انطلاقًا من تقديرها لهذه العلاقة، المسئولين الإعلاميين، الذين عادةً ما يكونون مراسلين سابقين؛ فمن المهم أن نتعلم من بعضنا وأن نتعاون على نحوٍ أفضل. فيما يلي بعض الملاحظات المهمة في هذا الشأن …
>
> ضع الأزمة في سياقها بعيد المدى. كثيرًا ما ترتبط الكوارث الطبيعية، كالفيضانات، بالتدهور البيئي. وإذا لم نُحسن استيعاب الصراعات الأهلية، فقد تكون عرضة للتبسيط المفرط المفضي إلى سوء الفهم. ويمكن أن يكون عمال الإغاثة مصدرًا جيدًا للمعلومات المتعلقة بالسياق والثقافة.
>
> دائمًا ما يكون الفقراء، ولا سيما النساء منهم، الأشد تأثرًا؛ فقد اجتاز هؤلاء حدثًا صادمًا ولا يزال عليهم الحفاظ على تماسك عائلاتهم وترابطها. لم يرَ أغلب هؤلاء كاميرا فيديو واحدة طوال حياتهم. وسرعان ما سيغادر الصحفيون، أما الناجون وعمال الإغاثة فسيبقون للتعامل مع أي تَبعات سلبية ناتجة عن زيارتهم؛ فعلى سبيل المثال، قد توصم إحدى ضحايا الاغتصاب لاحقًا من مجتمعها بعد نشر قصة مثيرة عنها في الصحافة؛ لذلك، عليك أن تراعي إخفاء هويات الضحايا في مثل هذه الحالات.
>
> ضع نصب عينيك أن المطالبات الإعلامية بالحصول على المعلومات يمكن أن تنطوي على تضحية لا تعلمها من الناجين وهيئات الإغاثة. فحين يقتطع

الناجون جزءًا من وقتهم لإجراء مقابلة، فربما يعني ذلك تنازلهم عن مكانهم في طابور المساعدات أو إضاعة فرصة عمل كانت متاحة. وحين يسمح عمال الإغاثة للصحفيين باستخدام هواتفهم المتصلة بالأقمار الصناعية أو يُتيحون لهم اتصالًا بالإنترنت، فقد يؤدي بهم ذلك إلى تأخير مهمة عليهم أداؤها.

أؤكد مجددًا أن ثمة قيودًا موضوعة على مقدار المعلومات التي عادةً ما تقبل جمعيات الإغاثة الإدلاء بها. فكثيرًا ما يَعبُر مندوبو اللجنة الدولية للصليب الأحمر، مثلًا، خطوط المواجهة الأمامية ويزورون السجناء والرهائن، إلا أنه من المستحيل تقريبًا أن تنجح في انتزاع أيِّ معلومة مفيدة منهم: فصمتهم هو ثمن قيامهم بتلك المهام.

بدلًا من هيئات الإغاثة، ربما تتمكن من الحصول على تعليقات أكثر أهمية من جماعات الضغط، من أمثال منظمة العفو الدولية، أو هيومن رايتس ووتش، أو مجموعات معنية بالطوارئ على نحو أكبر مثل مجموعة «أنقذوا دارفور» — رغم أن بعضًا من تلك المجموعات الأخيرة لديها أجندات سياسية محددة وربما تبدو أحيانًا داعمةً لجماعات معينة من المتمردين؛ ففي سريلانكا، مثلًا، مُنِعت جمعية إغاثة تُدعى «منظمة إعادة تأهيل التاميل» على خلفية صلاتها المزعومة مع متمردي حركة نمور التاميل. وتُعد مجموعة الأزمات الدولية مركزًا بحثيًّا دوليًّا يسعى بوجه خاص إلى تقديم المعلومات بشأن الأزمات الطارئة دون تعريض جهود الإغاثة الميدانية للخطر أو الإضرار بسمعتها.

غالبًا ما تُمثِّل هيئات الإغاثة وسيلة فعالة لبلوغ المجتمعات المحلية والمناطق التي يصعب الوصول إليها. وكثيرًا ما تُبدي تلك الهيئات استعدادها لتوصيل الصحفيين في مركباتها رباعية الدفع إلى مواقع الأحداث واصطحابهم في جولات داخلها، بل ربما تتمكن من توفير مترجمين ومساكن للصحفيين.

قد يجلب ذلك معه، لا محالة، اتهامات حول التقارب الزائد عن الحد بين الصحفيين وهيئات الإغاثة. تتبنَّى وكالة رويترز قواعد صارمة للغاية بشأن قدر الضيافة والدعم الذي تتقبله من هيئات الإغاثة. لكن كما أن مرافقة الجيوش الوطنية تكون أحيانًا الخيار الوحيد والأفضل لتغطية الأخبار، فإن مرافقة هيئات الإغاثة في الميدان تكون أحيانًا الخيار الأفضل، إلا أنها ينبغي ألا تُغيِّر أبدًا من التغطية الإخبارية أو تؤثر فيها.

إن ذلك يعني أنه ينبغي وضع هيئات الإغاثة محل المساءلة، تمامًا كالحكومات والشركات الخاصة، لا سيما فيما يخص إهدار الموارد. كما يعني ذلك أيضًا عدم الوقوع في شَرَك التركيز على جمعيات الإغاثة وتجاهل جهود الحكومات المحلية؛ فعلى سبيل المثال،

عند وقوع فيضانات في الهند والصين وبنجلاديش، وغيرها الكثير من البلدان، يتولَّى الجيش الوطني العبء الأكبر من جهود الإغاثة في كثير من الأحيان، وقد يؤدي إرجاع الفضل في تلك الجهود إلى هيئات الإغاثة الغربية إلى إثارة حفيظة تلك الجيوش، وهو أمر مفهوم.

إضافة إلى تمكين هيئات الإغاثة الصحفيين من الوصول إلى القصص الإخبارية والمعلومات المحورية وقت الأزمات، فإنها تُهيب أيضًا بالصحفيين تغطية القضايا الأساسية المتعلقة بالفقر، ومحاولاتها للتعامل معها. ورغم أن قليلًا من المحررين سيسمحون بنشر تقارير إخبارية مباشرة عن أنشطة هيئة إغاثة معينة، خاصة وأنه كثيرًا ما لا يتضح ما إذا كانت تُزاول أنشطتها بكفاءة أم لا، فقد يكون ذلك طريقًا ملائمًا لتناول قضايا البلد أو المنطقة والتي قد يكون لها أبعاد سياسية أو اقتصادية أو إنسانية أوسع نطاقًا.

ضع في اعتبارك أن هيئات الإغاثة دائمًا ما تضطر إلى التفاوض مع المسئولين المحليين للوصول إلى المعلومات، وهو ما يمكن أن يُمثِّل عملًا دبلوماسيًّا يعادل في دقته واحتياجه إلى البراعة والمهارة أي ممارسة أخرى في مجال الشئون الدولية الأوسع نطاقًا. إن كل ما ورد سابقًا في الفصل الذي كتبته بريدجت كيندال بشأن الدبلوماسية رفيعة المستوى ينطبق بالمثل على التعامل مع هذا الأمر. وعليك أن تضع في اعتبارك أيضًا أن كلًّا من الطرفين قد يحاول استغلال الآلة الإعلامية لتكون له اليد الطولى. ولتعلم أن هذا يحدث باستمرار وعليك أن تتصرف، وتكتب، بناءً عليه. تذكَّر أن هيئات الإغاثة أو المسئولين قد يبدءون بهدوء في نشر معلومات سلبية عنك إذا أحسوا أنك لم تُحسن فهمهم أو الكتابة عنهم. بل إن خلافًا حول أعداد اللاجئين يمكن أن يؤدي أحيانًا إلى تهديدات بالقتل؛ لذلك فمن المفيد أن تذكر بوضوح المصادر التي تستقي منها كل ما تكتب، لا سيما الإحصائيات؛ فإن هذا غالبًا ما سيدفع منتقديك إلى ملاحقة المصدر بدلًا من ملاحقتك — غير أن هذا ربما يجعلك غير مقبول نهائيًّا لدى ذلك المصدر.

يمكن أن يثمر التعاون مع هيئات الإغاثة نتائج إيجابية، لكلا الطرفين. ولكن يلوح خطر الوقوع في التبسيط المفرط المفضي إلى سوء الفهم، وذلك كما اكتشف المسئول الإعلامي السابق لدى إحدى هيئات الإغاثة، مارك سنيلينج الذي يقول في هذا الشأن:

> كانت الاستجابة الدولية للأزمة الغذائية في النيجر في أغسطس عام ٢٠٠٥ توضيحًا نموذجيًّا، على نحو ما، للكيفية التي يمكن، وينبغي، للمؤسسات الإعلامية وهيئات الإغاثة التعاون معًا من خلالها؛ إذ لم تلقَ تحذيرات عمال

الإغاثة من وقوعِ نقصٍ كارثيٍّ في الغذاء آذانًا مُصغية إلى أن أدَّت صور الأطفال الجياع التي نشرتها شبكة بي بي سي إلى حشد التمويل والإرادة السياسية اللازمَين لتدخُّل إنساني واسع النطاق. لقد حظيت هيئات الإغاثة بالدعاية والتمويل الضروريين، ونال الصحفيون قصة إخبارية متميزة.

لكن بقي داخلي انطباع مزعج بأننا كنا نواجه خطر التسليم برواية للأحداث لا تتسق تمامًا مع الحقائق القائمة على أرض الواقع. إن مسألة أن كثيرًا من البشر كانوا في حاجة ماسة إلى الغذاء لا يعتريها أدنى شك، لكن، حسب المعايير السائدة في المنطقة، لم يكن هذا العام كارثيًّا. اكتشفت شبكة أنظمة الإنذار المبكر بالمجاعات أن الإنتاج القومي للحبوب الغذائية لم ينخفض عن متوسط الإنتاج خلال السنوات الخمس السابقة إلا بنسبة ١١ بالمائة فقط. أسرَّ إليَّ بعض عمال الإغاثة ذوي الخبرة في غرب أفريقيا بأن الوضع، رغم كونه مروِّعًا بالنسبة إلى الكثيرين، لم يكن غريبًا. ولكن ما حدث أن تسلَّلت النيجر، في مرحلة ما، إلى الأجندة الإخبارية باعتبارها أحدث «الأزمات الأفريقية المهولة».

نجح قليل من المراسلين في استخلاص السياق المعقَّد والدقيق لتلك الأزمة. كان يوجد، في الواقع، الكثير من الغذاء هناك، لكن المشكلة هي عدم استطاعة السكان شراءه نظرًا لفقرهم المزمن وإخفاق إصلاحات السوق الحرة. ورغم ذلك، عوملت الأزمة مرة أخرى وكأنها نسخة ثانية من المجاعة الطاحنة التي ضربت إثيوبيا عام ١٩٨٤. فاصطفَّت طواقم التصوير خارج مراكز التغذية المعَدَّة لمن يعانون من سوء التغذية الحاد، وتدافعوا لالتقاط الصور الثمينة للأطفال الهُزالى. إن جولة سريعة في عملية الإغاثة الضخمة للغاية تلك، والهادفة إلى من يعانون نقصًا متوسطًا في الغذاء كانت ستكشف النقاب عن قصة أقل مأساوية، لكن أكثر دقة.

بذلت جميع الأطراف جهدًا رائعًا عام ٢٠٠٥، وأسهمت في إنقاذ الكثير من الأرواح. لكن العقبات الهيكلية للنيجر ظلَّت قائمة دون معالجة، وبقيت احتمالية تأثرها الشديد بصدمات مستقبلية حادة وصارخة كما كانت دائمًا. أتساءل ما إذا كان عمال الإغاثة والصحفيون استغرقوا تمامًا في الاستجابة لمتطلبات بعضهم البعض إلى حد أننا غفلنا جميعًا عن الاستجابة لمتطلبات الطرف الأهم في الواقع، ألا وهم السكان الذي يعيشون هناك بالفعل.

(٥) العمل الميداني

ربما لا يتسنَّى العمل الميداني دائمًا؛ لأسباب مالية أو لوجستية أو أمنية، لكن لا يوجد سوى القليل من البدائل للنزول إلى موقع الحدث والحديث إلى الضحايا. إن العمل الميداني يسمح لك برؤية حجم الأضرار الواقعة والحصول على روايات مباشرة من الذين يعانون من الأزمة، وربما يمكِّنك من تجنب هيئات الإغاثة والمسئولين والحصول على رؤية أكثر واقعية لما يجري هناك.

قد يكون إيجاد مسكن أمرًا صعبًا؛ لأن المساكن ربما تكون قد دُمِّرت أو غالبًا ما تحتلها الحشود المتدفقة من عمال الإغاثة، ويمكن أن يكون إيجاد وسائل للانتقال أمرًا عسيرًا أيضًا — ليس فقط لاحتمال تعرُّض البنية التحتية الضرورية للتدمير، بل لأن وسائل النقل التجاري قد تتجنب أيضًا المرور بمنطقة الحدث — كما حدث، مثلًا، عند تفشي مرض الإيبولا أو غيره من الفيروسات المشابهة أو نتيجة لأعمال القتال. أو مجددًا قد تتجه هيئات الإغاثة أو اللاجئون اليائسون لشراء العديد من تلك الوسائل. أما بالنسبة إلى وسائل الاتصال، فربما تتعرض لأعباء تفوق طاقاتها أو قد تتعطل بالكلية، وهو ما يمكن أن يجعل من الهواتف المتصلة بالأقمار الصناعية خيارًا لا يُقدَّر بثمن، رغم تكلفته الباهظة.

قد تكون، في بعض الأحيان، جزءًا من طائفة واسعة من الصحفيين. أو قد تصبح الصحفي الوحيد في أحيان أخرى، لا سيما في حالة الكوارث بطيئة الحدوث كالأزمات الغذائية أو حتى الصراعات التي لا تُصنَّف على أنها حروب بارزة.

ربما تبدو القصة الإخبارية جلية في بعض الحالات. وفي حالات أخرى، قد يكون تحديدها أمرًا أكثر صعوبة، كما يشير أليستير تومسون في القسم القادم.

إن حقيقة ما يجري حولك قد تكون شديدة التأثير نوعًا ما، لكن من الأهمية بمكان أن تضع نصب عينيك صحتك وسلامتك وأمنك، وصحتك النفسية أيضًا. وإذا وجدت حولك هيئات إغاثة أو صحفيين آخرين، فتعرَّف على الاحتياطات التي يتخذونها، وتذكَّر أنهم غالبًا ما يرون الأمور ذاتها ويعايشونها ويشعرون بها، وهو ما يجعلهم فريق دعم فعالًا، حتى لو كان هذا الدعم لا يعدو في الحقيقة مشاركتك الشراب في المساء.

(٦) تغطية الصراعات

يمكن أن تكون التبعات الإنسانية لصراع ما هي القصة الإخبارية الرئيسية في بعض الأحيان، كما هو الحال، مثلًا، في دارفور أو الهجرات الجماعية الهائلة من رواندا بنهاية الإبادة الجماعية التي حدثت عام ١٩٩٤. لكن هذه التبعات قد تبقى محل تجاهل شبه تام في أحيان أخرى.

يستخدم موقع أليرتنت التابع لمؤسسة رويترز برنامجًا إلكترونيًّا مؤتمتًا يُطلق عليه «مرصد الصحافة الدولية»، وهو برنامج مَعْني برصد تغطية الأزمات الإنسانية في الصحف الصادرة باللغة الإنجليزية. شهدت الفترة من ٢٠٠٦ إلى ٢٠٠٧ هيمنة العراق وأفغانستان على الساحة الإخبارية، وهو أمر ليس بمستغرب، لكن الحقيقة هي أن أغلب الأخبار لم تكن تشير إلى الأثر الإنساني لهاتين الأزمتين إلا عَرَضًا، وهو الأثر الذي أثار، في حالة العراق، أزمة لاجئين هي الأسرع نموًّا على مستوى العالم.

دائمًا ما ستعمل الأجندات المتنافسة على التأثير على التغطية الإخبارية وتقييدها حتى في حالة الكوارث داخل الأنظمة الديمقراطية المستقرة، أما في مناطق الصراع، فتصير تلك المسائل أكثر خطورة؛ فربما تحاول كلٌّ من الحكومات والجماعات المتمردة التضييق على شحنات المعونات وتوجيه المساعدات إلى الأغراض العسكرية، وقد يجد عمال الإغاثة أنفسهم مستهدفين.

بل إن اللاجئين البائسين، رغم براءتهم الظاهرة، قد يعمدون إلى طرح أجنداتهم السياسية الخاصة أو ربما الترويج بقوة إلى فكرة أجبرتهم قوات المتمردين أو الجيش على ترديدها تحت التهديد؛ لذلك انظر إلى ما يقال لك بعين التشكك، لكن دون أن تبدو مسيئًا …

واجه أليستير تومسون، نائب كبير مراسلي وكالة رويترز لمنطقة غرب أفريقيا، تلك المشكلة في جمهورية أفريقيا الوسطى عام ٢٠٠٧.

> هبط الطيار الألماني ذو الشعر الأبيض بالطائرة الخفيفة في الضباب الساخن لمدرج الطائرات المترب بسرعة تصم الآذان. كنت واثقًا أن الجنود أصحاب العمامات الصفراء المُوجهين لأسلحتهم المضادة للطائرات في اتجاهنا قد حُذِّروا من مَقْدِمنا. كنا في بيراو، وهي بلدة نائية تقع في أقاصي جمهورية أفريقيا الوسطى، إحدى أشد الدول الأفريقية انعزالًا، حيث تسببت الهجمات المسلحة القادمة عبر الحدود مع دارفور في مضاعفة قسوة الحياة بالنسبة إلى السكان المحليين. كانت تلك الزيارة ضمن جولة قصيرة عرضتها علينا نجمة هوليوود

ميا فارو للفت الانتباه إلى الحرب التي تمتد نيرانها من دارفور؛ لذلك لم يكن أمامنا سوى بضع ساعات.

كانت البلدة تعيش في فقر مدقع ولم تزل بادية عليها علامات هجوم شنه عليها المتمردون منذ بضعة أشهر. وسرعان ما اتضح أنني سأعاني عجزًا مطبقًا لعدم إجادتي اللغة العربية. وحين بحثت حولي عمن يتحدث الفرنسية، صادفت موظفًا حكوميًّا تلو الآخر، وكلهم كانوا حريصين على تقديم الرؤية الحكومية الرسمية للأحداث، وقد اختتموها بمطالبات بمساعدات دولية عسكرية وإنسانية. وصف لي بعض كبار السن، عبر هؤلاء المترجمين الارتجاليين، كيف هاجمهم المتمردون قبل الفجر وسرقوا الماشية ومخزون الحبوب بعد أن اغتصبوا النساء والفتيات. لكنني حين طرحت أسئلتي عليهم لتقصِّي المزيد من التفاصيل، غرقوا في صمتٍ تامٍّ ومضوا مبتعدين عني في ظل مراقبة صارمة من رجال الشرطة والمقاتلين أصحاب العمامات الصفراء الذين أخبرني أحد عمال الإغاثة سرًّا أنهم قد وفدوا من دولة تشاد المجاورة. لم تكن تلك المرة الأولى التي لا أدري فيها على مَن أعتمد للحصول على رواية متزنة للأحداث.

اصطحبني رجل لرؤية مضخة المياه الوحيدة في البلدة، والتي يبلغ عمرها ستة عشر عامًا والتي كانت متوقفة عن العمل. بعدها بلحظات، أكد لي آخرون أن هناك العديد من المضخات التي تعمل عبر البلدة. وحين قفلت راجعًا إلى متن الطائرة، لمحت على جناحها عنوان الموقع الإلكتروني لنادٍ ألماني متخصص في القفز الحر بالمظلات، وهو ما صدمني بعدم اتساقه الصارخ من الوضع المحيط. أقلعنا عند غروب الشمس، وفي رأسي تدور أسئلة تفوق تلك التي جئت بها.

(٧) أهمية النظر إلى الجوانب المالية

من المهم دائمًا النظر إلى الجوانب المالية المتعلقة بالبلاد والشعوب والمجتمعات المحلية المتأثرة بالحدث، والمتعلقة أيضًا بالعالم في مجمله، ويصدُق هذا بوجه خاص على المؤسسات الإخبارية المعنية بالأخبار المالية مثل رويترز، ولكنه يصدُق كذلك على المنتج الإخباري بوجه عام. فحين تصل إلى وكالة رويترز أخبار عن وقوع زلزال أو إعصار، تكون على

قائمة أولوياتها، إضافة إلى إحصاء الضحايا، دراسةُ الأثر المالي الأوسع نطاقًا لتلك الكارثة. هل تسبب زلزال في بيرو، أكبر منتج للنحاس في العالم، في الإضرار بالتعدين هناك؟ وهل أثَّر على أسواق المعادن في لندن أو نيويورك؟ وهل تُواصل مصافي النفط إنتاجها؟ وما البنى التحتية التي تعرضت للتدمير؟ وهل ستظل بيرو قادرة على سداد ديونها؟ وكيف تتعامل الشركات المحلية مع الأزمة؟

حتى إن الإعانات الغذائية قد تُحدث تغييرًا في الأسواق، كما ذكر ديفيد براو، مراسل وكالة رويترز المتخصص في أخبار أسواق السكر العالمية؛ إذ يقول:

> حين أوفِدتُ إلى روما، كنت مكلَّفًا بتغطية الهيئات الغذائية التابعة للأمم المتحدة، وذلك بقصد الحصول على أخبار حقيقية بشأن الصفقات السلعية. يشتري برنامج الأغذية العالمي التابع للأمم المتحدة السلع الغذائية الأساسية المعروضة في الأسواق العالمية، كالذرة والأرز، ويشحنها إلى المحتاجين في جميع أنحاء العالم. كانت إحدى مهماتي تتطلب إنشاء علاقات داخل قسمي المشتريات والشحن في البرنامج ومحاولة كشف الأخبار. أثار بعض من الأخبار الحصرية التي نشرتُها نشاطًا في حركة التجارة داخل أسواق العقود الآجلة الإلكترونية كأسواق القمح. ويمكن لأخبار عن وجود طلب مكثف من قِبَل مُشترٍ ضخم كبرنامج الأغذية العالمي — كشراء حمولة ضخمة من القمح الأمريكي والأرجنتيني للعراق — أن تُحدث تأثيرًا كبيرًا على الأسواق السلعية العالمية. ولو استطاعت وكالة رويترز أن تُحدِث تغييرًا في حركة إحدى الأسواق بنشرها لخبر ما، فإن ذلك يعني أن عملاءها حصلوا على عائد جيد على ما دفعوه من أموال.

(٨) الصورة الأكبر

لكن ماذا لو لم توجد مثل هذه الأحداث المؤثرة والمفاجئة التي تترك أثرًا صادمًا؟ لم أرَ قَطُّ أطفالًا وبالغين يتعرَّضون للموت البطيء أكثر ممن رأيت في أزمة الإيدز الطاحنة في المناطق الجنوبية من أفريقيا، ورغم ذلك، يُعَد إيجاد زوايا جديدة لإثارة اهتمام العالم بما يحدث هناك مهمة عسيرة، كما أشرت سابقًا.

تشكو هيئات الإغاثة من أن استمالة الصحفيين إلى الاهتمام بقضايا الفقر المزمن والتنمية يمكن أن تكون شبه مستحيلة. وعلى الرغم من ذلك، فإن نقص الغذاء وتفشي

أمراض — أو حدوث مضاعفات عند الولادة — تسهل الوقاية منها، يتسبب في وفاة عدد من البشر أكبر كثيرًا ممن تقضي عليهم الكوارث والحروب. والأمر نفسه ينطبق على حوادث الطرق، لا سيما في البلدان السريعة النمو، حيث تتوفر البنية التحتية الجديدة وتقل تدريبات القيادة المقدَّمة للسائقين.

أثبتت مشروعات الائتمان المتناهي الصغر — والتي تعتمد على تقديم قروض صغيرة إلى أفقر الفئات لتمكينهم من إقامة مشروعات تجارية — نجاحًا باهرًا، لكنها تفتقر إلى ما للمجاعات أو الحروب من بريق جذَّاب، وكثيرًا ما لا تنال حقها في التغطية الإخبارية. قليلون هم الصحفيون المهتمون بالاقتصادات الأفريقية، حتى في مجال هيئات الإغاثة.

يوجد الكثير من القصص الإخبارية ذات البعد الإنساني التي لم تُغطَّ بعدُ — والتي قد تلقى قبولًا لدى المحررين والقُرَّاء، إن أجيدت كتابتها — لكن تلك مهمة أصعب.

يشكو بعض رجال الأعمال والمسئولين، لا سيما في أفريقيا، من أن تركيز الإعلام وهيئات الإغاثة على الفقر والصراعات والكوارث يجعل البلدان النامية أقل جذبًا للاستثمار، مما يحرمها من النمو الاقتصادي الذي تحتاجه للخروج من دائرة الفقر.

غالبًا ما تكون القصص الإخبارية الإنسانية وتلك المعنية بالصراعات والكوارث قصيرةَ المدى للغاية في توجهها؛ فهي لا تتناول ما إذا كانت الدولة المعنية تتعلم كيفية التكيف على نحو أفضل أم لا، ولا تُعنى بالتأثير الطويل المدى للحدث أو أسبابه الأساسية. وقد لا تضع المُسلمات الشائعة محل تشكك بما يكفي. ولا تنظر بالضرورة إلى موقع الحدث من صورة العالم الكاملة، سواءٌ من الناحية السياسية أم الاقتصادية.

إن تغطية القصص الإخبارية الإنسانية يمكن أن تكون مرهقة بدنيًّا ومؤلمة نفسيًّا، كما أنها قد تكون عسيرة من الناحية اللوجستية ومكلفة ماليًّا. إن رؤية المعاناة البشرية والشعور بأنك عاجز بطريقة ما عن نقلها إلى العالم قد يكون باعثًا هائلًا على السخط والحسرة.

استمعت إلى كثير من المراسلين الأجانب المخضرمين وهم يصفون على نحو مؤثر كيف شعروا بالعجز عند مشاهدتهم مختلف الكوارث. يمكن أن أتفهَّم مثل هذا الشعور، لكنني بصراحة لا يمكن أن أتفق معه نهائيًّا.

إن نقل مثل هذه الأشكال من القصص الإخبارية نادرًا ما سيُغير العالم، إن استطاع تغييره أصلًا. صحيح أن التغطية الإعلامية قد تؤدي إلى تدفق المعونات بين الحين والآخر، أو ممارسة ضغوط سياسية، أو توقف الانتهاكات — وهي أمور قد تجعلك تشعر بشعور رائع حين تتحقق — لكن المآسي ستتواصل في العموم رغم كل شيء.

لكن الوجود، في نهاية المطاف، في موقع الحدث والقدرة على تسليط الضوء على المشكلات، التي كانت ستمر مرور الكرام لولا تغطيتك، فيصعب على العالم مِن ثَمَّ تجاهلها، كل ذلك يُنافي الشعور بالعجز المطبِق.

روابط مفيدة

- يجمع موقع أليرتنت التابع لمؤسسة رويترز الخيرية (www.alertnet.org) بين الأخبار الواردة من وكالة رويترز وتلك الواردة من هيئات الإغاثة بشأن الكوارث الإنسانية الحادثة حول العالم، بالإضافة إلى معلومات عامة أساسية. وتعرض خدمة «أليرتنت للصحفيين» (http://www.alertnet.org/mediabridge/index.htm) هذه المعلومات العامة الأساسية، والخرائط التفاعلية، وجهات الاتصال الخاصة بهيئات الإغاثة، والبيانات الصحفية، كما أن هناك خدمة للتحذير المبكر عبر البريد الإلكتروني وهي خاصة بالكوارث التي تلوح نُذُرها في الأفق، وهي خدمة صُمِّمت لتيسِّر على الإعلاميين حول العالم تغطية تلك الأزمات. هذا، وتتحمل وزارة التنمية الدولية البريطانية جزءًا من تكاليف الإعداد لخدمة «أليرتنت للصحفيين».
- يحتوي أيضًا موقع الإغاثة التابع للأمم المتحدة (ريليف ويب) (www.reliefweb.org) على تقارير وخرائط منتظمة من مناطق الأزمات.
- تتولَّى اللجنة الدولية للصليب الأحمر تنسيق عمل الجمعيات التابعة للصليب الأحمر والهلال الأحمر العاملة في مناطق الصراع، ويضم موقعها (www.icrc.org) تحديثات منتظمة. أما في حالة الكوارث غير المتعلقة بصراعات، يتولَّى الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر تنسيق عمل الجمعيات العاملة هناك، والموقع الإلكتروني للاتحاد هو www.ifrc.org.

أسئلة يُجيب عنها الطالب

(١) ناقِش إلى أي مدى يتعيَّن على الصحفيين الاعتماد على المعلومات المقدَّمة من المنظمات الإنسانية والإغاثية. وكيف يحترز الصحفيون من المعلومات المضلِّلة أو الدعوات المُبالَغ فيها بشأن الأزمات؟

(٢) ما الإجراءات التي يمكن اتخاذها لتشجيع التغطية المباشرة للكوارث؟ وهل للحكومات دور فيها؟

(٣) ناقِش أساليب إخبارية يمكن أن تحطم القالب المعتاد للتغطيات النمطية للأزمات الإنسانية المتواصلة، كأخبار المجاعات وتفشي الإيدز. قيِّم، على سبيل المثال، تأثير المنهج الذي اتبعه سوريوس سامورا، منتج البرامج الوثائقية والمراسل الأفريقي، في سلسلة حلقاته «التعايش مع …» والتي ألقى خلالها الضوء على ضحايا المجاعات والإيدز واللاجئين (http://www.insightnewstv.com/store).

هوامش

(١) جميع الاقتباسات الواردة في هذا الفصل كتبها وأسهم بها المراسلون أو المسئولون الإعلاميون الذين جرت الاستعانة بهم خصوصًا للمشاركة في كتابة هذا الفصل، وقد حررها بيتر آبس.

مراجع

مقدمة

Lippmann, W. (2008) *Liberty and the News*. Princeton University Press.

الفصل الأول: الشهادة على الأحداث

Centurion (2007) http://www.centurionsafety.net.

Committee to Protect Journalists (2006) *Journalists killed in 2006*. CPJ, http://www.cpj.org/killed/killed06.html.

International News Safety Institute (2007) News deaths hit all-time high. INSI, 28 November 2007, http://www.newssafety.com/stories/insi/insideaths281107.htm.

Kurtz, H. (2005) CNN's Jordan resigns over Iraq remarks. *Washington Post,* February 12, http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A17462-2005Feb11.html.

الفصل الثاني: مستقبل الخدمات الإخبارية والتغطية الصحفية الدولية

AFP (2008) http://www.afp.com/english/home.

AFP Worldwide (2007) http://www.afp.com/english/afp/world.

Anderson, C. (2006) *The Long Tail*. Hyperion.

AP (2006) *What's New: The Associated Press Statement of News Values and Principles*. http://www.ap.org/newsvalues/index.html.

AP (2007a) Facts and figures. www.ap.org/pages/about/about.html.

AP (2007b) AP *International*. www.ap.org/pages/product/apinternational.html.

Pew Research Center for the People & the Press (2006) *News Consumption and Believability Study*. http://people-press.org/reports/display.php3?PageID=1069.

Reuters (2007) *A Handbook of Reuters Journalism: A Guide to Standards, Style and Operations*. http://www.reuterslink.org/docs/reutershandbook.pdf.

Thomson Reuters (2008a) Reuters media solutions. http://www.thomsonreuters.com/products_services/media/Reuters_Media_Solutions.

Thomson Reuters (2008b) Editorial policy. http://www.thomsonreuters.com/about/corp_responsibility/workplace/editorial_policy.

الفصل الثالث: التكنولوجيا، والسرعة والذوق العام: جبهات القتال الثلاث لوكالات الأنباء في القرن الحادي والعشرين

Davenport, T. H. (2000) Attention: the next information frontier. In *Mastering Information Management*, eds. Marchand, D. A., Davenport, T. H. and Dickson, T. Financial Times Prentice Hall.

Nuttall, C. (2007) AFP and Google settle lawsuit. FT.com, http://search.ft.com/ftArticle?queryText=AFP+and+google&y=8&aje=true&x=9&id=070406005834.

Paterson, C. (2006) News agency dominance in international news on the internet. In *Papers in International Global Communication*, No. 01/06, Centre for International Communications Research, http://ics.leeds.ac.uk/papers/cicr/exhibits/42/cicrpaterson.pdf.

الفصل الرابع: الصحافة المستقلة

Alterman, E. (2004) Anchors aweigh: The refs are worked. *Nation,* 1 November.

Boehlert, E. (2006) Politics, the media and 9/11. *Nation,* 25 September.

Boyer, R. O. and Morais, H. M. (1955) *Labor's Untold Story*. United Electrical, Radio and Machine Workers of America.

Braxton, G. (2004) She has opinions, will travel: Left-wing radio's Amy Goodman takes her views on the road. *LA Times,* 21 April.

Goodman, A. and Goodman, D. (2005) Un-embed the media. *AlterNet,* posted 8 April, originally published in *Baltimore Sun*, 7 April.

Hightower, J. (2004) Just because they could. *Texas Observer,* 30 July.

Loyn, D. (2006) *Frontline: The True Story of the British Mavericks who Changed the Face of War Reporting*. Penguin.

Magnum Photos (2007) 1950s and now. http://agency.magnumphotos.com/about/1950s.

Project for Excellence in Journalism (2004) *The State of the News Media 2004: An Annual Report on American Journalism*. http://www.stateofthenewsmedia.org/2004.

Whelan, R. and Capa, C. (eds.) (1985) *Robert Capa: Photographs*. Faber and Faber.

الفصل الثامن: الرؤى العالمية للأخبار الدولية:
تجاهُل العالم يكلفنا الكثير

Amin, S. (2007) Using the media for social purposes. Speech at the Commonwealth Broadcasting Association conference, Nairobi, 18–21 February

Canadian Broadcasting Corporation (2003) *CBC News Study: What Canadians 'Want' and 'Need' from their News Media, 2005-2007*. Internal CBC News Canada publication, http://www.cbcnews.ca.

Cronkite, W. (2007) Media reform: Is it good for journalism? Keynote address, www.journalism.columbia.edu.

Fiske de Gouveia, P. (2005) *An African Al Jazeera? Mass Media and the African Renaissance*. Foreign Policy Centre, www.fpc.org.uk.

Khanfar, W. (2006) The Al Jazeera spirit. In *The Al Jazeera Decade: 1996-2006*, http://english.aljazeera.net/English/archive/archive?ArchiveId=38302.

Lippmann, W. (1922) *Public Opinion*. Free Press/Simon and Schuster.

Lynch, M. (2006) *Voices of the New Arab Public: Iraq, Al-Jazeera, and Middle East Politics Today*. Columbia University Press.

Miles, H. (2006) *Al Jazeera: How Arab TV News Challenged the World*. Abacus.

Moeller, S. (1999) *Compassion Fatigue: How the Media Sell Disease, Famine, War and Death*. Routledge, http://www.frameworksinstitute.org/products/fourhabits.pdf.

Newsweek (2007) Poll by Princeton Survey Associates International, 18-19 June. www.msnbc.msn.com/id/19390791/site/newsweek.

Pew Research Center for the People & the Press (2002) Public's news habits little changed by September 11. Pew Research Center for the People & the Press, http://people-press.org/reports/pdf/156.pdf.

Pew Research Center for the People & the Press (2007) Internet news audience highly critical of news organizations. http://people-press.org/reports/display.php3?ReportID=348.

Postman, N. (1986) *Amusing Ourselves to Death: Public Discourse in the Age of Show Business*. Methuen.

Project for Excellence in Journalism (2007) *Annual Report on American Journalism*. www.stateofthenewsmedia.org/2007.

Robinson, M. J. (2007) *Two Decades of American News Preferences*. Pew Research Centre for the People & the Press, http://pewresearch.org/pubs/574/two-decades-of-american-news-preferences.

Zayani, M. and Sahraoui, S. (2007) *The Culture of Al Jazeera: Inside an Arab Media Giant*. McFarland.

الفصل التاسع: أبطال محليون

Baker, R. (2007) Goodbye to newspapers? *New York Review of Books,* 54(13), http://www.nybooks.com/articles/20471.

Barry, D., Barstow, D., Glater, J. D. and Liptak, A. (2003) Times reporter who resigned leaves long trail of deception. *New York Times,* 11 May, http://www.nytimes.com/2003/05/11/national/11PAPE.html?ex=1367985600&en=d6f511319c259 463&ei=5007&partner=USERLAND.

Committee to Protect Journalists (2004) Iraq: Journalists in danger. http://www.cpj.org/Briefings/Iraq/Iraq_danger.html.

Little, A. (2006) Slobodan Milosovic's road to ruin. http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/europe/4819388.stm.

Thomson, M. (1994) *Forging War: The Media in Serbia, Croatia and Bosnia-Herzegovina*. Article 19, International Center Against Censorship.

الفصل العاشر: خوض المخاطر الصحيحة

AKE Group (2008) Surviving hostile regions. http://www.akegroup.com/shr.htm.

CNN (2003) Sadler: Shots fired at CNN crew in Tikrit. Cable News Network. http://www.cnn.com/2003/WORLD/meast/04/13/otsc.irq.sadler.

CNN (2004) 2 CNN employees killed in attack. Cable News Network, http://www.cnn.com/2004/WORLD/meast/01/27/sprj.nirq.cnn.casualties/index.html.

Committee to Protect Journalists (2006) http://www.cpj.org/deadly/index.html.

Committee to Protect Journalists (2007) Journalists killed in 2007. http://www.cpj.org/killed/killed07.html.

Cramer, C. (2002). We have a long way to go. In *Sharing the Front Line and the Back Hills: International Protectors and Providers, Peacekeepers, Humanitarian Aid Workers and the Media in the Midst of Crisis*, ed. Danieli, Y. Baywood for the UN.

International News Safety Institute (2007a) *Killing the Messenger: Report of the Global Inquiry by the International News Safety Institute into the Protection of Journalists*. INSI.

International News Safety Institute (2007b) *The INSI Safety Code*, http://www.newssafety.com/safety/index.htm.

International News Safety Institute (2007c) News deaths hit all-time high. INSI Brussels, 28 November, http://www.newssafety.com/stories/insi/insideaths281107.htm.

Loyd, A. (1999) *My War Gone By, I Miss It So*. Atlantic Monthly Press.

الفصل الحادي عشر: العواطف والصدمات النفسية والصحافة الرشيدة

American Psychiatric Association (2000) *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorder* (DSM-IV-R). American Psychiatric Association.

Brewin, C., Rose, S., Andrews, B., Green, J., McEvedy, C., Turner, S. and Foa, E. (2002) Brief screening instrument. *British Journal of Psychiatry* 181: 158-62, http://bjp.rcpsych.org/cgi/content/full/181/2/158.

Burdin, P. (2006) Journalism of Act II. Discussion at the Radio Dart Award Presentation and Discussion at the Frontline Club London, 5 June, http://www.dartcenter.org/articles/dart_center_events/act_II.html.

Herman, J. L. (2001) *Trauma and Recovery*. Rivers Oram Press.

Kessler, R. C. (1995) Epidemiology of psychiatric comorbidity. In *Textbook in Psychiatric Epidemiology*, eds. Tsuang, M., Tohen, M., and Zahner, G. Wiley-Liss.

NICE (2007) CG26 Post-traumatic stress disorder (PTSD): Full guideline (including appendices 1–13). http://guidance.nice.org.uk/CG26/guidance/pdf/English.

Self, M. (1999) *Tomorrow's Fish-and-Chips Paper: A View from the Survivor's Side*. Dart Center for Journalism & Trauma, http://www.dartcenter.org/articles/ personal_stories/self_mary.html.

قراءات إضافية مقترحة

American Psychiatric Association (2003) *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders* (v. IV-TR). American Psychiatric Association.

Feinstein, A. (2003) *Dangerous Lives: War, and the Men and Women Who Report It*. Thomas Allen.

Frei, C. (2002) *War Photographer*. DVD documentary film. Christian Frei Film Productions.

Furedi, F. (2004) *Therapy Culture: Cultivating Vulnerability in an Uncertain Age*. Routledge.

Goleman, D. (1997) *Emotional Intelligence*. Bloomsbury.

Heinl, P. (2001) *Splintered Innocence: An Intuitive Approach to Treating War Trauma*. Brunner Routledge.

Herman, J. L. (1993) *Trauma and Recovery: From Domestic Abuse to Political Terror*. Basic Books.

Hodgkinson, P. and Stewart, M. (1991) *Coping with Catastrophe*. Routledge.

Knightley, P. (2003) *The First Casualty: The War Correspondent as Hero, Propagandist, and Myth-Maker from the Crimea to the Gulf War II*. Andre Deutsch.

Lloyd, J. (2004) *What the Media Are Doing to Our Politics*. Constable and Robinson.

Lynch, J. and McGoldrick, A. (2005) *Peace Journalism*. Hawthorne Press.

Shay, J. (1994) *Achilles in Vietnam*. Touchstone

Simpson, R. and Cote, W. (2000) *Covering Violence: A Guide to Ethical Reporting About Victims and Trauma*. 2nd edition. Columbia University Press.

Steele, J. (2003) *War Junkie*. Corgi.

Tehrani, N. (2004) *Workplace Trauma*. Brunner Routledge.

Van der Kolk, B., McFarlane, A. C. and Weisaeth, L. (1996) *Traumatic Stress: The Effects of Overwhelming Experience on Mind, Body and Society*. Guildford Press.

مراجع إلكترونية

Committee to Protect Journalists, www.cpj.org.

Crimes of War Project, www.crimesofwar.org.

Dart Center for Journalism & Trauma, www.dartcenter.org.

David Baldwin's Trauma Information Pages, http://www.trauma-pages.com.

EMDR Institute, http://www.emdr.com.

European Society for Traumatic Stress Studies, www.estss.org.

Frontline Club, www.thefrontlineclub.com.

International News Safety Institute, www.newssafety.com.

International Society for Traumatic Stress Studies, www.istss.org; http://www.istss.org/terrorism/media.htm; http://www.istss.org/publications/stresspoints.htm.

National Institute for Clinical Excellence (on PTSD treatment guidelines), http://www.nice.org.uk/page.aspx?o=57890.

Poynter Institute, www.poynter.org.

Project for Excellence in Journalism, www.journalism.org.

Traumatic Stress Clinic, http://www.cimhscaretrust.nhs.uk/pages/go.asp?pageID=511&Path=4&Parent=287.072&instance=451.

UK Trauma Group, http://www.uktrauma.org.uk/ukservcs.html.

الفصل الثاني عشر: صحافة المواطن

Ahlers, D. (2006) News consumption and the new electronic media.*Harvard International Journal of Press/Politics* 11(1): 29–52, http://www.ksg.harvard.edu/presspol/research_publications/papers/research_papers/R26.pdf.

Dear, P. (2006) Images of 7 July: Tunnel horror. BBC Online, http://news.bbc.co.uk/1/hi/uk/5102860.stm.

Garcia, M. (2007) Speech at the WAN/WEF conference, Cape Town, June.

Gillmor, D. (2006) *We the Media: Grassroots Journalism by the People, for the People*. O'Reilly Media, http://wethemedia.oreilly.com.

Grim, E. (1875–85) Vita S. Thomae, Cantuariensis archepiscopi et martyris. In *Materials for the Life of Thomas Becket*, vol. II, ed. Robertson, J. Rolls Series.

Heyward, A. (2004) CBS statement on Bush memos. CBS Broadcasting, http://www.cbsnews.com/stories/2004/09/20/politics/main644539.shtml.

Jarvis, J. (2006) The definition of networked news. http://www.buzzmachine.com/2006/09/08/the-definition-of-networked-news.

Levine, R., Locke, C., Searls, D. and Weinberger, D. (1999) *The Cluetrain Manifesto*. Perseus, http://www.cluetrain.com.

MacKinnon, R. (2006) Speech at the 'We Media' conference, May, Reuters London.

Maher, V. J. (2006) Bloggers investigation ousts Swedish minister for foreign trade. www.poynter.org/column.asp?id=31&aid=112322.

Minnesota Public Radio (2007) Public insight network. http://minnesota.publicradio.org/publicinsightjournalism.

North, R. (2005) Coming together as a city. 7 July, http://news.bbc.co.uk/1/hi/uk/4670099.stm#thursday.

Ofcom (2007) *New News, Future News*. Ofcom.

Orwell, G. (1948) Introduction. In *British Pamphleteers*, vol. 1, eds. Orwell, G. and Reynolds, R. Allan Wingate.

Pax, S. (2003) I became the profane pervert Arab blogger. Guardian Unlimited, 9 September, http://www.guardian.co.uk/Iraq/Story/0,2763,1038253,00.html.

Pew Research Center (2000) *Internet Sapping Broadcast News Audience*. Pew Research Center.

Rather, D. (2005) Dan Rather statement on memos. 20 September, www.cbsnews.com/stories/2004/09/20/politics/main644546.shtml.

Rosen, J. (2006a) Welcome to NewAssignment.Net? 19 August http://newassignment.wordpress.com.

Rosen. J. (2006b) Introducing NewAssignment.Net. Department of Journalism, New York University, http://journalism.nyu.edu/pubzone/weblogs/pressthink/2006/07/25/nadn_qa.html.

Skoler, M. (2004) Interview with Leonard Witt. Public Journalism Network PJnet.org, http://pjnet.org/post/111.

Williams, J. (2006) Citizen newsgathering. 20 October, http://www.bbc.co.uk/blogs/theeditors/jon_williams.

الفصل الثالث عشر: العمل في ظل الإعلام الجديد

Godwin, M. (1990) Quoted in 'Meme, counter-meme'. *Wired,* http://www.wired.com/wired/archive/2.10/godwin.if_pr.html.

Hammersley, B. (2007) New frontiers in journalism. 27 June, http://news.bbc.co.uk/1/hi/in_depth/europe/2007/webreporter_turkey.


هنداوي